

تأليف قاضي القضاة

عماد الدين أبي الحسن عبد الجبار بن أحمد

المتوفى عام ٤١٥ هـ

الناشر

المكتبة الأزهرية للتراث

٩ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر الشريف

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

ابن احمد ، عماد الدين أبي الحسن عبد الجبار
تنزيه القرآن عن المطاعن / تأليف عماد الدين أبي
الحسن عبد الجبار بن احمد . ــ ط 01 ــ .
القاهرة : المكتبة الأزهرية للتراث ، 2006 .
ص ؛ 24 سم
تدمك : 5 139 315 977
1- القرآن ، دفع مطاعن
أ ــ العنوان
رقم الإيداع : 23071
تاريخ : 2006/11/29

216.2



مقدمة الكتاب

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه .

(أمـا بعـد)

فهذا كتاب (تنزيه القرآن عن المطاعن) لمؤلفه القاضى عماد الدين عبدالجبار ابن أحمد بن عبدالجبار الهمدانى الإسترآبادى الشافعى المعتزلى المتوفى سنة (٤١٥) خمس عشرة وأربعمائة .

وقد قمنا بتصحيح المطبوع على نسخة مخطوطة كانت مودعة بدار الكتب المصرية تحت رقم (٣٣٠) - تفسير، وهى نسخة من إملاء القاضى نفسه كما هو مكتوب على ظاهر النسخة .

فقمنا بإثبات الاختلافات فى أكثر المواضع بين المطبوع والمخطوط حرصًا على إخراج الكتاب فى صورةٍ أفضل، والله المستعان، وعليه التكلان، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه والتابعين .

مكتب الروضة الشريفة للبحث العلمى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على نعمه واحسانه في الدين والدنيا وصلواته على محمد وآله
الطيبين. اما بعد فان اولى ما يتكلفه المرء في اثاره العلوم ما يعظم النفع به
في دينه ودنياه فيعرف كيف يتعبد الله في الصلوة والصيام وغيرهما من الفرائض والقربات
وبالانقطاع اليه وكل ذلك لا يتم الا بمعرفة معاني القرآن وما يورد في ادعيته من
الاسماء الحسنى اما مفصلا واما على الجملة فانه تعالى قد اودع القرآن من المواعظ والزواجر
وغيرهما ما اذا تأمله المرء وقعت به الكفاية. وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله
انه قال لعلي بن ابي طالب عليه السلام وقد حذره عن اختلاف الامة بعده عليكم بكتاب الله
فان فيه نبأ من قبلكم وخبر من بعدكم وحكم ما بينكم من يدعه من جبار قصمه الله ومن
يتبع الهدى في غيره اضله الله وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم والصراط المستقيم هو الذي
لما سمعته الجن لم يتناهوا ان قالوا انا سمعنا قرآنا عجبا يهدي الى الرشد هو الذي لا
تختلف به الالسنة ولا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه. ومعلوم انه لا ينتفع
به الا بعد الوقوف على معاني ما فيه وبعد الفصل بين المحكم ومتشابهه فكثير من الناس
تشابه قد ضل بان تمسك حتى اعتقد بان قوله تعالى يسبح لله ما في السموات وما في الارض
حقيقة في الحجر والمدر والطير والنعم ولم يتدبروا في ذلك تسبيح كل شيء من ذلك و
من اعتقد ذلك لم ينتفع بما يتلوه ولذلك قال تعالى افلا يتدبرون القرآن ووصفه تعالى بانه
[illegible] له تعالى. وقد املينا في ذكر
ذكر المتشابه ومعانيها

صورة الصفحة الأولى من المخطوط

صورة الصفحة الثانية من المخطوط

صورة الصفحة الأخيرة من المخطوط



مقدمة المؤلف

الحمد لله على نعمه وإحسانه فى الدين والدنيا، وصلواته على محمد وآله الطيبين .

(أمـا بعـد)

فإن أولى ما يتكلفه المرء فى إثارة العلوم ما يعظم النفع به فى دينه ودنياه، فيعرف كيف يعبد ربه فى الصلاة والصيام وغيرهما، (وذلك بقراءة)[1] القرآن وبالانقطاع إلى الله، وكل ذلك لا يتم إلا بمعرفة معاني ما يقرءه وما يورده في أدعيته من الأسماء الحسنى، إما مفصلاً وإما على الجملة، فإنه تعالى قد أودع القرآن من المواعظ والزواجر وغيرهما ما إذا تأمله المرء وقعت به الكفاية .

وقد روى عن النبي ﷺ أنه قال لعليّ بن أبي طالب ـ عليه السلام ـ وقد حذره عن اختلاف الأمة بعده : «**عليكم بكتاب الله، فإن فيه نبأ من قبلكم، وخبر من بعدكم، وحكم ما بينكم، ما يدعه من جبار إلا قصمه الله، ومن يتبع الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وأمره الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذى لما سمعه الجن لم يتناهوا أن قالوا : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ ﴾[الجن:١-٢] هو الذي لا تختلف به الألسنة، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضى عجائبه**» .

ومعلوم أنه لا ينتفع به إلا بعد الوقوف على معاني ما فيه، وبعد الفصل بين (محكمه) ومتشابهه، فكثير من الناس قد ضل بأن تمسك بالمتشابه حتى اعتقد بأن قوله تعالى : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾[الحشر:١] حقيقة في الحجر

---

(١) فى النسخة المخطوطة : (ولقراءة) .

والمدر والطير والنعم، وربما رأوا في ذلك تسبيح كل شيء من ذلك، ومن اعتقد ذلك لم ينتفع بما يقرءه .

ولذلك قال تعالى : ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ ﴾[النساء:٨٢] وكذلك وصفه تعالى بأنه ﴿ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[الإسراء:٩] وقد أملينا في ذلك كتاباً يفصل بين المحكم والمتشابه، عرضنا فيه سور القرآن على ترتيبها، وبينا معاني ما تشابه من آياتها، مع بيان وجه خطأ فريق من الناس فى تأويلها ليكون النفع به أعظم، ونسأل الله التوفيق للصواب إن شاء الله .

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ [الفاتحة:١] معنى بسم الله : الابتداء به تبركاً والاستعانة فى كل أمر مهم، ومعنى الله أن العبادة به تليق دون غيره، لأنه الخالق والمنعم بسائر النعم، ومعنى الرحمن : المبالغة فى الإنعام العظيم الذي لا يقدر عليه إلا الله تعالى، ومعنى الرحيم : المبالغة في الإكثار من الرحمة والنعمة، وقد يوصف بذلك غيره أيضًا.

[مسألة] قالوا : ما وجه الابتداء ببسم الله ؟ وهلا قيل : بالله الرحمن الرحيم فالاستعانة بالله تقع، لا باسمه .

وجوابنا : أن الأمر كما قالوا، لكنه ذكر اسمه وأريد هو على وجه الإعظام، وهذا كقوله تعالى : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ ﴾[الأعلى:١] فأمر بتنزيه اسمه وأريد[1] تنزيهه عما لا يليق به، لكنه ذكر الاسم تعظيمًا له، وهذا كما يقال : صلوات الله على ذكر النبي ﷺ .

[مسألة] قالوا : فما وجه ذكر هذه الأسماء الثلاثة دون غيرها ؟. قيل له : إنما[2] ذكر الله لأن المكلف قد اختص بأن لزمته عبادته، وهو الذي يعرف أنواع نعمه، وذكر الرحمن الرحيم لأنه لأجل ذلك استحق العبادة .

(١) فى الأصل المطبوع : (وأراد) وما أثبته من النسخة المخطوطة . ا هـ . مصححه .

(٢) لفظة (إنما) غير موجودة فى الأصل المطبوع، وأثبتها من النسخة المخطوطة . ا هـ . مصححه .

سورة الحمد

معنى الحمد لله : الشكر لله، وكيف نشكره، فعلمنا تعالى ذلك .

[مسألة] قالوا : الحمد لله خبر، فإن كان حمد نفسه فلا فائدة لنا فيه، وإن أمرنا بذلك فكان يجب أن يقول : **قولوا**[1] **الحمد لله** .

وجوابنا عن ذلك أن المراد به الأمر بالشكر والتعليم لكى نشكره، لكنه وإن حذف الأمر فقد دل عليه بقوله : ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ [الفاتحة:٥] لأنه لا يليق بالله تعالى، وإنما يليق بالعباد، فإذا كان معناه قولوا : ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ** ﴾[الفاتحة:٥] فكذلك قولوا : ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ** ﴾ [الفاتحة:٢] وهذا كقوله : ﴿ **وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلامٌ عَلَيْكُم** ﴾ [الرعد:٢٣-٢٤] معناه : ويقولون ﴿ **سَلامٌ عَلَيْكُمْ** ﴾[الأنعام:٥٤] ومثله كثير في القرآن .

[مسألة] وربما قالوا : لماذا أعاد ﴿ **الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ** ﴾ [الفاتحة:٣] وقد تقدم من قبل ؟

وجوابنا أن ذلك ليس بتكرار؛ لأن المراد بالأول هو توكيد الاستعانة، والمراد بالثاني توكيد الشكر له، فلذلك كرر .

[مسألة] قالوا : ما معنى قوله : ﴿ **مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ** ﴾ [الفاتحة:٤] ويوم الدين ليس بموجود حالاً ؟ وكيف يملك المعدوم ؟ وما فائدة ذلك ؟

---

(١) غير موجودة بالأصل المطبوع، وأثبتها من النسخة المخطوطة .

وجوابنا : أن المراد القادر على (ذلك اليوم) الذي فيه الجنة على عظم شأنها والنار على عظم أمرها، وفيه المحاسبة والمساءلة، فنبه تعالى بذلك على أنكم إن شكرتم وقمتم بالواجب فلكم من الفوز في الآخرة بالثواب نهاية ما تتمنون، فصار ذلك ترغيبًا في الشكر والعبادة وزجرًا عن خلافه .

وإذا قرئ «مَالِكِ» فالمراد به : القدرة على يوم الدين، وإذا قرئ «ملك» فالمراد به القدرة على العباد الذين يتصرف تعالى فيهم بما يوجب الانقياد له .

[مسألة] قالوا : ما معنى : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة:٦] وعندكم أن الله تعالى قد هدى الخلق بالأدلة والبيان فما وجه هذا الطلب والدعاء ؟

وجوابنا عن ذلك أنه تعالى وإن مكن وأقدر المكلف ففي قدرته تعالى من زيادة البيان والأدلة والألطاف والعصمة ما ينتفع به العبد إذا أمده بها، والعبد يجوّز ذلك فيطلبه، وهذا كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى ﴾ [محمد:١٧] فأمر تعالى العبد أن ينقطع إلى الله تعالى فيقول : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ [الفاتحة:٥] وأن لا يكذب في ذلك فيكون مراده بالصلاة الرياء والسمعة، وأن لا يستعين إلا بالله تعالى، وأن يستمد من جهته الألطاف والمعونة على الصراط المستقيم الذي هو دينه وطريقة من أنعم الله عليه، لا طريقة الكفار الذين ضلوا فغضب الله عليهم .

سورة البقرة

[مسألة] قالوا : ما الفائدة في قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ ﴾[البقرة:١] ولا يعقل من ذلك في اللغة فائدة ؟ وكيف يجوز ذلك والقرآن عربي والعرب لا تعرف ذلك ؟.

وجوابنا : أن الله تعالى جعل ذلك اسما للسورة، وعلى هذا الوجه يقال : سورة ﴿قٓ﴾ و﴿حمٓ﴾ السجدة وسورة حم . عسق وسورة (طه)، ولله تعالى أن يجعل لهذه السورة اسما، وهذا مروي عن الحسن البصري وغيره .

ومتى قيل : فقد حصل في ذلك اشتراك، ولا بد من ضم زائدة إليه، فلا فائدة إذًا في ذلك .

فجوابنا : أن الألقاب كزيد وعمرو يقع فيها أيضًا الاشتراك ثم تمييزها بزيادة، وقيل أيضًا في جوابه : إن فائدة ذلك أن القرآن مؤلف من هذه الحروف التي تقدرون عليها «ومع» ذلك يتعذر عليكم هذا النظم بفضل رتبته، فاعلموا أنه معجز .

[مسألة] ومتى قيل : ولماذا قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ ﴾ [البقرة:٢] ولم يقل: هذا الكتاب ؟

فجوابنا : أنه جل وعز وعد رسوله إنزال كتاب عليه لا يمحوه الماء، فلما أنزل ذلك قال : (ذَٰلِكَ الْكِتَابُ) والمراد : ما وعدتك، ولو قال : هذا الكتاب لم يفد هذه الفائدة .

[مسألة] قالوا : ما معنى : ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [البقرة:٢] وقد علمتم أن خلقًا يشكون في ذلك، فكيف يصح ذلك ؟ وإن أراد : لا ريب فيه عندي وعند من يعلم فلا فائدة في ذلك .

فجوابنا : أن المراد أنه حق يجب أن لا يرتاب فيه، وهذا كما يبين المرء الشيء لخصمه، فيحسن منه بعد البيان أن يقول : هذا كالشمس واضح، وهذا لا يشك فيه أحد، وهذا كما يقال عند إظهار الشهادتين : إن ذلك حق وصدق وإن كان في الناس من يكذب بذلك .

[مسألة] قالوا : لماذا قال تعالى : ﴿ **هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ** ﴾[البقرة:٢] والهدى عندكم الدلالة، وهو دلالة للكل، فلماذا خص المتقين دون غيرهم ؟ هلا دل ذلك على أن الهدى هو نفس الإيمان ؟

فجوابنا : أنه تعالى قد بين في غير موضع أن القرآن هدى للناس، فعم الكل، وإنما خص المتقين ههنا من حيث اختصوا بقبوله، وهذا كقوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا** ﴾[النازعات:٤٥] فخصهم من حيث يخشون عند الإنذار وإن كان ﷺ كان منذرًا للكل كما قال تعالى : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا** ﴾[سبأ:٢٨] وقد ثبت أن ذكر الواحد لا يدل على أن غيره بخلافه .

[مسألة] يقال : ما معنى قوله : ﴿ **الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ** ﴾ [البقرة:٣]؟ ما الغيب الذي مدحهم بالإيمان ؟ به أوَ لستم تقولون : (لا يَعْلَمُ الغَيْبَ إلاَّ اللَّهُ) ؟.

وجوابنا : أن هذا الغيب يراد به : الغائبات التي قام الدليل على صحتها كأمر الآخرة والجنة والنار والملائكة والحساب، فمدح المتقين ووصفهم بأنهم يؤمنون بذلك ﴿ **وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ** ﴾ [البقرة:٣] أي يديمون عليها ويؤدونها بحقها ﴿ **وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** ﴾ [البقرة:٣] على وجه البر، ولا ينفقون من الحرام الذي جعله الله رزقًا لغيرهم فغصبوه، ثم قال : ﴿ **وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ** ﴾[البقرة:٤] حتى يؤمنوا بكل الرسل ولا يفرّقون بينهم ﴿ **وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ** ﴾ [البقرة:٤] فلا يدخلهم شبهة في ذلك، ثم بين أن هؤلاء هم المفلحون الظافرون بثواب الله، فدل بذلك على أن الثواب إنما يكون بهذه الطريقة، ورغب فى التمسك بها، وزجر عن خلافها، وقد قيل في جوابه أن المراد أنهم يؤمنون بظهر الغيب باطناً كما يؤمنون ظاهراً، وهذا أيضًا حسن .

[مسألة] يقال: ما معنى قوله: ﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾[البقرة:٥] ومعلوم أن الهدى إن كان دلالة فكل المكلفين فيه سواء، فهلا دل ذلك على أنه نفس الإيمان ؟

فجوابنا : أن المراد أنهم على بصيرة مما تعبدهم به، وتقبل الهدى يسمى هدى، كما أن الجزاء على الامتثال للدلالة يسمى هدى، وهذا كقوله تعالى فى أهل النار أنهم قالوا : ﴿ لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا ﴾ [إبراهيم:٢١] وأرادوا بذلك النعيم والثواب.

[مسألة] يقال : ما معنى قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة:٦] ومعلوم أن في الكفار من قرأه وآمن ؟

فجوابنا : أنه أراد قوماً من الكفار مخصوصين في أيامه ﷺ علم الله تعالى أن الصالح أن يخبر الرسول بأمرهم لكيلا يتشدد في استدعائهم ولا يغتم ببقائهم على الكفر، وذلك كقوله تعالى:﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ * إِلاَّ مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾[الغاشية:٢٢-٢٣] وهذا من العموم الذي يراد به الخصوص . **وربما سألوا** فقالوا : إذا كان قد أخبرنا بأنهم لا يؤمنون فكيف كلفهم ؟ وكيف يقدرون على الإيمان الذي لو فعلوه لكان تكذيباً لخبر الله تعالى ؟

فجوابنا : أن ذلك إنما يدل على أنهم لا يؤمنون اختيارًا وإن قدروا عليه، فلذلك ذمهم، وقد يقدر القادر على ما لا يختاره، كما أنه تعالى يقدر على إفناء الدنيا في هذا الوقت وإن كان لا يختاره ، ولو كان إيمانهم إذا قدروا عليه قدروا على تكذيب الله لكان الله تعالى إذا قدر على إقامة القيامة الآن وقد أخبر بأنه لا يقيمها إلا بعد علامات أوجب أن يكون قادراً على تكذيب الله، وكان يجب إذا قدر على الضدين وإنما يفعل أحدهما أن يكون قادراً على تجهيل نفسه، وهذا كلام من لا يعرف التكذيب والتجهيل، وذلك أن التجهيل ما يصير به المرء جاهلاً دون غيره، والتكذيب ما يصير به كاذباً أو يتبين ذلك من حاله دون غيره .

[مسألة] في ذلك أيضاً يقال : إذا كان قد علم أنهم يكفرون فلماذا حسن أن يكلفهم مع علمه بأنهم لا يختارون إلا ما يؤديهم إلى النار ؟

وجوابنا : أنه إنما علم أنهم لا يختارون الإيمان مع تمكنهم من اختياره وتسهيله سبيلهم إلى اختياره بكل وجه، فإنهم إنما يؤتون من قبل أنفسهم، وأنهم لو اختاروا الوصول إلى ثواب عظيم لصح ذلك منهم، ويفارق حالهم حال من منع من الإيمان، وإنما يقبح ذلك على مذهب من يقول : إنه تعالى يخلق فيهم هذه الأفعال من المجبرة .

[مسألة] قالوا : فقد قال تعالى : ﴿ **خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ** ﴾ [البقرة:٧] وهذا يدل على أنه قد منعهم من الإيمان، ومذهبكم بخلافه، وكيف تأويل الآية ؟

وجوابنا : أن للعلماء في ذلك جوابين : أحدهما أنه تعالى شبه حالهم بحال الممنوع الذي على بصره غشاوة من حيث أزاح كل عللهم فلم يقبلوا، كما قد تعين للواحد الحق فتوضحه، فإذا لم يقبل صح أن تقول : إنه حمار قد طبع الله على قلبه، وربما تقول : إنه ميت ، وقد قال تعالى للرسول : ﴿ **إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى** ﴾ [النمل:٨٠] وكانوا أحياء فلما لم يقبلوا شبههم بالموتى، وهو كقول الشاعر :

لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادى

ويبين ذلك أنه تعالى ذمهم، ولو كان هو المانع لهم لما ذمهم، وأنه ذكر في جملة ذلك الغشاوة على سمعهم وبصرهم، وذلك لو كان ثابتاً لم يؤثر في كونهم عقلاء مكلفين .

والجواب الثاني أن الختم علامة يفعلها تعالى في قلبهم لتعرف الملائكة كفرهم وأنهم لا يؤمنون فتجتمع على ذمهم، ويكون ذلك لطفاً لهم ولطفاً لمن يعرف ذلك من الكفار أو يظنه، فيكون أقرب إلى أن يقلع عن الكفر، وهذا جواب الحسن ـ رحمه الله ـ ولذلك قال تعالى : ﴿ **وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ [البقرة:٧] .

[مسألة] يقال : كيف يجوز أن يقول : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ** ﴾ [البقرة:٨] وذلك يدل على الماضي ثم ينفي بعد ذلك بقوله : ﴿ **وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ** ﴾ [البقرة:٨] ؟

فجوابنا : أنه أراد تعالى المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، وقص تعالى خبرهم لعظم مضرتهم في ثلاث عشرة آية، كما أنه ذكر صفة المؤمنين في أربع آيات، وصفة الكفار في آيتين، فقد كانت مضرتهم أعظم في أيام الرسول ﷺ فكشف تعالى بذلك حالهم لئلا يغتر بهم، ولكي يتحرز من مخالطتهم، ودل بذلك على أن إظهار الإيمان ليس بإيمان، وأن المعتمد على ما في القلب من المعرفة، وعلى هذا الوجه قال ﷺ : « **الإيمان قول باللسان ومعرفة بالقلب وعمل بالجوارح** » .

[مسألة] يقال : كيف قال تعالى : ﴿ **يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ [البقرة:٩] ومعلوم أن الخداع منهم وإن جاز على المؤمنين الذين لا يعرفون باطنهم فلا جائز على الله تعالى، فكيف جاز أن يقول ذلك ؟

وجوابنا : أن فعلهم لما كان فعل المخادع قال تعالى ذلك وإن لم يكن خداعاً لله في الحقيقة، ولذلك قال تعالى بعده : ﴿ **وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ** ﴾ [البقرة:٩] لأن الذي فعلوه عاد بأعظم الضرر عليهم من حيث ينالهم ذلك بغتة وهم لا يشعرون .

[مسألة] إن قيل : ما معنى قوله تعالى : ﴿ **فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً** ﴾ [البقرة:١٠] والمراد : في قلوبهم كفر ونفاق فزادهم الله ذلك أوَمَا يدل على أن الكفر من خلق الله ومن قبله ؟

فجوابنا : أنه تعالى ذكر المرض ولم يذكر الكفر، فحمله على أن المراد به الكفر غلط، فالمراد بذلك أن في قلوبهم غماً وحسدًا على ما يخص الله تعالى به الرسول ﷺ وأصحابه، فقد كانوا يغتاظون ويعظم غمهم، ثم قال تعالى : ﴿ **فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً** ﴾ [البقرة:١٠] أي غماً بما يفعله بالرسول ويجدده له من المنزلة حالاً بعد حال فقول من قال بحمله على الكفر غلط عظيم، ولذلك قال : ﴿ **وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [البقرة:١٠] فإن كان الله تعالى خلق ذلك فيهم كما خلق لونهم وطولهم فأيّ ذنب لهم حتى يعذبهم ؟ وكيف يضيف إليهم فيقول : ﴿ **بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ** ﴾ [البقرة:١٠]؟ وعلى هذا وصفهم تعالى بأنهم مفسدون في الأرض، وأنهم السفهاء بعد ذلك، وأنهم ﴿ **وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ** ﴾ [البقرة:١٤] .

[مسألة] قالوا : كيف وصف تعالى نفسه بالاستهزاء فقال : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [البقرة:١٥] ؟

فجوابنا : أن الاستهزاء لا يجوز على الله تعالى لأنه فعل مخصوص يفعله من لا يمكنه التوصل إلى مراده إلا بهذا الجنس، فتعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، وإنما أراد بذلك أنه يعاقبهم ويجازيهم على استهزائهم، كما قال تعالى :﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى:٤٠] ﴿ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ ﴾ [البقرة:١٩٤] وما يفعله الله تعالى لا يكون سيئة ولا اعتداء، ويقول العرب : الجزاء بالجزاء، والأول ليس بالجزاء، وقال ﷺ : «**أدّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك**» وإنما أجرى اللفظ على جزاء الاستهزاء مجازًا واتساعاً . فإن قيل : فما معنى قوله تعالى : ﴿ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [البقرة:١٥]؟ أفتجوزون على الله تعالى أن يمدهم في كفرهم وأن يريد ذلك ؟

وجوابنا : أنه تعالى أراد : يمدهم في جزاء طغيانهم لا نفس طغيانهم، ويحتمل أن يكون ذلك عاقبة أمرهم في ذلك لقلة قبولهم، ويكون ذلك مآل أمرهم، وعلى هذا الوجه ذمهم بقوله : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى ﴾ [البقرة:١٦] فالمراد بقوله : ﴿ وَيَمُدُّهُمْ ﴾ [البقرة:١٥] أنه يبقيهم وهذا حالهم، ويبين تعالى ذلك بأن ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ [البقرة:١٧] فإن ظلمة المكان وقد كان فيه الضياء ثم فقد أعظم من الظلمة الدائمة .

[مسألة] إن قيل : كيف يصح أن يقول تعالى : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ﴾ [البقرة:١٨] ولم يكونوا كذلك في الحقيقة ؟

فجوابنا : إنه تعالى شبه حالهم من حيث لم ينتفعوا بما يسمعون ويبصرون ويقولون بحال من هذا وصفه، وذلك بين في اللغة فيمن لم يقبل ولا ينتفع، والبيان : أنه يوصف بذلك على ما قدمنا من أنه ربما يوصف بأنه ميت، وبأنه بهيمة، وبأنه حمار، وقد تقدم ذكر ذلك .

وعلى هذا الوجه يقال : حُبُّك للشيء يعمي ويصم، والمراد : يصيره إلى رتبة الأعمى والأصم في أنه لا ينتفع ويتعدى وجه الصواب .

[مسألة] فإن قيل : كيف يقول تعالى : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾ [البقرة:١٩] ولفظة (أو) يستعملها من شك في الأمور دون العالم ويتعالى الله عن هذا (الوصف) [1] ؟

(فجوابنا) : أنه تعالى كما يجوز أن يمثلهم بشيء، يجوز أن يمثلهم بشيء آخر في باب الضلالة، وليس المراد إلا الجمع بين الأمرين، وقد يقال لفظة أو فيما طريقة الجمع في ذلك، كقوله تعالى : ﴿ أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ ﴾ [النور:٦١] أراد الجمع، وكذلك قوله : ﴿ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ ﴾ [النور:٣١] أراد الجمع، وقد يقال : جالس الحسن أو ابن سيرين، والمراد الجمع، وإذا جاز في الواو أن يراد به معنى «أو» كقوله تعالى : ﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ ﴾ [النساء:٣] فكذلك يجوز أن يذكر «أو» ويراد به الجمع .

[فصل] ثم إنه تعالى بعد وصف المنافقين يحث المكلفين على عبادته فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُم لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:٢١] ولا يصح أن يقول ذلك إلا مع الأمر بمعرفة الله تعالى ليصح أن يعبد، ومع إقامة الدلالة التي يصل بالنظر فيها إلى معرفة الله تعالى، وذلك دلالة ما نبه عليه بقوله : ﴿ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُم ﴾[البقرة:٢١] ونبه بذلك على أن العبادة إنما تليق به لأنه خالقنا والمنعم علينا، ونبه بذلك على بطلان التقليد لأنه لا يصح أن يكون طريقاً لمعرفته، ونبه بذلك على أنه ليس بجسم وأنه إنما يعرف بفعله وخلقه .

[مسألة] إن قيل : فما معنى قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[البقرة:٢١] ولعل إنما يستعمله المتكلم بمعنى الشك ؟

فجوابنا : أن المروى عن ابن عباس والحسن أن لعل وعسى من الله واجب، فالمراد : لكي تتقوا ولكي تشكروا وتفلحوا، وذلك أحد ما يدلنا على أنه تعالى لا يريد من المكلف إلا الطاعة التي هي التقوى والشكر وما شاكل ذلك، وعلى هذا الوجه قال الله تعالى لموسى وهارون صلى الله عليهما وسلم : ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ

---

(١) في الأصل المطبوع : الوضع، وما أثبته من النسخة المخطوطة . ا هـ . مصححه .

يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ [طه:٤٤] لأنه أراد بذلك تذكره وخشيته، وهو الذي يفهم في اللغة، وإذا ذكر في غير ذلك فهو مجاز . وقد أجاب بعض العلماء بأن المخاطب إذا كان لا يعلم هل يختار ذلك أو لا يختاره صح من المخاطب أن يخاطبه بذلك ليترجاه، فمن حيث كان المخاطب مترجيًا غير قاطع جاز أن يخاطب بذلك، فأمر تعالى بعبادته ثم قال في آخره : ﴿ فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَاداً ﴾ [البقرة:٢٢] وهذا هو معنى الإخلاص، أي اعبدوه ووحدوه، ثم نبه على وجوب الاعتراف بنبوة محمد ﷺ فقال : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ [البقرة:٢٣] فقد أوتيتم الفصاحة التامة فإن كان غير صادق ولكم الحمية والأنفة وقد ألزمكم طاعة الله والانقياد فما الذي يقعدكم عن أن تأتوا بمثله ؟ وهلا دل قعودكم عن ذلك على أن القرآن معجز يدل على صدقه في النبوة ؟ وبين أنهم كما لا يأتون بمثله فكذلك حالهم أبداً بقوله : ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا ﴾ [البقرة:٢٤] .

[مسألة] يقال : لم قال تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ [البقرة:٢٧]؟ وكيف تكون الحجارة وقوداً ؟ وكيف يصح في الناس أن يكونوا وقوداً لها وهم لا يحترقون ؟

فجوابنا : أنه تعالى نبه على عظمها، وأنها كذلك تحترق بالحجارة، وليس إذا كان الناس وقودها وجب أن يفنوا لأنه تعالى يمنع وصول النار إلى المقاتل، وإنما تحترق ظواهرهم كما قال عز وجل : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا ﴾ [النساء:٥٦] ـ أعاذنا الله منها بالتقوى .

[مسألة] قالوا : فقد قال تعالى في هذه النار : ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة:٢٤] فهلا دل على أن غير الكفار لا يدخلونها ؟.

فجوابنا : أن للنيران دركات، فهذا صفة واحدة منها، وبعد فليس إذا ذكر الله تعالى أنها معدة للكافرين دل على نفي غيرهم، وعقب ذلك بقوله : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ﴾ [البقرة:٢٥] وبين أن لهم فيها أزواجًا مطهرة من الأمور التى ربما يُنْفَر فى دار الدنيا منها من ضروب ما يُتَأَذَّى به .

[مسألة] إن قيل : فما معنى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ [البقرة:٢٦] ؟

فجوابنا : أنه تعالى لما ضرب مثل آلهتهم بالذباب ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ [الحج:٧٣] وضرب أيضاً مثلهم بالعنكبوت وضعف نساجته قال الكفار طعناً في ذلك : كيف يضرب تعالى مثل آلهتنا بهذه المحقرات ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية وأراد أنه إنما يضرب المثل بما هو أليق بالقصة وأصلح في التشبيه، فإذا ضرب مثلهم في باب الضعف كان ذكر الحقير في المنظر من الحيوان أحسن موقعاً، ومعنى قوله : ﴿ بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ [البقرة:٢٦] أي في الصغر والضعف، وعجائب الحكمة في البعوضة وصغار الحيوان أزيد من عجائبهم في كبار الحيوان لمن تأمل .

[مسألة] قالوا : فقد قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً ﴾ [البقرة:٢٦] وذلك يدل على أنه تعالى يضل ويهدي لا كما تقولون بأنه تعالى لا يجوز عليه ذلك ؟

« قلنا »: إنا إنما ننكر أن يضل تعالى عن الدين بخلق الكفر والمعاصي وإرادتها كما ننكر أن يأمر بها ويُرَغِّب فيها، ولا ننكر أن يضل من استحق الضلال بكفره وفسقه، وقد نص الله تعالى على ما نقوله ودل عليه في تفسير هذه الآية لأنه قال:﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الفَاسِقِينَ﴾[البقرة:٢٦] فنبه بذلك على أن قوله : «يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً» أراد به : يضل بالكفر به كثيرًا وإلا (كان لا) [1] يكون لقوله : ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الفَاسِقِينَ ﴾ [البقرة:٢٦] معنى ؛ لأن غير الفاسقين يضلهم على قول القوم، ثم إنه تعالى وصف من يضله فقال : ﴿ الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ ﴾ [البقرة:٢٧] فبين تعالى أنه يضلهم بهذه الخصال، لا أنه يبدؤهم بالضلالة .

---

(١) ما بين القوسين أثبته من النسخة المخطوطة . ا هـ . مصححه .

وعلى هذا الوجه قال : ﴿ فَرِيقاً هَدَى ﴾[الأعراف:٣٠] أي إلى الثواب ﴿ وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ ﴾ [الأعراف:٣٠] وبين كيف حق ذلك فقال : ﴿ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾[الأعراف:٣٠] وعلى هذا الوجه قال : ﴿ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ﴾ [إبراهيم:٢٧] فخصهم بذلك وقال : ﴿ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ [التغابن:١١] أي بالثواب وقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ﴾ [يونس:٩] وقال : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى ﴾[محمد:١٧] وقال : ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ [الكهف:١٣] أي بالألطاف والتأييد، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ﴾ [الليل:١٢] أي بالأدلة، وقال : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى:٥٢] أي بالأدلة وقال : ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴾ [غافر:٣٤] وقال تعالى : ﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي ﴾ [الأعراف:١٧٨] أي بقبوله لذلك، وقال : ﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا ﴾[الإسراء:٤٨] وذم تعالى الشيطان وفرعون والسامريّ بما كان منهم من الضلال.

فالإضلال من الله تعالى مخالف لإضلالهم، لا كما يقوله المجبرة والقدرية الذين يضيفون تقدير الفواحش إلى ربهم، فنقول : إنه تعالى هدى الخلق بالأدلة والبيان، ويهدي من آمن بالثواب خاصة، ويهديهم أيضاً بالألطاف .

ونقول : إنه يضل من استحق العقاب بالمعاقبة، وبأن يعدلهم عن طريق الجنة وبأن لا يفعل بهم من الألطاف ما ينفعهم، ولا نقول : إنه يضل عن الدين بأن يخلق الضلال فيهم، ولا أن يريده ولا أن يدعوهم إليه، لأن ذلك هو الذي يليق بالشياطين والفراعنة، وإنما قال تعالى : ﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً ﴾ [البقرة:٢٦] وأراد : يعاقب بالكفر به ﴿ وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً ﴾[البقرة:٢٧] أي يثيب بالإيمان به كثيراً، ويجوز إضافة هذا الضلال إلى نفسه، وقد قيل أيضاً : إنهم لما ضلوا عنده جاز أن يضيف إلى نفسه كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً ﴾[التوبة:١٢٤] ثم قال من بعد : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ ﴾[التوبة:١٢٥] فأضاف إيمانهم وكفرهم إلى السورة لما آمن بعضهم عند نزولها وكفر بعضهم، فكذلك أضاف هذا الضلال إلى نفسه (كما) [1] كفروا بالمثل عند نزوله، ثم بين تعالى

---

(١) في الأصل المطبوع : (لما) وما أثبته من النسخة المخطوطة . اهـ . مصححه .

بقوله : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ﴾[البقرة:٢٨] على أن الكفر من قبلهم وأنهم قد كفروا نعمة ربهم، وعدد نعمه عليهم معظما لذنبهم وكفرهم، لأن عظم النعمة تعظم معصية المنعم، ونعم الله علينا لا يدانيها نعم، فلذلك يكون اليسير من المعاصي عظيمًا، كما يكون اليسير من عقوق الوالد البار عظيمًا، ودلّ بذلك على بطلان قول من يقول : خلق الله فريقاً للكفر، وفريقاً للإيمان، لأن ذلك لو صح لكان لا نعمة له على من خلقه للكفر والنار .

[مسألة] قالوا : ما معنى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ ﴾ [البقرة:٢٩]؟

وجوابنا : أن المراد : ثم قصد خلق السماء، لأنّ الاستواء عليه تعالى على الحد الذي يجوز على الأشخاص لا يجوز، ولذلك قال تعالى بعده : ﴿ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ﴾ [البقرة:٢٩] .

[مسألة] إن قيل : أنتم تنزهون الملائكة عن المعاصي، فكيف قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ [البقرة:٣٠] أفليس هذا القول منهم كالاعتراض على ربهم ؟

وجوابنا : أنه تعالى أعلمهم طريقهم في العبادة، وأنه سيسكن الأرض من يقع من بعضهم الفساد والقتل، فلما قال تعالى وقد صور آدم وخلقه : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة:٣٠] قالوا على وجه المسألة والتعرف : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ [البقرة:٣٠] وعلى هذا الوجه يحسن ذلك، ولذلك جعل تعالى جوابهم : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٣٠] فبين سبحانه وتعالى أنه العالم بالمصالح المستقبلة، فإذا كان في معلومها ما يظهر من الفضل والعلم من الأنبياء والمؤمنين كان ذلك أصلح في الحكم .

[مسألة] قالوا : أفما يدل قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ ﴾ [البقرة:٣١] على أن الأمر بما لا يطاق يحسن لأن الملائكة لم تقدر على هذه الأسماء، ولذلك قالت : ﴿ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ [البقرة:٣٢] ؟

وجوابنا : أن ذلك جعله الله تعالى معجزة لآدم ودلالة على نبوته من حيث عرفه هذه الأسماء والمسميات جميعاً، فعرفت الملائكة بذلك أنه نبي وعظمّته، وجعل الله تعالى ذلك مقدمة إلى ما أمرهم به من تعظيمه بقوله : ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ** ﴾[البقرة:٣٤] والمراد : عظموه بتوجيه السجود إليه وإن كنتم تعبدون الله تعالى بذلك، ولذلك قـال تعـالى : ﴿ **فَلَمَّا أَنْبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ** ﴾ [البقرة:٣٣] وأنه تعالى قد عرف الملائكة بما كتب في أم الكتاب من الآجال والأرزاق وغيرهما أنه عالم بذاته بكل شيء فقال لهم : ﴿ **أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ** ﴾ [البقرة:٣٣] ألم أدلكم منبهًا على أن الذي خص به آدم من الأسماء لم يخصهم به إرادة لإظهار نبوته وتعظيمه .

وقوله : ﴿ **أَنْبِئُونِي** ﴾ [البقرة:٣١] هو على وجه التحدي وتقدير عجزهم، ولذلك كان جوابهم : ﴿ **لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا** ﴾ [البقرة:٣٢] ولذلك قال: ﴿ **إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ [البقرة:٣١] ومن لا علم له لا سبيل له إلى العلم بأنه صادق في الإخبار عما لا يعلم، ومعلوم أنهم لو أخبروا لجاز أن يكونوا كذبة ولا يجوز أن يأمر تعالى بما هذا حاله .

[مسألة] قالوا : كيف استثنى تعالى إبليس من الملائكة وهو من الجن في قوله : ﴿ **فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ** ﴾ [البقرة:٣٤] ؟

وجوابنا : أنه لما دخل معهم في الأمر له بأن يسجد لآدم وأراد منه ذلك بهذا القول صح الاستثناء؛ لأن الاستثناء من جهة المعنى لا يكون إلا كذلك، وذم الله تعالى له بأنه لم يسجد وتكفيره إياه يدل على قدرته على السجود بخلاف قول القدرية أنه تعالى يأمر بما لا يقدر العبد عليه، وقوله تعالى في وصف إبليس : ﴿ **أَبَى** ﴾ يدل أيضاً على بطلان قولهم، لأنه لا يقال (أَبَى) إلا إذا قدر على الشيء ثم امتنع منه إذا أبى فعل نفسه .

[مسألة] يقال : كيف أسكن تعالى آدم وحواء الجنة ؟ وكيف أزلهما الشيطان عنها ؟ وكيف نفذ قول إبليس عليهما فخالفا أمر الله تعالى ؟ وكيف فعلا ما عوقبا عنده على الإخراج من الجنة ؟

وجوابنا : أنه لا يمتنع في سكنى تلك الجنة أن يكون صلاحًا إذا لم يفعلا أمراً من الأمور، وغير صلاح إذا فعلا ذلك، فلما وقع منهما أكل الشجرة التي هي من جنس ما نهى الله تعالى عنها، ويقال : إنها العنب، ويقال : التين، ويقال : الحنطة، والأول أقرب، أخرجهما تعالى من تلك الجنة ولم يخرجهما عقوبةً، لأن معاصي الأنبياء لا تكون إلا صغائر، ولو فعلوا كبائر لحسن ذمهم ولعنهم، والنبوة تمنع من ذلك، فلما عصيا كان الصلاح إخراجهما إلى الأرض، لما في المعلوم من العواقب الحميدة .

وكان إبليس يظهر لهما فوسوس إليهما، وكان عندهما أن الله تعالى إنما نهى عن شجرة بعينها وأراد الله تعالى ذلك الجنس كله فذهلا عن هذا التأويل، ولذلك قال تعالى : ﴿ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ [طه:١١٥] ولو علما أن النهي عام في ذلك الجنس لم يقدما على أكل ذلك، ثم من بعد تاب الله عليهما فزال تأثير تلك المعصية، فلذلك قال تعالى : ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة:٣٧] وكان الله تعالى يعظم محل الأنبياء لعلمهم كيف يتوبون، وما الذي (يوردون) [1] من الكلمات .

ثم إنه تعالى ذكر من بعد نعمه على بني إسرائيل، وذكَّر أولادهم نعمه على الآباء، لأن النعمة على الآباء بحيث تخلصوا من قتل الأعداء إياهم نعمة على الأولاد الذين لولا ذلك الخلاص لم يوجدوا، فعلى هذا الوجه خاطبهم بهذه النعم وأمرهم بالوفاء بعهده لقوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ [البقرة:٤٠] وهو المجازاة ﴿ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة:٤٠] أي يجب أن تخافوا معصيتي، فإن ذلك يوقعكم في العقاب، وآمنوا بما أنزلت على محمد ﷺ ولا تكونوا أول كافر به من أهل الكتاب ﴿ وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً ﴾ [البقرة:٤١] فقد كانوا يطمعون في الضعفاء فيضلونهم ويصرفونهم عن اتباع محمد ﷺ، فلذلك قال : ﴿ وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً ﴾ [البقرة:٤١] ثم قال : ﴿ وَلاَ تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ ﴾ [البقرة:٤٢] فدل بذلك على وجوب إظهار الحق بالدعاء إليه، ودل به على أن من لبس الحق بالشبه فقد أقدم على عظيم، وبين أن المرء كما يجب أن يدعو إلى الخير يجب أن يتمسك به، ومتى لم يتمسك به لم يؤثر دعاؤه للغير فقال : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ

(١) في الأصل المطبوع : يؤدون، وما أثبته من النسخة المخطوطة . اهـ . مصححه .

﴿ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ * وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ ﴾ [البقرة:٤٤-٤٥] فجمع بذكر الصبر جميع ما منع تعالى منه، وبذكر الصلاة جميع ما أمر به، وبين أن الصلاة كبيرة ﴿ إِلاَّ عَلَى الخَاشِعِينَ * الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ ﴾ [البقرة:٤٥-٤٦] أي ثواب ربهم، فيعلمون المجازاة فيعظم خوفهم، ويعلمون أنهم إليه راجعون . وبين لبنى إسرائيل ولنا بقوله : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنهَا عَدْلٌ ﴾ [البقرة:٤٨] أن من حكم ذلك اليوم أن المرء ينتفع بعلمه دون هذه الأمور، وأن أهل العقاب لا يتخلصون إلا بما يكون منهم في الدنيا من التوبة وتلافي المعصية .

ثم قال عز وجل: ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾[البقرة:٤٩] فمنّ عليهم بما كان منه تعالى من نجاة آبائهم على ما ذكرنا، وذكر نعمه حالاً بعد حال إلى قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا ﴾ [البقرة:٦٢] وقوله في خلال هذه الآيات : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ ﴾ [البقرة:٥٥] يدل على أن الرؤية على الله تعالى لا تجوز، وقوله :﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الحَجَرَ فَانفَجَرَتْ ﴾ [البقرة:٦٠] يدل على قدرة الله تعالى على الأمور العجيبة، وأن عصا موسى كانت من الآيات العظام، فمرة كانت تصير بيده ثعبانًا فيتلقف إفك السحرة، ومرة كان يضرب بها على الحجر فينفجر منه الماء ما يحتاجون إليه، ومرة كان يضرب بها على البحر فينفلق ويصير لهم طريقاً يبسا .

ولما ذكر قوله : ﴿ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العَالَمِينَ ﴾ [البقرة:١٢٢] ظن بعضهم أن بني إسرائيل أفضل من سائر الأنبياء وليس الأمر كذلك، وإنما أراد به فضلهم على عالمي زمانهم، فكذلك كانوا في أيام موسى ﷺ دينا ودنيا .

[مسألة] وربما قالوا في قوله تعالى : ﴿ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [البقرة:٥٤] كيف يدخل قتل النفس في التوبة ؟.

وجوابنا : أنه تعالى أوجب أن يقتل بعضهم بعضاً لعلمه بأن ذلك صلاحهم لأن ذلك من شروط التوبة؛ لأن التوبة مقبولة إذا صحت من دون غيرها .

[مسألة] وسألوا عن معنى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ ﴾ [البقرة:٦٢] وقيل : كأنه قال : إن الذين آمنوا من آمن منهم، وهذا كالمتناقض .

وجوابنا : أن المراد في الذين آمنوا : الاستمرار على إيمانهم، وفي الذين هادوا الانتقال إلى الإيمان، وذلك صحيح، وقد قيل : إن المراد بـ (أن الذين آمنوا): مَنْ أظهر الإسلام، والمراد بـ (من آمن منهم) : كمال الإيمان، وذلك مستقيم .

[مسألة] وقد قيل : كيف قال : ﴿ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة:٢٧٤] ونحن نعلم أن المؤمنين قد يخافون ويحزنون ؟

وجوابنا : أنه تعالى أراد ذلك في الآخرة كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء:١٠١] وقال : ﴿ لاَ يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ ﴾ [الأنبياء:١٠٣] وكل ذلك ترغيب في التمسك بالإيمان والطاعة .

[مسألة] قالوا في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ [البقرة:٦٧] كيف (يأمر بذلك، ثم)[1] يأمر بذبح بقرة لها صفة، ثم بأخرى لها صفة، أوليس ذلك يدل على البداء ؟

«**وجوابنا**»: أنه أمر أولاً بذبح بقرة على أيّ صفة كانت، فلما عصوا كان الصلاح التشديد عليهم، ثم كذلك حالاً بعد حال، إلى أن أمرهم آخراً بذبح بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث مسلمة لا شية فيها، فيقال : طلبوها فاشتروها بمال عظيم لأنه لم يوجد بتلك الصفة سواها، وكان السبب في ذلك ما بينه بقـوله : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ * فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى ﴾ [البقرة:٧٢-٧٣] وكان هناك قتيل وكتموا القاتل فأخفوه فأراد الله تعالى إظهاره بإحياء القتيل عند ضربه ببعض البقرة ليذكر ذلك المقتول قاتله فيقام عليه حد الله تعالى، والله تعالى وإن كان مقتدراً على إحياء ذلك القتيل من دون أن يضرب ببعض البقرة، فقد كان لطفاً لهم لأن عادتهم كانت التقرب بذبح البقرة، كما تعبدنا الله تعالى بذبحها في الأضحية، وكان ذلك من معجزات موسى عليه السلام .

---

(١) مابين القوسين أثبته من النسخة المخطوطة . ا هـ . مصححه .

[مسألة] يقال : وقد قال تعالى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة:٧٤] كيف يجوز أن يفضل قلبهم في القسوة على الحجارة والحجارة لا قسوة فيها أصلاً ؟ وكيف قال : ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ [البقرة:٧٤] وذلك لا يصح على الحجارة ؟

وجوابنا : أن ذلك على وجه المثل، ضربه الله تعالى لقلبهم في القسوة لأن الظاهر أن القسوة تكون لصلابة القلب، فكذلك القول في الخشية أورده على وجه المثل .

وقد قيل : إن المراد : ولو جعل الحجر حياً لكان يحصل فيه من الخشية ما ليس في قلبهم، والأول أقوى لأنّ الحجارة إذا جعلت حية لا تكون حجارة .

[مسألة] قالوا : كيف يقول تعالى : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ ﴾ [البقرة:٧٥] يعنى اليهود، ثم يقول من بعد : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا ﴾ [البقرة:٧٦] فنفى في الأول وأثبت في الثاني وذلك تناقض ؟

وجوابنا : أن المراد : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا ﴾ [البقرة:٧٥] إيماناً ظاهراً وباطناً والذي عناه في قوله : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا ﴾ [البقرة:٧٦] ما أورده ظاهراً على وجه النفاق، فالكلام مستقيم، ولذلك قال : ﴿ وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة:٧٦] فذمهم بذلك على هذه الطريقة التي هي النفاق .

وبين أنهم يحرفون التوراة ويشترون بها ثمناً قليلاً وأنهم كانوا يفعلون ذلك ليستأكلوا ضعفاءهم فقال تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ [البقرة:٧٩] ودل بذلك على أن كتمان الحق في الدين يوجب الويل، وقوله تعالى : ﴿ بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة:٨١] زجر عظيم لمن يعصي ربه كما أن قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة:٨٢] ترغيب عظيم في التمسك بطاعته .

ثم ذكر أنه أخذ ميثاق بني إسرائيل في أن لا يعبدوا إلاَّ الله، وفي أن يتمسكوا بسائر ما ذكر بعد ذلك وأنهم خالفوا وتولوا إلا قليلاً منهم، وأنهم سفكوا الدماء. وبين تعالى أن جزاء ذلك الخزي في الحياة الدنيا وأن يردوا إلى أشد العذاب، وزجر بذلك عن مثل فعلهم وذمهم على التكذيب بالقرآن بقوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ ﴾ [البقرة:٩١] كل ذلك زجر عن فعل مثلهم.

[مسألة] وقالوا: قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة:٩٧] فقالوا: كيف يجوز تعليله لإنزاله القرآن بأنهم أعداؤه؟

وجوابنا: أنه أراد توكيد ذمهم بأنه بالمحل الذي ينزل به الوحي والقرآن لأجله على الرسل وزجرهم بذلك عن عدواتهم، ثم بين أن من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فالله عدوه بقوله: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة:٩٨].

[مسألة] وسألوا عن قوله: ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ [البقرة:١٠٢] وقالوا: الآية تدل على أن السحر من عند الله، وأن الملائكة أنزلت به وعلى أنه إذا أدى إلى مضرة فبإذن الله.

وجوابنا: أنه تعالى حكى عن اليهود أنهم نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، وأنهم اتبعوا ما تتلو الشياطين، والمراد بذلك ما تخبر به الشياطين على ملك سليمان، ويكذبون عليه فإنهم يتبرءون من نبوّته - أعني اليهود - وينسبونه إلى السحر كما حكت الشياطين، فقال تعالى: ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ﴾ [البقرة:١٠٢] نزهه عن السحر الذي نسبوه إليه ثم قال: ﴿ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ﴾ [البقرة:١٠٢] بأن نسبوا السحر إلى سليمان على وجه الكذب وجحدوا نبوّته.

ثم قال تعالى في وصفه الشياطين: ﴿ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ [البقرة:١٠٢] على وجه الإضرار، ثم قال تعالى: ﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾ [البقرة:١٠٢] فبين أنه تعالى أنزل ببابل السحر عليهما ليعرفا الناس فيتحرزوا من ضرره، لأن تعريف الشر حسن ومعه يصح الاحتراز، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ

مِنْ أَحَدٍ ﴾ [البقرة:١٠٢] يعنى الملكين ﴿ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ ﴾ [البقرة:١٠٢] فبين أن مرادهم بتعليم السحر لا أن يعمل به (لكن لكى يعرف فيحترز من فاعله ويحترز من التمسك به)[1] .

ثم قوله تعالى : ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ [البقرة:١٠٢] وهو ذم لمن يتعلم من الملكين فلا يتحرز، بل يعمل به، فهو بمنزلة أن يعرف من الرسول الزنا وغيره من الفواحش، فبعضهم يعمل بذلك، فلا يخرج بيان النبي ﷺ لذلك من أن يكون حسنًا، فكأنه قال : ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ [البقرة:١٠٢] واتبعوا ﴿مَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾[البقرة:١٠٢] فيما يعلمون على وجه الذم لهم.

وقد روي عن الحسن أنه كان يقرأ : ﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلِكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾ [البقرة:١٠٢] ويقول : كانا علجين أقلفين يأمران بالسحر ويتمسكان به، والقراءة المشهورة خلاف ذلك .

وقد قيل في تأويله : إن المراد : واتبعوا ما تتلو الشياطين، أي : تحكي وتخبر على ملك سليمان وما أنزل على الملكين ببابل، فكأنهم كما كذبوا على ملك سليمان كذبوا أيضاً على ما أنزل على الملكين، لا أنهما أنزلا ليعلما السحر، ويكون قوله : ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا ﴾ [البقرة:١٠٢] أي من السحر والكفر، والوجه الأول أقوى .

فإن قيل : وما السحر الذي هو كفر ؟ أتقولون إن جميعه كفر أو بعضه ؟ وما حقيقته ؟ قيل : إن السحر في الأصل هو ما لطف مأخذه مما يقصد به الإضرار والاحتيال، لكن في الناس من يوهم أنه يفعل ما لا حقيقة له، كما يدعى بعضهم أنه يطير بلا جناح، ويركب المكانس وغيرها فيبعد بالوقت اليسير، وأنه يخيل الناس ويصور المرء بخلاف صورته إلى ما شاكل ذلك، وهو الذى قال ﷺ : « **من أتى كاهناً أو عرافاً فصدقهما فيما يقولان فقد كفر بما أنزل على محمد** » لأنهم يوهمون أنهم يعلمون الغيب ، وذلك كذب منهم، وربما صدق في هذا الزمان بعض المنجمين في مثل ذلك،

---

(١) ما بين القوسين زيادة أثبتها من النسخة المخطوطة . اهـ . مصححه .

وهو عظيم يوجب الطعن في نبوّة الأنبياء صلوات الله عليهم الذين إنما عرفت نبوّتهم بأن أظهروا علم الغيب، نحو قوله عز وجل في وصف عيسى عليه السلام : ﴿ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ ﴾ [آل عمران:٤٩] فمن أوهم ذلك فهو كافر في الحقيقة .

فأما السحر الذي يصح وقوعه فهو ما لم يلطف من هذه الأفعال التي تجري مجرى الحيل، فالأول هو الكفر، والثاني يحتمل أن يكون كفراً ويحتمل خلاف ذلك فإن أوهم أنه يفرق بين المرء وزوجه بأن يفعل في قلب الزوج أو قلبها ما لا يمكن ويكون معجزًا فهو كالأول، وإن أوهم أنه يزيل العقل ويحدث العيوب في أحدهما فهو كالأول، وإن ذكر أنه يحتال بما يمكن للمرء أن يفعله حتى يفرق بينهما أو يقتل أو يفعل ما يؤدي إلى المرض فذلك فسق ليس بكفر .

وقد ذكر بعض مشايخ المتكلمين ممن عمل كتاب المتشابه أن رجلاً تزوج امرأة على أخرى، فعظم ذلك على الأولى، وأنها استعانت بغيرها فتوصل إلى أن قال للثانية : إن أردت أن تنغرس محبتك في قلب الزوج ليختارك على الأولى فخذي موسى فاقطعي ثلاث شعرات من لحيته وهي ما يقارب الحلق، وألقى إلى الزوج بأن هذه المرأة ستحتال عليه بالقتل، فلما قرّبت الموسى منه في المحل الذي حرره لم يشك الزوج بأن الأمر على ما قال الرجل من أنها قصدت قتله، فقام إليها وقتلها، وكان ذلك تفرقة، وقيل : توصل إليها بهذه الحيلة، فما يجري هذا المجرى يكون فسقاً ولا يكون كفراً .

وكل ذلك مما يصح تعرُّفه من الأنبياء لكنهم يعلمون ذلك لكي يتحرز منه فيحسن ذلك، والشياطين يعلمون ليعمل به فيقبح ذلك، فهذا تأويل الآية .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة:١٠٢] يحتمل أن يكون المراد بهذا الإذن العلم دون الأمر، ويحتمل أن يكون المراد أن فعلهم نفسه فيما عنده بفعل الله تعالى ما يضر من يضر غيره، فيكون ذلك منسوباً إلى الله تعالى وما يفعله من حيث يقع بإرادته، يجوز أن يقال : إنه بإذنه، وبين أن من يفعل ذلك ماله عند الله من خلاق، وزجر بذلك عن التمسك بالسحر والحيل .

ثم قال : ﴿ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ﴾ [البقرة:١٠٢] لأن من باع نفسه بما يأتيه من السحر فهو خاسر الصفقة في هذه التجارة .

[**مسألة**] قالوا : ما معنى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ ﴾ [البقرة:١٠٣] وكيف تكون المثوبة خيراً من السحر والسحر لا خير فيه ؟

وجوابنا : أن قوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا ﴾ [البقرة:١٠٣] يدل على أن الإيمان باختيارهم يقع، وأنهم إذا لم يؤمنوا فهم مقصرون، بخلاف من يقول إنه تعالى يخلق ذلك فيهم، ورغب بذلك في الإيمان والتقوى، ومعنى قوله في المثوبة إنها خير، أي : إن ما يؤدي إليها أولى أن يتمسك به، وهذا كقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ [الفرقان:١٥] وإنما أراد جنة الخلد هو الخير دون النار .

[**مسألة**] يقال : ما معنى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا ﴾ [البقرة:١٠٤] ومعناهما واحد، فكيف يصح الأمر بكلمة والنهي عن الأخرى والفائدة لا تختلف ؟

وجوابنا : أن المنقول في الخبر أن اليهود كانت تقول للنبي ﷺ : ﴿ رَاعِنَا ﴾ بكسر العين[1] وتقصد الهزء، وقوله تعالى : ﴿ وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ ﴾ [النساء:٤٦] يدل على ذلك، فأمر الله تعالى بالعدول عنه إلى نظيره، وهو قوله : ﴿ انظُرْنَا ﴾ [البقرة:١٠٤] وفي ذلك دلالة على وجوب تجنب الكلمة إذا أوهمت الخطأ، وقوله تعالى في آخر الآية : ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة:١٠٤] يدل على ما قلناه من أنهم قصدوا أمراً مذموماً في رَاعِنَا، فلذلك نقل الله تعالى المؤمنين عنها إلى قوله : ﴿ انظُرْنَا ﴾ [البقرة:١٠٤] .

[**مسألة**] وقالوا : كيف يجوز أن ينسخ تعالى شيئاً بشيء كما قال : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ [البقرة:١٠٤]؟ وهل يدل ذلك على أن الآية لا تنسخ إلا بآية ؟

---

(١) فى المخطوط (شديد راعيينا) فى هذا الموضع، ولا أدرى ما وجهه . ا هـ . مصححه .

وجوابنا : أنه يتعبد المكلف في كل وقت بما هو مصلحة له، وإذا كان في زمن الوحي ربما يكون الصلاح انتظار نقل المكلف من عبادة إلى عبادة، فعلى هذا الوجه ينسخ تعالى العبادة بغيرها، كما يفعل تعالى البرد بعد الحر، والليل بعد النهار، وقوله: ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا ﴾ [البقرة:١٠٦] أي بما هو أصلح من الأولى، ولا فرق بين أن يعلمنا بقرآن أو بوحي إلى الرسول ﷺ ، ثم بين أنه تعالى على هذه المصالح قدير بأن يبينها كما شاء، فلا يدل ذلك على أن كل شيء داخل في قدرته كنحو أفعال العباد من كفر وإيمان، وقد يقال : هو قدير على كل شيء لأنه الذي يقدر غيره، كما يقال للملك إنه مالك للبلاد وما فيها لما كان مقتدراً على أن يملك الغير ويسلبه ملكه، ولذلك قال : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ [البقرة:١٠٧] وزجر المرء عن أن يتكل إلا على عبادته .

[مسألة] قالوا : كيف قال تعالى : ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ ﴾ [البقرة:١٠٨] وكيف منع من مسألة الرسول وقد نصبه الله تعالى معلماً ومبيناً ؟

وجوابنا : أن المراد المنع من مسألته على الرد والتعنت لا على وجه التفهم ولذلك قال : ﴿ وَمَن يَتَبَدَّلِ الكُفْرَ بالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ [البقرة:١٠٨] .

[مسألة] وربما قالوا : كيف يبدأ تعالى بقوله : ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ ﴾ [البقرة:١٠٨] وعند العرب لا يبتدأ بذلك الاستفهام، بل يبنى على كلام متقدم ؟

وجوابنا : أنه قد يحذف المتقدم إذا دل الكلام عليه، وذلك كقوله : ﴿ الم * تَنزِيلُ الكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ [السجدة:١-٢] ثم قال : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾[السجدة:٣] وقد قيل : إن معناه : بل تريدون أن تسألوا رسولكم، يقول ذلك لليهود وقد تقدم ذكرهم .

[مسألة] وسألوا فقالوا : كيف قال : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقُّ ﴾ [البقرة:١٠٩] أفتقولون كانوا يعرفون الإسلام والنبوّة مع إظهارهم اليهودية ؟

وجوابنا : أن ظاهر الآية يدل على ذلك لأن كثيرًا منهم كان يعرف ذلك فيبقى على اليهودية لأغراض الدنيا، وقوله تعالى : ﴿ حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ [البقرة:١٠٩] يدل على أن حسدهم للرسول وللمؤمنين لم يكن من خلق الله تعالى، وإلا لم يضفه إلى أنفسهم، ورغب تعالى بقوله : ﴿ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [البقرة:١٠٩] وبقوله : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ ﴾ [البقرة:١١٠] على هذه الأعمال .

[مسألة] وقالوا : إن قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى ﴾ [البقرة:١١١] لا يصح ؛ لأن الذين كان يحكى عنهم إن كانوا من اليهود لا يقولون ذلك في النصارى، وإن كانوا من النصارى لا يقولون ذلك في اليهود، فكيف تصح هذه الحكاية؟

وجوابنا : أن الفائدة معقولة، والمراد أن اليهود قالت : ﴿ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً ﴾ [البقرة:١١١] والنصارى قالت :.لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى، لأن ذكر أهل الكتاب قد تقدم وحالهم في طعن كل واحد منهم في الآخر معلومة، فلابد من أن يكون المراد ما ذكرنا .

ثم بيَّن تعالى أن تلك أمانيهم لا برهان عليه، ثم قال : ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾ [البقرة:١١٢] يعني بالتعبد ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [البقرة:١١٢] وأراد بذلك مجانبة المعاصي ﴿ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ ﴾ [البقرة:١١٢] فجمع بين الأمرين في حصول الثواب لئلا يغتر المكلف فيقتصر في أحدهما.

[مسألة] وربما قيل : ما فائدة قوله : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ ﴾ [البقرة:١١٢] وذلك معلوم من حالهم، فأيّ فائدة في وصفهم بذلك ؟

وجوابنا : أن الفائدة بذلك قوله : ﴿ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ﴾ [البقرة:١١٢] فبين أنهم ذهلوا عما تدل عليه كتبهم من تصديق البعض للبعض فيما أودعه الله تعالى في

الكتب ، وقد يقال : إن فلانًا ليس على شيء وإن كان في جملة ما يقوله ما هو حق إذا لم يتكامل تمسكه بالحق، كما يقول فيمن يخالف في التوحيد والعدل : ليس هو على شيء وإن كان يقول بالحق في بعض الأشياء، ولذلك قال تعالى بعده : ﴿ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [البقرة:١١٢] .

[مسألة] وقالوا : قد قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ [البقرة:١١٤] كيف يصح ذلك ومعلوم أنهم قد يدخلون المساجد وليسوا خائفين ؟ وما معنى سعيهم في خرابها ولم يتفق ذلك ؟

وجوابنا : أنه قد روى أن أبا بكر الصديق كان بنى مسجداً بمكة يدعو الناس إلى الله تعالى، فسعى الكفار في تخريبه، فأنزل الله تعالى ذلك، وقد قيل : إن المراد منعهم الرسول ﷺ والصحابة حتى اضطروا إلى الهجرة، فبين الله تعالى أنهم كما أخافوهم حتى فارقوا مسجد مكة، فسيرفعه بحيث لا يدخلونه إلا خائفين .

ومعنى قوله : ﴿ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا ﴾ [البقرة:١١٤] في المنع عن عمارتها بالصلاة وسائر ما يبنى له المسجد كقوله : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ ﴾ [التوبة:١٨] فكما جعل ذلك عمارة له جعل المنع من ذلك سعياً في خرابه، فإن حمل الكلام على المسجد الحرام لم يكن لهؤلاء الكفار أن يدخلوها إلا على وجه الخوف، وإلا فإن حمل على سائر المساجد كما قاله قوم فالمراد أنهم إذا دخلوا يكونون خائفين من المسلمين فلا يدخلونها إلا لمحاكمة أو غيرها فيكونون خائفين، ثم قال تعالى : ﴿ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة:١١٤] .

[مسألة] وربما قيل : أما يدل قوله : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ [البقرة:١١٥] على المكان ؟

قلنا : المراد أن هناك يوجد رضا الله، كقول القائل لغيره : من شغلك أن تصلي لوجه الله ؟ أي طلباً لمرضاته، لا على وجه الرياء والسمعة، ولو كان المراد بذلك المكان لوجب أن يكون تعالى في وقت واحد في أماكن بحسب صلاة المصلين .

وقد يذكر الوجه ويراد به ذات الله، وقد يقول القائل لغيره وقد سأله حاجة : أحب أن تفعل ذلك لوجه الله تعالى، أي تقربًا إلى الله، فأما معنى قوله : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ [البقرة:١١٥] أن ذلك لكم بحسب الاجتهاد، إذ يراد به في الظلمة إذا عميت القبلة أو في النافلة في السفر أو في المسايفة وذلك مذكور في الكتب .

[مسألة] وسألوا عن قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ [البقرة:١١٦] فقالوا : كيف يكون ما ذكره آخرًا مبطلا لما قالوا ؟

فجوابنا : أنه بين أن من يخلق هذه الأمور ويعمل عليها لا يكون إلا قديماً مخالفاً لمن تصح عليه الولادة، ولذلك أتبعه بقوله : ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [البقرة:١١٧] فبين تعالى بكل ذلك أنه مخالف للأجسام التي تصح عليها الولادة .

وقالوا : إن قوله : ﴿ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [البقرة:١١٧] يدل على أن كل ما يفعله يفعله بهذا القول، وأن ذلك يوجب أن قوله وكلامه ليس بمحدث، لأنه لو كان محدثاً لكان يحدثه بقول آخر ويؤدي إلى ما لا نهاية له .

فجوابنا : أن ما قالوه متناقض، لأن الظاهر يقتضي أنه يقول له كن، وهذه اللفظة مشتملة على حرفين أحدهما يتقدمه الآخر، والآخر يتأخر عنه على اتصال بينهما، وما هذا حاله لا يكون إلا محدثاً فلا يصح إذًا ما قالوا، ولأن قوله : ﴿ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [البقرة:١١٧] يقتضى أنه يقول ذلك مستقبلاً، وذلك علامة الحدوث، ولأنه عطف المكوّن على القول بحرف الفاء، ومن حقه أن يكون عقيباً له، وما كان المحدث عقيبه لا يكون إلا محدثاً، وعندنا أن المراد بذلك أنه إذا قضى أمراً يكوّنه ويفعله من غير منع، وذكر هذا القول على وجه التوسع .

ومثل ذلك في اللغة كما قال الشاعر :

امــتــلأ الــحــوض وقــال قــطــنــي .

والحوض لا يقول ولكن المراد أنه إذا امتلأ فحسبه من الماء، وأراد تعالى بذلك أن الأشياء لا تتعذر عليه كما تتعذر على سائر القادرين .

وقوله تعالى عقيب ذلك : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ﴾ [البقرة:١١٨] ومعناه : هلا يكلمنا الله، يدل على أنـه تعـالى يفعـل الكـلام في المستقبل فكيف يجوز أن يكون قديماً ؟ وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ [البقرة:١١٩] والمراد بشيراً لمن أطاع ونذيراً لمن عصى، وهو ترغيب في الطاعة وزجر عن المعاصي، وقوله من بعـد لرسـوله ﷺ : ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ [البقـرة:١٢٠] دلالـة علـى (أن نبوتـه)[1] لا تعصمه من الوعيد إذا عصى فكيف يكون حال غيره ؟

[مسألة] وما معنى قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ [البقرة:١٢٤] كيف يجوز في كلمات الله أن يتمها إبراهيم ؟

وجوابنا : أن المراد فيه أنه ابتلاه بما يدل عليه الكلمات من العبادات، وأنه بامتثال ذلك أتم ما يلزمه، وقد قيل : إنه علمه من أسمائه الحسنى ما يصير بذلك من أهل النبوّة، ولذلك قال تعالى بعده:﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً ﴾[البقرة:١٢٤] فبين أن هذه الكلمات هي كالمقدمة لذلك، وبين تعالى أنه قد يكون في ذريته من يكون ظالماً فلا يستحق النبوّة والإمامة، فقال : ﴿ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾[البقرة:١٢٤] وبين تعالى أنه جعل بيته الذي هو الكعبة ﴿ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً ﴾[البقرة:١٢٥] يثوبون إليه حالاً بعد حال للعبادة، فقد كان في شريعة إبراهيم ﷺ الحج على قريب مما هو في شريعتنا، وجعل الله تعالى الحرم آمنا في أشياء كثيرة، وطهر بيته للطائفين والعاكفين والركع السجود .

فأمره أن يسأل ربه أن يجعل الحرم آمنـا وأن يـؤتيهم مـن الطيبـات، وقـد فعـل تعالى، لكنه سأل ذلك للمؤمنين فأجابه الله تعالى للكل فقال : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ ﴾ [البقرة:١٢٧] وذلك لأن عادة الله تعالى في الدنيا يعم خلقه بالأرزاق بحسب المصالح فلا يحرم العاصي بمعصيته ولا يفضل المؤمن لإيمانـه لكنـه

---

(١) في الأصل المطبوع : (النبوة) وما أثبته من النسخة المخطوطة . ا هـ . مصححه .

يدبرهم بحسب الصلاح، ودل قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ﴾ [البقرة:١٢٧] على أنهما تعبدا ببناء البيت، فلذلك قالا :﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ﴾ [البقرة:١٢٧] إلى سائر ما دعوا الله تعالى .

[مسألة] قالوا : ما معنى : ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة:١٢٨] إن كان الإسلام من فعل العبد ؟

وجوابنا : أن المراد مسألة الألطاف والتسهيل في أن يصيرا مسلمين ؛ لأن المرء وإن كان يفعل الإسلام فلا يستغنى عن زيادات الهدى والألطاف، ولولا ذلك لما صح الأمر والنهي بالإسلام والكفر، ولما جاز المدح عليه ولم يكن لقوله تعالى : ﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ﴾ [البقرة:١٢٨] معنى، والوالد إذا توصل إلى تأديب ولده بأمور جاز أن يقال : جعله أديباً عالماً ؛ لفعله الأسباب التي عندها تعلم .

وقيل : إن المراد بذلك : الانقياد لا الإسلام الذي هو تمسك بالعبادات، ودلوا على ذلك بالإضافة في قوله : ﴿ مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾ [البقرة:١٢٨] ودلوا عليه بما بعده من قوله : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة:١٣١] ومن يفعل الإسلام التي[1] هي العبادات لا يوصف بأنه أسلم لله، ويوصف إذا أريد به الإسلام والانقياد، وقوله من بعد : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ ﴾ [البقرة:١٣٢] والمراد : اختاره لكم يدل على أن الإسلام فعلهم .

[مسألة] إن قيل : لم قال : ﴿ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[البقرة:١٣٢] ؟ وما فائدة تعليق الإسلام بالموت وهو واجب في كل حال ؟

وجوابنا : أنه لما كان المرء يخاف الموت في كل وقت صار ذكر الموت دلالة على وجوب التمسك بالإسلام والخوف من تركه في كل وقت، ويكون ذلك في التحذير أقوى .

[مسألة] وسألوا فقالوا : كيف قال : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ ﴾ [البقرة:١٢١] مع قوله في غير موضع إنهم غيروا الكتاب وحرفوه ؟

---

(١) هكذا بالأصل المطبوع وبالنسخة المخطوطة . ا هـ . مصححه .

فجوابنا : أنه تعالى أراد القرآن وأراد من أهل الكتاب من آمن، ولـذلك قال : ﴿ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ [البقرة:١٢١] والكتب المتقدمة لا يجب فيها هذه التلاوة .

وقد قيل : إن المراد : يتلون التوراة على حقها من غير تحريف، لأن من آمن بالرسول كان هذا حالهم، فهذا أيضا يحتمله الكلام .

[مسألة] وسألوا فقالوا : كيف يقول تعالى : ﴿ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ [البقرة:١٥٠] فكيف يصح أن ينفى أن يكون عليهم حجة ثم يقول : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ [البقرة:١٥٠] فيكون لهم الحجة ؟

وجوابنا : لكن للذين ظلموا الحجة فإنهم يحتجون عليكم بالباطل وذلك استثناء منقطع .

[مسألة] وقالوا : كيف قال تعالى : ﴿ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ﴾ [البقرة:١٤٣] فخصهم بهذا الهدى ؟

وجوابنا : أن هذا الهدى من جنس اللطف الذي يتأتى في المؤمنين كقوله : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى ﴾ [محمد:١٧] وقد بينا أن الهدى العام هو الدلالة، ومتى أريد به الإثابة أو الألطاف فذلك خاص .

[مسألة] وسألوا عن قوله : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ [البقرة:١٤٣] وقالوا : كيف يصح ذلك في الإيمان وقد تقضى ؟

وجوابنا : أن المراد : إبطال ثوابه، وقد قيل : إنه نزل في صلاتهم إلى البيت المقدس، فبين أنه وإن نسخها فثوابها محفوظ لمن لم يفسد ذلك بكفر أو كبيرة .

[مسألة] وسألوا عن قوله : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ [البقرة:١٤٦] قالوا : لو عرف أهل الكتاب نبوّته لما صح مع كثرتهم أن ينكروا ذلك ويجحدوه فكيف يصح ما أخبر به تعالى عنهم ؟

وجوابنا : أن المراد من كان يعرف ذلك منهم، وهم طبقه من علمائهم دون العوام منهم، ولذلك قال : ﴿ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:١٤٦] ولا يجوز ذلك على جميعهم لعلمنا باعتقاداتهم، وتجويزه على من ذكرناهم يصح .

[مسألة] قالوا : إن قوله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا القِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ ﴾ [البقرة:١٤٣] يدل على أنه تعالى إنما علم من يتبع الرسول ومن لا يتبعه عند جعل القبلة كذلك، وهذا يوجب أن علمه تعالى محدث .

وجوابنا : أن المراد : إلاَّ ليفعلوا اتباع الرسول ﷺ ، فذكر العلم وأراد المعلوم لأن المعلوم لا يكون إلا بحسب العلم، فذكر العلم يدل على حال المعلوم، وذلك كقوله تعالى : ﴿ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ ﴾[محمد:٣] والمراد : حتى يجاهدوا ونحن بذلك عالمون .

وقد قيل : إنه تعالى ذكر نفسه وأراد رسـوله كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ ﴾ [الأحزاب:٥٧] والمراد : يؤذون أنبياءه وكأنه قال : إلا ليعلم الرسول من يتبعه .

[مسألة] وسألوا عن قوله : ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ﴾ [البقرة:١٩٩] فقالوا : كأنه قال : أفيضوا أيها الناس من حيث أفاض الناس وذلك لا يفيد .

وجوابنا : أنهم قبل الإسلام كانوا يقفون بمزدلفة، وبعضهم كان يقف بعرفة، فأمروا في الإسلام أن يقفوا بعرفة ثم يفيضوا منها إلى المزدلفة وجعل ذلك شرعاً .

وقال بعضهم : أراد بقوله : ﴿ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ﴾ [البقرة:١٩٩] أي إبراهيم ومن يتبعه، لأنه ﷺ في الحج أمر في أكثره باتباع طريقة إبراهيم ﷺ .

[مسألة] قالوا : وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً ﴾ [البقرة:٢٠٠] ثم قال : ﴿ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا ﴾ [البقرة:٢٠٠] وليس لذلك تعلق بالأول، فما الفائدة في ذلك ؟.

وجوابنا : أن المراد : فاذكروا الله كـذكركم آبـاءكم بـأن تسـألوه مصـالحكم في الدين والدنيا، ولـــذلك قـال : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِـــرَةِ

حَسَنَةً ﴾ [البقرة:٢٠١] فكأنه قال : اذكروا الله في أمر دينكم ودنياكم، كما أن هؤلاء الناس يقولون : ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة .

وضرب الله تعالى المثل بالآباء لأن المعتاد أن المرء ينشأ على محبتهم وذكرهم وإلا فنعم الله تعالى أعظم من ذلك، فذكرهم الله يجب أن يكون أكثر من ذكرهم لآبائهم .

[مسألة] قالوا في قوله : ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ [البقرة:١٥٦] كيف يصح الرجوع إلى الله وليس هو في مكان واحد ؟

وجوابنا : أن المراد به الرجوع إلى الله حيث لا حكم ينفذ إلا بأمر الله تعالى، كما يقال فى الخصمين : ارتفع أمرهما إلى الحاكم أو إلى الأمير، والمراد أنه هو صار المتولي لذلك، وقد جرت العادة في الدنيا أن غير الله يملك الأمور بأن ملكه الله، وفي الآخرة خلاف ذلك .

وهذه الآية تدل على أن غير الأنبياء يجوز أن يقال فيهم ﷺ لأن الله تعالى ذكر في الصابرين على المصائب أن ﴿ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ [البقرة:١٥٧] وإن كانت العادة في تعظيم الأنبياء قد جرت بأن يخصوا بذلك .

وزجر تعالى عن كتمان الحق زجراً عظيماً بقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ ﴾ [البقرة:١٥٩] وقد قيل : إن المراد باللاعنين : الملائكة، وذلك نهاية الزجر في كتمان الحق . ثم بين أن هذا اللعن يزول بالتوبة فقال : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا ﴾ [البقرة:١٦٠] ما كتموه، ونبه تعالى بقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ ﴾ [البقرة:١٦١] على أن من تاب من الكفار خارج عن هذا الحكم .

وبين تعالى بقوله : ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ [البقرة:١٦٣] أن الواجب في العبادة أن توجه إليه وحده، وبين الأدلة عليه وعلى وحدانيته بقوله : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ [البقرة:١٦٤] فذكر هذه الآيات الدالة على

الله تعالى وعلى أنه المتفرد بالألوهية، وبين في آخره بقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [النحل:٦٧] .

إنَّ الواجب على العقلاء أن يتدبروا هذه الأمور في سائر حالاتهم كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً ﴾ [آل عمران:٩١] فالمعلوم أن العبادات بالصلاة والصيام وغيرهما تلزمهم في حال دون حال، والعبادة بذكر الله ومعرفته والتفكر في نعمائه والقيام بشكر أفضاله تلزم في كل حال .

وعلى هذا الوجه قال : ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ﴾ [الأعراف:١٨٥] فذم من لم ينظر في هذين: أحدهما التفكر في سائر ما خلق ليعرف به توحيده، والآخر التفكر في قرب الأجل والحذر من ترك التوبة والاستعداد، فنبه تعالى على وجوب هذين في كل حال يذكرهما المرء .

وبعد ذلك قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ [البقرة:١٦٥] فبين أن الذين آمنوا أشد حباً لله، أي لعبادته وتعظيمه، وبين أن هؤلاء إذا رأوا العذاب علموا أن القوة لله جميعا دون الأنداد، ويتبرأ من اتبع ممن اتبعهم عند رؤية العذاب، والذين يتبعون يتمنون الرجوع مرة أخرى حتى يتبرءوا ممن تبرأ منهم، ثم بين أنه يريهم أعمالهم حسرات عليهم، ومن تفكر في هذه الآيات يستغني بتأملها عن كل تذكر .

ثم قال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً ﴾ [البقرة:١٦٨] فشرط فيه كلا الشرطين ﴿ وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ [البقرة:١٦٨] الذي يزين لكم اللهو والهوى ؛ فإنه عدو مبين، فخالفوه إلى ما هو حلال وإن شق عليكم، ثم قال : ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:١٦٩] فحذر من الشيطان بهذا النوع من التحذير، وقبح قول من حكى عنهم إذا قيل لهم : ﴿ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ [البقرة:١٧٠] فاختار تقليد الآباء واتبع طريقهم على ما بينه الله تعالى من الحق، ومثلهم بقوله : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ

الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً ﴾ [البقرة:١٧١] فوصف المنعوق بأنه وإن سمع فهو بمنزلة الصم البكم لما لم يؤثر قول من دعاه إلى عبادة الله فيه .

وبين بعد ذلك ما أحل وما حرم فقال : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ﴾ [البقرة:١٧٣] وبين أن ذلك وما أشبهه هو الحرام إلا للمضطر، وأعاد زجر من يكتم الحق ويشتري به ثمناً قليلاً، وبين أنهم يأكلون في بطونهم ناراً تحقيقاً لما يستحقونه من العذاب، وأنهم اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار، ثم إنه تمم هذا الزجر والوعظ بقوله : ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ [البقرة:١٧٧] وبين أن ذلك غير مقبول إلا بأن يؤمن المرء بالله فيعرفه حق المعرفة، ويؤمن بالملائكة والنبيين، ويؤتي المال وهو يحبه ﴿ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ [البقرة:١٧٧] ويقيم الصلاة ويؤتي الزكاة، ويوفي بعهد الله إذا عاهده، وبعهد الناس، ويصبر على البأساء والضراء، يعني فيما ينزل به من جهة الله من الشدائد والأمراض قال تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة:١٧٧] وذكر في موضع آخر : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة:٢٧] .

وبين تعالى حكم القصاص في آيات فقال : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ [البقرة:١٧٩] لأن من تصور أنه إذا قَتَلَ يُقْتَل كف عن القتل فيبقى حياً من قتله، ثم ذكر تعالى فيمن يحضره الموت الوصية للوالدين والأقربين، وهذا وإن نسخ وجوبه فهو مرغوب فيه من الثلث أو ما دونه، ثم قال : ﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة:١٨٢] ترغيباً في إزالة الخلاف وبقاء الألفة . ثم بين تعالى حكم الصيام في آيات كثيرة وأوجب صيام شهر رمضان على المقيم الصحيح وزجر عن خلافه .

[مسألة] فإن قيل : فلماذا قال : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ ﴾[البقرة:١٨٤] ؟

وجوابنا : أن ذلك كان من قبل، فإنه كان المرء مخيراً بين الصيام وبين الإطعام ثم نسخ بوجوب الصيام، وإنما رخص في ذلك لمن لا يطيق، أو لمن خاف من الصيام، ودل تعالى بقوله : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾[البقرة:١٨٥]

على أنه إذا كان لم يرد التشديد في الصوم مع السفر والمرض رحمة بالعبد فبأن لا يريد منه ما يؤديه إلى النار أولى .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ [البقرة:١٨٦] لم يرد به تعالى قرب المكان، وهذا كقوله :﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾[ق:١٦] وكقوله : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ [المجادلة:٧] وكقوله : ﴿ وَلاَ أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ ﴾ [المجادلة:٧] وذلك مثله يحسن في الكلام البليغ .

وقد يقول المرء لغلامه وقد وكله في ضيعة على وجه التهديد له : إني معك حيث تكون، يريد معرفته بأحواله، والله تعالى بكل مكان على وجه التدبير للأماكن وعلى سبيل المعرفة بما يبطنه المرء ويظهره، فهذا معنى الكلام، ولولا صحة ذلك لوجب أن يكون قريباً ممن بالشرق وممن بالغرب، وأن يكون في الأماكن المتباعدة تعالى الله عن ذلك، فإنه قد كان ولا مكان، وهو خالق الأمكنة .

وبين تعالى أنه يجيب دعوة الداع إذا دعاه، لكن ذلك بشرط أن لا تكون فسادًا، والذين يدعون لا يعرفون ذلك، فلأجل ذلك ربما تقع الإجابة وربما لا تقع، وربما تقدم وربما تؤخر، وقد كان من قبل يحرم على الصائم الأكل إلا عند الإفطار، ثم أباحه الله تعالى، وأباح غيره طول الليل، فهو معنى قوله : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ ﴾ [البقرة:١٨٧] فقد كان من بعض الصحابة إقدام على الوطء ثم تاب من بعد ذلك، فهو معنى قـوله : ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ﴾ [البقرة:١٨٧] ثم أباحه بقوله : ﴿ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ [البقرة:١٨٧] .

وروي عن بعض الصحابة ومن بعدهم أنه كان يبيح الأكل إلى قريب من طلـوع الشمس، والصحيح أنه إنما يحل إلى طلـوع الفجـر الثـاني، وهـو الـذي عليـه العلمـاء والظاهر يدل عليه .

[مسألة] وسألوا عن قـــوله : ﴿ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ﴾ [البقرة:٢١٤] فقالوا : إن ذلك يدل على أنه اسـتبطاء النصـر مـن جهـة الله فكيـف يجوز ذلك على الأنبياء ؟

وجوابنا : أنهم لم يقولوا ذلك استبطاء، بل قالوه على وجه المسألة والدعاء، وخوفاً على ما يلحق المسلمين من جهة الكفار، فبين تعالى أن نصره قريب وأمنهم مما خافوه، وذلك مما يحسن .

[مسألة] ويقال : كيف يجوز أن يقول تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة:٢١٦] وما كتبه الله علينا لا يجوز أن يكره لأنه من مصالحنا ؟

وجوابنا : أن المرء تنفر نفسه عن ذلك لما فيه من المشقة وليس المراد أنه يكره ذلك، كيف يصح هذا وقد أوجب الله تعالى أن يعزم عليه وأن يراد، وكذلك معنى قوله : ﴿ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة:٢١٦] والمراد به كراهة المشقة والنفار، والمراد بقوله : ﴿ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴾[البقرة:٢١٦] محبة الميل والشهوة، ومعنى قوله من بعد: ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢١٦] يبين صحة ما ذكرناه وهو أنه عالم بالمصالح وبما يؤدي إليه ما يشق من المنافع، وبما يؤدي إليه ما يتلذذ به من المضار .

[مسألة] وقيل : كيف يقول تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾[البقرة:٢١٩]أن في الخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ منافع للناس مع الإثم العظيم؟

وجوابنا : أنه لا يمتنع أن يحصل في شربه منافع ترجع إلى مصالح البدن، فأما أن يراد به منافع الآخرة فالذي بينه من أن الإثم في شربه أكثر من نفعه يبطل ذلك، وهذه الآية من أقوى ما يدل على تحريم الخمر لأن إثم شربها إذا كان كبيراً فيجب أن تكون محرمة، ومعنى قوله : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ اليَتَامَى قُلْ إِصْلاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾ [البقرة:٢٢٠] يدل على إباحة خلط أموالهم بأموالنا واستعمال الاجتهاد فيما (يكثر منها) [1] ويحصل فيه النماء، وكان ذلك في أول الإسلام ثم نسخ بأن ينظر في أموالهم متميزة من أموالنا وتطلب لهم فيها المنفعة .

[مسألة] وقيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَلاَ تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ ﴾ [البقرة:٢٢١] ثم قال بعد ذلك : ﴿ أُوْلَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾ [البقرة:٢٢١] وكذلك الفساق ربما دعوا إلى النار ويحل نكاح نسائهم ؟

---

(١) في النسخة المخطوطة : يؤكل منه . اهـ . مصححه .

وجوابنا : أن الكفار قبل قوة الإسلام وفي حال غلبتهم كان الله تعالى حرم نكاح نسائهم لهذه العلة، ثم أباح نكاح الكتابيات وقد قوي الإسلام وذلوا بأداء الجزية، فخرجوا من أن يكون فيهم هذه العلة، ولذلك قال تعالى : ﴿ **الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ** ﴾ [المائدة:٥] فنبه تعالى بقوله : ﴿ **الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ** ﴾ [المائدة:٥] على أن ذلك شرع متجدد .

وهذا قول عامة الفقهاء وإن كان في الناس من يحرم نكاحهن في هذا الوقت أيضاً، فأما الفساق من جملة من ينتحل الإسلام فإنه لا يوصف بأنه يدعو إلى النار .

[مسألة] وربما سألوا فقالوا : قد قال : ﴿ **وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ** ﴾ [البقرة:٢٢١] ومع ذلك فعندكم أن الحرة الكتابية يقدم نكاحها على نكاح الأمة فكيف يصح ذلك ؟

وجوابنا : أن المراد : تقديم الأمة المؤمنة على الأمة الكافرة، فلا يدل على ما ذكرته، كأنه تعالى لما أباح نكاح الحرائر نفى تحريم نكاح الإماء منهن أصلاً، أو تحريم تقديم نكاحهن إذا كن إماء على نكاح الأمة المؤمنة، وقد حصل في الكتابية إذا كانت أمة النقص من وجهين، فلذلك تقدم الأمة المسلمة على نكاحها عند كثير من العلماء .

[مسألة] وسألوا عن قوله تعالى : ﴿ **وَلاَ تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا** ﴾ [البقرة:٢٢٤] قالوا : فكيف يمنع من ذلك مع البر وذلك غير مكروه ؟.

وجوابنا : أن المراد أن لا تبروا، ومثل ذلك شائع في اللغة كقوله تعالى : ﴿ **يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا** ﴾ [النساء:١٧٦] ومعناه أن لا تضلوا، وقد قيل : إن المراد كراهة الإكثار من اليمين وإن بر فيه الحالف، فيعظم ذكره جل وعز عن هذه الطريقة .

[مسألة] وسألوا عن قوله : ﴿ **لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ** ﴾ [المائدة:٨٩] فقالوا : كيف يصح وقد يقع ذلك منه تعمدا ؟.

وجوابنا : أن المراد أنه تعالى لا يؤاخذكم به على حد المؤاخذة بالأيمان إذا كان ذلك يقع منه لا عن قصد إلى عقد اليمين وإن كان قاصداً إلى نفس الكلام، وهذا كما تعلم أن الأكل في شهر رمضان سهواً لا يؤاخذ به من حيث قصد نفسه الأول وإن كان ذلك الأكل مما يقبح .

[مسألة] وسألوا عن قوله تعالى : ﴿ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ [البقرة:٢٢٥] فقالوا : كيف يصح ذلك وقد ثبت في الخبر عن رسول الله ﷺ أنه تعالى لا يؤاخذ أمته بما تحدث به نفسها ما لم تعمل به ؟

وجوابنا : أن كسب القلب إذا كان من باب الاعتقاد أو من باب الإرادة والكراهة يؤاخذ المرء به، وإنما أراد تعالى بهذا الكلام مؤاخذة الحالف على ما يقصد إليه من الأيمان، والمراد أيضاً المؤاخذة في باب ما يلزمه فيه الكفارة .

وليس لحديث النفس في ذلك مدخل ولا يؤاخذ المرء بحديث النفس إذا كان على وجه من التمني فإنه يتمنى أن يرزقه الله تعالى مال زيد أو امرأة زيد إذا مات على وجه المباح، فالمرء الذي يعمل في ذلك عملاً غير محرم لا يكون عليه في ذلك إثم .

[مسألة] وسألوا في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ [البقرة:١٥٨] فقالوا : جعلهما من شعائر الله وذلك يقتضي التعبد، ثم قال : ﴿ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ [البقرة:١٥٨] وذلك يدل على الإباحة فكيف يصح ذلك ؟

وجوابنا : أن في المتقدمين من قال : إن المراد بذلك : فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما، كأنه تعالى بين أن ذلك وإن كان من الشعائر فليس بواجب ، وفي الناس من قال : قد كان المشركون يمنعون من ذلك أشد منع، فورد عن الله تعالى إزالة هذا المنع بقوله : ﴿ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ [البقرة:١٥٨] ولا يمتنع أن ذلك ينصرف إلى إزالة المنع من التعبد، ويقولون : قد صح عنه ﷺ أنه قال : « **اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي** » .

وقوله : ﴿ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:١٥٨] عقيب ذلك كالدلالة على أن ذلك تعبد، لكنه يقوي الوجه الأول في أنه ليس بواجب . وبعد فإن رفع الجناح يقتضي أن ذلك ليس بقبيح، ثم الكلام كيف حاله هل هو واجب أو ليس بواجب يقف على الدليل، فليس في الآية تناقض كما زعموا .

[مسألة] وسألوا عن معنى قوله : ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ﴾ [البقرة:٢٢٦] فقالوا : كيف جعل له أن يقصر في حقها لمكان اليمين ؟

وجوابنا : أنه تعالى منع من ذلك بقوله : ﴿ فَإِن فَاءُوا ﴾[البقرة:٢٢٦] فإن المراد : فإن فاءوا فيها وخالفوا ما اقتضاه يمينهم فإن الله غفور رحيم، فمنع الزوج من أن يفعل ما يقتضيه يمينه، فالأمر بالضد مما سألوا عنه، والمراد بقوله : (فإن فاءوا) العود إلى خلاف ما منع نفسه منه باليمين، وأباح له مع ذلك الطلاق إذا أراد بشرط أن لا يقصد إلى مضارتها لمكان اليمين .

ثم بين أنه إن طلق فعلى المطلقة العدة، وبين تلك العدة فبين أن في حال العدة لبعولتهن الرجعة إن أرادوا ذلك . وبين أن بعد الرجعة لهن حق، كما أن عليهن حقًا، فبين كيف يطلق المرأة، وكيف يخالع امرأته عند المضارة، فبين في الطلاق الثلاث أنها تحرم إلا بعد زوج، وأن ذلك مخالف للطلقة والطلقتين، فبين تعالى ما فيه الرجعة مما لا رجعة فيه .

وبين أن هذه الحدود متي لم يتمسك المرء بها عظم إثمه، ثم بين في الآيات ما يلزمه من أدب الدين في أحكام الزوجات وأحكام الرضاع وأحكام العدة وغيرها إلى قوله : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى ﴾ [البقرة:٢٣٨] فأكد وجوب المحافظة على هذه الوسطى ولم يبينها، فربما يكون ترك بيانها أصلح كما نقول في ليله القدر لأنها إذا لم تبين مفصلة يكون المرء أقرب إلى ما يلزم في حق عبادتها، وإن كان العلماء قد اختلفوا في ذلك فذكروا الصبح والظهر والعصر وذكروا المغرب، والذي يقوى في الخبر هو العصر .

[مسألة] وقالوا : كيف يقول : ﴿ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ [البقرة:٢٣٨] ثم يقول : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً ﴾ [البقرة:٢٣٩] ؟

وجوابنا : أنه فصل تعالى بين حال الأمن وبين حال الخوف الشديد، لكن يتمسك المرء بالمحافظة وإن لم يتمكن من القيام والتوجه في سائر الأركان كما يجب ، فقد روي في الخبر أن المراد بقوله : ﴿ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً ﴾[البقرة:٢٣٩] مستقبلي القبلة وغير مستقبليها إذا كان حال المساق والمحاربة، ولذلك قال تعالى : ﴿ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم ﴾ [البقرة:٢٣٩] أي : كما حده وبينه من أركان الصلاة .

[مسألة] وربما قيل : ما حده الله تعالى في المعتدة عن وفاة زوجها من الحول الذي بينه في قوله : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لأَزْوَاجِهِم مَّتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ ﴾[البقرة:٢٤٠] كيف يجوز أن يكون منسوخاً بقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً ﴾ [البقرة:٢٣٤] مع أنه المتأخر في القرآن، فكيف يجوز في المنسوخ أن يكون هو المتأخر ومعلوم من حال الناسخ أن يكون آخراً ؟

وجوابنا : أنه متأخر في نظم التلاوة وهو متقدم في الإنزال على الرسول ﷺ ، وهذا هو المعتبر، وهذا بمنزلة ما يثبت أن الناسخ فيه مقارن للمنسوخ وإن وجب أن يكون متأخراً . ومن إصحابه أيضاً أن ينزل تعالى المنسوخ أولاً ويتعبد بالتوقف فيه، ثم يرد الناسخ فعنده يؤمر بالعمل به ثم بالعمل بالناسخ ويكون معهما قرائن .

وجعل الله على النساء الفراق بالموت أو الطلاق أو الفسخ مدة احتياط الإنسان فإذا لم يقع الدخول فلا عدة في الطلاق، وتجب العدة في الوفاة . وجملة العدة تكون في الوفاة أربعة أشهر وعشراً إذا لم يكن حمل، فإن حصل الوضع قبلها انقضت العدة به، وفي الطلاق بانقضاء أيام الحيض وهي ثلاث حِيَضٍ وإذا لم يكن ممكناً فبالشهور، وهي ثلاثة أشهر في الحرائر، وفي الإماء على النصف من عدة الحرة .

وكل ذلك ما لم يكن حمل، فإذا كان فالعدة تنقضي بوضع الحمل، وقد بين الله تعالى كل ذلك وبين أيضاً ما يجب للزوجات من نفقة وغيرها .

[**مسألة**] وقوله : ﴿ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ ﴾ [البقرة:١٩٤] وهو أمر بالاعتداء، فكيف يجوز ذلك والاعتداء قبيح ؟

وجوابنا : أنه تعالى أجرى اسم الاعتداء على ما هو مقابل له من الجزاء كقوله : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى:٣٩] ولا يجوز عليه تعالى أن يأمر بالاعتداء مع قبحه .

[**مسألة**] وربما قيل : كيف قال : ﴿ كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ﴾ [البقرة:١٦٧] كيف يصح أن يريهم ذلك في الآخرة ؟

وجوابنا : أنه يحتمل أن يريهم ذلك في الصحف، ويحتمل أن يريهم ثواب عملهم من الجنة لو كانوا قد أطاعوا، فإذا صرف ذلك إلى غيرهم كثرت حسراتهم .

[**مسألة**] وربما قيل : كيف قال تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ ﴾ [البقرة:٢١٠] وكيف يصح ذلك ويتعالى الله عن جواز الإتيان عليه ؟

وجوابنا : أن المراد : إتيان الملائكة أو متحملي أمره، كما قال تعالى في سورة النحل : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ [النحل:٣٣] وهذا كقوله : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ ﴾ [الفجر:٢٢] والمراد : رسل ربك .

[**مسألة**] وربما قيل : كيف قال : ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ [البقرة:٢١٢] ولا يجوز عليه أن يزين الكفر ؟

وجوابنا : أنه لم يقل مَن الذي زين، والمراد : الشياطين وغيرهم ممن يحسن ذلك للكفار، ويحتمل أن يراد أن الله تعالى زين الحياة الدنيا بالشهوات ليكون المكلف بالامتناع من ذلك مستحقاً للثواب، وهذا يكون من قبل الله تعالى لكنه يضيف إلى ذلك النهي والزجر، ولذلك قال : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [البقرة:٢١٢] .

[**مسألة**] وربما قيل : كيف قال تعالى : ﴿ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ [البقرة:١٩٦] ومعلوم في الثلاثة والسبعة أنها عشرة فأيّ فائدة في ذلك ؟

وجوابنا : أن المراد أنها كاملة في الأجر لأنه كان يجوز أن يقدر أن الهدى أعظم أجرًا من هذا الصيام إذا لم يجد الهدى، فبين تعالى أنه مثل ذلك في الأجر، ويحتمل أن يكون المراد أن أجرها في الكمال كأجر من أقام على إحرامه ولم يتحلل ولم يتمتع، وقد قيل : إن المراد أن صوم السبعة وإن فارق صوم الثلاثة فهو كامل، كما يكمل لو اتصل . وقيل : إن المراد بكاملة : مكملة، فكأنه قال تعالى : فأكملوا صومها، وقيل : إن المراد : قطع التوهم بوجوب شيء آخر بعدها .

[مسألة] وربما قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:٢٤٤] ولا اتصال لذلك بما تقدم ؟

وجوابنا : أن المراد أنه سميع لقول القائل عليم بفعله، رغب بذلك في الجهاد والقيام به كما يجب .

[مسألة] وربما قيل : كيف قال تعالى : ﴿ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة:٢١٣] وعندكم قد هدى الله كل الخلق ؟.

وجوابنا : أنه خصهم لما اختصوا بأن قبلوا وعملوا، كقوله في أول السورة ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة:٢] .

[مسألة] وربما قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ﴾ [البقرة:٢٢٠] ولا يجوز عليه تعالى عندكم ذلك ؟

وجوابنا : أن قوله : «لو» يدل على نفي ما ذكر، فدل بذلك على أنه تعالى لا يشاء ما يكون قبيحاً من العنت وغيره .

[مسألة] وربما قيل : ما معنى قوله في قصة طالوت : ﴿ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ﴾[البقرة:٢٤٧] وعندكم أن الملك في الظلم لا يكون من قبل الله تعالى ؟

وجوابنا : أن المراد بالملك الاقتدار والنعمة والرأي الصادر عن العقل، وكل ذلك من جهة الله، أما نفس الظلم فلا يكون من فعله وهو سيئة .

[مسألة] وربما قالوا في قوله عز وجل : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة:٢٤٩] أن ذلك يدل على أن كل غلبة من المحاربين من قبل الله .

وجوابنا : أن الإذن قد يراد به التخلية، وذلك يكون من قبله تعالى لأنه لا يأمر بما يقبح، فأما الغلبة في الجهاد فإنه من قبل الله من حيث وقع بأمره وترغيبه .

[مسألة] وربما قيل في قوله : ﴿ قَالُوا لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ﴾ [البقرة:٢٤٩] كيف قطعوا على ذلك وهو حكاية عن طالوت والذين آمنوا معه ؟

وجوابنا : أن المراد بذلك أنه لا طاقة لنا إلا من قبله على وجه الاتكال على الله تعالى وإضافة الحول والقوة إليه، وقد قيل : إن ذلك هو من قول أهل الشرك فيهم لا من قول المؤمنين .

[مسألة] وربما قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِم ﴾ [البقرة:٢٥٣] فكيف قال : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا ﴾ [البقرة:٢٥٣] أوَمَا يدل ذلك على أنه يريد القتال من الكفار أيضاً وأنه لم يرده من المؤمنين ؟

وجوابنا : أن المراد : مشيئة الإكراه، والمراد : لو شاء الله أن يلجئهم فلم يقتتلوا لكن لم يشأ ذلك، بل مكن من الأمرين تعريضاً للثواب، وقيل : إن المراد بذلك : ولو شاء الله أن لا يقتتلوا بسلب عقولهم لفعل ذلك، لكن اختلفوا لما أعطاهم العقول في القدر ولما اختلفوا، فلو شاء الله أيضاً ما اقتتل الذين من بعدهم بأن يمنعهم من القتال بالقتال .

[مسألة] وربما قيل : إن قوله في قصة طالوت : ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً ﴾ [البقرة:٢٥٠] يدل على أن الصبر من قبل الله وأنتم تقولون أنه من فعل العبد .

وجوابنا : أنهم سألوا من الألطاف ما يقوي نفوسهم على الصبر على القتال كما ذكرناه في قوله : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة:٦] .

[مسألة] وربما سألوا عن قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [البقرة:٢٥٧] وقالوا : إن ذلك يدل على أن الإسلام من فعل الله فيهم.

وجوابنا : أن ذلك كقوله : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾[البقرة:٢٥٧] ومعلوم أنهم لم يفعلوا فيهم الكفر لكنهم رغّبوا ودعوا إلى ذلك، فالمراد أنه تعالى يخرجهم من الظلمات إلى النور بالألطاف التي يفعلها في هذا الباب، والإخراج من الكفر والإيمان في الحقيقة لا يجوز، وإنما يذكر على وجه المجاز والتشبيه في انتقال الأجسام .

[مسألة] وربما قالوا : إن قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ ﴾ [البقرة:٢٥٧] يدل على أنه تعالى عالم بعلمه، وأنتم تقولون أنه عالم بذاته .

وجوابنا : أن المراد بذلك المعلومات، ولذلك قال : ﴿ إِلاَّ بِمَا شَاءَ ﴾ [البقرة:٢٥٧] فأدخل فيه ما يدل على التبعيض، وذلك لا يتأتى إلا في المعلومات .

[مسألة] وربما قالوا:كيف قال :﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾[البقرة:٢٥٧] أفما يدل ذلك على أنه يستوي على الكرسي ؟

وجوابنا : أن المراد بهذه الإضافة أنه مكان لعبادة الملائكة كما يقال في الكعبة: إنها بيت الله، وقد قيل : إن المراد بالكرسي : العلم والقدرة، والأول أصح، أراد تعالى أن يبين قدرته على العظيم من خلقه لتُعْلَم بذلك قدرته على ما عداه .

[مسألة] وربما قيل : إن قوله : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ [البقرة:٢٦٠] يدل على جواز الشك على الأنبياء في مثل ذلك .

وجوابنا : أن طلبه لذلك أن يريه ذلك عياناً من غير تدريج كما يخلق تعالى الحي من النطفة والعلقة، لا أنه لم يعرف الله، فطلب زيادة شرح الصدر، ولذلك قال : ﴿بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة:٢٦٠] .

[مسألة] وربما قيل في قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ﴾ [البقرة:٢٥٨] أن قوله بعد قول ذلك الكافر : ﴿ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾[البقرة:٢٥٨] يدل على أن إبراهيم انقطع في القول الأول وذلك لا يجوز على الأنبياء .

وجوابنا في ذلك من وجوه :

(أحدها) أن خصمه هو المنقطع؛ لأن إبراهيم عليه السلام أراد إحياء من لا حياة فيه فلم يكن له في ذلك حيلة وادعى الإحياء على وجه التبقية، ومع ذلك زاده بياناً آخر لا يمكنه التمويه فيه .

(وثانيها) أنه أراد إثبات الألوهية بأمر لا يصح منا، وذكر إحياء الميت لدخوله في هذه الجملة، فإذا عدل إلى ذكر الشمس وطلوعها فإنما عدل عن مثال إلى مثال لأن الأمثلة تذكر للإيضاح .

(وثالثها) أنه بين له أنه لم يقدر على أن يأتي بالشمس من المغرب مع أن ذلك من جنس الحركات التي يقدر العبد عليها، فكيف يصح منه ما ادعاه في إحياء الميت .

(ورابعها) أنه استأنف له حجة أخرى لما انقطع في الأول وادعى ما هو خارج من جنس الإحياء .

(وخامسها) أن المحاجة من الأنبياء تقع على طريقة الاستدعاء، فلهم أن يؤدوا حالا بعد حال ما يكون أقرب إلى الاستجابة، ولا يقع ذلك على طريقة المناظرة، وإذا كان الله تعالى نبه المكلفين بذكر الأدلة على وجه التحقيق يكلهم بذلك إلى التدبير والتفكر، فالأنبياء صلى الله عليهم وسلم مثل ذلك بحسب ما يغلب في ظنهم من تأثيره فيمن يخاطب بذلك، فلذلك قال تعالى بعده : ﴿ **فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ** ﴾ [البقرة:٢٥٨] لأنه في الفصل الثاني تحير ولم يتمكن من إيراد شبهته كما أورد في الفصل الأول **(فإن قيل)** فلو إنه قال لإبراهيم ﷺ عند قوله :﴿ **فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ** ﴾ [البقرة:٢٥٨] إن كان الله تعالى يأتي بها من المشرق فليأت بها من المغرب فكيف يكون حاله؟ **(قيل له)** لو قال ذلك يسأل ربه أن يأتي بها من المغرب حتى يصير مشاهداً لها، وقوله تعالى بعد ذلك : ﴿ **وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾ [البقرة:٢٥٨] يدل على أنه أراد بالهداية الإثابة أو طريقة الجنة أو الألطاف التي هي زيادات الهدى، فإن الهدى الذي هو الدلالة قد هدى به الظالمين كما هدى به المتقين .

وفي هذه الآية دلالة على بطلان التقليد لأن الأنبياء صلى الله عليهم وسلم إذا لم يقتصروا على قولهم بل استعملوا المحاجة مع خصومهم، فكيف يسوغ لأحد في الديانات التقليد ؟

[**مسألة**] وربما قيل : ما فائدة قوله في الذي ﴿ **مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ** ﴾ [البقرة:٢٥٩] ؟ وأي معنى في هذا السؤال ؟

وجوابنا : التنبيه على قدرته تعالى لأنه ظن أنه لبث يوماً أو بعض يوم، فأراه الله تعالى في أمر الطعام والشراب والحمار ما عرف به قدرته، ولا يجوز في جوابه أن يحمل إلاَّ على الظن، لأن الميت لا يعرف مقدار ما بقي ميتاً إلى أن أحياه الله، وكل ذلك يظهر ويكون معجزة لبعض الأنبياء .

[**مسألة**] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى** ﴾ [البقرة:٢٦٤] كيف يبطل ذلك ؟

وجوابنا : أن المراد بطلان ثوابها بما يقع من المتصدق من المنّ عليهم وأذية قلوبهم نحو أن يقول المتصدق للفقير : ما أشد إبرامك، وخلصنا منكم الله، إلى ما يجري هذا المجرى، فأدب الله تعالى المتصدق بأن لا يكسر قلب الفقير، فكما أحسن في الفعل يحسن في القول، وكذلك مثله : بـ ﴿ **صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً** ﴾ [البقرة:٢٦٤] وأدب أيضاً بقوله : ﴿ **وَلاَ تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ** ﴾ [البقرة:٢٦٧] لأن ما ينفق لله وطلباً للثواب يجب أن لا تكون منزلته دون منزلة ما يتلذذ به في الدنيا وهذا تأديب حسن . وأدب أيضاً بقوله : ﴿ **الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ** ﴾ [البقرة:٢٦٨] فيبعث على البخل وترك الصدقة ﴿ **وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً** ﴾ [البقرة:٢٦٨] فيبعثكم على الصدقة وعلى خلاف الفحشاء والمعاصي . ويحث الله تعالى أيضاً على إخفاء الصدقة بقوله : ﴿ **إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ** ﴾ [البقرة:٢٧١] والعلماء يقولون : إن الأولى في الواجب أن يظهر، وفيما عداه أن يكتم فيكون أقرب إلى أن يكون مفعولاً لذات الله تعالى .

وربما قيل : ما معنى قوله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [البقرة:٢٧٢] مع أن الله تعالى بعثه هادياً ومبيناً ؟

وجوابنا : أن المراد ليس هو الدلالة، لأن الله تعالى قال : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى:٥٢] بل المراد اللطف؛ لأن ذلك ليس في مقدوره ﷺ ولا يعلم الحال فيه، فلذلك قال : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [البقرة:٢٧٢] ويحتمل أن يريد به الثواب لأن ذلك في مقدوره تعالى، فقد كان ﷺ يغتم إذا لم يؤمنوا، فبين أن ذلك ليس إليه .

[مسألة] وربما قيل : إن قوله : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾ [البقرة:٢٧٥] كيف يصح ذلك وعندكم أن الشيطان لا يقدر على مثل ذلك ؟

وجوابنا : أن مس الشيطان إنما هو بالوسوسة كما قال تعالى في قصة أيوب ﴿ مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ [ص:٤١] كما يقال فيمن تفكر في شيء يغمه : قد مسه التعب، ويبين ذلك قوله في صفة الشيطان : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ [إبراهيم:٢٢] ولو كان يقدر على أن يخبط لصرف همته إلى العلماء والزهاد وأهل العقول لا إلى من يعتريه الضعف، وإذا وسوس ضعف قلب من يخصه بالوسوسة، فتغلب عليه المرة فيتخبط كما يتفق ذلك في كثير من الإنس إذا فعلوا ذلك بغيرهم .

[مسألة] وربما قيل في قوله : ﴿ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى ﴾[البقرة:٢٨٢] فجعل العلة ما يعتري من النسيان، وذلك قائم في الرجلين أيضاً فكيف يقتصر عليهما في الشهادة؟

وجوابنا : أن الأغلب في النساء لنقصهن جواز النسيان، وليس كذلك في الرجال، فلذلك فصل بين الأمرين .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَـةَ لَنَـا بِـهِ ﴾ [البقرة:٢٨٦] أن هذا يدل على جواز تكليف ما لا يطاق وإلا لم يكن لهذه المسألة معنى .

وجوابنا : أن مسألة الشيء لا تدل على أن خلافه يحسن أن يفعل، يبين ذلك قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ ﴾ [الأنبياء:١١٢] ولا يجوز أن يحكم بغيره، وقول إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَلاَ تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ [الشعراء:٨٧] ولا يجوز أن يخزي الله تعالى الأنبياء، فبطل ما ذكرته، وبعد فيجوز أن يكون المراد بذلك : ﴿ وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا ﴾ [البقرة:٢٨٦] من العذاب في الآخرة، والطف بنا حتى ننصرف عما يؤدي إلى ذلك .

سورة آل عمران

[مسألة] ربما قيل : إذا كان في القرآن ما يخالف ما في التوراة والإنجيل من النسخ وغيره فكيف يقال: ﴿ **نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ** ﴾[آل عمران:٣]؟

وجوابنا : أن الناسخ به لا يكون مخالفاً لأن المنسوخ تُعُبِّدَ به في وقت ، والناسخ تُعُبِّدَ به بعد ذلك الوقت ، فلا خلاف فيه، وفي شريعتنا ناسخ ومنسوخ، وليس ذلك بموجب أن لا يصدق بعضه بعضاً .

[مسألة] ربما قيل في قوله: ﴿ **وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ * مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ** ﴾ [آل عمران:٣-٤] أفما يدل ذلك على أن الواجب علينا أن ننظر فيهما كما ننظر في القرآن؟

وجوابنا : أن من عرف تلك اللغة وأمن التحريف يحسن منه أن ينظر فيهما، لكنه لا يجب من حيث كان العقل والقرآن يغني عن ذلك، وإنما يمنع من النظر فيهما لما يجري من التحريف الذي لا يميزه مما لا تحريف فيه .

[مسألة] وربما قيل : ما معنى قوله : ﴿ **هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ** ﴾ [آل عمران:٧] ؟ كيف يجوز أن ينزل ما يشتبه والمراد البيان ؟

وجوابنا : أن ذلك ربما يكون أصلح وأقوى في المعرفة، وفي رغبة كل الناس في النظر في القرآن إذا طلبوا آية تدل على قولهم، ويكون أقرب إذا اشتبه إلى النظر بالعقل ومراجعة العلماء، وهذا يجوز أن يعرف المدرس أنه إذا ألقى المسألة إلى المتعلم من دون جواب يكون أصلح ليتكل على نفسه وغيره .

[مسألة] وربما قيل : فما معنى قوله : ﴿ **وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ** ﴾ [آل عمران:٧] كيف يجوز في بعض القرآن أن لا يعلمه العلماء وإنما يؤمنون به وقد أنزله الله بياناً وشفاء ؟

وجوابنا : أن في العلماء من يتأوله على ما تؤول إليه أحوال الناس في الثواب والعقاب وغيرهما، فبين تعالى أنه جل جلاله يعلم ذلك وهو تأويله، وأن الراسخين في العلم يؤمنون بجملة ذلك ولا يعرفونه، ولم يعن بذلك الأحكام والتعبد، وهذا كقوله : ﴿ **هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ** ﴾ [الأعراف:٥٣] وأراد به المتأول، وقال بعض العلماء : المراد أن الراسخين يعلمون أيضاً وهم مع ذلك يؤمنون به، فيجمعون بين الأمرين بأنه قد يعلم معنى الكلام من لا يؤمن به، وقد يؤمن به من لا يعلم معناه بقوله تعالى : ﴿ **وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ** ﴾ [آل عمران:٧] أي : وإلا الراسخون في العلم، ويقولون مع ذلك : ﴿ **آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا** ﴾ [آل عمران:٧] وكلا الجوابين صحيح .

وبيّن تعالى أن من في قلبه زيغ يتبع المتشابه كاتباع المشبهة والمجبرة ظاهر ما في القرآن فذمهم بذلك . والواجب اتباع الدليل، وليس في المتشابه آية إلا ويقترن بها ما يدل على المراد . والعقل يدل على ذلك، فالله تعالى جعل بعض القرآن متشابها ليؤدي إلى إثارة العلم وإلى أن لا يتكلوا على تقليد القرآن، ففيه مصلحة كبيرة .

وقد قيل : إن المراد : لا يعلم تأويله على التفصيل عاجلاً أو آجلاً إلا الله تعالى، وإن كان الراسخون في العلم يعلمون ذلك على الجملة دون التفصيل .

[مسألة] وربما سألوا في قوله فى أول السورة: ﴿ **نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ** ﴾ [آل عمران:٣] ويقولون : إنه تعالى ذكر ذلك ثم كرره بقوله : ﴿ **وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ** ﴾ [آل عمران:٤] وأنتم تمنعون من مثل هذا التكرار في كتاب الله تعالى .

وجوابنا: أن المعنى والغرض إذا اختلفا لم يكن تكراراً، ففي الأول بين أنه أنزل الكتاب بالحق وأنه مصدق لما بين يديه من الكتب، وفي الثاني أن التوراة والإنجيل كما جعلهما هدى للناس كذلك الفرقان جعله هدى ومفرّقا بين الحق والباطل .

[مسألة] وربما قيل في قوله : ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ** ﴾ [آل عمران:١٨] ما فائدة الشهادة منه تعالى ومن لا يعلم ويعرف بصفاته وعدله لا يوثق بقوله ؛ وكذلك شهادة الملائكة فما الفائدة في ذلك ؟

وجوابنا : أنه تعالى قد نبه على طريق معرفته في مثل قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ﴾ [البقرة:٢١] وفي آية المحاجة لإبراهيم ﷺ وغير ذلك، فأراد تعالى أن يحقق التوحيد بذكر شهادة الملائكة والعلماء، ومثل ذلك بعد البيان يكون مصلحة، وليس المراد بذلك الشهادة التي هي مثل البينات في الحقوق، بل المراد التنبيه على وضوح الشيء ووضوح أدلته وبعث السامعين على تأمل طريقته .

[مسألة] وربما قالوا في قوله : ﴿ رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا ﴾ [آل عمران:٨] أن ذلك كالدلالة على أنه يزيغ قلوب البعض من العباد، وأنه يصرفهم عن الهدى .

وجوابنا : ما تقدم من أن السائل قد يسأل من المعلوم أنه تعالى لا يفعل خلافه فليس في هذه المسألة دلالة على أنه تعالى يفعل ببعضهم زيغ القلب كما ليس في قوله : ﴿ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ ﴾ [الأنبياء:١١٢] دلالة على أنه يحكم بالباطل، والمراد أنهم سألوا أن يلطف بهم في أن لا يزيغ قلوبهم بعد الهدى لأن المهتدى قد يحتاج إلى الألطاف ليثبت على ذلك ويزداد هدى إلى هدى .

[مسألة] وربما قالوا : فعلى هذا التأويل سألوا الله تعالى أن يلطف لهم في أن لا يزيغ قلوبهم عن الهدى وهو اللطف، فيجب في قوله : ﴿ وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ﴾ [آل عمران:٨] أن يكون تكراراً لأنّ الأول أيضاً رحمة ونعمة .

وجوابنا : أن المسألة الأولى هي اللطف في باب الدين، والثانية هى التفضل في المعجل في مصالح الدنيا فالمعنى مختلف .

[مسألة] قالوا : لم ذكر تعالى في قوله : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللّهِ فَإِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [آل عمران:١٩] ولا تعلق لوصفه تعالى بأنه سريع الحساب بقوله : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللّهِ ﴾ [آل عمران:١٩] فكيف يصح ذلك ؟

وجوابنا : أن المراد بالحساب المجازاة على ما يأتيه المرء لأن العلماء في الحساب مختلفون، فمنهم من يقول : المراد به بيان ما يستحقه المرء على عمله، ومنهم من يقول : بل المراد نفس المجازاة ، وعلى الوجهين جميعاً للثاني تعلق

بالأول، فكأنه قال : وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ المحاسبة له ولغيره فيظهر ما يستحقه ويحل به، وهذا نهاية في التهديد وفي بيان العدل لأنه تنبيه على أن ما ينزل به من العقاب فهو بحسب ما يستحقه لأنه يفعل به على وجه المجازاة، ولذلك قال تعالى بعده : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران:٣٧] لما كان من باب التفضل .

[مسألة] وربما سألوا عن قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [آل عمران:٢١] ما الفائدة في ذكر قتل الأنبياء بعد الكفر وقتل المؤمنين، ومعلوم أنهم يستحقون العقاب على كفرهم وإن لم يفعلوا شيئًا من ذلك ؟

وجوابنا : أن ما بشر به من العذاب لا يجب أن يرجع إلى مجموع ذلك، بل يرجع إلى كل خصلة منه، فكأنه قال : إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ، إِنَّ الذين يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ فكمثل ذلك، فلا يدل ذكر الكل على ما ذكره لأن الوعيد راجع إلى كل واحد، وقد قيل : إن الآية نزلت في اليهود الذين كان سلفهم بهذه الصفات .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ [آل عمران:١٣] إنما يقع من العباد فكيف أضافه الله إليه ؟

وجوابنا : أن النصر قد يقع من العباد بعضهم على بعض، والأكثر منه ما يقع من الله بأمور يفعلها فتقوى القلوب عندها في الجهاد وغيره .

[مسألة] وقالوا في قوله : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ ﴾ [آل عمران:١٤] إلخ : إذا كان تعالى زينه فكيف يعاقب العبد على ما زينه له ؟

وجوابنا : أنه تعالى لم يذكر من الذي زين، فيحتمل أن يريد من يدعو إلى المعاصي من شياطين الإنس والجن، ويحتمل أنه تعالى زين لهم بالشهوات وخلق المشتهى لكنه يضم إلى ذلك فيما هو معصية التخويف والوعيد وذلك مما يحسن،

ولذلك ذكر المال والخيل والأولاد ثم قال في آخره : ﴿ ذَلِكَ مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ المَآبِ ﴾ [آل عمران:١٤] فرغب في الآخرة العاقبة وزهد في العاجلة، فلهذا تأولناه على أن المراد : ما جبل العباد عليه من الشهوات واللذات، ولذلك قال بعده : ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [آل عمران:١٥] ثم وصفها بما ذكر بعده وأضاف إلى ذلك رضوان الله تعالى، ثم أتبعه بقوله : ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [آل عمران:١٥] ليتصور المرء في كل ما يأتيه أنه تعالى مطلع عليه .

وذكر في وصف الجنة : ﴿ وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ [آل عمران:١٥] والمراد بذلك أنهن مطهرات مما ينفر في الدنيا من حيض وغيره، وقيل : من الذنوب، والأول أقرب لأن فيهن من لم يكلف، ومن كلف منهن فليست الحال حال تكليف فيذكر ذلك .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ العِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ﴾ [آل عمران:١٩] كيف يكون العلم وحصوله طريقاً للاختلاف المذموم ؟

وجوابنا : أن من علم فعاند وبغى فذلك يكون عقابه أعظم، فيحتمل أن يريد بذلك أهل الكتاب الذين عرفوا فعاندوا، ولذلك خص الله تعالى أهل الكتاب بالذكر، ويحتمل أن يكون المراد بقوله : ﴿ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ العِلْمُ ﴾ [آل عمران:١٩] الدلالة وما هو طريق العلم لأن من قصر في النظر فيه يعظم عقابه، ويوصف بأنه قد بغى في ذلك .

[مسألة] وربما قالوا في قوله : ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ﴾ [آل عمران:٢٠] فيقولون : كيف يبطل بذلك محاجتهم ؟

وجوابنا : أن المحاجة إذا كانت بغير الحِجَاج لا تدفع إلا بمثل ذلك ولذلك إذا كان النبي ﷺ قد بيّن وكرر ذلك البيان ثم وقع منهم محاجة صح دفعها بمثل هذا الكلام، والواحد منا إذا بيّن لمن خالف الحق حالاً بعد حال يصح من بعد ؛ وقد كرر على المخالف أن يقول : أنا أتوكل على الله وأستسلم له، وأسلمك فيما تأتيه إلى خالقك، وربما يكون ذلك أوكد وأرفع لباطله ممن أراد الحِجَاج عليه حالاً بعد حال،

ولذلك قال تعالى بعده : ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البَلاغُ ﴾ [آل عمران: ٢٠] فنبه بذلك على أن الإبلاغ قد تقدم منه ﷺ حالاً بعد حال .

[مسألة] وربما سألوا عن قوله : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ المُلْكِ تُؤْتِي المُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ المُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الخَيْرُ ﴾ [آل عمران:٢٦] فقالوا : أضاف تعالى ملك الملوك إلى نفسه ولم يفصل بين الظالم والعادل وقال مع ذلك : ﴿ بِيَدِكَ الخَيْرُ ﴾ [آل عمران:٢٦] والطاعة أجمع من الخير فيجب أن تكون من فعله .

فجوابنا : أن الأصل في كل ملك هو القدرة والعقل والتمكين، ولا يكون ذلك إلا منه تعالى، وإنما يختلف حال الملوك فيما عدا ذلك، فمنهم من يفعل بعد ذلك أنواعاً من أنواع الظلم فيقوى بها، ومنهم من لا يتعدى، فإذا حملنا الملك على ما ذكرناه أولاً وهو الأصل فكل ذلك مضاف إلى الله تعالى، وهو الذي يؤتيه، وهو الذي ينزعه فأما العز فلا يكون في الحقيقة إلا من الله تعالى على كل حال، لأن من يعز بالمعاصي فهو ذليل، ولذلك لا يعد الكفر عزاً وإن كان بعضهم يعز بعضاً بذلك .

وبعد فإنه تعالى ذكر أولا أنه مالك الملك، وأن ما يملكه يؤتيه من يشاء وينزعه عمن يشاء، فلا يدخل في ذلك ما لا يضاف إلى ملكه من ظلم الظلمة .

فأما قوله تعالى : ﴿ بِيَدِكَ الخَيْرُ ﴾ [آل عمران:٢٦] فالمراد أنه لا وصول إلى الخير إلا بالله تعالى، وعلى هذا الوجه نقول في الطاعات : إنها من الله لما كان المطيع لا يصل إلى فعلها إلا بأمور من قِبَله وقصده بتلك الأمور أن يفعل الطاعة فينال الثواب، ولذلك قال تعالى بعده : ﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتَ وَتُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران:٢٧] فذكر ما هو كالأصول لمنافع الخلق وسائر ما يصلون به إلى الملك وغيره .

[مسألة] وربما قيل في قوله : ﴿ لاَ يَتَّخِذِ المُؤْمِنُونَ الكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ المُؤْمِنِينَ ﴾[آل عمران:٢٨] كيف يصح ذلك ومعلوم من حال كثير منهم أنهم يتخذونهم أولياء؟

وجوابنا : أن ذلك بمعنى النهي، ولذلك قال بعده : ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ ﴾ [آل عمران:٢٨] **فإن قيل** : فما المراد بهذه الولاية ؟ **فجوابنا** : أنها الولاية الراجعة إلى الدين دون ما يتصل بأمور الدنيا، لأن للمؤمن معاملة الكافر ومعاوضته ومعاشرته في الأكل وغيره، وإنما يحرم عليه أن يتولاه في باب الدين بالمدح وبالذب عنه فيما يتصل بالدين .

[مسألة] وربما قيل : ما معنى قوله : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ [آل عمران:٣٠] ومعلوم أن المحذِّر غير المحذَّر منه، فكيف يصح ذلك ؟

وجوابنا : أنه تعالى يذكر نفسه على وجه التأكيد وطريقة اللغة تشهد بذلك، والمراد بذلك التحذير من عقوبته ليتوقَّى المرء من المعصية لأجل ذلك، وذلك معقول في الشاهد، لأن الوالد قد يقول لولده وقد نهاه عن العقوق وغيره : وأنا أحذرك نفسي، فاتق الله فيما تأتي وتذر، ويعني بذلك المجازاة والتأديب ، ولذلك قال بعده : ﴿ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [آل عمران:٣٠] لأن من جملة الرأفة هذا التحذير الذي هو طريق الثواب وزوال العقاب .

[مسألة] وربما سألوا في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾[آل عمران:٣٣] وذلك يدل على أنه يخصهم بهذا الفضل ؛ وذلك يوجب أن فضلهم من قبل الله تعالى .

وجوابنا : المراد أنه اصطفاهم بالنبوة والرسالة وذلك لا يكون إلا من قبله تعالى وإن كان جل وعز لا يختارهم إلا لأمور كثيرة كانت من قبلهم، وتكون أيضاً من قبلهم فيما بعد . وربما أورد ذلك **من يقول** : إن الأنبياء أفضل من الملائكة . **وجوابنا** : أن المراد بذلك اصطفاهم بالرسالة على عالمي زمانهم، وذلك لا يتأتى في الملائكة لأن الملائكة كلها رسل على ما ذكره الله تعالى . واختلفوا في العالمين، فقال بعضهم : يدخل فيه كل الخلق، وقال بعضهم : العقلاء ومن هو من جنسهم، وقال بعضهم : الناس دون غيرهم لأنهم الذين يظهر فيهم الجمع والتفريق، ولذلك يقول

القائل : جاء في عالم من الناس، ولا يقول : جاء في عالم من البقر، وكل ذلك يزيل هذه الشبهة خصوصاً وقد ثبت بآيات كثيرة أن الملائكة أفضل كما ثبت أن نبينا ﷺ أفضل، فكما لا يمكن في هذه الآية أن يقال : إن هؤلاء الأنبياء أفضل من رسولنا ﷺ فكذلك ما ذكرناه في الملائكة .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ ﴾[آل عمران:٤٢] أنه يدل على أنه جعلها صالحة لأنها لم تكن نبية .

وجوابنا : أنه تعالى خصها بولادة عيسى عليه السلام من بين سائر النساء وذلك من قبل تعبدها .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً ﴾ [آل عمران:٣٥] كيف يصح تحرير ما في البطن ؟

وجوابنا : أن المراد بذلك أنها نذرت أن يكون ما في بطنها مسلماً لله تعالى ذكراً كان أو أنثى، موفراً على عبادة الله تعالى . وقد كان مثل ذلك من عبادات ذلك الزمان، فلذلك قال تعالى : ﴿ فَتَقَبَّلْ مِنِّي ﴾ [آل عمران:٣٥] ولذلك قال : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً ﴾ [آل عمران:٣٧] وكل ذلك لما في المعلوم من أمر عيسى عليه السلام .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى ﴾ [آل عمران:٣٦] ما الفائدة في ذكر ذلك ؟

وجوابنا : أنه كان التعبد فيما يحرر من الحمل في الذكر يخالف التعبد في الأنثى فلذلك قال : ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ [آل عمران:٣٦] فبين حكم الأنثى وبين أنه مخالف لحكم الذكر .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا ﴾ [آل عمران:٣٧] كيف يجوز ذلك وليست نبية والمعجزات لا تظهر إلا على الأنبياء ؟ فإن قلتم : ظهر على زكريا فكيف يصح أن يسألها فتقول : هو من عند الله وعليه ظهر ؟

وجوابنا : أن ذلك من معجزات زكريا فإنما قال لها : أنى لك هذا لا لأنه لم يعلم أن ذلك من معجزاته، لكن ليعرف حالها وما تعتقده في ذلك، فلذلك قال تعالى : ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴾ [آل عمران:٣٨] لأنه عرف منها اليقين، فلما أعجبه ذلك سأل الله أن يرزقه ولداً فبشره الله بيحيى على ما نطق به الكتاب .

[**مسألة**] وربما قيل في قوله : ﴿ **ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ** ﴾ [آل عمران:٤٤] كيف يصح ذلك وقد كان هذا الخبر موجوداً عند النصارى وغيرهم ؟

وجوابنا : أنه ﷺ لم يخالطهم مخالطة يقف بها على تفصيل هذه الأمور وكان كسائر العرب، فبيّن تعالى أنه قد خُصَّ بهذا الغيب ليعرف به صحة نبوته، ولذلك قال : ﴿ **وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ** ﴾ [آل عمران:٤٤] فحكى تفصيل ما كان يجري في أمر مريم وذلك من أعظم معجزاته ﷺ ، وربما قيل في قوله : ﴿ **إِذْ قَالَتِ المَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ المَسِيحُ** ﴾ [آل عمران:٤٥] كيف قالت الملائكة لها وليست نبية ؟

وجوابنا : أنها قالت في زمن نبي وهو زكريا، وذلك مما يجوز عندنا، وعلى هذا الوجه يحمل ما روى أن جبريل عليه السلام ظهر في صورة دحية الكلبي بحيث يراه الناس .

[**مسألة**] وربما قيل : ما معنى يبشرك بكلمة منه ؟ وما فائدة تسمية عيسى عليه السلام كلمة مع أنه جسم والكلمة لا تكون إلا عرضاً ؟

وجوابنا : أن ذلك في وصف عيسى مجاز عندنا، والمراد أنه يكون حجة ودلالة كالكلام، وإن كان في العلماء من يحمله على الحقيقة ويزعم أنه مخلوق من كلمة كن، فهو إذاً كلمة، وربما جعلوه كلمة لا من جنس الكلام، والذي قلناه أصوب .

[**مسألة**] ويقال : كيف يجوز أن يتكلم في المهد وذلك مخالف للعادة ؟ وكيف يقوى لسان الصبي على الكلام ويتكامل عقله ؟

وجوابنا : أنه من حيث خرج عن العادة صار معجزاً، وإنما قواه الله على الكلام وأكمل عقله في ذلك الحال، رجعل ذلك معجزة لشدة الحاجة في براءة ساحة أمه عما كان يذكر عند ولادتها، ولو تأخر ذلك لكان مفسدة، ومتى ظهر ذلك منه وهو صغير كان أقوى في الباب وأبلغ، إنما يكمل عقله وقوته بعد ذلك، فالله تعالى هو قادر على ذلك في حال الصغر، وإنما لا يفعل في غيره إلا في حال الكبر للعادة والمصلحة، فإن للآباء مصالح في نشوء الأولاد على هذا الترتيب، ولولا ذلك لكان الصغير كالكبير في جواز كمال العقل، ولذلك يختلف كمال العقل، فهو في واحد أسرع منه في آخر .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ ﴾ [آل عمران:٤٩] لا يجوز أن يكون عيسى خالقاً .

وجوابنا : أنه من حيث اللغة كل من قدر فعله ضرباً من التقدير يوصف بذلك، وإن كان من حيث الشرع لا يطلق فيه بل يقيد، كما لا يقال : إن فلانًا رب دون أن يقيد بذكر داره وعبده، **(فإن قيل)** أفكان يحيي الموتى كما أضافه الله تعالى إليه ؟ **(قيل له)** ليس كذلك لأنه تعالى أضاف إليه خلق الطير من الطين ولم يضف إليه الإحياء بل قال : ﴿ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران:٤٩] فأضافه إلى الله لما كان هو المحيي عند ادعائه النبوة، وإنما أضيف إليه من حيث كان هو السبب في ذلك .

وجعل من معجزاته أيضاً أنه ينبئهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم لأن مثل ذلك لا يعرفه الغائب إلا من جهة الله تعالى، فلذلك قال:﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ ﴾ [آل عمران:٢٩]

[مسألة] وربما قيل في قوله : ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ [آل عمران:٥٥] كيف يصح مع أن الله تعالى لم يتوفه بل رفعه الله ؟

وجوابنا : أن العطف بالواو لا يوجب الترتيب، فرفعه الله ثم توفاه وذلك جائز أيضاً أن يكون توفاه من حيث لم يشعر به، ثم رفعه فأعاد حياته .

وربما سألوا في ذلك عن قوله : ﴿ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [آل عمران:٥٥] وما الفائدة في ذلك ؟

وجوابنا : أن المراد : يطهرك من أعمال الكفار ومن أحكامهم ومن الإضلال بهم على وجه يؤثر في حال النبوّة . وربما سئل أيضا عن قوله : ﴿ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [آل عمران:٥٥] فقيل : ما معنى ذلك ومعلوم أن من اتبعه لا شك أنه فوق الكفار ؟

وجوابنا : أن المراد أنه جعلهم فوقهم في كثير من مصالح الدنيا لأن ذلك هو الذى يصح الاشتراك فيه دون ما يتصل بأمر الآخرة مما لا يصح الاشتراك فيه بين المسلم والكافر، ولذلك قال : ﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [آل عمران:٥٥]

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾ [آل عمران:٥٦] فيقال : إنهم في الدنيا يتمتعون لا يلحقهم شيء من العذاب فكيف يصح ؟

وجوابنا : أن ذلك في الكفار المخصوصين في أيام عيسى ﷺ ، فلا يمنع أن يلحقهم بعض عذاب الدنيا ولو لم يكن إلا الذم واللعن والحدود لكان ذلك كافيًا في عذاب الدنيا، والكفار في أيامنا قد يلحقهم العذاب من القتل والقتال ومن أخذ الجزية إلى ما شاكله، واختلفوا فقال بعضهم في أمراضهم : إنها تجوز أن تكون عذابا وإن كان في العلماء من يمنع ذلك .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران:٥٩] كيف يجوز أن يخلقه ثم يقول : ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران:٥٩] وقد تقدم خلقه له وذلك يتناقض ؟

وجوابنا : أن المراد خلق آدم من تراب، ثم قال له كن حيًّا وعلى سائر الصفات، فالذي كونه من حياته وغيرها هو غير الذي خلقه من قبل . وكذلك القول في عيسى أنه خلق الصورة ثم قال له : كن على المثال هذا ، هذا متى حمل قوله كن على الحقيقة .

فأما إذا أريد بذلك أنه كوّنه (فالمراد أنه كونه)[1] حيًّا بعد أن خلق الشخص فلا تناقض في ذلك، وإنما بيَّن تعالى بأنه مثل آدم أنه مخلوق لا من شيء متقدم يجري مجرى الأصل له، كالنطفة والعلقة لتعرف قدرته على ابتدائه، وليعلم أصحاب الطبائع بطلان قولهم، فقد كان في ذلك الزمان فيهم كثرة .

[مسألة] وربما قيل في قوله : ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ ﴾ [آل عمران:٦١] كيف ترفع محاجة النصارى في عيسى إذ قالوا : إنه الله، وإنه ابن الله، ومحاجة اليهود إذ كذَّبوا بولادته من غير ذكر بالمباهلة التي ذكرها الله ؟

وجوابنا : أن الحجة في إبطال قولهم إذا ظهرت ولم يقع القبول وعلم الله تعالى أن في المباهلة مصلحة لم يمنع ذلك، ومعلوم أن عند المباهلة والملاعنة يخاف المبطل، فربما يكون ذلك من أسباب تركه الباطل، إما ظاهرًا وإما باطنًا، ولذلك قال تعالى بعده : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ﴾ [آل عمران:٦٢] لأن ما ينذر ويخوف يوصف بذلك ثم قال : ﴿ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ [آل عمران:٦٢] دفعاً لقول النصارى في باب التثليث ثم قال: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ [آل عمران:٦٣] .

ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران:٦٤] دفعاً لقول النصارى، ثم قال : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:٦٤] ثم بيّن بطلان قولهم : إن إبراهيم كان على ملتهم بقوله : ﴿ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [آل عمران:٦٥] وبيَّن بقوله : ﴿ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ﴾ [آل عمران:٦٦] أن المقلد والمبطل في المحاجة مخطئ لأنه يحاج فيما لا علم له به، وبعث بذلك على النظر في الأدلة لأن هذا الناظر العالم هو الذي إذا حاج غيره يكون محاجاً فيما له به علم .

---

(١) ما بين القوسين غير موجود بالأصل المطبوع وأثبته من النسخة المخطوطة . اهـ . مصححه .

وبيّن أن أولى الناس بإبراهيم من اتبعه ونبينا ﷺ لأنه على ملته في الحج وغيره وإنما وصف إبراهيم بأنه كان حنيفاً مسلمًا لأنه كان على هذه الملة وإن كان في شريعة نبينا ﷺ زيادات وتفصيلات، وفي قوله بعد ذلك : ﴿ وَدَّت طَّائفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ ﴾ [آل عمران:٦٩] دلالة على أن الله تعالى لا يضل عباده ولا يخلق الضلال والكفر فيهم لأنه لو كان كذلك لما نسب الإضلال إلى أهل الكتاب ولما نسب إضلالهم إلى أنفسهم .

[مسألة] ويقال : كيف قال تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران:٧٠] ثم قال : ﴿ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ [آل عمران:٧٠] كيف يكونون كفاراً بما يشهدون ؟

وجوابنا : أن المراد أنهم يكفرون بالآيات وهم يعرفونها ويشاهدونها فينصرفون عن النظر فيها ويتبعون الشبهة والتقليد، ولذلك قال بعده : ﴿ لِمَ تَلْبِسُونَ الحَقَّ بِالْبَاطِلِ ﴾ [آل عمران:٧١] ولا يمتنع أنه كان فيهم من يعرف الحق في نبوّة نبينا ﷺ ويعاند، فقد كان فيهم من علم البشارة بمحمد ﷺ في الكتب وكانوا يلبسون ذلك على العامة، ثم ذكر بعده : ﴿ إِنَّ الفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران:٧٣] يعني الألطاف وأنه يخص بذلك من يشاء، من المعلوم أنه عند ذلك يختار الإيمان .

ثم بين تعالى بقوله : ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران:٧٨] أن ليهم ألسنتهم بذلك من فعلهم لا من خلق الله فيهم، وإلا كان حق من ينسب ذلك إليه هو الله تعالى لوجب أن يقال : هو من عند الله ولما صح أن يقول تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ ﴾ [آل عمران:٧٨] ونزّه تعالى عيسى عن قول النصارى بقوله : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِّي مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران:٧٩] فإن أكثر النصارى يقولون بعبادة عيسى ﷺ .

[مسألة] وربما قيل في قوله : ﴿ **أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً** ﴾ آل عمران:٨٣] كيف يصح ذلك وقوله : ﴿ **أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ** ﴾ [آل عمران:٨٣] يدل على نفي الإسلام عنهم وقوله : ﴿ **وَلَهُ أَسْلَمَ** ﴾ [آل عمران:٨٣] يدل على إثبات الإسلام وهذا يتناقض ؟

وجوابنا : أن المراد بقوله : ﴿ **وَلَهُ أَسْلَمَ** ﴾ [آل عمران:٨٣] الاستسلام والانقياد وليس المراد اختيار الدين والإسلام، فبين تعالى أنه قادر على أن يجعلهم كذلك لكنه لا ينفعهم إلا إذا اتبعوه اختيارًا، فلذلك قال : (**طوعًا وكرهًا**)، وأمر نبيه ﷺ أن يقول : ﴿ **قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ** ﴾ [آل عمران:٨٤] إلى قوله : ﴿ **لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ** ﴾ [آل عمران:٨٤] فبين أنه قد آمن ومع ذلك هو مسلم، أي : منقاد لله تعالى على وجه الاختيار، وأن هذا هو الذي ينفع، وبيّن بقوله:﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ**﴾[آل عمران:٨٥] أن الدين كله هو الإسلام، والإسلام هو الدين وأن ما عدا ذلك ليس من الدين والإسلام، وبيّن أن من ليس بمسلم من الخاسرين في الآخرة .

[مسألة] وربما قيل : كيف يقول تعالى : ﴿ **كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ** ﴾ [آل عمران:٨٦] وعندكم أن الله قد هدى الكافرين ؟

وجوابنا : أنه قد هداهم بالأدلة، والمراد بهذا الهدى هو الثواب وطريق الثواب، ولذلك قال بعده : ﴿ **وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾ [آل عمران:٨٦] فخصهم بنفي الهدى عنهم ثم بين ما نفاه عنهم بقوله : ﴿ **أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ** ﴾ [آل عمران:٨٧-٨٨] فبين أنه لم يهدهم إلى الجنة بل عاقبهم بهذه العقوبة .

[مسألة] وربما قيل : كيف قال تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ** ﴾ [آل عمران:٩٠] وكيف يجوز أن يتوبوا فلا تقبل توبتهم مع بقاء التكليف ؟

وجوابنا : أنه لم يذكر متى تابوا، فيحتمل أنهم كفروا ثم تابوا وأرادوا الكفر ومن ازداد كفراً فتوبته المتقدمة لا تؤثر، لأنه قد أفسدها زيادة الكفر، ولذلك قال بعده: ﴿ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴾[آل عمران:٩٠] وهذا خبر عن قوم مخصوصين كان هذا حالهم فلا يمكن أن يقال : إن توبة كل كافر لا تقبل، ويحتمل أن توبتهم عند المعاقبة لا تقبل.

وقد روى أيضاً أن الآية نزلت في قوم ارتدوا وقالوا : نقيم ما أقمنا على ارتداد، فإذا حصلنا عند أهلنا أظهرنا التوبة لتقبل ذلك منا، فمن يظهر التوبة وباطنه بخلاف ذلك لا تقبل توبته، ومعنى قوله : ﴿ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً ﴾ [آل عمران:٩٠] أنهم جحدوا بنبوّة محمد ﷺ .

[مسألة] وربما قيل : ما معنى قوله تعالى : ﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران:٩٢] وقد ينفق المرء ما لا يحبه ويعد في البر ؟

وجوابنا : أن كل ما يخرجه المرءُ من وجوه البر لا بد من أن يحبه المرء ويريد الانتفاع به، ولولا ذلك لم يستحق الثواب عليه، ويحتمل أن يريد تعالى ترغيب المرء في أن لا يتصدق إلا بأحب الأموال وأنفسها كما قال تعالى : ﴿ وَلاَ تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ﴾ [البقرة:٢٦٧] ولذلك قال بعده : ﴿ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران:٩٢] فيجازي بحسب ذلك .

[مسألة] وربما قيل : ما معنى قوله : ﴿ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ [آل عمران:٩٣] والتحريم يكون من قبل الله تعالى لا من قِبَل الأنبياء ؟

وجوابنا : أنه لا يمتنع في شريعته أن يحرم على نفسه الشيء فيحرم، كما أن في شريعتنا أن نوجب على أنفسنا أشياء بالنذر فتجب ، فهذا أقرب ما يتأول عليه، وذلك لأن سبب التحريم والإيجاب من قبل العبد، وإن كان الله تعالى أوجب ذلك، وهذا كما إذا أحرم المرء لزمه من المناسك ما كان لا يلزمه لولا إحرامه، وذلك كثير في العبادات .

[مسألة] وربما قيل : ما معنى قوله : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران:٩٦] ومعلوم أن قبله كانت الدنيا والمنازل ؟

وجوابنا : أن معنى قوله : ﴿ وَضِعَ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران:٩٦] لِيُعْبَدَ الله عنده، فهو أول بيت وضع لذلك، ولذلك قال : ﴿ وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران:٩٦] في وصفه، ولذلك قال بعده : ﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً ﴾ [آل عمران:٩٧] ولذلك قال بعده : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ [آل عمران:٩٧] وهذا من أقوى ما يدل على أن الإنسان قادر قبل أن يحج وقبل دخوله في الحج بخلاف قول المجبرة والقدرية فيه .

[مسألة] وربما قيل : فلماذا قال : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران:٩٧] ؟ وما المراد بذلك ؟ وما الفائدة في أنه غني عنهم إذا كفروا وهذه صفتهم لو آمنوا أيضاً ؟

وجوابنا : أن المراد : ومن كفر بأن جحد وجوب الحج وقَصْد هذا البيت، وبيَّن قوله : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران:٩٧] أن ما لزمهم عند هذا البيت إنما أوجبه لمصالحهم لئلا يقدر أنه تعالى يوجب لا لهذا الوجه، فلذلك أطلق قوله بأنه غني عن كل العالمين، وقد روى عن رسول الله ﷺ أن المسجد الحرام أول مسجد وضع، ثم المسجد الأقصى، وروي أن اليهود فضلت بيت المقدس على الكعبة وفضل المسلمون الكعبة، فنزلت هذه الآية تصديقاً لقول المسلمين .

[مسألة] ويقال : ما معنى قوله : ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ﴾ [آل عمران:١٠١] ومعلوم أن هذين الأمرين قد كفر بهما الخلق، وهما لا يوجبان إيمان المكلفين، فما الفائدة في ذلك ؟

فجوابنا : أن قوله : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ ﴾ [آل عمران:١٠١] هو على التوبيخ والذم لهم من حيث كفروا مع ظهور آيات الله وظهور أمر الرسول، مع أن ذلك يوجب الإيمان إيجابا، وإنما يقتضي أن يختار المرء الإيمان بهما وقد ظهرا واتضحا، ولذلك قال بعده : ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [آل عمران:١٠١] والمراد : من يعتصم بكتابه وبرسله فيعمل بما يقتضيان العمل به ﴿ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [آل عمران:١٠١] ومن لم يفعل فقد ضل وكفر .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران:١٠٢] أنه يدل على لزوم التقوى فوق استطاعته، فقد روى عن بعض من لا يحصل أنه منسوخ بقوله : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن:١٦] .

وجوابنا : أن حق تقاته لا يكون إلا ما يستطيعون؛ لأنه تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها، فلا اختلاف بين الآيتين، ولذلك قال : ﴿ وَلاَ تَمُوتُنَّ ﴾ [آل عمران:١٠٢] فإن من حق تقاته أن يتمنى المرء حتى يموت مسلمًا، ولذلك قال بعده : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً ﴾ [آل عمران:١٠٣] فدل إلى الاجتماع أيضاً وعلى التقوى وترك الاختلاف فيه، ولذلك قال بعده : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ﴾ [آل عمران:١٠٣] فإن من أعظم نعم الله زوال التحاسد والتباغض والتنافس عن القوم ولهذا قوى أمر الرسول ﷺ لما انقادوا له على عظم محلهم، وكان من قبل لا ينقاد بعضهم لبعض، وحبل الله هو دينه وشرعه والتمسك بكتابه وسنة رسوله، ولذلك قال : ﴿ وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾[آل عمران:١٠٣] ولـذلك قـال : ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٣] والمراد : لكي تهتدوا، فدل بذلك على أنه أراد الاهتداء من جميعهم، وقوله تعالى بعده : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾[آل عمران:١٠٤] يدل على أنه أوجب على طائفة ممن يهتدون بالآيات أن يدعوا إلى الخير ويأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر وأنهم المفلحون، وهم العلماء الذين يدعون إلى الله ، ولذلك قال ﷺ :« **العلماء أمناء الرسول على عباد الله** » .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [آل عمران:١٠٦] فيقال : أفما يدل ذلك على أن ليس في المكلفين إلا كافر ومؤمن، بخلاف قولكم أن بينهما فاسقاً لا يوصف بأنه مؤمن ولا كافر ؟

فجوابنا : أن ذلك إن دل على ما قلت فيجب أن يدل على أن ليس فيهم إلا كافر مرتد لقوله : ﴿ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ [آل عمران:١٠٦] وقد ثبت خلاف ذلك، وإذا

جاز إثبات كافر أصلي لم يذكره تعالى جاز إثبات فاسق لم يذكره تعالى، ومعلوم أن الموحد المصدق بالله ورسوله إذا أقدم على شرب الخمر والسرقة والزنا لا يوصف بأنه مؤمن مطلقاً، لأن المؤمن هو الذي يمدح ويعظم وهؤلاء يلعنون، ولا يوصف بأنه كافر لأن الكافر هو الذي يختص بأحكام من قبله وغيره وليس في إثبات وصفين دلالة على نفي ثالث، وأتبعه تعالى بقوله : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران:١٠٨] فبين أنه لا يريد إلا الحق، ونزّه نفسه عن إرادة الظلم .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران:١١٠] كيف يصح ذلك وفي جملة أمته الفساق ومن يفسد في الأرض، ومَنْ هذا حاله لا يوصف بهذا الوصف ؟

وجوابنا : أن ذلك إشارة إلى أمة الرسول ﷺ في أيامه، والمراد أن الخيار فيهم أكثر، والتفاضل إذا كان في جميع لا يراد به كل عين، فمتى قيل : إن أهل بلد أصلح من أهل بلد آخر لا يراد به ذِكر كل واحد، بل المراد ما يرجع إلى جماعتهم من كثرة خيارهم، وبيّن ذلك بقوله : ﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [آل عمران:١١٠] وذلك لا يرجع إلى كل واحد .

وقد قيل : أراد تعالى أهل الصلاح فيهم، فلا يدخل من عداهم فيه بدليل قوله من بعد : ﴿ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران:١١٠] فبين في هذه الآية أنها خالصة عن الشر، بخلاف أهل الكتاب، ويحتمل في قوله : ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران:١١٠] أن يدل على صحة الجواب الأول، فنبه بأن الأكثر منهم فساق بخلاف هذه الأمة التي الأكثر منها أهل الخير .

ويقوي من يقول بالوجه الآخر قوله تعالى : ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ [آل عمران:١١٣-١١٤] فدل ذلك على أن المراد بالأول من يختص بالخير دون أهل الشر.

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً ﴾ [آل عمران:١١٦] ثم قال : ﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ ﴾ [آل عمران:١١٧] كيف يصح ذلك والمعلوم من حال الكافر أنه ينتفع بما ينفقه في وجوه البر، ويكون ذلك تخفيفًا في عقابه ؟

وجوابنا : أن المراد بذلك أن ما ينفقه لا يحصل له ثمرته من الثواب، وإن كان عقابه أقل من عقاب كافر لم يفعل من البر ما فعله، ولذلك قال تعالى بعده : ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[آل عمران:١١٧] وهذا دلالة على أنه تعالى منزه عن الظلم، ولو كان هو الذي خلق الكافر وكفره ليدرجه إلى النار لما صح هذا التنزيه .

[مسألة] وربما سألوا عن قوله : ﴿ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم ﴾ [آل عمران:١١٠] والله تعالى قال بعده : ﴿ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾[آل عمران:١١٠] وذلك تناقض .

وجوابنا : أن المراد : لو آمن من لم يؤمن منهم ؛ لأنه لا يصح إلا فيهم، وقوله : ﴿ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [آل عمران:١١٠] يعني من تقدم إيمانهم، فلا تناقض في ذلك .

[مسألة] وربما قالوا : كيف يقول تعالى : ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى ﴾ [آل عمران:١١١] والأذى هو الضرر، فكأنه قال : لن يضروكم إلا ضررًا ؟

وجوابنا : أن المراد أنهم لا يتمكنون إلا من الضرر اليسير بما يكون من كلامهم، ولذلك قال بعده : ﴿ وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ﴾ [آل عمران:١١١] وقال : ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ ﴾ [آل عمران:١١٢] وبين أنهم لا يضرون المسلمين الضرر الذي يظنون، وإنما ينالهم من جهتهم التأذي، فالكلام متفق .

[مسألة] وربما قيل : ثم وصف جل وعز أهل الكتاب إلى أن قال : ﴿ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ [آل عمران:١١٢] ثم قال : ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً ﴾ [آل عمران:١١٣] فما المراد بذلك وقد وصفهم بالكفر وبهذه الصفات ؟

وجوابنا : أنه لما قصد وصف الكثير منهم بذلك بين أنهم يقاربون في ذلك لئلا يقدر بأن حالتهم واحدة، ويحتمل أن بعضهم آمن، فلذلك قال : ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً ﴾ [آل عمران:١١٢] وقوله من بعد : ﴿ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران:١١٣] يقوى الوجه الثاني .

[مسألة] وربما قيل في قوله : ﴿ هَا أَنتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ ﴾ [آل عمران:١١٩] إلى قوله : ﴿ وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ﴾[آل عمران:١١٩] كيف يجوز أن يحبهم مع نفاقهم ؟

وجوابنا : أن المنافق والكافر يلزمنا أن نحب صلاحه في الدين والدنيا، وإن كانوا (كفاراً يلعنهم في الحال، فحق وصفنا بأنا نحبهم وإن كانوا) [1] لا يحبون شيئاً من مصالحنا، وهذا كما يريد تعالى صلاحهم وأن يلطف لهم وإن كانوا هم لا يحبون طاعة ربهم وعبادته .

[مسألة] وربما قيل في قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [آل عمران:١٢٠] كيف يصح أن يكون محيطًا بعملنا والإحاطة لا تجوز إلا على الأجسام وما يجري مجراها ؟

وجوابنا : أن المراد إحاطة علمه بما نعمل، وذلك مشبه بالجسم المحيط بغيره، فكما أن ذلك الغير لا يخرج عما أحاط به فكذلك أعمالنا لا تخرج عن أن تكون معلومة لله ، وذلك من الله تعالى ترغيب في عمل الخير وتحذير من المعاصي .

[مسألة] وربما قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ [آل عمران:١٢٣] كيف يوصف الفضلاء من أصحاب رسول الله ﷺ بأنهم أذلة ؟

وجوابنا : أنه تعالى نبه بقوله : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران:١٢٣] على أن المراد بقوله : ﴿ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ [آل عمران:١٢٣] قلة العدد والعدة والآلات والخوف من غلبة الكفار، ولم يرد الذل الذي يجري مجرى الذم والنقص، ومنه يقال لقليل العدد إذا

---

(١) ما بين القوسين زيادة في النسخة المخطوطة عن الأصل المطبوع . ا هـ . مصححه .

كان في مقابلتهم الجيش العظيم : إنهم أذلة، ولذلك قال بعده : ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴾ [آل عمران:١٢٤] فبين أنه نصرهم بهم وأخرجهم من أن يكونوا أذلة .

[مسألة] وربما قيل: كيف يجوز: ﴿ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ ﴾ [آل عمران:١٢٤] مع أن صورة الملائكة بخلاف صورة البشر منا، فكيف يصح ذلك ؟

وجوابنا : أنه تعالى يغير خلقهم حتى يكون الظاهر منهم مثل صورة الإنس رجالاً وركبانًا، والله تعالى قادر على ذلك، وبهذا القدر لا يخرجون من أن يكونوا ملائكة لأن ما لأجله صاروا ملائكة من الصورة ثابت فيهم .

[مسألة] وربما سألوا فقالوا : كيف يقال للكفار : ﴿ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ﴾ [آل عمران:١١٩] فيأمر نبيه بأن يبقوا على الكفر لأنهم إن لم يبقوا عليه لم يموتوا بغيظ المؤمنين ؟

وجوابنا : أن ذلك بصورة الأمر، وهو دعاء بهلاكهم كما يقول الإنسان لمن يخالف في الحق : مت كمداً، وذلك مشهور في اللغة .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران:١٢٦] إن ذلك يدل على أن فعل المجاهد خلقه .

وجوابنا: أن المراد أن مجموع النصر لا يتم إلا بأمور من قبله وإن كان لا بد من سعي المجاهد، وهذا كما تقول في فضل الابن وعلمه : إنهما من جهة الوالد، لما كان ذلك لم يتم إلا بأمور من قبله، ولذلك قال بعده : ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ ﴾ [آل عمران:١٢٧] .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ [آل عمران:١٢٨] إنه قد نفى أن يكون له ﷺ فعل وصنع، وذلك بخلاف قولكم .

وجوابنا : أن المراد أنه ليس له في تدبير مصالح العباد وما يكون صلاحاً لهم في الدين شيء، لأن كل ذلك من قبله تعالى، وليس المراد نفي صنعه وفعله، وكيف

يجوز ذلك وقد نصبه مبشراً ونذيراً وقال : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر:٦٥] وأضاف له الطاعة ومدحه بضروب المدح .

وقوله تعالى من بعد : ﴿ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ ﴾ [آل عمران:١٢٨] يدل على أن المراد بذلك ما قدمنا لأنه بين أن صلاحهم يحصل بالتوبة ولا يحصل بمحبته ﷺ .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٣١] كيف يصح أن يصفها بأنها أعدت للكافرين، ويقولون فيمن ليس بكافر من الفساق : إنه يدخلها، وكيف يصح من العباد اتقاء النار وهم يقهرون عليها ؟

وجوابنا : أن المراد بقوله : ﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ ﴾ [آل عمران:١٣١] اتقاء المعاصي التي توجب استحقاق عقاب النار، وذلك ظاهر إذا قيل للمرء : اتق ربك واتق السلطان أن المراد اتقاء ما يؤدي إلى تأديبهم، فأما قوله : ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٣١] فلا يمنع من كونها معدة لغيرهم؛ لأن ذلك الشيء بحكمه لا ينفي أن ما عداه مثله، وهذا كقوله تعالى في وصف النار : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى ﴾ [الليل:١٧] ومعلوم أن من لا يوصف بذلك من الحور العين والأطفال يجنبون النار أيضاً .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٣] كيف يصح في الجنة وهي في السماء أن يكون عرضها السموات والأرض ؟

وجوابنا : أنه قادر في نفس السماء والأرض أن يزيد فيها أضعافاً كثيرة، وكذلك يقدر على الجنة التي عرضها كعرض السماء والأرض وزيادة على ذلك . وقوله تعالى بعده : ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٣] وإن كان يدخلها من ليس بمتق، فبطل قولهم إنه لما ذكر : ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٣١] دل على أنه لا يدخلها سواهم، ثم بين تعالى صفة المتقين الذين يستحقون الجنة فقال : ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا ﴾ [آل عمران:١٣٤-١٣٥] ثم قال تعالى بعده :

﴿ أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ [آل عمران:١٣٦] ثم قال تعالى بعده : ﴿ وَنِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٦] وكل ذلك ترغيب فى التمسك بطاعة الله وبالتوبة والإنابة .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ ﴾ [آل عمران:١٣٨] فعم ثم قال : ﴿ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٨] لماذا فرق بين الأمرين، وعندكم أنه بيان للكل وهدى وموعظة للكل ؟

وجوابنا : أنه بيان وهدى للكل لكنه تعالى في كونه بياناً عم، وفي كونه هدى وموعظة خص المتقين من حيث تمسكوا به، فصار كأنه ليس بهدى ولا موعظة إلا لهم كما ذكرناه في أول سورة البقرة في قوله : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة:٢] .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [آل عمران:١١١] كيف يصح أن يقول ذلك في الكافرين وكيف يصح أن يقول : ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾[آل عمران:١٤٠] والله تعالى عالم لم يزل قبل أن يمس القوم القرح الذي ذكره ؟

وجوابنا : أنه تعالى قد قوّى الكافر ومكنه بالآيات وغيرها وأمره ونهاه كما فعل ذلك بالمؤمن، وأنه خص المؤمن بالألطاف وغيرها، فصح لذلك أن يقول في تلك الأيام ﴿ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [آل عمران:١٤٠] ولذلك قال بعده : ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ﴾ [آل عمران:١٤٠] وقال : ﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٠] فجعل تعالى المداولة محنة على الكافرين ونعمة للمؤمنين، وأما ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [آل عمران:١٤٠] فالمراد وقوع المعلوم، ونبه بذكر العلم عليه لما كان معلوم العلم يجب أن يكون على ما تناوله العلم، ولذلك قال الله تعالى بعده : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٢] فنبه بذكر العلم على وقوع الجهاد منهم لأن ذلك هو الذي يستحق به الجنة .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ المَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ [آل عمران:١٤٣] كيف يصح أن يلقى الموت وهو ينظر ؟

وجوابنا : أن المراد : رؤيته أسباب الموت ومقدماته دون نفس الموت، لأن الميت لا يتمكن من أن يكيف الموت ويراه، وهو كقوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ المَوْتُ ﴾ [البقرة:١٨٠] والمراد به المرض الذي يخاف منه، وهو كقوله تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام : ﴿ إِنِّي أَرَى فِي المَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ﴾ [الصافات:١٠٢] والمراد الإضجاع الذي هو مقدمة الذبح . وربما سألوا في هذه الآية فقالوا : أليس تمنيهم للموت هو تمني قتل الكفار لهم، وذلك مما يقبح، فكيف يصح ذلك ؟

وجوابنا : أن الموت غير القتل أو يكون من قبل الله تعالى لا من قبل الكفار، فيصح أن يتمنوه تخفيفاً للتكليف عليهم، فبعث بذلك على الجهاد لكي لا يزهدوا فيه خوف الموت، وقد يتمنى ذلك على وجه لا يحصل معه من الثواب ما يحصل بالموت في الجهاد .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾ [آل عمران:١٤٤] إن ذلك لا تعلق له بما تقدم من الترغيب في الجهاد .

وجوابنا : أن المروي في ذلك أنهم قالوا لما انهزم أصحاب النبي ﷺ : إنه قد قتل فنحن نعود إلى ديننا الأول، فقال الله تعالى : ﴿ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾[آل عمران:١٤٤] وقال أيضاً : ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ المَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ ﴾ [آل عمران:١٤٣] فلما انهزمتم وقد رغبكم الله في الثواب العظيم إن أنتم صبرتم وإن أتى القتل عليكم .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ كِتَاباً مُّؤَجَّلاً ﴾ [آل عمران:١٤٥] إن ذلك يدل على أن قتل الكفار لهم يوم أُحد من قبل الله لا من فعل الكفار .

وجوابنا : أنه تعالى أراد بالإذن العلم والكتابة ولم يرد الأمر؛ لأن الموت لا يؤمر ولا الميت يؤمر بالموت، ويحتمل إذنه تعالى الملائكة بالتوفي والإماتة، وليس

في الآية ذكر القتل، ولو دخل فيها كان لا يمتنع لأن المجاهد في الأكثر يجرح ثم تكون الإماتة من قِبَل الله تعالى، وفي العلماء من يقول : إنه وإن دخل فلا بد من وجود الموت من قبل الله تعالى فيه، ونبه بقوله تعالى من بعد : ﴿ **وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا** ﴾ [آل عمران:١٤٥] على أن اختيار الراحة بترك الجهاد ليس فيه إلا النفع المعجل، وفي المصابرة على الجهاد ثواب الآخرة فرغب تعالى بذلك في المجاهدة .

[مسألة] وربما قيل : ما معنى قوله تعالى : ﴿ **وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ** ﴾ [آل عمران:١٤٥] بعد ذكر الموت وأنه لا يكون إلا بإذنه تعالى ؟

وجوابنا : أنه أراد مجازاة الصابرين على الجهاد وجعل صبرهم على الجهاد شكراً من حيث عبدوه تعالى تقربًا إليه وطلباً لمرضاته، وهذا كقوله تعالى : ﴿ **اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا** ﴾ [سبأ:١٣] فجعل عبادتهم شكراً لله تعالى لما فعلوه تعظيمًا له كما يشكر المنعم على وجه التعظيم .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ** ﴾ [آل عمران:١٥١] كيف يصح ذلك ونحن نجد في الذين كفروا من لا رعب في قلبه، وربما يكون الرعب في قلوب المؤمنين ؟

وجوابنا : أنه لا كافر يلقى الحرب مع المسلمين إلا وفي قلبه رعب كما ذكره الله تعالى، لأنه لا يرجع في مقاتلته إلى دين يسكن إليه كالمؤمن، ولأن المؤمن يزداد لطفاً إلى لطف ويعرف ذلك عنه الكافر، وهذا كقوله : ﴿ **وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى** ﴾ [محمد:١٧] وقيل : إن ذلك نزل في كفار مخصوصين يوم أُحد، وهم الذين قال الله تعالى بحقهم : ﴿ **وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ** ﴾ [آل عمران:١٥٢] فبين تعالى أنه سيلقي الرعب في قلوبهم فيغلبهم المسلمون .

[مسألة] وربما قيل : قد قال : ﴿ **ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ** ﴾ [آل عمران:١٥٢] وذلك في يوم أحد وهو كالدلالة على أنه تعالى يفعل فيهم الأقدار والصرف .

وجوابنا : أنه تعالى ذمهم في قوله : ﴿ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران:١٥٢] فأراد أنه يوم بدر أراهم ما يحبون لما لم يعصوا، ويوم أُحد عصوا وقد كان ﷺ رتب لهم في مجاهدة الكفار ترتيباً خالفوه، فلما لم يثبتوا في المحاربة على ما رسمه لهم لم يلطف لهم لأجل المعصية، بل شدد التكليف عليهم، فجاز أن يقول : ﴿ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ ﴾ [آل عمران:١٥٢] ولذلك قال تعالى : ﴿ لِيَبْتَلِيَكُمْ ﴾ [آل عمران:١٥٢] أي ليمتحنكم لمصالح العاقبة، ثم قال : ﴿ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ﴾ [آل عمران:١٥٢] ولو كان الصرف من خلق الله تعالى فيهم لم يكن لذلك معنى، وإنما ضمن لهم النصرة بشرط طاعة الرسول، فلما خالفوه ولحقهم بذلك الغم الصارف جاز أن يصفهم تعالى بذلك .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ ﴾ [آل عمران:١٥٤] وفي قوله من بعد : ﴿ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران:١٥٤] إن ذلك يدل على أن لا صنع للعبد .

وجوابنا : أنه تعالى حكى عنهم ما ذمهم عليه وهو قوله : ﴿ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا ﴾[آل عمران:١٥٤] فلا دلالة فيما حكاه عنهم، فأما قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران:١٥٤] فالمراد به ما يتصل بالنصرة والتمكين، ولولا ذلك لما أمرهم بالجهاد ولما ذمهم على تركه، ولذلك قال بعده : ﴿ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ ﴾ [آل عمران:١٥٤] فنبه على أنه تعالى يعلم من حالهم ما لا يعلمه ﷺ، وقوله تعالى بعد ذلك:﴿وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[آل عمران:١٥٩] ترغيب للرسول ﷺ في جميل الأخلاق ليكون قبولهم أقرب، ويدل على أن تصرفهم فعلهم؛ لأنه لو كان خلقاً من الله فيهم لما صح أن يقول : ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾ [آل عمران:١٥٩] لأنه لا يصح منا أن نشاور فيما يخلقه تعالى، ولما صح قوله : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾[آل عمران:١٥٩] ولما صح قوله : ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ ﴾ [آل عمران:١٦٠] لأن ما يوجد في الغالب والمغلوب هو من قبل الله تعالى .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ﴾[آل عمران:١٦١] كيف يصح ذلك على الأنبياء ؟

وجوابنا : أن المراد : ما كان له أن ينسب إلى ذلك في إحدى القراءتين، وفي القراءة الأخرى ما كان له أن يفعل، فنزهه عن الأمرين .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً ﴾ [آل عمران:١٦٩] كيف يصح ذلك وقد قتلوا وماتوا ؟

وجوابنا : أن المراد شهداء يوم أُحد، بين تعالى أنه قد أحياهم، فلا ينبغي أن يظن فيهم أنهم أموات وذلك صحيح، وقد قال بعضهم مثل ذلك في كل الشهداء إذا ماتوا على توبة وطهارة .

[مسألة] وربما قيل في قوله : ﴿ وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً ﴾ [آل عمران:١٧٨] كيف يصح أن يبقيهم لتقع منهم المعاصي ؟

وجوابنا : أن المراد عاقبة أمرهم، وذلك كقوله تعالى : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُواً وَحَزَناً ﴾ [القصص:٨] وإلا فمراده من جميعهم العبادة والطاعة كما قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُون ﴾ [الذاريات:٥٦] .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا ﴾ [آل عمران:١٨١] كيف يصح ذلك ممن يدين بالإله أن يقول ذلك ؟

وجوابنا : أن حكاية الله تعالى عنهم وقد ثبت حكمته لا طعن فيه، فمن سلم حكمته فلا كلام له وإن لم يسلم دللنا على الأصل ولم نتكلم في الفروع، فقد كان في العرب على ما ذكره الله تعالى في سورة الأنعام من يقول ذلك حتى يجعل من الأنعام نصيباً من الله تعالى، ولا يمتنع في المشبهة أن يكون فيهم من يقول ذلك، فإذا جاز أن يدينوا بأنه تعالى رمدت عينه فعادته الملائكة إلى غير ذلك لم ينكروا ما حكاه الله عنهم، ومن اليهود من يقول بنهاية التشبيه فيصح أن يكون هذا قوله .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ العَذَابِ ﴾ [آل عمران:١٨٨] فما الفائدة في أن كرر قوله : ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ ﴾ [آل عمران:١٦٩] ؟

وجوابنا : أنه قد حكي أن قوماً من اليهود كانوا يفرحون بإضلالهم الناس واجتماع كلمتهم على تكذيب الرسول ﷺ ومع ذلك يقولون : نحن أبناء الله وأحباؤه، فقوله أولاً : ﴿ لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ ﴾[آل عمران:١٨٨] أراد به ما ذكرناه أولاً، وقوله: ﴿ فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ العَذَابِ ﴾ [آل عمران:١٨٨] أراد به ما ذكرناه ثانياً، ويصح إيراد ذلك إذا طال الكلام بعض الطول، فيكون من باب التوكيد الذي يحتاج إليه، ثم ذكر تعالى قوله : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ ﴾ [آل عمران:١٩٠] والمراد بذلك أن يعتبر الخلق بالنظر في ذلك ويستدلون به على الله تعالى، وقوله : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران:١٩١] يدل على أن الواجب على المرء أن لا يفارق ذكر الله تعالى على اختلاف أحواله، ولذلك قال تعالى : ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾[آل عمران:١٩١] ويقولون : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً ﴾[آل عمران:١٩١] ولو كان تعالى يخلق الظلم وسائر القبائح لما صح ذلك، ولما صح قوله : ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ [آل عمران:١٩١] لأن معنى ذلك تنزيهه تعالى عن كل سوء كما روى عنه ﷺ .

[مسألة] وربما قيل في قوله : ﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ القِيَامَةِ ﴾ [آل عمران:١٩٤] كيف يصح أن يسألوا ذلك وخلافه لا يجوز على الله تعالى ؟

وجوابنا : أن المسألة بما المعلوم أنه تعالى يفعله تحسن إذا كان فيه فائدة للمكلف وعلى هذا الوجه يقول في الدعاء : اللهم صل على محمد، ويقول : اللهم اغفر للمؤمنين، ولذلك قال : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم ﴾ [آل عمران:١٩٥] فبين أنه يفعل ذلك وأنه لا يضيع أعمال المكلف، بل يجازي عليها على ما فيه من التفاضل والتفاوت، وفي ذلك إثبات العمل للعبد لأنه تعالى لو خلق ذلك لكان إنما يجازي على عمل نفسه، والله تعالى عن ذلك .

سورة النساء

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ﴾ [النساء:١] ما الفائدة في ذكر الأرحام مع ذكر الله ؟

وجوابنا : أنه تعالى ذكر الأرحام ليرغب الناس فيما يلزم من حقها، وذكرها مع ذكره إعظاماً لذلك، ولذلك قال بعده : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ [النساء:١] يعلم ما تقدمون عليه في حق عبادته وما تفعلونه في حق ذوى الأرحام، فهذا هو الفائدة .

[مسألة] وربما قيل في معنى قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ ﴾ [النساء:٣] وأي تعلق لهذا النكاح بحديث الأيتام ؟

وجوابنا : أن في الرواية أن من كان يقوم بحق اليتامى كان ربما يطمع في تزوجهن والبسط في أموالهن ويقفون أنفسهم عليهن للطمع، فأباح الله تعالى هذا النكاح من غيرهن وحرم البسط في أموالهن، ولذلك قال من بعده : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا ﴾ [النساء:٣] وقال بعده : ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَن يَكْبَرُوا ﴾ [النساء:٦] وكل ذلك يؤيد ما قلنا، وأَمَرَ من كان غنياً في أموال اليتامي أن يستعفف ومن كان فقيراً أن يأخذ من أموالهم ما يجري مجرى الأجرة على ما يأتيه من الاحتياط في أموالهم، ثم قال تعالى : ﴿ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ﴾ [النساء:٦] لأن ذلك هو الاحتياط من وجهين : أحدهما أن لا يقصر فيما سلف، والآخر أن يُعْرَفَ حال اليتامى فيما دُفِعَ إليهم من إفساد وإصلاح .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿للرجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ ﴾ [النساء:٧] ما الفائدة في ذكر النساء مع الرجال وذلك معلوم ؟

وجوابنا : أنهم كانوا من قبل يورثون الرجال دون النساء، وكان ذلك عادة لهم فأنزل الله تعالى ذلك ليعلم أن النساء كالرجال في حق الإرث، ثم بيّنه تعالى فيما بعد قطعاً لهم عن العادة المتقدمة .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ ﴾ [النساء:٨] ما الفائدة في ذلك ولا حق لهم في التركة ؟

وجوابنا : أن ذلك كان قديماً مما أوجبه الله، كما كان تعالى أوجب الوصية للوالدين والأقربين إذا لم يرثوا، ثم نسخ ذلك بآيات المواريث، فبين الله تعالى فيها حق كل ذي حق، وصارت هذه العطية مندوباً إليها، وتكون عطية من جهة الورثة، وندب تعالى إلى حفظ المال لمكان الورثة بقوله : ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ ﴾ [النساء:٩] وعلى هذا الوجه ثبت الحجر بالمرض المخوف لحق الورثة خصوصاً إذا كانوا ذرية ضعافاً، وبين في آيات المواريث ما أنعم الله تعالى به عليهم وإن كان سببه موت المورث فذكر جملة المال وأنه يرثه من له حق التعصيب، إما بانفراده وإما مع الإناث، وذكر في الأنصباء الثلثين والنصف والثلث والربع والسدس والثمن، فهذا جملتها التي يقع عليه القيمة في المواريث ، ثم قال تعالى معظما للتعدي في ذلك : ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا ﴾ [النساء:١٣-١٤] فأوجب النار لمن تعدى فيما يتولى جل وعز قسمته .

[مسألة] وربما قيل : كيف أوجب تعالى فيمن يأتي الفاحشة من النساء الإمساك في البيوت وقد أوجب فيهن الحدود والرجم ؟ وكذلك في اللذين يأتيان الفاحشة أوجب الأذى مع إيجاب الحد ؟

وجوابنا : أن ذلك كان قديماً ثم نسخ بالجلد والرجم، فالجلد في البكرين، والرجم في المحصنين إذا حصل شرط الإحصان، وأوجب تعالى في العبد النصف من الجلد، وذلك مبين في كتب الفقه .

[مسألة] وربما قيل : كيف قال تعالى : ﴿ **وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ** ﴾ [النساء:١٨] كيف يصح أن لا تفيد هذه التوبة ؟

وجوابنا : أن ذلك ورد فيمن أيس من الحياة فى المعاين لأنه عند ذلك يصير المرء مُلجأ إلى ترك المعصية، وإنما يقبل التوبة ممن يتردد بين خوف ورجاء فيشق عليه التوبة، فأما في حال الإلجاء فذلك لا ينفع، كما لا ينفع أهل النار التوبة والندامة.

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً** ﴾ [النساء:١٩] ما الفائدة في ذلك ولا يحل أخذ المال من أحد كرهًا ؟

وجوابنا : أنه إنما خص النساء لما يحصل لهن من الاختلاط بالأزواج حتى يتوهم في مال أحدهما أنه مال الآخر، فبيَّن تعالى أن ذلك لا يمنع من تحريم أخذ مالهن من دون الرضا، ولذلك قال : ﴿ **وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ** ﴾ [النساء:١٩] والمراد بذلك المنع من الطمع فيهن، وعلى هذا الوجه حرم الله تعالى الخلع إلا عند ضرب من الخوف على ما ذكره في قوله : ﴿ **فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ** ﴾ [البقرة:٢٢٩] .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً** ﴾ [النساء:١٩] كيف يصح ذلك، وإنما يحسن أن يكره ما يكون قبيحاً ولا يجوز أن يجعل الله تعالى في القبائح خيراً كثيراً ؟

وجوابنا : أن المراد بالكراهة في هذا الموضع نفار الطبع لا الكراهة التي هى في مقابلة الإرادة، فذكر الله تعالى ذلك في كراهة النساء بأن يكون نافر الطبع عن عشرتها، وبيّن أن ذلك إذا صبر عليه ربما حصل الخير الكثير في عاقبته، لأن المرء قد يكره بعض النساء في وقت ثم يتفق فيما بعد أن يعظم محبته لهن وانتفاعه بهن، فلا

ينبغي لمن تزوج أن يقدم على ما يقتضيه نفار طبعه، بل يتوقف ويتبصر لجواز تغير الحال عليه وعليهن، فهذا هو المقصد والله أعلم .

ويحتمل : وعسى أن تكرهوا فراقهن ويكون في ذلك خير كثير، على نحو قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِه ﴾ [النساء:١٣٠] ولذلك قال تعالى : ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ ﴾ [النساء:٢٠] وبيّن أن ما يؤتيهن من الصداق لا يحل له أن يأخذ منه شيئاً .

[مسألة] وربما قيل : ما معنى قوله : ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلاَ تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً ﴾ [النساء:٢٠]؟ كيف يكون أخذه ما أعطاهن من الصداق بهتانا، والبهتان من صفات الكلام فهو الكذب ؟

وجوابنا : أنه شبهه بالكذب من حيث كان أخذه كالنقض للعطية والخلف لها فعظمه الله تعالى بأن شبهه بالكذب الذي مخبره على خلاف ما هو به من حيث كان كالمتكفل بالعقد والدفع إليها بأن لا يأخذ ذلك، فأما كونه إثماً مبينا فَبَيِّنٌ، لأن وصفه وتجليه وظهوره مبين .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ [النساء:٢٢] كيف استثنى ما سلف من هذا النهي ومثل ذلك يستحيل لأنّ ما سلف لا يصح أن يباح ويحظر ؟

وجوابنا : أن النهي يتضمن التحريم، وإذا كان محرماً بالشرع في المستقبل وما سلف جرى على حد الإباحة لم يمتنع ذلك، فكأنه قال : ما نكح آباؤكم من النساء حرام عليكم إلا ما قد سلف (فإنه وقع مباحًا) [1]، ويكون المعنى صحيحاً .

وقد قيل : إن المراد به سوى ما قد سلف، كما يقول الرجل لمن ينهاه عن بيع متاعه بعد أن كان قد أذن له، لا تبع متاعي إلا ما بعته، ويحتمل أن يكون المراد : إلا ما قد سلف، فلا تؤاخذون به، وقوله بعده : ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ [النساء:٢٢] يقوي التأويل الأوّل؛ لأنه كأنه قال : إن ذلك فاحشة دون ما سلف فإنه ليس كذلك .

---

(١) في النسخة المخطوطة : (فإنه يقع مما جاء) ا هـ . مصححه .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ ﴾ [النساء:٢٣] أليس ذلك يقتضي إباحة سوى من ذكرهن لقوله : ﴿ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ ﴾ [النساء:٢٤] ؟

وجوابنا : أنه قد دخل تحت الأمهات كل من له حظ في الولادة، وذلك معلوم بالإجماع وإن كان نفس اللفظ لا يوجبه؛ لأن «الأم» إذا أطلق فالمراد به من لها الولادة خاصة، وعلى هذا الوجه لم يعقل من قوله تعالى : ﴿ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ ﴾ [النساء:١١] الجدة .

فحرم الله تعالى على الإنسان أمه وكل أم له بواسطة، وحرم عليه ابنته وكل ابنة له بواسطة، وكما حرم عليه ذلك حرم عليه أولاد أبيه من الأخوات وأولادهن وإن كان ذلك بواسطة، وحرم عليه بنات جده من العمات والخالات ولم يحرم أولادهن، فجملة ما حرم من النساء لمكان النسب هذه السبعة .

وحرم بالنسب أيضاً سبعة، فحرم حليلة الابن وحرم أمهات نسائه وحرم بنات نسائه وهن الربائب بشرط الدخول بالأم، وحرم الجمع بين الأختين .

وحرم بالرضاع مثل ما حرم بالنسب ، فقد روى عنه ﷺ أنه قال : «**يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب**» وإن كان تعالى إنما نص على الأمهات والأخوات، وقد ثبت بالسنة تحريم الجمع بين العمة وبنت أخيها، والخالة وبنت أختها، وأُجْرِيَ ذلك مجرى الجمع بين الأختين، فهذا هو طريق بين ما حرم الله تعالى من النساء في عينهن وعلى وجه الجمع وبين ما أحله من ذلك .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ ﴾ [النساء:٢٤] أن ذلك يدل على أن المتعة تحل كما يحل النكاح .

وجوابنا : أن من تعلق بذلك فقد اغتر بهذه اللفظة، وإنما أراد تعالى أن ما أحله من النساء محصنين غير مسافحين فله أن يستمتع، ولم يذكر تعالى سبب الاستماع في هذه الآية، وقد ذكر من قبل في قوله : ﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ ﴾ [النساء:٣] فإنما أباح الاستماع بشرط النكاح على ما ذكرنا، ولذلك قال من بعد : ﴿ فَآتُوهُنَّ

أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾ [النساء:٢٤] وذلك لا يليق إلا بعقد، وقد ثبت فيه الأجر المسمى، ولذلك قال : ﴿ وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ ﴾ [النساء:٢٤] يعني بنقصان وزيادة، ولذلك قال : ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ ﴾ [النساء:٢٥] فكل ذا يزيل هذه الشبهة .

وإنما ورد في الخبر المتعة وأنه ﷺ أباحه في حال الضرورة ثم حرمه، وقد حرمه الله تعالى في كتابه بقوله : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ [المؤمنون:٥-٧] وظهر عن الصحابة تحريم ذلك، فإن عمر بن الخطاب خطب بتحريمه على المنبر وأصحاب رسول الله ﷺ متوفرون، فصار ذلك كالإجماع .

وأنكر ذلك عليٌّ ـ عليه السلام ـ لما بلغه إباحة ذلك عن ابن عباس إنكاراً ظاهراً، وقد حكى عنه ـ رضي الله عنه ـ الرجوع عن ذلك فصار حظره إجماعاً من كل الصحابة، وذكر تعالى عقيب هذه الآيات التي بيَّن فيها ما يحل وما يحرم من النساء ما يريد من العبادة فقال تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً * يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً ﴾ [النساء:٢٦-٢٨] فبين أنه يريد الهداية والبيان والتوبة والعبادة دون اتباع الشهوات ، فأبطل بذلك قول من يقول : إنه تعالى كما يريد الحَسَنَ يريد القبيح ـ تعالى الله عن قولهم .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى: ﴿ لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ ﴾ [النساء:٢٩] كيف يصح أن يأكل الإنسان مال نفسه بالباطل ؟

وجوابنا : أن الله تعالى ذكر الأكل وأراد سائر التصرف، ويحرِّم على المرء في مال نفسه أن يتصرف فيه بالأمور المحرمة، وأن يسرف في ماله ويبذر وأن يتجر فيه بالربا وغيره، فهذا هو المراد .

فأما أكل مال الغير بالباطل فالأمر فيه ظاهر، ولذلك قال تعالى : ﴿ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾ [النساء:٢٩] .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ [النساء:٢٩] كيف يصح النهي عن ذلك ومعلوم أن الإنسان ملجأ إلى أن لا يقتل نفسه ؟

وجوابنا : أن المفسرين حملوه على أن المراد أن لا يقتل بعضهم بعضاً على حد قوله : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ ﴾ [النور:٦١] وقد ذكر فيه أن المراد أن لا يتعرض المرء لأسباب التلف فيكون في حكم القاتل لنفسه على نحو قوله : ﴿ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة:١٩٥] ويحتمل أن يكون المراد بذلك القتل الهلاك، ويكون معناه مقارفة المعاصي لأنها تؤدي إلى الهلاك، ولذلك قال تعالى بعده : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً * وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً ﴾ [النساء: ٢٩-٣٠]

ثم بيَّن تعالى بعده ما يدل على أن الكبائر لا تغفر فقال : ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾[النساء:٣١] فشرط تعالى في تكفير السيئات التي ليست كبائر اجتناب الكبائر، فدل بذلك على أن المؤاخذة تقع بها ولا تقع المغفرة بنفس الكبائر، وهذا أحد ما يدل على أن أهل الصلاة فيما يفعلون من الكبائر إذا أصروا عليها يؤاخذون بها وبالصغائر جميعاً، ودل قوله جل وعز : ﴿ وَلاَ تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ [النساء:٣٢] على أن تمني ما يكون حسداً يقبح، وأن الواجب على المرء (أن يتمنى ما يدبر عليه) [1] في أحوال الدنيا من نقصان وزيادة، ولذلك قال : ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ﴾ [النساء:٣٢] .

وفي الروايات أن العادة كانت في الميراث وغيره أن يختص به الرجال في أول الإسلام فنزلت هذه الآية وعلم بها أن النساء كالرجال وأن لهن حقاً في الميراث وفي سائر أسباب التملك، ثم ذكر تعالى أن الواجب على المرء أن يسأل ربه ما يريده من الفضل في الدنيا ويعدل عن طريقة التمني، فلذلك قال : ﴿ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ﴾ [النساء:٣٢]

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ﴾ [النساء:٣٣] كيف يصح ذلك وبالمعاقدة لا يرث المرء ؟

---

(١) هكذا في الأصل المطبوع . ا هـ . مصححه .

وجوابنا : أن ذلك قد كان في أول الاسلام ثم نسخ بآية المواريث، كما قد كانوا يرثون بالهجرة ثم نسخ .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى: ﴿**الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ**﴾ [النساء:٣٤] كيف أوجب ذلك لأجل أنه فضل بعضهم على بعض، ولأجل إنفاقهم لأموالهم، فقد تكون المرأة أفضل من الرجل وأكثر إنفاقاً ؟

وجوابنا:أنه تعالى جعل ذلك علة في جملة الرجال لا في آحادهم؛ لأن الغالب أنهم أفضل في التدبير والرأي وطلب المعاش من النساء في أحوال كثيرة، وأنهم الذين يتولون الإنفاق، والعلة إذا صارت للجملة لم يطعن فيها بالنادر في الآحاد والله تعالى جعلهم بهذا الوصف في مقابلة أنه جعل النساء حافظات للغيب على الرجال مؤتمنات على ما يتصل بتدبير المنزل، فلكل فريق في ذلك من الحظ ما ليس للآخر .

[مسألة] وربما قيل : كيف يصح قوله تعالى : ﴿ **وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ** ﴾ [النساء:٣٤] ومعلوم أن نشوزهن إذا زال بالوعظ لم يحسن الهجران والضرب، فكيف جمع تعالى بين الثلاثة ؟

وجوابنا : أن المراد بذلك الترتيب لا الجمع، فمن يؤمل زوال نشوز امرأته بالوعظ لم يحسن منه الهجران، ومن يرجو ذلك بالهجران لم يحسن منه الضرب، وإذا لم يُرْجَ زوال ذلك إلا بالضرب على وجه التأديب يحسن منه ذلك، فكأنه تعالى قال : فعظوهن واهجروهن إذا لم ينفع ذلك واضربوهن إن لم يؤثر ذلك، وإنما صح ذلك لأن مراد المرء فيما يغمه أو يضر به من غيره أن لا يقع ذلك، فإذا أمكنه التوصل إلى أن لا يقع بالسهل لم يكن له أن يعدل إلى ما فوقه .

وهكذا مذهبنا في النهي عن المنكر، ومثل ذلك يتعلق حسنه باجتهاد المرء فكأنه تعالى بيَّن أن الذي يحسن منه عند نشوز المرأة أحد هذه الثلاثة على الترتيب الذي ذكرناه، ولذلك قال تعالى : ﴿ **فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً** ﴾[النساء:٣٤] فنبه بذلك على أن لا سبيل لكم عليها إذا أطاعت بالموعظة، فدل بذلك على صحة ما ذكرناه .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً ﴾ [النساء:٣٤] بعد قوله : ﴿ فَلاَ تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً ﴾ [النساء:٣٤] كيف تعلق ذلك بهذا النهي ؟

وجوابنا : أنه تحذير من هذا الفعل لأن معنى قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً ﴾ [النساء:٣٤] أنه مقتدر على المؤاخذة بما نهاكم عنه، وكذلك قوله : ﴿ كَبِيراً ﴾ [النساء:٣٤] ، فحذر تعالى من المخالفة بذكر هذين الوصفين .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ﴾ [النساء:٣٥] أفما يدل ذلك على أنه تعالى يفعل فيهما الموافقة، وأن فعلهما من خلق الله تعالى ؟

وجوابنا : أن التوفيق لا يكون إلا من قبل الله تعالى، وهو الأمر الذي يدعو العبد إلى الصلاح، فعند الشقاق أمر تعالى بالحكمين من قِبَل الرجل والمرأة، ثم بيّن أن ذلك معني، وأن بذل الجهد غير التوفيق من الله، فليس الأمر كما قدروه، بل يدل على أن فعل العبد من جهته ؛ لأنه لو كان من خلق الله تعالى فيه لاستغنى عن التوفيق، ولذلك قال تعالى في هذا التوفيق إن من شرطه أن يريدا إصلاحًا لا فساداً ليتحقق[١] ذلك الواقع هو من قبله تعالى .

[فصـــل] ولما بين لنا ما نعامل به النساء عند الصلاح وعند النشوز وعند الشقاق بيّن أيضاً ما يلزم المرء أن يفعله لصلاح دينه، فقال : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ﴾ [النساء:٣٦] وذلك يجمع كل العبادات والطاعات التي تختص به ثم قال : ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ [النساء:٣٦] يجمع تعالى بذلك الإحسان إلى كل محتاج وإن كان بعضهم أقرب إلى المرء كنحو ذي القربي والجار الجنب والصاحب بالجنب وملك اليمين، وبعضهم أبعد كنحو اليتامى والمساكين وابن السبيل، فأمر بالإحسان إلى الكل، ثم من بعد ذلك نبه المرء على طريقة التواضع فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً ﴾ [النساء:٣٦] .

(١) في الأصل المطبوع : (ليتخفف) وفي النسخة المخطوطة : (في أن) وما أثبته هو الأنسب لصحة المعنى . ا هـ . مصححه .

فهذه الآية جامعة لكل ما يحتاج المرء إليه فتدخل فيه العبادات بكمالها وضروب الإحسان والإنفاق في سبيله والمنع من ضروب التكبر والعدول عنه إلى التواضع، فهو على اختصاره يجمع ما يدخل في المجلدات الكبار، ثم قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِه ﴾ [النساء:٣٧] فجعل ذلك من صفات من يكون مختالاً فخوراً، فنبه بذلك على أن الإنفاق هو الذي يخرجه من أن يكون فخوراً ومن أن يكون بخيلاً، وكذلك فالذي يخرجه من ذين أن لا يكتم ما آتاه الله من فضله فيرى شكوراً معترفاً بنعم الله قولاً وفعلاً، فكل ذلك تأديب من الله تعالى في باب الدين .

وبين من بعد كيف ينبغي أن ينفق في ذات الله تعالى فقال : ﴿ وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاءَ قَرِيناً * وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيماً ﴾ [النساء: ٣٨-٣٩] فرغب في ذلك حتى ختم الكلام بقوله جل وعز : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً ﴾ [النساء:٤٠] فبين كيف يدبر أمر المكلفين ولا يظلم أحداً منهم حتى يمنعه المصالح ويمنعه الثواب أو يزيد في عقابه، وبين أنه في الحسنات يضاعف ثوابها، وبيّن أنه يؤتى المرء الأجر العظيم على ما ينزل به من الشدائد، ودل بقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾[النساء:٤٠] على بطلان قول هؤلاء القدرية الذين يقولون : لا ظلم إلا من قبل الله وبخلقه وإرادته ـ تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً .

ثم بيَّن تعالى أنه ﷺ يكون شاهداً على أمته بما يقع منهم من خير وشر، فحذر بذلك من المعاصي وأن المرء إذا علم أن الرسول ﷺ مع عظم محله يشهد عليه كان أبعد من المعصية، وبين أن شهادته تكون يوم القيامة وأن ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ ﴾ [النساء:٤٢] فيتمنون أن يبقوا في التراب وفي القبر لما رأوه من العذاب ويصيرون بحيث لا يكتمون الله حديثاً حتى تشهد عليهم أيديهم وألسنتهم بما كانوا يعملون، فلو لم يتدبر المرء إلا هذه الآيات لكفاه .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء:٤٣] كيف يصح ذلك والسكران لا يخاطب لزوال عقله ؟

وجوابنا : أن المراد : المنع من السكر الذي لا يمكن إقامة الصلاة معه لا أنه إذا سكر يؤمر وينهى على هذا الوجه . وروى عن بعض الصحابة أنه جعل ذلك أول دلالة على تحريم الخمر، ودل قوله : ﴿ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء:٤٣] على أن الصلاة لا تصح إلا بقول، فذلك أحد ما يدل على وجوب الذكر والقراءة في الصلاة، ويدل أيضاً على أن المصلي يجب أن يكون عالماً بصلاته وبقراءته متدبراً لها فلا يصلي وهو غافل .

ونهى تعالى الجنب أن يقرب الصلاة إلا عابر سبيل حتى يغتسل، فدل بذلك على أنه متى لم يكن مسافراً لم تصح صلاته إلا بالاغتسال، ونبه جل وعز على أنه إذا كان مسافراً يجوز أن يصلي بلا اغتسال بل بالتيمم .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ ﴾ [النساء:٤٧] كيف يصح أولاً أن يكون القرآن مصدقاً لما معهم، وكيف يصح في الوجوه أن ترد على أدبارها وذلك يخرجها من أن تكون وجوهاً ؟

وجوابنا : أن القرآن مصدق لكتبهم من حيث فيها البشارة بمحمد ﷺ، ومخالفة شريعتهم لما في القرآن لا تمنع من أن يكون مصدقاً، كما أن ثبوت الناسخ والمنسوخ في القرآن لا يمنع من ذلك .

فأما طمس الوجوه وردها على أدبارها فمن عظيم ما يخوف به المرء من المعصية، ولم يقل تعالى إنه بعد ردها على أدبارها تكون وجوهاً لهم، ولو قيل ذلك كان لا ينكر لأن صورة الوجه إذا لم يتغير أجرى عليه هذا الاسم .

وبين تعالى من بعد أنه لا يغفر أن يشرك به والمراد : الإصرار على الشرك، ثم قال : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [النساء:٤٨] والمراد : مع الإصرار وإذا صح ذلك فإنما أراد أصحاب الصغائر دون أصحاب الكبائر لقوله تعالى : ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ [النساء:٣١] .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾ [النساء:٥١] وليس في اليهود من يعبد الصنم ويؤمن به فكيف يصح ذلك ؟

وجوابنا : أنه ليس المراد بالجبت والطاغوت الأصنام، بل المراد به الشيطان والسحرة على ما روي عن الحسن وغيره، والمروي عن ابن عباس أن كعب بن الأشرف قال لقريش : أنتم خير من محمد، ووعدهم بمعونة عليه، فقالوا له : أنتم أهل الكتاب ولا نأمن أن يكون ذلك خديعة، فإن أردت أن نثق بقولك فاسجد لهذين الصنمين وآمِنْ بهما، ففعل، فنزلت هذه الآية .

وقد قيل : إن المراد به الكهنة والسحرة كقوله : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ ﴾ [النساء:٦١] وبعد فليس في قوله : ﴿ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الكِتَابِ ﴾ [النساء:٥١] أنهم أهل كتاب، لأن كثيراً ممن بعث إليه موسى وعيسى صلى الله عليهما وسلم يدخلون في هذا الوصف وإن لم يؤمنوا، فلا يدل على ما ذكروه .

وقد يقال لمن تبع طريقة من يعبدون الأصنام : إنه يؤمن بها، كقوله تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة:٣١] لما أطاعوهم، وكل ذلك يسقط هذه الشبهة .

[مسألة] وربما قالوا في قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا العَذَابَ ﴾ [النساء:٥٦] إن ذلك يوجب تعذيب من لم يذنب، أو تعذيب بعض من العاصي لم يكن بعضاً له في حال الذنب، ويوجب أيضاً أن يصير الواحد من أهل النار على الأيام في نهاية العظم بأن يخلق له الجلد حالاً بعد حال، وكل ذلك لا يحسن .

وجوابنا : أن المراد بهذا التنزيل أنه تعالى يغير ذلك الجلد عن صورة الاحتراق إلى صورة الصحة، فيقال : إنه بدل وإن كان الجلد ثانياً هو الذي كان أولاً، كما يقال في الماء إنه قد تغير وتبدل إذا صار ملحاً بعد أن كان عذباً ، وقد قيل : إن الله تعالى يخلق جلداً بعد جلد ولا يوجب ذلك فساداً لأن المعذب هو العاصي دون أبعاضه .

ويصح عندنا أن يعظم الله تعالى جسد أهل النار على ما روي في الخبر ويعذبون، وهذا كما يذم ويلعن الكافر وإن صار بعد كفره سميناً ولا يؤدي إلى العظم الذي ينكر، فإنه تعالى كما يخلق جلداً بعد جلد يجوز أن يفني ذلك حالاً بعد حال، ولذلك قال تعالى : ﴿ لِيَذُوقُوا العَذَابَ ﴾ [النساء:٥٦] فجعل ذلك عذابًا لهم لا للجلد .

[فصل] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ﴾ [النساء:٥٨] يدل على أن العبد هو الفاعل، وإلا لم يكن لهذا الأمر معنى، ولا للوعظ فائدة إذا كان تعالى هو الخالق لرد الأمانة وللحكم، وأي نفع في هذا الوعظ إن كان مراده تعالى (خلق خلاف)[1] ذلك ؟ وأي تأثير بهذا الوعظ حتى يوصف بهذا الوصف وحتى يمن تعالى على عباده بذلك ؟ وكذلك قوله تعالى من بعد : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء:٥٩] لا يصح إلا إذا كان العبد هو المختار لفعله، فيكون موافقاً لما في الكتاب ولسنة الرسول ﷺ ولطريقة العلماء .

وقد اختلفوا في (أولى الأمر منكم) : فمنهم من قال : الأمراء، ومنهم من قال : العلماء، وقوله من بعد : ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾[النساء:٥٩] يدل على أنهم الفاعلون لهذا الرد عند التنازع وإلا كان قوله : ﴿ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [النساء:٥٩] لا يفيد، إذ الفائدة في ذلك أن إيمانكم بالله يقتضي امتثال أمره بهذا الرد .

وصف تعالى بعد ذلك المنافقين بأنهم يزعمون أنهم آمنوا بالله والرسول ويريدون مع ذلك ﴿ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ ﴾ [النساء:٦٠]

---

(١) ما بين القوسين سقط من الأصل المطبوع وأثبته من النسخة المخطوطة . ا هـ . مصححه .

والمراد بذلك شيطان الإنس أو الجن على ما تقدم ذكره، ولذلك قال بعده: ﴿ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً ﴾ [النساء:٦٠].

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ﴾ [النساء:٦٦] كيف يصح أن يكلفهم قتل أنفسهم مع أن الإنسان ملجأ إلى أن لا يقتل نفسه ؟

وجوابنا: أن المراد قتل بعضهم لبعض كقوله تعالى: ﴿ فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ ﴾ [النور:٦١] وعلى هذا الوجه تأوله المفسرون، ويحتمل أن يكون المراد: التعرض لأسباب الهلكة، وقد يقال لمن يفعل ذلك: إنه قتل نفسه، ولذلك قال بعده: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ ﴾ [النساء:٦٦] فنبه بذلك على أن (الذى أمروا به)[1] مما يصح ويصح خلافه، وذلك يدل على أن ذلك فعلهم لأنه لا يقال لمن لا يصح منه إلا القيام فقط: لو فعل القعود لكان خيراً له.

وبيّن من بعد حال المطيع بما يرغب نهاية الترغيب في الطاعة فقال: ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقاً * ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيماً ﴾ [النساء:٦٩-٧٠] ثم رغب تعالى في الجهاد فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعاً ﴾ [النساء:٧١] ووصف بعده حال المنافقين بقوله: ﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيداً * وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ [النساء: ٧٢-٧٣].

ثم رغب تعالى في الجهاد وبيّن أن للمجاهد الثواب قُتِلَ أو غُلِبَ فقال: ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾ [النساء:٧٤] لأن الذي يحصل له هو لتحمله المشقة لأنه يقتل، وقتل الكفار له مصيبة، فبيّن أنه سواء قتل أو غلب فله الثواب الجزيل على ما تحمله من الكلفة.

---

(١) في الأصل المطبوع: (الإيمان منهم) وما أثبته من النسخة المخطوطة. اهـ. مصححه.

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا** ﴾[النساء:٧٥] كيف يصح أن يحكى ذلك عن الولدان وهم لا يعرفون ربهم؟

وجوابنا : أنه تعالى ذكر جملة من يجب أن يهاجر ويتخلص من القرية الظالم أهلها، والمراد بقوله : ﴿**رَبَّنَا أَخْرِجْنَا**﴾[النساء:٧٥] من يصلح أن يقول ذلك، كما يقال : إن أهل البصرة معتزلة، يقولون بالعدل والتوحيد، ويراد بذلك كبارهم وإن لم يفصل، ولذلك قال : ﴿ **وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً** ﴾ [النساء:٧٥] ومثل ذلك لا يقع من الولدان، فهو كقوله : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ** ﴾[البقرة:٢١] والمراد : من تصح منه العبادة .

[مسألة] وربما قالوا : كيف قال تعالى : ﴿ **أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ** ﴾ [النساء:٧٨] ما فائدة ذلك وقد علم كل أحد أن آخر أمره الموت ؟

وجوابنا : أنه تعالى يحث على الجهاد، وبيّن أن المؤمن يقاتل في سبيل الله والكافر يقاتل في سبيل الطاغوت ﴿ **فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً** ﴾ [النساء:٧٦].

ثم بيّن أن من كتب عليهم القتال قالوا : ﴿ **رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ** ﴾ [النساء:٧٧] وبيّن أن حياة الدنيا قليل وأن الآخرة خير لمن اتقى، ثم بين أن الذي لأجله تحذرون الجهاد نازل بكم وإن كنتم في القصور والبروج، فلا وجه لرغبتكم عن الجهاد مع الثواب العظيم حذراً من ذلك .

[مسألة] وربما قيل في قوله : ﴿ **وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ** ﴾ [النساء:٧٨] أَوَمَا يدل على أن الحسنات والسيئات من خلق الله ؟

وجوابنا : أن المراد بهذه الحسنة الخصب والرخاء، وبهذه السيئة الشدة والأمراض، فقد كانوا يقولون في مثل ذلك : إنها بشؤم محمد ﷺ، ينفرون العوام عن

اتباعه، ولذلك قال تعالى عنهم : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ ﴾ [النساء:٧٨] والأمر يذهب في السيئات إلى أنها من عند غير المكتسب وغير الله، يدل على ذلك قوله تعالى من بعد : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء:٧٩] وأراد بذلك ما يفعله المرء من الطاعة والمعصية، ولولا صحة ما ذكرناه لكان الكلام متناقضاً، ولقالت العرب لرسول الله ﷺ : أنت تزعم في القرآن إنه لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً وقد وجدنا ذلك، وإنما عدلوا عن هذا القول لأنّ المراد بالأوّل المصائب والأمراض، وبالثاني المعاصي، فأضافها إلى نفس الإنسان .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾[النساء:٨٣] كيف يصح أن يستثنى القليل وفضل الله ورحمته على الجميع؟

وجوابنا : أن هذا الاستثناء قد اختلف فيه، فقال بعضهم : إنه راجع إلى ما تقدم وهو قوله : ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ﴾ [النساء:٨٣] فكأنه قال : أذاعوا به إلا قليلا منهم، وقال بعضهم : هو راجع إلى قوله : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ [النساء:٨٣] إلا قليلاً، وقال بعضهم : هو راجع إلى قوله : ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ﴾ [النساء:٨٣] فكأنما كان يصح طعن هذا الطاعن لو لم يصح رجوع هذا الاستثناء إلى هذا الوجه الآخر، فأما إذا صح رجوعه إلى الوجهين الأوّلين فقد زال الطعن .

ومع ذلك فإنه يحتمل في هذا الفضل أن يكون المراد به اللطف في باب الدين فبيّن تعالى أنه لولا ذلك اتبعوا الشيطان إلا قليلاً، فإنهم ممن لا لطف لهم، وإذا لم يكن لهم لطف لم يكن لفعل ذلك بهم معنى، فهم يطيعون مع عدم هذا الفضل، فهذا الطعن زائل على كل وجه .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ ﴾ [النساء:٨٤] إن ذلك يقتضي أنه المخصوص بتكليف الجهاد .

وجوابنا : أن المراد أنه لم يكلف هو الجهاد إلا في نفسه، ولم يكلف جهاد غيره، وإنما كلف في غيره البعث على ذلك والأمر به، ولذلك قال تعالى بعده : ﴿ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [النساء:٨٤] .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ﴾ [النساء:٨٨] أنه يدل على أنه يضل الكافر .

وجوابنا : أن ذلك دليلنا لأنه تعالى قال في المنافقين : ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا ﴾ [النساء:٨٨] فبين تقدم نفاقهم وبيّن نزول اللعن بهم، ثم قال : ﴿ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا ﴾ [النساء:٨٨] وأراد هنا الثواب والمدح من أضل الله على ما تقدم (من) [1] كفره، وقد بيّنا ذلك في أول الكتاب .

[مسألة] وربما قيل في قوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَئاً ﴾ [النساء:٩٢] أنه يدل على أن له أن يقتل خطأ .

وجوابنا : أن المراد أن إيمان المؤمن لا يثبت مع قتل المؤمن، وقد يثبت مع قتل الخطأ، فكأنه قال : لا يصح وهو مؤمن أن يقتل مؤمناً إلا أن يكون قتله خطأ، ثم بيّن حكم قتل الخطأ في الكفارة، وقد قيل : إن المراد : لكن إن قتله خطأ، وأنه استثناء منقطع، والأوّل أبين .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ ﴾ [النساء:٩٣] أفما يدل ذلك على أن توبة قاتل العمد لا تقبل كما روى عن بعضهم ؟

وجوابنا:أنه تعالى قد قدر في العقول أن التوبة من كل المعاصي مقبولة، وبيَّنه أيضاً في القرآن بقوله : ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ ﴾ [الفرقان:٧٠] في سورة الفرقان بعد تقدم ذكر الكفر والقتل والزنا، فالمراد إذاً : فجزاؤه جهنم إن لم يكن معه توبة، بيّن ذلك قوله : ﴿ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ ﴾ [النساء:٩٣] ومعلوم من حال التائب أنه حبيب الله ، وأنه لا يلعن ولا ينزل به الغضب من الله ، بل يناله الرضا من جهته .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ [النساء:٦٣] ما فائدة هذا التخصيص وهو عالم بسرائر ما في القلوب ؟

---

(١) لفظة (من) ساقطة من النسخة المخطوطة، وأثبتها من الأصل المطبوع . ا هـ . مصححه .

وجوابنا : أن ذلك تهديد من الله تعالى، وإذا خص قلوبهم بالذكر كان أقوى، ولا يمنع من كونه عالماً بكل شيء، إذ العادة جارية في الوعيد أن يخص، كقول القائل لوكيله : احذر مخالفتي فإني عالم بما تأتيه .

[مسألة] وربما قيل : ما فائدة قوله تعالى : ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ﴾ [النساء:٣٢] ؟

وجوابنا : أن ذلك كالدفع لتقدير من يقدر أن المراد في اكتسابها للطاعات ناقصة عن الرجل كنقصان حظها في الميراث، فبيّن تعالى أن حالهم في الآخرة لا تختلف، فلذلك قال من بعد : ﴿ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ﴾ [النساء:٣٢] فبيّن أنه في مصالحهما لا يتغير ما يفعله كما لا يتغير ما يستحقانه من الثواب .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى:﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً﴾ [النساء:١١٢] لماذا كرر والمراد واحد ؟ ولماذا قال : ﴿ ثُمَّ يَرْمِ بِهِ ﴾ [النساء:١١٢] ولم يقل : بهما ؟

وجوابنا : أن من المعاصي ما يكون خطأً، ومنها ما يكون عمداً، فالإثم لا يكون إلا عمداً، والخطيئة قد تقع وهو غير عالم بها، وذلك نحو من يأكل ويعلم أنه صائم، ومن يأكل ولا يعلم ذلك، وإن كان في الأمرين قد يكون عاصياً فلذلك ذكرهما تعالى، ومعنى قوله : ﴿ ثُمَّ يَرْمِ بِهِ ﴾ [النساء:١١٢] أي يرم بذلك، فأشار إلى ما تقدم، فلذلك لم يقل : بهما .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ ﴾ [النساء:١٣٥] كيف يشهد على نفسه ؟

وجوابنا : أن المراد بذلك ليس الشهادة التي تؤدى، بل المراد المعرفة بما يأتي ويذر، فأوجب أنْ يعرف من نفسه ما يكون معروفاً وما يكون منكراً فيتركه ويتوب كما ينكر ذلك على غيره، ولذلك قال بعده : ﴿ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِياً أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَن تَعْدِلُوا ﴾ [النساء:١٣٥] وتوعدهم بقوله : ﴿ وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾ [النساء:١٣٥] .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [النساء:١٣٦] كيف يصح ذلك ؟

وجوابنا : أن المراد : من قد آمن فأمره الله أن يدوم على ذلك ويثبت عليه في المستقبل، ويحتمل أن يريد مجموع ما ذكره في قوله : ﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ ﴾ [النساء:١٣٦] أن مجموع ذلك ربما لا يحصل لكثير من المؤمنين، ولذلك قال بعده : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ﴾ [النساء:١٣٦] فتوعد بكل ذلك .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً ﴾ [النساء:١٢٨] هلا قال : علمت وذلك مما يعلم ؟

وجوابنا : أن النشوز من الزوج وإن ظهر فإن ذلك (يدوم) [1] منه لا محالة ولا يعلم وإنما يخاف، ولأجل ذلك يستحب الصلح، فلذلك ذكر الله تعالى الخوف دون العلم.

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ [النساء:١٥٩] كيف يصح ذلك والكثير منهم مات على كفره ؟

وجوابنا : أنه خاص بقوم منهم، ويحتمل أن يكون المراد عند المعاينة يعرفهم الله تعالى ذلك ويؤمنون به وإن كانوا ملجئين إلى ذلك .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ ﴾ [النساء:١٦٠] كيف يصح لأجل ظلمهم أن يحرم عليهم، ولهم في اجتناب ذلك ثواب وهو نفع لهم فكيف يعاقبون به ؟

وجوابنا : أن المراد أن عند ظلمهم كان الصلاح تحريم ذلك إلا أنه عقوبة، لأن التكليف نعمة وليس عقوبة .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ [النساء:١٦٢] كيف قال تعالى بعده : ﴿ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ ﴾ [النساء:١٦٢] وذلك لا يجوز في اللغة ؟

وجوابنا : أن بعضهم قال : هو نسق على «ما» التي في قوله : ﴿ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾[النساء:١٦٢] ، فكأنه قال : إنهم يؤمنون بما أنزل إليك وبالمقيمين الصلاة، وقيل

---

(١) في الأصل المطبوع : (يبدو) وما أثبته من النسخة المخطوطة . اهـ . مصححه .

أيضاً : كأنه قال : بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالملائكة المقيمين الصلاة، وقيل : كأنه قال : ويؤمنون بالمقيمين الصلاة، وقيل : كأنه قال : وبإقام الصلاة، وقيل : لما طال الكلام نصب المقيمين على وجه المدح .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ﴾ [النساء:٤٩] أليس ظاهر الآية أنه يخص من يشاء بالتزكية التى هى الإيمان ؟

وجوابنا: أن التزكية من الله هي المدح والثناء، وذلك لا يكون إلا من قبله أو بأمره .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ﴾ [النساء:٨٨] أليس يدل على أنه (يضل)[1] ، وأنه لا سبيل لمن ضل إلى الهدى ؟

وجوابنا : أن المراد : من أضله الله عن الجنة لا يصح أن يهديه إلى الجنة والثواب وقد حكم عليه بالعقاب .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ [النساء:٩٠] أنه يدل على أنه يسلط الكفار على المؤمنين .

وجوابنا : أن المراد به : لو شاء لفعل لكنه لا يفعل لقبحه، وذلك جائز عندنا .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطاً ﴾ [النساء:١٢٦] أن ذلك يوجب أنه تعالى جسم يحيط بالأشياء .

وجوابنا: أن المراد به إحاطة العلم لقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ ﴾ [البقرة:٢٥٥] .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ [النساء:١٢٩] كيف يصح ذلك وقد أمرنا أن نعدل بين النساء ؟

وجوابنا : أن المراد بذلك أننا لن نستطيع أن نعدل بينهن في الشهوة والمحبة لا فيما يتصل بالنفقات والقسم وغيرها، وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال : «هذا قسمي

---

(١) فى الأصل المطبوع : (هو الذى أضل) وما أثبته من النسخة المخطوطة . ا هـ . مصححه .

فيما أملك فلا تؤاخذني فيما لا أملك» فإنه ﷺ كان يقسم الليالي بين نسائه على السواء لكنه فيما يرجع إلى شهوة القلب كان لا يمكنه التسوية لأن الشهوة من قبل الله تعالى.

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً ﴾ [النساء:١٣٧] . فبين أنه لا سبيل لهم إلى ترك الكفر، وهذا خلاف قولكم : إن الله تعالى قد مكن وأزاح العلة .

وجوابنا : أن المراد أنه لا يغفر لهم في الآخرة ولا يهديهم سبيلاً إلى الثواب .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [النساء:١٥٥] أن ظاهره يدل على أنه منعهم من الإيمان .

وجوابنا:أن المراد بالطبع والختم قد فسرناه وأنه علامة وليس بمنع، ولذلك قال تعالى : ﴿ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [النساء:١٥٥] ولو كان منعاً فمنع القليل كمنع الكثير، **وربما قيل** في قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ ﴾ [النساء:٩٤] أنه قال بعده : ﴿ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ [النساء:٩٤] فدل بذلك أن الإيمان من فعله .

وجوابنا : أن نقول في الإيمان إنا وصلنا إليه بالله تعالى وبفضله وألطافه . وبعد فليس في الظاهر ما قالوه ، بل المراد : فمنّ الله عليكم بالأدلة والبيان وإرسال الرسل وذلك صحيح .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً * إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ ﴾ [النساء:١٦٨-١٦٩] كيف يصح أن يهديهم إلى طريق جهنم والهداية لا تكون إلا في المنافع ؟

وجوابنا : أن ذلك مجاز، فشبه ذلك بالهداية إلى الثواب لما كان طريقاً إليها، ويحتمل أن يريد : لكن يسوقهم إلى جهنم، فيكون في حكم المبتدأ من الكلام .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ ﴾ [النساء:١٧٦] ما الفائدة في اثنتين وقد عرف ذلك بقوله : كانتا ؟

وجوابنا : أنه كان يجوز أن يقال بعد قوله : كانتا صغيرتين أو صالحتين إلى غير ذلك من الصفات، فأفاد بقوله : اثنتين أن المراد العدد، وذلك فائدة صحيحة .

سورة المائدة

[مسألة] وربما سألوا في قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ** ﴾ [المائدة:١] كيف يليق بذلك قوله من بعد : ﴿ **أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ** ﴾ [المائدة:١] ؟

وجوابنا : أن قوله عز وجل : ﴿ **أَوْفُوا بِالْعُقُودِ** ﴾ [المائدة:١] قد دخل تحته عقد التكليف كما يدخل تحته العقود في المعاملات غيرها، فجعله تعالى مقدمة لذكر التعبد، فلذلك قال : ﴿ **أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ** ﴾ [المائدة:١] ثم بين بعده ما حرمه من الميتة والدم وغيرهما، ومثل ذلك يعظم موقعه من الحكم إذا قدمه أمام أمره ونهيه، كما يحسن من أحدنا أن يقول لولده وقد التزم عهده البر : من سبيلك أن لا تخالفني في كيت وكيت، فالكلام متسق والحمد لله وقيل : إن تقدير الكلام كأنه قال : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ يا أيها الذين آمنوا أحلت لكم بهيمة الأنعام، فعلى هذا الوجه يكون الجواب أبين .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ** ﴾ [المائدة:٢] كيف يصح أن يحل الأماكن والأوقات ؟

وجوابنا : أن المراد : أن لا يحل ما حرم في هذه الأماكن والأوقات، فلا يجري ذلك مجرى الأمور التي يحل التصرف فيها مطلقاً .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ** ﴾ [المائدة:٣] كيف يصح ذلك ولم يكن الدين من قبل ناقصاً ؛ إذ لا يجوز أن يقال : كان دينه ﷺ قبل ذلك اليوم ناقصاً ؟

وجوابنا : أن المراد : الكمال الذي لا يتغير بعده ولا ينسخ، ويقال : إنه آخر ما أنزله الله على الرسول، والدّين وإن كان كاملاً في كل وقت من حين بعثه الله تعالى فقد يصح فيه الزيادات في الأدلة وفيما يلزم، المرء فبين الله تعالى استقرار ذلك،

وكذلك قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً ﴾[المائدة:٣] أن المراد أنه قد استقر حتى لا يتغير، لا أنه كان من قبل غير مرضي، وقد يكون الشيء كاملاً مرضياً وهو أنقص من شيء آخر كامل، وعلى هذا الوجه قول في الإيمان والإسلام والدين أنها تزيد وتنقص، وعلى هذا الوجه يكون دين المسافر كاملاً وإن قصر في الصلاة وأفطر في الصيام، كما يكون دين المقيم كاملاً، وكذلك القول في الغني والفقير .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة:٥] كيف يصح ذلك وقد كان قبل ذلك اليوم حلالاً، وكيف يصح ذلك وقد أكمل الله تعالى الدين من قبل ؟

وجوابنا : أن في جملة ما أحله الله ما لا يعلم إلا بالشرع، وهو نكاح الكتابيات وعلى هذا قال الفقهاء : إن بذلك نعلم إباحة نكاحهن حتى قال بعضهم : إن ذلك ناسخ لقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ ﴾ [البقرة:٢٢١] وقال بعضهم : بل هو مخصص، فلما كان ذلك في جملة ما أحله الله تعالى جاز أن يقيده باليوم .

وبعد، فقد يقال : اليوم أحل كذا وإن كان حلالاً من قبل، وهذا اليوم الذي ذكر الله تعالى أنه أكمل فيه الدين فذلك داخل تحت الدين، هذا هو مذهب أكثر القدماء .

وقد قال بعضهم: إن المراد بقوله:﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾[المائدة:٥] من أسلم منهن ولم يجز نكاحهن وهن على كفرهن، والقول الأول أبين .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى:﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾[المائدة:٥] كيف يصح الكفر بالإيمان وإنما يكفر المرء بالله تعالى ؟

وجوابنا : أن المراد : جحد الإيمان، فإن من جحده فقد غطاه، فشبه ذلك بالكفر الذي هو التغطية، كما يقال : كفر بالسلاح، وعلى هذا الوجه قال تعالى في آية الحج : ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٧] ويقال : إن فلانا كفر بالصلاة وكفر بالنبي، والمراد ما قدمنا، لكنه لا (يستعمل) [1] ذلك إلا في جحد هذه الشرائع أو الجهل بها .

---

(١) في الأصل المطبوع : (يطلق) وما أثبته من النسخة المخطوطة . ا هـ . مصححه .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ [المائدة:٧] كيف يصح ذلك والمكلف منا ومن غيرنا لا يذكر ذلك، ويعلم أن القول لم يقع منه قبل التكليف ؟

وجوابنا : أن ذلك أمر من الله تعالى أن يذكروا ذلك، والذكر هو العلم بما يتجدد من النعم حالاً بعد حال، ونفس العلم ربما علم باضطرار وإن كان إنما يعلم أنه من نعم الله باستدلال، فأما الميثاق من الله تعالى فهو العلم بما أودع في العقل من التكليف، ولا عاقل إلا ويقر بأنه يقبح منه الظلم القبيح، فيجب عليه الإنصاف وغيره، فهذا هو المراد، ولذلك قال بعده : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ [المائدة:٧] يعني فيما ألزم وكلف ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [المائدة:٧] وقال قبله عند ذكر التيمم : ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ ﴾[المائدة:٦] .

فدل تعالى بذلك على أنه لم يضيق على المكلف بالطهارة والماء معوز، بل وسع فألزم التيمم بالموجود من التراب، فكيف يصح مع ذلك أن يقال : إنه تعالى يكلف المرء الإيمان وسائر الطاعات وهو لا يطيقه ؟

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ﴾ [المائدة:١٣] إن ذلك يدل على أنه تعالى يخلق قسوة القلوب وسائر المعاصي .

وجوابنا : أن قوله : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ ﴾ [المائدة:١٣] دلالة على أنهم نقضوا وأنه لأجل ذلك لعنهم فجعل قلوبهم قاسية، ولا يصح ذلك إلا والكفر قد تقدم منهم، وإذا صح ذلك وجب حمل قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا ﴾ [المائدة:١٣] على أن المراد : حكمنا بذلك كما يقال : جعلت الرجل بخيلاً، إذا سألته فظهر بخله .

ويحتمل أن يريد تعالى أنه جعل قلبهم على صفة يحتاجون معها إلى مزيد تكليف في الطاعة، ومثل ذلك يكون من قِبَل الله تعالى، كما تقول في الجبن والشجاعة والذكاء والبلادة، ولفظة الجعل وإن دلت على الفعل فقد يراد بها غير ذلك،

كقوله تعـالى : ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً ﴾ [الزخرف:١٩] والمـراد : اعتقدوا ذلك فسموهم، وكقوله في القصـاص : ﴿ فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً ﴾ [الإسراء:٣٣] والمراد : حكمنا .

بذلك، وقد قيل : إن المراد به أنا خليناهم، وقد يقال للرجل إذا ترك أن يعمر أرضه : قد جعله خراباً وإذا لم يؤدبُ ولده يقال قد جعله فاسداً، إلى غير ذلك، ولولا صحة ما ذكرناه لما قال بعده : ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ [المائدة:١٣] فذمهم على ذلك .

[مسألة] وربما قيل : كيف يجوز أن يقول تعالى : ﴿ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ [المائدة:١٤] والله تعالى لا يغرى بالعداوة ولا يبعث عليها ؟

وجوابنا : أن الله تعالى ذكـر بـني إسـرائيل ووعـدهم بشـرط أن يقيمـوا الصـلاة ويؤتوا الزكاة ويؤمنوا بالرسول، ثـم قـال : ﴿ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَـوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ [المائدة:١٢] ثم قال : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ ﴾ [المائدة:١٣] ثـم قـال مـن بعد : ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ ﴾ [المائدة:١٤] ثم قال : ﴿ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ﴾ [المائدة:١٤] لما لم يتمسكوا بالميثاق، والمراد بذلك أنه خلاهـم عـن الألطـاف الـتي لـو تمسكوا بطاعة الله لكان يفعلها بهم، فلما لم يتمسكوا بهـا لم يكـن ذلـك اللطـف لطفـاً لهم، فجائز أن يقال : أغرى بينهم، وهذا كقوله تعـالى : ﴿ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّـيَاطِينَ عَلَـى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً ﴾ [مريم:٨٣] لما لم يلطف بهم .

وهـذا كمـا يقـال : فـلان يرسـل كلبـه إذا لم يمنعـه، وقـد قيـل : إن ذم اليهـود للنصارى على التثليث، وذم النصارى لليهـود علـى تكـذيب عيسـى ممـا يحسـن، فـإذا أغرى تعالى بينهم في ذلك حسن .

وعلى هذا الوجه يحسن من أحدنا معاداة الكفار، ويحسن من الكافر الذي يعبد الصنم معاداة المبتغى للشبهة (ويحسـن مـن المبتغـى للشـبهة) معـاداة عابـد الصـنم، ومثل هذه المعاداة ربما تكون لطفاً في التمسك بالحق .

[مسألة] وربما سألوا في قوله تعالى : ﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ ﴾ [المائدة:١٦] فقالوا : كيف خص هؤلاء بأن يهديهم بالقرآن ؟

وجوابنا : لأنهم إذا اختصوا بقبوله جاز أن يخصهم كما ذكرناه في قوله تعالى : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة:٢] .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ﴾ [المائدة:١٦] إن ذلك يدل على أن ترك الكفر وفعل الإيمان من قبل الله تعالى .

وجوابنا : أن الظاهر أن الكتاب الذي هو القرآن يخرجهم من الظلمات إلى النور بإذن الله، ومعلوم أنه لا يخرج في الحقيقة عن الكفر إلى الإيمان، وإنما يقال ذلك لما كان سبباً لإيمان الكافر، فأما قوله : **(بإذنه)** فالمراد أنه بأمر الله وعلمه، وذلك صحيح لأنه تعالى ألزم وأمر الإيمان .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة:٧٢] كيف يصح ذلك وليس في النصارى من يطلق ذلك ؟

وجوابنا : أن من يقول منهم بأن الله تعالى اتخذ المسيح فصار لاهوتًا بعد أن كان ناسوتا، وأنه يحيي الموتى وأنه يلزم عبادته، فهو قائل بهذا القول في المعنى، ولذلك قال تعالى بعده : ﴿ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ [المائدة:٧٢] فنبه بذلك على أن المراد ما ذكرناه .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ﴾ [المائدة:٧٢] كيف يصح تحريم الجنة عليهم ولا اختيار لهم فيها ؟

وجوابنا : أن ذلك يقال فيما يقع للناس فيه من المنافع تشبيهاً بما يلزم المرء أن يتجنبه من المحرمات، وذلك معقول في اللغة والتعارف، ولذلك قال تعالى بعده : ﴿ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢] ونبه بذلك على أن من يستحق العقاب والنار لا ناصر له .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ** ﴾ [المائدة:٧٣] كيف يصح ذلك وليس في النصارى من يقول هذا القول، بل يقولون الإله واحد لكنه يوصف بأنه ثلاثة أقانيم : أب وابن وروح القدس ؟

وجوابنا : أنه تعالى لم يحك عنهم أنهم يقولون : ثالث ثلاثة آلهة، بل قال : إنهم يقولون ثالث ثلاثة، وهو معنى قولهم إذا أثبتوا ابنا وروحاً قديمين، وعلى هذا يقول في هؤلاء المشبهة إنهم يثبتون معبودهم ثالثًا ورابعاً وعاشراً إذا قالوا : إن معه علماً وقدرة وحياة قديمة ولا معتبر بالعبارات في ذلك .

ولو لم يصح ما ذكرناه لقطعنا على أنه كان فيهم من يقول ذلك ولم نعلمه، ولذلك قال بعده: ﴿ **مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ** ﴾[المائدة:٧٥] .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **قَالَ رَبِّ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ** ﴾ [المائدة:٢٥] كيف يصح أن يقول ذلك وقد كان في زمانه مثل يوشع بن نون وغيره ممن صار نبيًّا ؟

وجوابنا : أن قوله : ﴿ **إِنِّي لاَ أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي** ﴾ [المائدة:٢٥] أراد ملكاً مخصوصاً حتى يجري أخاه مجرى نفسه في كل وجه، ولم يكن ذلك حال غيرهما، فلا يصح ما ذكرته .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ** ﴾ [المائدة:٢٦] كيف يصح أن يبقوا يتيهون فيها هذه المدة الطويلة وعلى ما يقال تلك البقعة إنما هي فراسخ قليلة ؟

وجوابنا : أن ذلك جائز في قدرة الله تعالى بأن يكونوا إذا قربوا من الطرف يحول الله تعالى الطرف وسطًا فيكون حالهم أبداً، وذلك جائز في أزمان الأنبياء فيكون معجزة لهم، ويجوز أيضاً أن تتغير دواعيهم ومقاصدهم حالاً بعد حال بأن يكون تعالى يطرح قلوبهم بأن يصرفهم عن الخروج عن التيه والتحير فيه .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ ﴾ [المائدة:٢٩] كيف يجوز أن يقول هابيل هذا لقابيل والإثم يختص هو به في قتله أَوَ ليس ذلك يدل على أن من ليس بعاصٍ قد يلحقه إثم العاصي ؟

وجوابنا : أن الذي فعله به من القتل لما كان متعلقا بقابيل جاز أن يقول ذلك وكأنه قال : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي ﴾ [المائدة:٢٩] يعني قتلي، وإثمك يعني سائر ما فعلته حتى وصلت إلى قتلي، **(ومتى قيل)** : كيف يصح أن يريد ذلك وهو قبيح ؟

وجوابنا : أن المراد إرادته للذم والعقاب لا لنفس القتل الذي هو معصية، ولذلك قال بعده : ﴿ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ [المائدة:٢٩] فكأنه أظهر أنه مريد لوقوعه في النار من حيث فعل ذلك ليصرفه عن هذا القتل بهذا القول .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ ﴾ [المائدة:٣٠] أليس ذلك يدل على إثبات أن نفس الإنسان سوى شخصه وهو يطيعها فيما يفعل ؟

وجوابنا : أن مثل ذلك قد يطلق في اللغه فيقال : أطاعته نفسه وعصت فيمن يتبع الهوى والشهوة أو يخالف، فلا يدل على ما قاله، ولذلك قال تعالى : ﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [المائدة:٣٠] ولم يقل : فأصبحت نفسه خاسرة .

[مسألة] وربما قيل : كيف خفي عليه بعد قتله له أن يدفنه في الأرض حتى ينبه على ذلك بما بعثه الله تعالى من الغراب فأراه ذلك ؟

وجوابنا : أن ذلك إذا كان ابتداء القتل والموت لا تمتنع الشبهة فيه .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ * مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً ﴾ [المائدة:٣١-٣٢] كيف تصح التسوية بين من يقتل الواحد ومن يقتل الخلق جميعاً، وذلك بعيد عن متعارف الشرع وطبيعة العقل ؟

وجوابنا : أن المراد بيان عظم هذا القتل في العقاب، والمراد بذلك أنه من حيث يقتدى به ويسهل سبيل القتل وغيره يعظم إثمه، كما قال ﷺ : «مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إلى يَوْمِ القِيَامَةِ» .

(**فإن قيل**) : أفتقطعون على أن من قتل هذه النفس فعقابه كعقاب من قتل الناس جميعاً ؟

(**قيل له**) ذكر الله تعالى ذلك في بني إسرائيل خاصة، فلا يمنع مثل ذلك فيهم وإن لم يجب في غيرهم ؛ لأن عظم المعاصي يختلف بالأوقات واختلاف الأحوال، ويحتمل أن يراد به : فكأنما قتل الناس جميعًا في عظم ما فعل، وإن لم يبلغ ذلك الحد في العقوبة لأن الظاهر لا يدل إلا على هذه الجملة .

ومتى قيل : فما معنى قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً ﴾ [المائدة:٣٢] وذلك ليس في مقدور أحد ؟

فجوابنا : أن المراد : التخليص من القتل والهلاك، فإن ذلك يعظم في الواحد كما يعظم في الجماعة .

(**فإن قيل**) : أليس يدل قوله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ [المائدة:٣١] على أنه ندم والندم توبة ؟

وجوابنا : أنه لم يندم من حيث إنها معصية وفعل قبيح، بل ندم لما افتضح وكان ظن أن ذلك يخفى، فلما ظهر قتله ندم لشيء يخصه .

[مسألة] ومتى قيل : ما معنى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ [المائدة:٣٣] وكيف يصح أن يحاربوا الله ؟

وجوابنا : أن المراد : محاربة أنبيائه، فقدم ذكره تعالى تعظيمًا لذلك، وبين أن من عادى رسله وحاربهم، فقد عادى الله تعالى، فنبّهنا بذلك على عظم هذا الفعل وفخامته، والمراد بالمحاربين : من ذكره العلماء من الكفار والمفسدين في الصحارى والبلاد .

ثم بيّن أن حكمهم فيما يأتون من القتل وأخذ الأموال لا يخرج عما ذكره تعالى من ﴿ أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ﴾ [المائدة:٣٣] فيلزم ذلك فيهم بحسب جناياتهم، ولذلك قال تعالى : ﴿ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة:٣٣] وبين أن من تاب قبل القدرة عليه فهذه الأحكام عنه زائلة فيما كان من حق الله تعالى .

[**مسألة**] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا ﴾ [المائدة:٣٧] كيف يصح وهم ملجؤون إلى أن لا يفعلوا القبيح وإرادتهم ما حكم الله تعالى بخلافه يقبح ؟

وجوابنا : أن لعلماء التوحيد في ذلك جوابين :

(أحدهما) أنه يصح أن يريدوا ذلك ويحسن وإن كان الله تعالى لا يفعله، وعلمهم بأنهم لا يخرجون من النار لا يمنع من حسن ذلك لو وقع، فهذا القائل يحسنه على ظاهره .

(والثاني) أن المراد أنه يقع منهم ما يقع من المريد في دار الدنيا، فوصفهم تعالى بالإرادة لأجل ذلك، ولذلك قال تعالى بعده : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [المائدة:٣٧] .

[**مسألة**] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ﴾ [المائدة:٤١] كيف يصح ذلك في المنافقين واليهود وقد أراد الله عز وجل عندكم تطهير قلوب الخلق من المكلفين من الكفر والمعاصي، ومن قبل ذلك : ﴿ وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً ﴾ [المائدة:٤١] .

وجوابنا : أن الفتنة قد يراد بها التشديد في التكليف، وقد يراد بها العقوبة، والله تعالى يريد كلا الأمرين، فأما تطهير القلب فالمراد به أنه عز وجل علم أن لا لطف لهم حتى يريده فيصير صارفاً لهم عن المعاصي، ويحتمل أنه لقي قلوبهم ليس عليهم سمة الإيمان كما قال تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ ﴾ [المجادلة:٢٢] .

[مسألة] وربما قيل : كيف يصح قوله : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة:٤٤] ومعلوم أن كثيراً منهم ليس بكافر عندكم، وقد كرر الله تعالى ذلك فقال مرة : هم الكافرون، وأخرى هم الظالمون، وأخرى هم الفاسقون .

وجوابنا : أن المراد به اليهود لأن هذه الآيات واردة فيهم ولأنه تعالى قال بعد ذلك : ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [المائدة:٤٦] وذلك صفة اليهود وهم كفار، وقد قيل : فيه إن المراد به : من لا يحكم بما أنزل الله مستحِلاً لَهُ، وقيل : إن المراد : ومن لم يحكم (بكل ما)[1] أنزل الله ، فلا يلزم ما قالوه وإن تعلق بذلك الخوارج فلم يصح لأكثرهم ففيهم من لا يقول بأن من لم يحكم بما أنزل الله يكون كافراً إذا كان صغيراً أو كان على التأويل أو على السهو، فلابد من أن يرجع إلى ما ذكرناه من التأويل .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ ﴾ [المائدة:٤٦] كيف يصح ذلك وشريعة عيسى مخالفة لشريعة موسى ؟

وجوابنا : أن وقوع النسخ في الشرائع لا يخرجها من أن تكون متفقة كما أن اختلاف الشرع في الغني والفقير والمقيم والمسافر لا يخرج الشرع من أن يكون متفقاً، لأن كل شيء من ذلك صلاح في وقته، وعلى هذا الوجه بيّن تعالى في القرآن أنه مصدق للتوراة والإنجيل، وألزم رسوله إذا حكم بينهم أن يحكم بالقرآن، وأن لا يتبع أهواءهم التي هي بخلاف القرآن .

وبيّن بعد ذلك بقوله : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ﴾ [المائدة:٤٨] أن الذي يجمع الكل في كونه مصلحة يخرجه من أن يكون مختلفاً، بل يكون بعض مصدقاً لبعض، ولذلك قال تعالى بعده : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾ [المائدة:٤٨] .

---

(١) في الأصل المطبوع : (بشيء مما) وما أثبته من النسخة المخطوطة . ا هـ . مصححه .

فبين أن الذى لأجله اختلفت الشرائع هو ما ذكره من الابتلاء والاختبار ثم قال تعالى : ﴿ فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [المائدة:٤٨] فجعل اختلافهم ثابتاً في المذاهب التي هي مخالفة للحق لا في الشرائع المختارة .

[مسألة] وربما قيل في قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا اليَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ [المائدة:٥١] كيف يصح مع الذي بينهما من المعاداة ؟

وجوابنا : أنه تعالى لم يعين البعض، وبعض النصارى أولياء بعض منهم، وكذلك بعض اليهود، ومع ذلك فاليهود والنصارى يتولى بعضهم بعضاً فيما يتفقون عليه من التكذيب لشريعة نبينا ﷺ، ولذلك قال بعده : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ [المائدة:٥١] فنبه بذلك على أنه أراد بالتولي الاجتماع على ما ذكر .

وذكر بعد ذلك أحوال المنافقين الذين يتولون الكفار في الباطن فقال : ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ ﴾ [المائدة:٥٢] وبين طريقهم مع المؤمنين وأنهم يقولون : ﴿ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ﴾ [المائدة:٥٢] ثم بيّن بعد أنهم سيندمون إذا ظهرت النصرة من الله تعالى لرسول الله ﷺ ﴿ عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ ﴾[المائدة:٥٢] .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ ﴾ [المائدة:٥٤] كيف يصح فى المؤمنين أن يكونوا أذلة على المؤمنين وأعزة على الكافرين ومعلوم من حال المؤمن (أنه يلين للمؤمن) ويعظمه ويتولاه ؟

وجوابنا : أن مراده تعالى بيان ما يحصل بهم من القهر والغلبة للكفار، وما يحصل لهم من اللين والخضوع للمؤمنين، فوصف ذلك بالعزة وهذا بالذلة، وهذا كما يقال لمن يخضع لغيره بأنه يذل له ويتذلل، ولذلك قال تعالى بعده في وصفهم : ﴿ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ﴾ [المائدة:٥٤] وبيّن تعالى أن جهادهم على هذا الوجه فضل من الله من حيث يوفق لذلك ومن حيث يؤديهم إلى النعم العظيمة من الثواب . وبيّن بعده جل وعز بقوله : ﴿ إِنَّمَا

وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ [المائدة:٥٥] فبين صفة من يتولى المؤمنين، وبين أنه تعالى يتكفل بنصرتهم وغلبتهم .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ القِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ﴾ [المائدة:٦٠] كيف يصح وصف من تقدم ذكره من أهل الكتاب والمنافقين بذلك ولم يكن فيهم من يعبد الطاغوت ؟

وجوابنا : أنه تعالى قد ذكر من قبل أهل الكتاب بقوله : ﴿ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ ﴾ [المائدة:٥٧] فلا يمتنع أن يرجع هذا الوصف إليهم، ويحتمل في الطاغوت أن يراد به شياطين الإنس والجن : فقد كان فيهم من يضل العوام ويدعوهم إلى الكفر، ومن يطع هؤلاء يسمى عابداً له كما قال تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ [البقرة:٣١] لما أطاعوهم .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ اليَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ [المائدة:٦٤] كيف يصح ذلك وليس فيهم من يقول هذا القول لا على ظاهره ولا على وجه التخيل ؟

وجوابنا : أن في التوراة أن قوماً منهم كانوا يستبطئون الرزق من جهة الله تعالى وينسبونه إلى البخل ففيهم نزلت هذه الآية، فبيّن تعالى أن يده مبسوطة بالعطاء والأفضال والرزق لكنه ينفق كيف شاء بحسب المصلحة، ولم يرد تعالى بذكر اليدين الجارحة ولا صفة مجهولة كما يذهب إليه المشبهة، بل أراد تعالى النعم، وإنما ثنى ذلك لأنه أراد نعم الدنيا والدين والنعم الظاهرة والباطنة، ولو أراد تعالى الجارحة لم يكن لذكر البسط والإنفاق معنى لأنه لا يثبت التكذيب في قولهم إلا بالإنفاق، فزال ما نسبوه إليه من البخل، وليس للجارحة في ذلك مدخل .

[مسألة] وربما قيل : ما معنى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ [المائدة:٦٦] وكيف يكون الأكل على هذا الوجه ؟

وجوابنا : أنه تعالى في كثير من القرآن يذكر الأكل ويعني سائر وجوه الانتفاع نحو قوله : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً** ﴾ [النساء:١٠] ومعلوم من حال الانتفاع أنه يكون سببه ما ينزل من السماء وما ينبت من الأرض، وعلى هذا الوجه قال تعالى : ﴿ **وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ** ﴾ [الذاريات:٢٢] فكنّى تعالى عن ذلك بهذين الحرفين اللذين يجمعان كل المنافع .

ثم بيّن تعالى أن منهم أمة مقتصدة وهم الذين أسلموا وسلكوا طريق الحق من قبل، فنبّه بذلك على أن كل أهل الكتاب ليسوا بالصفة التي ذكرها .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ** ﴾ [المائدة:٦٧] معلوم أنه إذا لم يبلغ الرسالة فما فائدة التكرار ؟

وجوابنا : أن المراد بقوله : (**بلغ ما أنزل إليك من ربك**) هو القرآن . وبيّن أنه إن لم يبلغ القرآن لا يكون قد بلغ الرسالة أجمع، فليس ذلك بتكرار، بل هو تنبيه على أن في جملة ما حمل من الرسالة ما لا ينطق القرآن به، ومتى لم يبلغ القرآن لم يتم إبلاغ الرسالة أجمع، فالفائدة في ذلك عظيمة، ولذلك قال تعالى بعده : ﴿ **وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ** ﴾ [المائدة:٦٧] فأزال عن قلبه الخوف من إبلاغ كل الرسالة .

وعلى هذا الوجه نقول : إن الرسول ﷺ لا يجوز أن يكتم شيئاً من الشرائع ولا أن يغير، وبين بأنه تزال عنه سائر الموانع في ذلك .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ** ﴾ [المائدة:٦٩] كيف يصح ذلك، فكأنه قال : إن الذين آمنوا من آمن منهم ؟

وجوابنا : أن قوله تعالى : ﴿ **مَنْ آمَنَ مِنْهُم** ﴾ [البقرة:١٢٦] يرجع إلى الذين هادوا وإلى الصابئين والنصارى دون المؤمنين فالكلام مستقيم، فكأنه قال : إن الذين آمنوا ومن آمن من اليهود والنصارى والصابئين وعمل صالحًا، وبعد، فلو رجع إلى الكل لكان المراد الإيمان في المستقبل، فكأنه قال : إن الذين آمنوا من ثبت على إيمانه في المستقبل واستمر عليه وعمل صالحاً فيستقيم الكلام .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ ﴾ [المائدة:٧٣-٧٤] كيف يصح ذلك ومعلوم من حالهم أنهم ماتوا ولم يمسهم من العذاب ما ذكره تعالى ؟

وجوابنا : أنه أخبر عن المستقبل ولم يذكر الله أن ذلك يمسهم في الدنيا، فالمراد أنه يمسهم إن ثبتوا على الكفر العذاب الأليم في الآخرة، وإن تابوا أزال ذلك عنهم، وقد قيل : إن المراد بذلك ما ينالهم من الذل والجزية وغيرهما لأن ذلك صغار وعذاب .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ ﴾ [المائدة:٧٥] ما الفائدة في ذلك ؟

وجوابنا : أنه بيّن بذلك أنه رسوله لا معبود ولا إله ؛ لأن من جاز ذلك عليه واحتاج إلى الطعام لا يجوز أن يكون إلهاً معبوداً ؛ فبين بذلك بطلان قول النصارى ولذلك قال بعده : ﴿ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ [المائدة:٧٥] ثم قال بعده أيضاً : ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً ﴾ [المائدة:٧٦] ثم قال بعده : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ [المائدة:٧٧] وكل ذلك يبين صحة ما قلنا .

وعظم تعالى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بقوله جل وعز : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾ [المائدة:٧٨-٧٩] إلى آخر الآيات، ثم عظم إثم من يتولى أعداء الله بقوله جل وعز : ﴿ تَرَى كَثِيراً مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ [المائدة:٨٠] ثم قال : ﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ [المائدة:٨١] فدل بكل ذلك على ما يجب من تولي المؤمنين ومعاداة الكافرين والفاسقين .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ ﴾ [المائدة:٨٩] كيف يصح ذلك وما يستحقه من الإثم في اليمين أو في الحنث لا يزول بذلك ؟

وجوابنا : أن لهذه الكفارة حظًا في التكفير وإن لم يزل للكل، فلذلك سمي بهذا الاسم لأنه إذا فعلها لأجل يمينه وحنثه زال كل عقابه أو خففه، فلذلك يحتاج إلى التوبة ليقطع بها على زوال العقوبة، لأن قدر تأثير الكفارة غير معلوم، وقد يقال : إن ذلك كفارة لا لأنها تكفر الإثم، وعلى هذا الوجه يكون كفارة في عظم الأمور، ويكون كفارة فيما هو طاعة أيضاً .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ * قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ** ﴾ [المائدة:١٠١-١٠٢] كيف يصح المنع من المسألة والتكفير فيه وهي تعرف بحال ما سأل عنه السائل ؟

وجوابنا : أن المسألة في باب الدين لتعرف الحق لا ينكر، وليس هذا هو المراد، بل المراد المسألة على وجه التعنت لقوله تعالى : ﴿ **وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً** ﴾ [الإسراء:٩٠] الآيات، فإن ما جرى هذا المجرى يقبح، وربما عظم حتى يبلغ حد الكفر إذا اقترن به القدح في النبوّة .

وبين تعالى بقوله : ﴿ **مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلاَ سَائِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ** ﴾ [المائدة:١٠٣] وبقوله : ﴿ **وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ** ﴾ [المائدة:١٠٣] أن كل ذلك من فعلهم، ولو كان ما فعل العبد مخلوقاً من جهة الله لما صح ذلك، وبين بقوله : ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا** ﴾ [المائدة:١٠٤] أن تقليد الآباء وغيرهم في باب الدين جرم عظيم .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ** ﴾ [المائدة:١٠٥] إن ذلك يوجب أن يتشاغل المرء بنفسه ولا يفكر في حال غيره فيأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر .

وجوابنا: أن الأثر المروى عن أبي بكر الصديق في ذلك هو الجواب، فإنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه يوشك أن يعمهم الله بعقاب** » . فبين أن منع الغير من الظلم والمنكر هو من الواجبات على من

يتمكن فيضره إذا لم يمنعه، والمراد بذلك أن أحداً لا يؤخذ بذنب غيره وإذا لم يؤخذ بذلك غيره فكيف يؤاخذ الله تعالى بما يخلقه فيه فيوجبه ؟

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لاَ عِلْمَ لَنَا ﴾ [المائدة:١٠٩] كيف يصح منهم هذا القول وقد علموا بماذا أجابهم من الدعوة إلى الدين من الأمم ؟

وجوابنا : أن المراد : لا علم لنا إلا ما أنت يا رب به أعلم، ولذلك قال بعده : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ ﴾ [المائدة:١٠٩] ويحتمل أنهم قالوا : لا علم لنا بباطن أمورهم لأنهم إنما يعلمون الظاهر والله تعالى هو العالم بباطن ما فعلوه .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ الحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ [المائدة:١١٢] كيف يجوز من الحواريين أن يحملوا قدرة الله تعالى على مثل ذلك ؟

وجوابنا : أنهم ذكروا الاستطاعة وأرادوا نفس الفعل، ولذلك ﴿ قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا ﴾ [المائدة:١١٣] ولذلك صار جواب قولهم أن عيسى صلى الله عليه وسلم قال : ﴿ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ [المائدة:١١٤] ولو كان مرادهم القدرة فقط ما كان لذلك معنى .

ويحتمل أن يكون المراد : إنزال مائدة تكون مصلحة للكل، لأن ذلك ربما لم يدخل تحت القدرة كما نقول في باب الألطاف؛ ولذلك قال تعالى بعده : ﴿ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ العَالَمِينَ ﴾ [المائدة:١١٥] .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ [المائدة:١١٦] كيف يصح ذلك وعيسى لم يقل ذلك للناس ؟ وكيف يصح أن يقول : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ ﴾ [المائدة:١١٦] وذلك يخبر به عن الماضي ولم يتقدم ذلك منه تعالى في الدنيا ؟

وجوابنا : أن ذلك من الله تعالى على وجه التوبيخ والتقريع لمن قال ذلك، وقد يجوز من الحكيم أن يخاطب بذلك متهمًا بفعل ليكون ردعاً وتوبيخاً لمن فعل، والله تعالى عالم بالأمور، ولا يصح الاستفهام عليه، فالمراد ما ذكرناه .

فقد كان فيهم من يزعم أن عيسى ﷺ أمرهم بأن يتخذوهما إلهين فيعبدوهما ويطيعوهما كطاعة المرء لله، ولذلك قال بعده : ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ﴾ [المائدة:١١٦] وقد قيل : إن هذا القول وقع منه تعالى في مخاطبة عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة عندما رفعه إلى السماء، فلذلك قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة:١١٦] وقيل أيضاً : «وإذ قد» يستعمل في المستقبل إذا قدر فيه تقدير الماضي كقوله تعالى : ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴾ [الأعراف:٥٠] لما قدر فيه تقدير الماضي، ولذلك قال تعالى بعده : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ [المائدة:١١٧]

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [المائدة:١١٨] أليس ذلك من قول عيسى ﷺ يدل على أنه كان لا يعرف أنه تعالى يعذب الكفار لا محالة ؟

وجوابنا : أن المراد تفويض أمرهم إلى الله وأنه يفعل بهم ما يريد مما يكون عدلاً وحكمة، ويحتمل أن يكون المراد بقوله : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ ﴾ [المائدة:١١٨] من استمر على كفره، وبقوله : ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ من آمن .

سورة الأنعام

[مسألة] ربما سألوا عن قوله تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ** ﴾ [الأنعام:٢] كيف يصح ذلك في الجميع وقد بين في غير موضع أنه خلقهم من نطفة ؟

وجوابنا:أن المراد:أصل الخلقة في آدم لأنه خلق من طين على ما ذكره تعالى، فلما كان الكل يرجع في خلقهم إلى آدم صح أن يقول تعالى : (**خلقكم من طين**).

[مسألة] وربما قالوا في قوله تعالى : ﴿ **ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ** ﴾ [الأنعام:٢] أليس ذلك يدل على أن للإنسان أجلين وأنتم تمنعون من ذلك ؟

وجوابنا : أن أجل الإنسان في الحياة هو وقت حياته، وأجله في الموت هو وقت موته، فإذا كان موته لا يقع إلا في وقت واحد في الدنيا كان مقتولاً أو غير مقتول فأجله واحد، والمراد بذلك : ثم قضى أجلاً في الدنيا لأنها دار الفناء، وأجل مسمى عنده وهو أوقات حياتهم في الآخرة التي لا انقطاع لها، بين ذلك أن الآخرة دار البقاء، ولذلك قال بعده : ﴿ **ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ** ﴾ [الأنعام:٢] فإنما وقع ذلك منهم في باب الإعادة في الآخرة .

[مسألة] وربما قالوا في قوله تعالى : ﴿ **وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ** ﴾ [الأنعام:٢] كيف يصح أن يكون في مكانين ؟ وكيف يصح مكان لله تعالى وقد كان موجوداً ولا مكان أصلاً ؟

وجوابنا : أن المراد أنه في السموات والأرض بأن يعلمهما ويحفظهما ويدبرهما، وقد بيّن ذلك تعالى بقوله من بعد : ﴿ **يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ** ﴾ [الأنعام:٣] .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ * ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ * انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ ﴾ [الأنعام:٢٢-٢٤] فيقال : إن الكذب لا يقع من أهل الآخرة، فكيف يصح ذلك ؟

وجوابنا : أن الكذب لا يكون إلا قبيحاً وأهل الآخرة ملجؤون إلى أن لا يقع منهم القبيح .

فالمراد بذلك : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام:٢٣] أي في الدنيا لأنهم كانوا يحسبون أنهم بخلاف ذلك، ثم قال : ﴿ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ ﴾ [الأنعام:٢٤] أي في دار الدنيا لأنهم أخبروا عن أنفسهم بنفي الشرك وهم كانوا مشركين في الحقيقة، فالكذب إنما وقع منهم في الدنيا وأخبروا في الآخرة عن أحوالهم في الدنيا، ومثل ذلك يكون فتنة في الآخرة عليهم لأنهم يخبرون بما ليس بعذر، فلا ينفعهم ذلك، ولذلك قال تعالى بعده : ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام:٢٤] يعني ذهب ذلك عنهم وظنوا خلافه .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً ﴾ [الأنعام:٢٥] كيف يصح ذلك وقد أمرهم بهذا الاستماع، فكيف يمنعهم بالوقر والكن ؟

وجوابنا : أن ذلك تمثيل لا تحقيق من حيث لم يسمعوا ما أمروا فصاروا بمنزلة من في آذانه وقر، ولم ينتفعوا بما فهموا فصاروا كمن في قلبه كن، وقد قيل : إن المراد بذلك أنهم كانوا يؤذون رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن فحجبوا عن استماعه من حيث كان المعلوم أنهم لا ينتفعون به، ولذلك قال بعده : ﴿ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾ [الأنعام:٢٥] وبين الله تعالى بعد إقامة الحجة أن الحجب مانعة عن معرفة كثير من الآيات إذا كان المعلوم أن يكذّب ولا ينتفع به، ولذلك قال تعالى بعده : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف:١٤٦] وذمهم بذلك، ولو كان المنع وقع أولاً لما صح أن يذمهم على منعهم منه .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَــا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنعام:٢٧] ثم قـال تعـالى : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام:٢٨] كيف يصح ذلك ؟

وجوابنا : أنهم تمنوا الرد إلى دار الدنيا، والتمني لا يقع فيه الكذب وُجِدَ الأمر على ما تمنى أم لم يوجد، وإنما يقــع الكــذب في الإخبار، فمعنى قوله : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام:٢٨] أنهم بمنزلة من يكذب من حيث لو ردوا لعادوا .

(فإن قيل) : أتقولون بجواز ردهم إلى الدنيا حتى يقال : لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ؟ **(قيل)** : أما من اضطره الله تعالى إلى معرفته عند المعاينة أو بعدها فلا جائز أن يكلفه بعد ذلك، لكنه لما كان يجوز أن يرد من دون هذا الاضطرار جاز أن يتمنى ذلك وجاز أن يخبر تعالى عن حالهم بما وصفه على وجه التقدير .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعـالى : ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ ﴾ [الأنعام:٣٥] ما فائدة ذلك ؟

وجوابنا : شدة محبته ﷺ لإيمانهم وقبولهم كان يوجب أن يغتم بإعراضهم ويكبر ذلك عليه، فبين تعالى أن ذلك ليس في طوقه وهو متعلق باختيارهم، فلو فعل ما فعل لم يجد منهم الانقياد، ولذلك قال تعالى بعده : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأنعام:٣٥] والمراد : لو شاء أن يلجئهم إلى ذلك لفعل لكنه تعالى أراد إيمانهم اختياراً لينتفعوا بالثواب. ثم بين تعالى بقوله : ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام:٣٦] من ينتفعون بقبولهم ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [الأنعام:٣٦] فيجازيهم على ما فعلوا .

[مسألة] وربما قالوا في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام:٣٧] ما الفائدة في ذلك ؟

وجوابنا : أنه تعالى بيّن أن ما يلتمسونه من الآيات مقدور لله تعالى، لكنهم لا يعلمون أن ذلك بمنزلة ما قد أظهره من الآيات في أنهم لن يؤمنوا عنده .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم** ﴾ [الأنعام:٣٨] أليس يوجب ذلك أن كلَّ حي مكلفٌ ؟

وجوابنا : أن المراد بقوله : (**أمم**) : جماعة، فكأنه قال : ما من دابة ولا طائر إلا وهم جماعة من الجنس الواحد، فأما أن يريد بذلك أنهم مكلفون فمحال لأنا إذا كنا نعلم أن الصبيّ قبل البلوغ لا يكلف لفقد العقل فالبهائم والطير أولى بذلك .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى:﴿ **مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ** ﴾[الأنعام:٣٨] كيف يصح ذلك ونحن نعلم أنه ليس في القرآن بيان أشياء كثيرة ؟

وجوابنا : أن المراد : الشيء الذي يحتاج إليه في باب الدين لأنه الذي إذا لم يبينه تعالى يكون مفرطًا، إذ المفرط يكون مفرطاً بأن لا يبين ما يجب بيانه، وجميع أمور الدين قد بينه الله تعالى في القرآن إما مجملاً وإما مفصلا، ولذلك قال تعالى بعده : ﴿ **وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ** ﴾ [الأنعام:٣٩] نبه بذلك على أنهم بمنزلة من هذه حاله لعدولهم عما يجب أن يتبعوه .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللّهِ يَأْتِيكُم بِهِ** ﴾ [الأنعام:٤٦] كيف يصح في الأول أن يذكر أشياء ويجمع ثم يوحد بقوله : (**يأتيكم به**) ؟

وجوابنا : أن المراد : يأتيكم بما تقدم ذكره، وقد يصح في ذلك أن يوحد كما يصح أن يجمع . وبين تعالى بذلك أنه آتاهم هذه الآيات من سمع وبصر وقلب لينتفعوا بها، فلما لم ينتفعوا بها فكأنها مفقودة (وبين بذلك قدرته على هذه الأمور دون غيره)[1] ولذلك قال بعده : ﴿ **انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ** ﴾ [الأنعام:٤٦] موبخاً لهم على عدولهم .

[مسألة] وربما سألوا في قوله تعالى : ﴿ **وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم** ﴾ [الأنعام:٥٢] كيف يصح أن ينهاه عن ذلك مع وصفه لهم بالعبادة والخشية ؟

---

(١) ما بين القوسين ساقط من الأصل المطبوع وأثبته من النسخة المخطوطة . ا هـ . مصححه.

وجوابنا : أنه ﷺ ربما كان يقدم الأكابر من العرب محبة منه لإيمانهم وتألفًا لهم، فأدبه الله تعالى بهذه الآية في المؤمنين، لئلا يقدم غيرهم عليهم، ولذلك قال تعالى بعده : ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ [الأنعام:٥٣] نبه بذلك على أن المقدم هو من يعلمه الله تعالى عابداً شاكراً، ثم قال تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ [الأنعام:٥٤] فأمره بأن يحييهم ويعرفهم عظم منزلتهم .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ﴾[الأنعام:٥٤] كيف يصح أن يؤاخذ من عمل السوء ولا يعرفه؟

وجوابنا : أن كل عامل للسوء والمعصية يوصف بأنه عمله بجهالة وإن كان عالمًا به، والمراد بذلك أنه عمل ذلك على غير ما يقتضيه عقله، فإن الذي يوجبه العقل التحرز من ذلك ؛ وعلى هذا الوجه يوصف كل من يقدم على المعاصي بأنه جاهل، ولا يراد بذلك الاعتقاد الذي هو جهل، فلذلك قال تعالى : ﴿ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام:٥٤] .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى: ﴿وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩] ما فائدة ذلك والله عليم بكل شيء ؟

وجوابنا : أنه تعالى كتب في اللوح المحفوظ ما سيحدث من الأمور، ولكي تستدل الملائكة متى وجدته على علمه وقدرته، وهذا كما يحاسب يوم القيامة ويوكل الحفظة بالمكلف لإحصاء ما يأتيه ويفعله ليكون مصلحة له في الدنيا وتبكيتاً له في الآخرة .

[مسألة] وربما قالوا في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ [الأنعام:٦١] أنه يدل على جواز المكان له .

وجوابنا : أن المراد : فوقهم في القدرة والقهر لا في المكان، ولذلك قال بعده : ﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾ [الأنعام:٦١] إلى غير ذلك مما يدل على قدرته .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ [الأنعام:٦١] فجمع، وقال في موضع آخر : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ ﴾ [السجدة:١١] فوحد وذلك مناقضة ؟

وجوابنا : أن ملك الموت هو الموكل بقبض الأرواح، وله جمع عظيم من الملائكة يأمرهم بذلك، فلا مناقضة في هذا الباب .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ ﴾ الأنعام:٦٢] كيف يصح والمكان مستحيل عليه ؟

وجوابنا : أن المراد : ردوا إلى حيث لا مالك ولا حاكم إلا هو، وقد تقدم نظائر ذلك .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ ﴾ [الأنعام:٦٢] كيف يصح ذلك وليس يثبت مولى باطل فيتميز مولى الحق عنه ؟

وجوابنا : أن المراد : ﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ ﴾ [الأنعام:٦٢] أنه الذي خلقهم فأحياهم وبلغهم هذا الحد، ولا يجوز أن يشاركه غيره في ذلك، وهذا هو المراد، ولذلك قال بعده : ﴿ أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴾ [الأنعام:٦٢] فإنه إذا جعل المكلف بهذه الأوصاف جازاه في الآخرة بحسب ذلك .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ [الأنعام:١٣٠] أما يدل ذلك على أنه تعالى أرسل إلى الجن رسلاً منهم كما أرسل إلى الإنس ؟

وجوابنا :أن قوله:﴿ مِّنكُمْ ﴾[الأنعام:١٣٠] لا يدل على المشاركة في أنه من الجن بل قد يجوز أن يريد المشاركة في أنه من المكلفين العقلاء الذين يصلحون لذلك .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ [الأنعام:٦٨] إن هذا يدل على المنع من النظر في الأدلة .

وجوابنا : أن المراد خوضهم في الآيات على وجه الرد والوقيعة فيه كما كان كثير منهم يفعله، وكيف يصح ذلك وقد بعث ﷺ بالآيات في الدعاء إليه .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي ﴾ [الأنعام:٧٦] أليس ذلك كفراً من قائله ؟ فكيف يجوز ذلك على إبراهيم ؟

وجوابنا : أن ذلك في حال النظر ذكر على وجه الاستدلال لا على وجه الخبر، ولذلك قال بعده : ﴿ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ ﴾ [الأنعام:٧٦] فاستدل بحركته وغيبته على أنه ليس برب، وكذلك قال في الشمس والقمر، وقال في آخره : ﴿ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام:٧٨-٧٩] فعرفه تعالى استدلالاً بالسموات والأرض كما نقل عنه الاستدلال على الله تعالى، وقد قيل : إن المراد بقوله : (هذا ربي) على وجه الاستفهام والنظر، ومثل ذلك قد يتفق من المستدل .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً﴾ [الأنعام:٨٠] وأن ذلك يدل على أنه تعالى يجوز أن يشاء الشرك .

وجوابنا : أن المراد : إلا أن يشاء ربي شيئاً مما أخافه، فرجع الاستثناء إلى أسباب الخوف لا إلى الشرك، ولذلك قال بعده : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ ﴾ [الأنعام:٨١] وقال بعده أيضاً : ﴿ فَأَيُّ الفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ ﴾ [الأنعام:٨١] فنبه بذلك على أنه لا يخاف إلا ما يكون من قبل الله تعالى دون ما (يتوهم)[1] للأصنام .

ثم قال بعده : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ ﴾ [الأنعام:٨٢] فبين أن الأمن في الآخرة والاهتداء إلى الثواب إنما يحصل لمن يتحرز من الظلم، وكل المعاصي تعد في الظلم، ولذلك قال تعالى : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان:١٣] ثم بيّن قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ﴾ [الأنعام:٨٣] إلى آخره ذكر الأنبياء، ثم قال بعده : ﴿ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [الأنعام:٨٨] .

---

(١) في النسخة المخطوطة : يتفق . اهـ . مصححه .

فبيّن أن الحجة على توحيد الله واحدة في الأنبياء وغيرهم، ثم قال من بعد : ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:٨٨] فبيّن أن الشرك يحبط كل هذه الطاعات، ثم قال : ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام:٩٠] فنبه بذلك أن (الأدلة) [1] : واحدة .

[مسألة] وربما سألوا عن قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام:٨٧] أليس ذلك دلالة على أنه خصهم بالهدى ؟

وجوابنا : ما تقدم من أنهم لما قبلوا خصهم بالذكر .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ ﴾ [الأنعام:١٠٠] كيف يصح وليس في الناس من يجعل لله شريكاً من الجن ؟

وجوابنا : أن المراد أنهم جعلوا الملائكة شركاء الجن من حيث اتفقوا في أنهم لا يرون . وقيل : إن إبليس يعبده كثير من الناس كالشريك لله على ما يحكى عن بعض المجوس .

[مسألة] وربما سألوا عن قوله تعالى : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام:١٠١] وعن قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الرعد:١٦] وقالوا : يدل ذلك على مذهب قول المجبرة .

وجوابنا عن ذلك أن المراد : وخلق كل شيء مما يوصف بأنه مخلوق لأن كل ذلك من قبل الله تعالى، وهذا كقول القائل : أكلت كل شيء، يريد مما يصح كونه مأكولا، فلا يدل على ما قالوه، وقد أجيب عنه بأن المراد التكثير والمبالغة لا أنه عموم في الحقيقة، كقوله تعالى : ﴿ يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [القصص:٥٧] وقوله : ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾[النمل:٢٣] وذلك مذهب العرب في المبالغة، وبين ذلك قوله : ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ [السجدة:٧] فبيّن حسن ما خلق، فلا يصح أن يضاف إليه شيء من القبائح .

---

(١) في الأصل المطبوع : الدلالة، وما أثبته من النسخة المخطوطة . ا هـ . مصححه .

وقيل أيضاً : إن المراد : قدر الأشياء لا أنه أوجدها وأحدثها : فما هو من فعله قد قدره، وما ليس من فعله قدره أيضاً بأن بيّن أحواله، وذلك كقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ [الحجر:٦٠] والمراد الإخبار عن حالها، فأما دلالة قوله عز وجل : ﴿ لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ ﴾ [الأنعام:١٠٣] على أنه تعالى لا يجوز أن يرى بالأبصار فبيِّن، وذلك مشروح في الكتب .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام:١٠٣] فالمراد به لطيف الفعال لأن اللطف عليه في ذاته يستحيل كما يستحيل عليه الصغر ـ تعالى الله عن ذلك ـ وقوله تعالى من بعد : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا ﴾ [الأنعام:١٠٧] فالمراد به : لو شاء أن يمنعهم ويحول بينهم وبين الاختيار لما وقع الشرك منهم، ويحتمل : ولو شاء أن يلجئهم إلى خلاف الشرك لما أشركوا .

ومن عظيم آداب القرآن قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام:١٠٨] فنهاهم عن سب آلهتهم لئلا يقع منهم ذكره تعالى بما لا يليق به على وجه المقابلة لأن من ظن أنه إذا سب آلهتهم وقع منهم ذلك فكأنه قد أغراهم بهذه المعصية .

[مسألة] وربما قالوا في قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ [الأنعام:١٠٨] أليس ذلك يدل على أنه تعالى قد زين عمل الكفار والعصاة، وذلك بخلاف قولكم وقول المسلمين ؟

وجوابنا أن المراد به ما ألزمهم تعالى من العمل وشرعه لهم وليس المراد ما وقع منهم، وعلى هذا الوجه يقول الوالد للولد : قد زينت لك العمل الذي رسمته لك فخالفتني، فيسمى ما لم يقع منه عملاً من حيث الأمر والإلزام، وبين ذلك قوله تعالى من بعد : ﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام:١٠٨] على وجه الدفع لهم عن الكفر وغيره، فكيف يصح أن يكون مع ذلك مزيناً لما فعلوه، وقد بيّن تعالى في غير موضع أن الشيطان هو المزين لعملهم، وقد قيل: إن المراد: زينا أعمالهم من حيث ميل الطبع والشهوة وأمرناهم مع ذلك بالمخالفة، والجواب الأول أبين .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ ﴾ [الأنعام:١١٠] إن ذلك يدل على أنه تعالى يخلق في قلوبهم الكفر والإيمان، قالوا ويقوي ذلك قوله : ﴿ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام:١١٠] .

وجوابنا : أن المراد بذلك أنه يجعلهم كذلك في الآخرة فتقلب أفئدتهم وأبصارهم في النار تنكيلاً لهم، وأما قوله: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:١١٠] فالمراد أنه يخلي بينهم وبين ما اختاروه فلا يمنعهم، كما نقول فيمن بصرناه برشده فلم يقبل : قد تركناه ورأيه لأنا لم نكره ذلك منه، وبين صحة ذلك قوله تعالى من بعد : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ﴾ [الأنعام:١١١] فنبه بذلك على (أنه)[1] خلاهم لعلمه بسوء فعالهم وأنهم لا يعدلون إلى الطريقة المثلى، ومعنى قوله : ﴿ مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الأنعام:١١١] بأن يلجئهم إلى الإيمان، لكن ذلك لا ينفع وإنما ينتفعون بما يفعلونه اختياراً فيستحقون به الثواب .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ﴾ [الأنعام:١٢٣] إن ذلك يدل على أن مكرهم وكفرهم من قبله تعالى .

وجوابنا : أن المراد : بينا ذلك من حالهم، كما يقال في الحاكم : إنه جعل الشاهد مزوراً إذا بيّن ذلك من حاله، ويقال : إن المعتزلة جعلت المشبهة كفاراً لما بينوا ذلك من حالهم، كما يقال : إن الحنفي جعل الوتر واجباً لما ذهب هذا المذهب.

فأما قوله تعالى : ﴿ لِيَمْكُرُوا فِيهَا ﴾ [الأنعام:١٢٣] فالمراد أنه جعلهم في كل قرية وأمرهم بالطاعة وعاقبتهم هذا المكر، وهذا كقوله تعالى : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُواً وَحَزَناً ﴾ [القصص:٨] وإنما التقطوه لغير ذلك، لكن لما كان مآل أمرهم إلى العداوة كما يقال : خلقت الدنيا للفناء لما كان ذلك عاقبتها، ولذلك قال تعالى : ﴿ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الأنعام:١٢٣] فذمهم على ذلك .

---

(١) في الأصل المطبوع والنسخة المخطوطة : (أنهم) والصواب ما أثبته . اهـ . مصححه .

[مسألة] وربما سألوا عن قوله تعالى : ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً ﴾ [الأنعام:١٢٥] كيف يصح ذلك عندكم وأنتم تقولون : أراد من الكل الهدى ؟ وكيف يصح ذلك ونحن نعلم أن الكافر لا يكون ضيق الصدر بكفره، بل ربما يكون أشرح بما هو عليه من المؤمن ؟

وجوابنا : أن المراد : فمن يرد الله أن يهديه بزيادات الهدى كقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى ﴾ [محمد:١٧] بشرح صدره للإسلام لأن زيادات الهدى أحد ما يقوي صدر المؤمن على إيمانه، وقوله : ﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ ﴾ [الأنعام:١٢٥] أي عن هذه الزيادات من حيث يعلم أنه لا ينتفع يجعل صدره ضيقاً حرجاً فتضطرب عليه اعتقاداته الفاسدة إذا فكر فيها .

وهذا يدل على قولنا في العدل إنه تعالى يفعل بالمؤمن ما يكون أقرب إلى ثباته على الإيمان من شرح الصدر بزيادات الأدلة، ويفعل بالكافر ما يكون أقرب إلى أن يقلع عن الكفر من ضيق الصدر، وإلا فقد هدى الجميع بالأدلة وأزاح لهم العلة حتى لم يؤتوا إلا من قبل أنفسهم، وكل كافر إذا فتشت عنه متى نوظر وكلم يضيق صدره بما هو عليه من الكفر عند إيراد الأدلة عليه، لكنه يكابر ظاهراً ويوهم أنه على بصيرة، ولذلك قال تعالى من بعد : ﴿ كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام:١٢٥] .

[مسألة] وربما سئل عن قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً ﴾ [الأنعام:١٢٩] كيف يصح منه تعالى أن يوليهم مع ظلمهم ؟ أوَليس تعالى قد قال في سورة البقرة : ﴿ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة:١٢٤] ؟

وجوابنا : أن ذلك شبيه بقوله تعالى : ﴿ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ﴾ [البقرة:٢٥١] فالله تعالى يقوي الظالم على غيره من الظلمة ليدفعه عن الظلم، ولولا ظلمه لكان لا يمكنه من ذلك، وذلك (ليس مخالفاً)[1] لقوله تعالى : ﴿ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة:١٢٤] إذ المراد بذلك النبوة .

---

(١) في النسخة المخطوطة : (مخالف) وما أثبته من الأصل المطبوع .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلامِ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [الأنعام:١٢٧] أما يدل ذلك على جواز المكان لله تعالى ؟

وجوابنا:أن هذه الإضافة إضافة إعظام وإكرام كما يقال : إن لزيد قدراً عظيماً عند عمرو لا يراد به المكان، ولذلك قال تعالى بعده: ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام:١٢٧]

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ [الأنعام:١٢٨] أوَليس في ذلك دلالة على أن في الجن والإنس الكفار من لا يخلد في النار ؟

وجوابنا : أن المراد : ما شاء الله ممن لا يبقى على كفره، ولأنه تعالى قال : ﴿ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ [الأنعام:١٢٨] ومن الجائز أن يؤمن بعضهم فقال ﴿ إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ [الأنعام:١٢٨].

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ [الأنعام:١٤١] أليس يدل ذلك على وجوب حقه يوم الحصاد خاصة ؟

وجوابنا في ذلك أنه قد روي وجوب هذا الحق من قبل وأنه نسخ بالعشر والزكاة، وروى أيضاً أن المراد به نفس العشر لأنه يدخل تحت قوله : ﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ [الأنعام:١٤١]وآتوا حقه يوم حصاده، والتوقيت بذلك إنما دل به على الإيجاب، والكلام في كيفية إخراجه يرجع فيه إلى دليل الشرع .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾ [الأنعام:١٤٦] ثم قال في آخره : ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ﴾ [الأنعام:١٤٦] كيف يصح أن يجازيهم على بغيهم بتحريم ما يحرمه ولهم في اجتناب ذلك المحرم ثواب ويصير من هذا الوجه نعمة، فكيف يصح أن يكون عقوبة ؟

وجوابنا : أن المراد : جزيناهم على بغيهم بتحريم ذلك عليهم من حيث نعلم أن جزاء البغي لا يكون ما يؤدي إلى النفع وإلى الثواب، وذكر بعده ما بيّن به من وجوه أنه تعالى لا يريد الشرك والكفر فقال : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا

أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام:١٤٨] وهذا مقالة المجبرة، فقال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [الأنعام:١٤٨] والمراد : كذبوا الرسل الذين دعوهم إلى خلافه، وهو قولنا : إنه تعالى لا يشاء الشرك ولا سائر القبائح، ثم قال : ﴿ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا ﴾ [الأنعام:١٤٨] وهو العذاب .

والعذاب لا يذاق إلا على القول القبيح، ثم قال : ﴿ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ [الأنعام:١٤٨] ولا يقال ذلك إلا للمبطل، ثم قال : ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ ﴾ [الأنعام:١٤٨] ولا يقال ذلك للمحق، ثم قال : ﴿ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام:١٤٨] والمراد : تقدرون ما يكون كذباً أو في حكم الكذب، كما قال تعالى : ﴿ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴾ [الذاريات:١٠] ثم قال بعده : ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴾ [الأنعام:١٤٩] عاطفاً على ما تقدم، ثم قال : ﴿ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنعام:١٤٩] بين أنه إنما أراد خلاف الشرك منهم اختياراً ليفوزوا بثوابه، ولو شاء أن يهديهم لهداهم أجمع .

ثم إنه تعالى عهد إلى عباده بعهد جامع ووصاهم به فقال : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ﴾ [الأنعام:١٥١] ومن تأمل هذه الآيات وعمل بها أغنته عن كل دليل، ثم قال في آخره : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام:١٥٣] فبين أن كل ما تقدم ذكره من وصاياه جل وعز لعباده، والوصايا في الشاهد يجب القيام بحقها، فوصية الله تعالى أولى بذلك خصوصاً، وإنما وصاهم بذلك لحظهم ولما يعود عليهم بالنفع .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ [الأنعام:١٦٠] كيف يصح ذلك في كل الحسنات ؟

وجوابنا : أنه قد قيل في ذلك : إن المراد به التفضل الزائد على الثواب، فمنَّ الله تعالى بذلك في كل حسنة ترغيباً في الطاعة، وقيل فيه أيضاً : إن المراد : فله عشر أمثالها في أنها حسنة وإن كان الواحد من ذلك ثوابًا عظيمًا، والثاني تفضل وهو دون ذلك الثواب، فإذا تأولناه على هذا الوجه زال القدح .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام:١٦٣] كيف يصح ذلك مع تقدم إسلام سائر الأنبياء وأممهم ؟

وجوابنا : أن المراد بذلك : وأنا أول المسلمين من قومي؛ لأنه قد تقدم قوله : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام:١٦٢] ومعلوم أنه ﷺ كان أول من أسلم بذلك من أمته، وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ [الأنعام:١٦٤] دليل بيّن في أن الفعل للعبد وأنه لا يؤاخذ بما يكون من فعل غيره، وأن قول من يزعم أن أطفال المشركين يعاقبون بذنوب أبائهم خطأ عظيم، ومعنى قوله : ﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ ﴾ [الأنعام:١٦٤] أن إليه المرجع خاصة دون غيره، لا كما قد عهد في الدنيا أن غير الله قد يرجع إليه في الأمور، ولذلك قال تعالى : ﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [الأنعام:١٦٤] ولو كان المراد الرجوع إلى المكان لم يصح هذا القول ولم يكن فيه فائدة .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ [الأنعام:١٥٤] بعد ذكر القرآن، وهذا يوجب أنه آتاه الكتاب بعد القرآن وذلك لا يصح ؟

وجوابنا : أن لفظة « ثم » ربما دخلت لفظاً لا معنى، ويكون المراد ترتيب الإعراب والإخبار كما يقال : علمت فلاناً العلم ثم ربيته، فيكون قصده إعلام إنعامه عليه لا ترتيب ذلك، فكأنه قال : ثم نعلمك يا محمد أنا آتينا موسى الكتاب .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ ﴾ [الأنعام:١٤٧] أليس ذلك كالإغراء بالتكذيب ؟

وجوابنا : أن المراد : لمن يتوب منهم، ولذلك قال : ﴿ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأنعام:١٤٧] ويحتمل : فإن كذبوك فقل : ربكم عاجلا ذو رحمة واسعة في الرزق وغيره فيمهل ويرزق ولا يعجل بالعقوبة. ويحتمل : فقل : ربكم ذو رحمة واسعة علينا وعلى من خالفنا لا يرد بأسه عنكم .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ العِقَابِ ﴾ [الأنعام:١٦٥] كيف قال ذلك وهو يؤخره إلى الآخرة ؟

وجوابنا : أنه وصف قدرته على ذلك على وجه الردع، وليس المراد بيان كيف يقع، وبعد فإن «سريع» يستعمل على وجه الإضافة إلى ما هو أعظم منه في المدة أو لأنه يعقب الموت، ثم يقال بتقدير السريع لأن ما بين الإماتة والإعادة طويله كقصيره .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ ﴾ [الأنعام:١٣٧] كيف يصح ذلك ؟

وجوابنا : أنه تعالى أخبر بذلك عن شركائهم فقال : شركاؤهم ليردوهم، فلا سؤال علينا في ذلك .

سورة الأعراف

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ﴾ [الأعراف:٢] كيف يصح أن يقول لمحمد ﷺ والحرج هو الشك، والشك لا يجوز عليه في القرآن ؟

وجوابنا : أن ذلك نهي، وقد ينهاه عز وجل عن المعلوم أنه لا يقع، كما قال الله تعالى : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر:٦٥] وبعد فليس الحرج هو الشك فيحتمل أن يريد به : لا يكن في صدرك الضيق من القيام بأداء القرآن وإبلاغه، ولذلك قال بعده : ﴿ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف:٢] وإذا بعثه الله تعالى على الأداء وتوعده على تركه فغيره بذلك أولى .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً ﴾ [الأعراف:٤] كيف يصح بعد إهلاكهم أن يعاقبهم ؟

وجوابنا : أن المراد : أهلكناها بما جاءهم من بأسنا، كما يقال : أهلكنا القرية فخربناها، وليس الإهلاك غير التخريب وإنما بيّن وجه التخريب، وقد قيل : إن فيه تقديماً وتأخيراً، فكأنه قال : وكم من قرية جاءها بأسنا فأهلكناها .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ [الأعراف:١٢] كيف يصح ذلك ولم يمنع من أن لا يسجد، وإنما منع من السجود ؟

وجوابنا : أن المراد : ما منعك أن تسجد، وهو كقوله : ﴿ لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ ﴾ [الحديد:٢٩] والمراد : لكي يعلموا، وكقوله : ﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا ﴾ [النساء:١٧٦] والمراد : أن لا تضلوا، فإذا كان تعالى أمره بالسجود كما قال : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ [الأعراف:١٢] فقد نبه بقوله : (**إذ أمرتك**) على أن المراد : ما منعك أن تفعل ما أمرتك، وذلك يدل على قدرة إبليس على السجود كما نقوله وإن لم يفعله .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ [الأعراف:١٣] لماذا خص ذلك المكان بأنه لا يتكبر فيه دون غيره والتكبر محرم في كل مكان ؟

وجوابنا : أن في الأماكن ما يكون له منزلة، فنفس المقام فيه يكون كالتكبر . فلما جعل تعالى ذلك الموضع مقراً للأنبياء جاز أن يقول ذلك لا أن التكبر يحسن في غيره، ولذلك قال بعده : ﴿ فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ [الأعراف:١٣] .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴾ [الأعراف:١٤-١٥] كيف يصح وقد كفر إبليس أن يجيب دعاءه ؟

وجوابنا : أَنَّ فِعْل ما سأل العبد قد لا يكون إجابة متى فعل لا لمكان المسألة في إنظاره بل لأن في تبقيته مصلحة العباد ليتحرزوا من المعاصي ومصلحة له في التكليف .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي ﴾ [الأعراف:١٦] كيف يصح من الله تعالى أن يفعل به أو بغيره ذلك وهو قبيح ؟

وجوابنا : أن المراد : بما أحرمتني الثواب وخيبتني منه، وليس المراد به الضلال بل المراد به الحرمان، ولذلك قال بعده : ﴿ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾[الأعراف:١٧] الآية، ولا يليق ذلك إلا بأن يقول : إذا حرمتني الثواب وخيبتني وقطعت رجائي لأفعلن كيت وكيت .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾[الأعراف:١٧] كيف الحكم في ذلك وهو كالغيب ؟

وجوابنا : أنه يجوز أن يكون قد عرف ما سيكون من الناس من حيث أعلم الله بذلك الملائكة فقالوا : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ [البقرة:٣٠] . فجوابنا في هذه المسألة كالجواب في تلك المسألة .

[**مسألة**] وربما قيل إذا كان الله تعالى قد أخرجه من الجنة وقال لآدم ﴿ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ [البقرة:٣٥] فكيف يصح أن يوسوس كما قال تعالى : ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ ﴾ [الأعراف:٢٠] .

وجوابنا : أنه يجوز أن يخاطبهما وهو خارج الجنة، ويجوز منهما أيضاً أن يخرجا من الجنة فيراهما، فليس في ذلك مناقضة .

[**مسألة**] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف:٢٣] كيف يصح ذلك على الأنبياء ؟

وجوابنا : أن الذي وقع منهما من الصغائر وقع على وجه التأويل، لكن الأنبياء لما عظم الله من محلهم تعظيم الصغائر عند أنفسهم، فعلى هذا الوجه ﴿قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا ﴾ [الأعراف:٢٣] وقد يكون المرء بالصغيرة ظالماً لنفسه من حيث حرمها الثواب الذي نقص لمكان الصغيرة، ومن حيث يجب عليه التأسف والندم ولذلك غم عظيم .

[**مسألة**] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ ﴾ [الأعراف:١١] كيف يصح ذلك وقوله للملائكة كان قبل أن خلقنا وصورنا ؟

وجوابنا : أن المراد : خَلَقْنَا مَنْ هو أصلكم، فذِكْر أولاده من حيث تفرعوا عنه، فالمراد خلق آدم؛ وهو كقوله جل وعز في سورة البقرة لأهل الكتاب : ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ ﴾[البقرة:٥٠] والمراد : آباؤهم الذين أولادهم لم يحصلوا على هذا الوصف.

[**مسألة**] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ * فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ ﴾[الأعراف:٢٩-٣٠] كيف يصح وعندكم أنه قد هدى الجميع؟

وجوابنا : أن المراد في الآخرة، وفي الآخرة يكون الهدى بمعنى الثواب، كأنه قال : فريقاً هداهم إلى الجنة بحسن طاعتهم وفريقاً حق عليهم الضلالة، وذلك إخبار عن حال ما يعاد لكي يكون أقرب إلى الطاعة، ولذلك قال بعده : ﴿ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ [الأعراف:٣٠] يعني أن الضلالة حقت عليهم لهذه الطريقة التي كانت منهم في الدنيا .

[مسألة] وربما سألوا عن قوله تعالى ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف:٣٤] أليس ذلك يوجب أن أحداً لا يقدر على قطع الأجل بالقتل وغيره على ما يقوله بعض المجبرة ؟

وجوابنا : أن الأجل هو الوقت الذي يعيش المرء إليه، فسواء انقطعت حياته بالقتل أو بإماتة الله تعالى إياه فذلك الوقت هو أجله لا أجل له سواه، والعبد قادر على كل أحد، لكن ما المعلوم خلافه لا يقع لأنه لا يصح أن يفعله .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:٣٨] كيف يصح الضعف في العقاب وليس العقاب مما يصح فيه الزيادة فإن الزيادة عليه ظلم ؟

وجوابنا : أنهم أرادوا الدعاء عليهم بمزيد العقاب، فليس من يَضِل ولا يُضِل ولا يُقْتَدَى به بمنزلة من يَضِل ويُضِل، ومعنى قوله تعالى : ﴿ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ ﴾ [الأعراف:٣٨] أنه لا أحد منهم إلا ويستحق من العقاب زيادات على قدر معاصيه إما في الوقت أو في الأوقات .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ ﴾ [الأعراف:٤٤] كيف يصح ذلك والجنة ما خلقت بعد ولا دخلوها ولا دخلوا النار ؟

وجوابنا : أن التقدير في ذلك أنه تعالى كتب في اللوح المحفوظ أني سأكلف الناس، فمن أطاع منهم أدخله الجنة ومن عصى أدخله النار، فعند ذلك ينادي أهلُ الجنة أهلَ النار وينادي أهلُ النار أهلَ الجنة، وليس كل ما كتب في اللوح المحفوظ ينزله تعالى إلى الرسول ﷺ .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا ﴾ [الأعراف:٥١] كيف يصح والنسيان على الله تعالى لا يصح ؟

وجوابنا : أن المراد : فاليوم لا نجازيهم بالحسنى كما لم يحسنوا بالطاعة، وأهل اللغة يستعملون النسيان بمعنى الترك، وحقيقته ما ذكرناه .

وفي قوله ﴿ لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا ﴾ [الأعراف:٥١] دلالة على أن كل آية ذكر الله تعالى فيها اللقاء وذكر نفسه أراد به غيره من اليوم أو الثواب أو غيرهما .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ﴾ [الأعراف:٤٠] كيف يصح ذلك وأبواب السماء لا تفتح لغيرهم أيضاً ؟

وجوابنا : أن المراد : لا تفتح لصحفهم التي فيها أعمالهم كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ كِتَابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴾ [المطففين:٧] و ﴿ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴾ [المطففين:١٨] وتخصيصهم بالذكر لا يمنع من كون الفساق بمنزلتهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الجَمَلُ فِي سَمِّ الخِيَاطِ ﴾ [الأعراف:٤٠] وهو على وجه التبعيد يحقق أن دخولهم الجنة لا يقع، وقوله من بعد : ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي المُجْرِمِينَ ﴾[الأعراف:٤٠] يدل على أن الفاسق بمنزلتهم وذلك إذا مات على فسقه.

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً ﴾ [الأعراف:٤٤] ما فائدة هذا السؤال في الآخرة وكلهم يعرفون ذلك ؟

وجوابنا : أنهم قالوه على وجه التوبيخ لهم لا على طريق المسألة والتعرف وقوله : ﴿ نَعَمْ ﴾ [الأعراف:٤٤] كالاعتراف بتقصيرهم في الدنيا وأنهم أهل الإنكار والتوبيخ ولذلك قال بعده : ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً ﴾ [الأعراف:٤٤-٤٥] .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الجَنَّةِ أَن سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ [الأعراف:٤٦] كيف يصح وصفهم بذلك لأنه إن أراد أصحاب الأعراف فهم عالمون، ولا يوصف العالم بأنه يدخل الجنة أنه طامع، وإن أريد أهل النار فهم عالمون بدخول النار، فكيف يطمعون في ذلك ؟

وجوابنا: أن المراد به أصحاب الأعراف فيوصفون بالطمع وإن كانوا من أهل الجنة تحقيقاً لذلك، ولأنهم لا يعرفون وقت دخول الجنة في حال شهاداتهم للناس وعليهم .

[مسألة] وربما سأل الحشو عن قوله تعالى : ﴿ **أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ** ﴾ [الأعراف:٥٤] أن ذلك يدل على أن أمر الله تعالى في القرآن ليس بخلق ولا مخلوق ؟

وجوابنا : أن المراد أن له الخلق والأمر في نفس الخلق، فهو الذي يبقيه أو يفنيه ويتصرف فيه كيف يشاء، فلا يدل إفراده بالذكر (على صحة) [١] ما قالوه (من أنه) [٢] لم يدخل (الأمر) [٣] تحته كقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ** ﴾ [النحل:٩٠] والإحسان من العدل، وذلك كثير في الكلام .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ** ﴾ [الأعراف:٥٨] كيف يصح ذلك ومعلوم أن الذي خبث أيضاً من البلاد لا يخرج نباته إلا بإذن الله ؟

وجوابنا: أن المراد بذلك يخرج نباته موافقا للمراد والنفع لا نكداً، ونبه جل وعز على ذلك بقوله : ﴿ **وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً** ﴾ [الأعراف:٥٨] وذلك نقصان في الخروج وبيان النفع به لا يكاد يقع، وذلك مثل من الله تعالى لمن يعمل العمل الصالح وخلافه .

ثم ذكر تعالى قصص الأنبياء وأنهم دعوا الأمم إلى معرفة الله تعالى وخوّفهم عذابه، وأن نوحاً ﷺ قال لقومه : ﴿ **إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴾ [الأعراف:٥٩] إن لم تعبدوه وأنهم قالوا له : إنّك في ضلال مبين، وأنه قال لهم : ﴿ **لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ** ﴾ [الأعراف:٦١-٦٢] .

---

(١) في النسخة المخطوطة : (لو صح) .
(٢) في النسخة المخطوطة : (على أنه) .
(٣) في النسخة المخطوطة : الجنة .

وهذه الجملة يعرف بها رفق الأنبياء وحسن دعائهم إلى الدين، وأنهم بدأوا بالدعاء إلى معرفة الله وعبادته، وأنهم نزهوا أنفسهم عن الطمع في هذه الحياة، وفيها إذا تأملها المرء ما يعتبر به ويعرف آداب الأنبياء صلى الله عليهم وسلم في الدعاء إلى الدين وصبرهم على ما نالهم من الأمم فيقتدى بهم .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى في قصة صالح : ﴿ **فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ** ﴾ [الأعراف:٧٨] ثم قال : ﴿ **فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي** ﴾ [الأعراف:٧٩] كيف يجوز أن يقول لهم ذلك وقد هلكوا بأخذ الرجفة لهم ؟

وجوابنا : أن في ذلك تقديماً وتأخيراً، ومثل ذلك يكثر في الكلام .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ** ﴾ [الأعراف:٣٢] ثم قال تعالى : ﴿ **قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً** ﴾ [الأعراف:٣٢] كيف يصح ذلك ومعلوم أنه لغير المؤمنين أيضاً ؟

وجوابنا : أنه أراد بقوله : ﴿ **الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ** ﴾ [الأعراف:٣٢] قد نبه على أن ذلك لكل العباد، فمراده أخيراً هو أنها للمؤمنين في الحال وفي العاقبة، ولذلك قال : ﴿ **قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ** ﴾ [الأعراف:٣٢] فإن من نال شهوته عاجلاً وعاقبته النار لا يعد ما ناله نعمة عليه .

وقيل إن المراد بذلك ما حرموه من البحيرة والسائبة، فبين أنها من الطيبات للمؤمنين من حيث عرفوا أنها من رزق الله تعالى .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **أُوْلَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ** ﴾ [الأعراف:٣٧] وذلك كالمدح لهم يصح ذلك في الكفار .

وجوابنا : أن المراد : ينالهم نصيبهم من العذاب المذكور في الكتاب، وقيل : ينالهم نصيبهم من نعم الدنيا، وقوله تعالى من بعد : ﴿ **أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ** ﴾ [الأعراف:٣٧] عند معاينة العذاب يدل على ما قلنا لأنه بيّن به أن ما كانوا يعبدونه لا ينفعهم عند نزول العذاب بهم .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ [الأعراف:٨٨] أليس هذا يدل على أن ملتهم كان عليها شعيب من قبل وذلك كفر لا يجوز على الأنبياء ؟

وجوابنا : قد يقال : عاد في كذا إذا ابتدأه كما يقال : إن زيداً عاد إلى ما يكرهه أو يحبه وإن كان من قبل لم يفعل ذلك، وقد صح أن الكفر والكبائر لا يجوزان على الأنبياء صلى الله عليهم وسلم، فالمراد إذاً : أو لتدخلن في ملتنا على وجه التهديد، قالوه لشعيب فكان جوابه ﷺ : ﴿ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ * قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم ﴾ [الأعراف:٨٨-٨٩] .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ﴾[الأعراف:٨٩] أليس يدل ذلك على تجويز أن يشاء الله عودة شعيب إلى ملتهم مع أنها كفر ؟

وجوابنا : أن المراد بذلك التبعيد فعلقه بالمشيئة التي يعلم أنها لا تكون كقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ [الأعراف:٤٠] ويحتمل أنه أراد الملة التي هي الشرائع ويجوز أن يتعبد الله بمثلها بعد النهي عنه على وجه النسخ.

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ﴾ [الأعراف:١٥٥] كيف يصح ذلك من موسى ﷺ مع علمه بأنه لا يؤخذ بذنب غيره ؟

وجوابنا : أنهم سألوه رؤية الله تعالى ولم يقنعوا بما يكون من قبل الله تعالى فلما سأل ﷺ بقوله : ﴿ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف:١٤٣] فإنه سأل لقومه لا لنفسه فلما قال تعالى : ﴿ لَن تَرَانِي ﴾ [الأعراف:١٤٣] وأكد ذلك بقوله : ﴿ وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾ [الأعراف:١٤٣] فشرط استقراره، فلما لم يستقر بأن جعله دكًا عند ذلك أخذتهم الصاعقة بظلمهم ﴿ وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ ﴾ [الأعراف:١٤٣] قال هذا القول توبيخاً لقومه لأن الله عز وجل أخذه بذنب غيره، ولذلك قال : ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ ﴾ [الأعراف:١٥٥] يعني شدة التكليف .

وقد كان سأل الله الرؤية لقومه ولم يأذن جل وعز له في ذلك، والأنبياء صلى الله عليهم وسلم لا يسألون ربهم ما (يرغبون)[1] إلا بعد الإذن، فعلى هذا الوجه قال ما قال.

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف:١٥٦] ثم قال : ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف:١٥٦] وبعض ذلك يخالف بعضاً.

وجوابنا : أن المراد بذلك الرحمة الخاصة التي هي الثواب وما تقدم وما تأخر يدل على ذلك لأنه قال من قبل : ﴿ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف:١٥٦] فقرنها إلى العذاب وقال بعده : ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف:١٥٦] ثم وصفهم بالوصف العظيم، وإنما قال : ﴿ وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف:١٥٦] أنها لو قدرت لكل واحد لوسعته، أو قاله أيضاً على وجه التكثير والمبالغة.

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف:١٥٩] أليس ذلك كالمدح لليهود ؟

وجوابنا : أنه مدح من كان على ملته في أيام حياته لأن تكذيبهم بعيسى ومحمد حدث من بعده، ويحتمل أنه مدح لقوم يؤمنون بمحمد ﷺ .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ ﴾ [الأعراف:١٠١] كيف يصح ذلك وقد آمن بعضهم ؟

فجوابنا:أن ذلك خبر عن قوم مخصوصين بيّن ذلك بقوله تعالى من قبل : ﴿ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ ﴾ [الأعراف:١٠١] وإذا كان خبراً عن قوم لم يصح هذا الإلزام .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً ﴾ [الأعراف:١٦٤] كيف يصح أن يمنع من الوعظ والدعاء إلى الخير ؟

---

(١) في النسخة المخطوطة : يظهر، والمثبت من الأصل المطبوع .

وجوابنا : أن المراد بذلك اليأس من صلاحهم، وتعريف القوم أن الوعظ لا يؤثر فيهم، أو على وجه التوبيخ للقوم لا أنه منع من الوعظ وكيف يكون منعاً وجوابهم ﴿ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف:١٦٤] يبين أنهم وعظوا لتجويز التقوى .

[مسألة] وربما سألوا عن قوله تعالى:﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ [الأعراف:١٤٣] كيف يصح أن يتجلى وليس بجسم ؟ وما فائدة تجليه للجبل ؟

وجوابنا: أن المراد بهذا التجلي الإظهار، وذكر الله الجبل وأراد أهله، فكأنه قال: فلما تبين لأهل الجبل أنه لا يرى بأن جعله دكاً حصل المراد فيما سألوا، وهذا كقوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [الأحزاب:٧٢] وأراد : على أهلها وكل ذلك بمنزلة قوله : ﴿ وَاسْأَلِ القَرْيَةَ ﴾ [يوسف:٨٢] وأراد أهلها .

[مسألة] وربما سألوا عن قوله تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ ﴾ [الأعراف:١٤٦] كيف يصح أن يصرفهم عن آياته وأدلته ؟

وجوابنا : أن المراد : سأصرفهم عن الآيات الزائدة التي يفعلها تعالى لمن المعلوم أن ينتفع ويؤمن عنده، ولذلك قال : ﴿ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾ [الأعراف:١٤٦] وهو كقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى ﴾ [محمد:١٧] فيزيده هدى لأنه ينتفع بذلك دون من لم يهتد وإن كان الكل سواء في إقامة الحجة .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ المُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ ﴾[الأعراف:١٧٨] أليس ذلك يدل على أنه يخلق الهدى والضلال ؟

وجوابنا : أن المراد : ومن يهد الله إلى الجنة والثواب فهو المهتدى في الدنيا، ومن يضلل عن الثواب إلى العقاب ﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف:١٧٨] في الدنيا، وسبيل ذلك أن يكون بعثاً من الله تعالى على الطاعة، وكذلك قوله تعالى : ﴿ مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ ﴾ [الأعراف:١٨٦] المراد : من يضلله عن الثواب في الآخرة فلا هادي له إليه .

ومعنى قوله : ﴿ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأعراف:١٨٦] أنا نخلي بينهم وبين ذلك وإن كنا قد أزحنا (العلة) [1] وسهلنا السبيل إلى الطاعة .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ﴾ [الأعراف:١٧٢] وفي الخبر أن جميع بني آدم أخذ عليهم المواثيق من ظهر آدم ﷺ كيف يصح ذلك ؟

وجوابنا : أن القوم مخطئون في الرواية، فمن المحال أن يأخذ عليهم المواثيق وهم كالذر لا حياة لهم ولا عقل، فالمراد : أنه أخذ الميثاق من العقلاء بأن أودع في عقلهم ما ألزمهم؛ إذ فائدة الميثاق أن يكون منبهًا وأن يذكر المرء بالدنيا والآخرة وذلك لا يصح إلا في العقلاء .

وظاهر الآية بخلاف قولهم لأنه تعالى أخذ من ظهور بني آدم لا من آدم، والمراد أنه أخرج من ظهورهم ذرية أكمل عقولهم فأخذ الميثاق عليهم وأشهدهم على أنفسهم بما أودعه عقلهم .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا ﴾ [الأعراف:١٧٥] كيف يصح فيمن يؤتيه الله تعالى من الآيات والنبوّة أن ينسلخ من ذلك ؟

وجوابنا : أن ذلك لا يصح في الأنبياء، والمراد : من آتاه الله العلم بالأدلة وفضله بذلك ثم انسلخ منه، وذلك مما يصح، وهذه طريقة كثير من المضلين عن دينه في المسألتين المتشاكلتين في ذلك .

ويحتمل أن المراد : آتيناه آيتنا فأعرض عن النظر فيها فصار منسلخاً عنها لأنه قبل ثم انسلخ .

---

(١) في النسخة المخطوطة : الفتنة .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ﴾ [الأعراف:١٨٧] ثم قوله : ﴿ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ [الأعراف:١٨٧] تكرار ذلك ما فائدته ؟

وجوابنا : أن فى الأول سألوا عن وقت الساعة فبين أن يحكم بأن علم ذلك عند ربه تعالى، وأن الصلاح أن لا يبين ذلك ليكون العبد إلى الخوف أقرب، وأراد بقوله ثانياً : ﴿ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ [الأعراف:١٨٧] المسألة عن نفس الساعة، فقد كان عالماً بها في الجملة، فليس في ذلك تكرار .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ﴾ [الأعراف:١٨٩-١٩٠] كيف يصح ذلك مع كونهم صالحين وأنبياء؟ وكيف التأويل في ذلك ؟

وجوابنا : أن معنى قوله : ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً ﴾[الأعراف:١٩٠] البنية الصحيحة في الأولاد، ولا يمتنع في الصالح أن يكون كذلك ويقع منه الكفر والشرك، وليس في الظاهر أن ذلك وقع من آدم وحواء، وإنما المراد وقوع ذلك من الذكر والأنثى من الذرية، فهو معنى قوله : ﴿ جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاءَ ﴾ [الأعراف:١٩٠] .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ ﴾ [الأعراف:١٨٨] كيف يقول ﷺ ذلك مع زهده في الدنيا وهي له معرّضة ؟

وجوابنا : أن المراد : لو كنت أعلم الغيب وقت خروجي من الدنيا لاستكثرت من الخير فى الطاعة، فقد كان ﷺ لا يعرف قدر أجله، ولو عرف لزاد في الطاعات، وليس المراد لاستكثرت من الخير فيما يتصل بملذات الدنيا، وقد يحتمل : لاستكثرت من الخير في دفع المضار عن نفسي والمؤمنين من أصحابي، ولذلك قال بعده : ﴿ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف:١٨٨] .

[مسألة] وربما سألوا عن قول الله تعالى : ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ﴾ [الأعراف:١٩٥] على وجه المحاجة لمن يعبد الأصنام، كيف يصح ذلك والمعبود الذي هو الإله لا يوصف بهذه الصفات أيضاً ؟

وجوابنا : أن فقد هذه (الأعضاء) [1] والحواس نقص في الأجسام، ووجودها فضيلة في الأحياء، فصح أن يحاجهم بذلك، واستحالة ذلك على الله تعالى هو الذي يوجب[2] الإلهية لأنها لو جازت عليه لكان محدثا، فكيف صح ما سألوا عنه !

[مسألة] وربما سألوا في قوله : ﴿ خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف:١٩٩] كيف يصح أن يأمره بالمعروف، والجهاد مع الإعراض عن الجاهلين، واجتماع ذلك لا يصح ؟

وجوابنا : أن المراد أن يأمرهم بالمعروف ويقيم عليهم الحجة، فإن هم ردوا ذلك فتجاهلوا أعرض عنهم، وذلك لا يتنافى ومعنى قوله : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ ﴾ [الأعراف:٢٠٠] التحرز من وسوسة الشيطان ؛ لأن الشيطان لا يتمكن من الرسول ﷺ ، وربما كان الخطاب بذكر الرسول ﷺ والمراد غيره .

---

(١) في النسخة المخطوطة : الآيات . ا هـ . مصححه .

(٢) في النسخة المخطوطة كلمة غير واضحة بعد (يوجب) . ا هـ . مصححه .

سورة الأنفال

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ** ﴾ [الأنفال:١] كيف يتعلق الأنفال بالتقوى وإصلاح ذات البين ؟

وجوابنا : أن الأنفال التي ملكها الله تعالى الرسول وأمره بوضعها في حقها يحتاج فيها إلى أن يتقوا الله وإلى أن يصلحوا ذات بينهم فيعدلوا عن الميل والحيف وأن يطيعوا الله ورسوله في الرضا بما يأتيه ومفارقة السخط، وذلك نهاية في (الإحكام) [1] .

ثم وصف تعالى المؤمنين بعدما قال : ﴿ **إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ [الأنفال:١] فقال : ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ** ﴾ [الأنفال:٢-٤] فجعل من وصف المؤمن أنه عند ذكر ربه يوجل قلبه فيخاف من تقصير في عبادته ويرجو، وعند ذلك يصير المرء وجل القلب، وعند تلاوة القرآن يزداد إيمانًا بالعلم به والعمل، ويتوكل على ربه فيما يحصل له من الدنيا، وفيما يكسبه من المال فيطلبه بالوجه المباح ولا يجزع إذا لم ينله، بل يسير على الحال فلا يتعداه فيحصل متوكلا، وليس التوكل الكسل كما ظنه بعضهم .

ولذلك قال ﷺ : « **لَوْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِه لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصاً وَتَرُوحُ بِطَاناً** » فجعلها متوكلة وإن طلبت، وجعل من صفتهم إقامة الصلاة والإنفاق مما رُزقوا، وذلك يدل على أن الرزق لا يكون محرمًا لأن الإنفاق من المحرم ليس من صفات المؤمنين .

---

(١) في النسخة المخطوطة : الحكم . ا هـ . مصححه .

وكل ذلك يدل على أن الإيمان قول وعمل ويدخل فيه كل هذه الطاعات، وأن المؤمن لا يكون مؤمنا إلا بأن يقوم بحق العبادات، ومتى وقعت منه كبيرة خرج من أن يكون مؤمنًا .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ ﴾ [الأنفال:٥] هو كلام مبتدأ به غير[1] تام لأنه لم يتقدم ولم يتأخر عنه ما يشبهه به .

وجوابنا : أن هذا الجنس من الحذف ربما يعد في كمال الفصاحة، فبشر الله نبيه بالنصرة التامة وجميل العاقبة يوم بدر، كما سهل له الخروج من بيته من غير قصد إلى المحاربة، فهذا هو المراد، ولذلك قال : ﴿ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ [الأنفال:٥] والمراد ثقل الخروج عليهم وقوة المشقة لا أنهم كرهوا الخروج معه ﷺ .

ومعنى قوله : ﴿ يُجَادِلُونَكَ فِي الحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى المَوْتِ ﴾ [الأنفال:٦] أنهم يراجعونك للتبيين لا أنهم يخالفون ، ثم بين عظم المشقة بهذا الكلام ولم يكن القوم ألفوا الجهاد فإن ذلك كان مبدأ الأمر بالقتال، فبين تعالى أن ذلك يؤديهم إلى الخيرات من الغنائم وغيرها .

[مسألة] وربما قالوا في قوله تعالى : ﴿ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ [الأنفال:٧] ما معنى ذلك والحق (لا يخفى)[2] في نفسه ؟

وجوابنا : تحقيق ما وعدكم به من النصرة والغنائم .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى المَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [الأنفال:١٢] كيف وقع هذا التثبيت من الملائكة للمؤمنين ؟

وجوابنا : أنه يحتمل أنهم عرفوا الرسول والرسول عرف المؤمنين تقوية قلوبهم، ويحتمل أنهم ألقوا ذلك إلى المؤمنين بالخواطر .

---

(١) لفظة «غير» ساقطة من الأصل المطبوع . اهـ . مصححه .

(٢) في النسخة المخطوطة : (لا يختلف) والمثبت من الأصل المطبوع . اهـ . مصححه .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ [الأنفال:١٧] كيف يصح ذلك مع القول بأن الله تعالى لا يخلق أفعال العباد ؟

وجوابنا : أنه ﷺ كان يرمي يوم بدر والله تعالى بلغ برميته المقاتل، فلذلك أضافه تعالى إلى نفسه كما أضاف الرمية أوّلاً إليه بقوله : (إذ رميت) والكلام متفق بحمد الله .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ ﴾ [الأنفال:٢٢] كيف يصح أن يضم الصم البكم إلى الذين لا يعقلون ؟

وجوابنا : أنه تعالى ذكر قبله : ﴿ وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ [الأنفال:٢١] فذمهم على ترك القبول، ثم شبههم بالصم البكم على طريقة اللغة في مبالغة ذم من لا يقبل الحق، فربما قيل فيه إنه ميت كما قال تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ [النمل:٨٠] ولذلك قال بعده : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ ﴾ [الأنفال:٢٣] يعني القبول، ثم قال : ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال:٢٣] فذمهم نهاية الذم، وقوله تعالى من بعد : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال:٢٤] وهو حث من الله تعالى على الجهاد، فكما ذم من قعد عنه ولم يطع الرسول كذلك مدح من قام بحقه، وأراد بقوله : ﴿ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال:٢٤] أن الجهاد يؤدي إلى حياتهم من حيث لولاه (لقتلهم)[1] الكفار، فهو كقوله : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ [البقرة:١٧٩] ويحتمل : إذا دعاكم للأمر الذي يؤدي إلى حياة الأبد وهو الثواب .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ [الأنفال:٢٤] بالإماتة وبغير ذلك، (فبعث) [2] على الجهاد قبل أن يرد عليهم ما يمنع من ذلك من موت أو غيره .

---

(١) في النسخة المخطوطة : لقهرهم . اهـ . مصححه .

(٢) في الأصل المطبوع : فحث، والمثبت من النسخة المخطوطة . اهـ . مصححه .

[**مسألة**] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ** ﴾ [الأنفال:٢٧] كيف يصح ذلك والمضار على الله تعالى لا تجوز ؟

وجوابنا : أن الله تعالى ذكر نفسه وأراد غيره على مثال قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ** ﴾ [الأحزاب:٥٧] لأنه قد ثبت أن خيانة الكافر للغير إنما تكون بإرادة السوء والمضار وذلك لا يجوز على الله تعالى، وذلك قوله تعالى: ﴿ **وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ** ﴾ [الأنفال:٢٧] لكنه من المجاز الحسن الموقع لأن الأمانة لا تسلم إذا تخللها الخيانة .

[**مسألة**] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ** ﴾ [الأنفال:٣٣-٣٤] كيف يصح أن ينفي ذلك أوّلاً ثم يثبته آخراً ؟

وجوابنا : أنه تعالى نفى ذلك بشرط، وأثبته مع فقد ذلك الشرط، وذلك متفق، وقد قيل : إنه نفى بالأوّل عذاب الاستئصال وأثبت ثانياً عذاب الآخرة .

[**مسألة**] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً** ﴾ [الأنفال:٤٢] أليس ذلك يدل على أن كل فعل يقع بقضاء الله ؟

وجوابنا : أن الآية نزلت في واقعة بدر، وأنه اتفق لهم ما لم يظنوه من الجهاد والظفر، وذلك لا شبهة في أنه من قضاء الله كقوله تعالى : ﴿ **وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ** ﴾ [الإسراء:٢٣] وقد يقال في كل معقول إنه من قضاء الله على وجه الإعلام والإخبار إما مجملاً وإما مفصلاً، وقوله تعالى من بعد: ﴿ **لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ** ﴾ [الأنفال:٤٢] يدل على أن العبد الفاعل المختار وأنه بعد البينة اختار ما يؤديه إلى الهلاك، ولو كان الله تعالى هو الخالق لذلك فيه لكان وجود البينة كعدمها .

[**مسألة**] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ** ﴾ [الأنفال:٦٣] قد أضاف موافقة بعضهم لبعض إلى نفسه وذلك بخلاف قولكم .

وجوابنا : أن الأسباب التي بها يؤتلف كانت من قبله تعالى، فأضاف إليه الائتلاف، وهذا كما تضيف إلى الله تعالى الرزق وإن كان المرء يسعى في الاكتساب، وأراد تعالى إعظام المنة على رسوله ﷺ بما سهله من تألف القوم على طاعته وموافقته مع الذي كانوا عليه من المباينة الشديدة ومن الأنفة والحمية .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا** ﴾ [الأنفال:٦٧] كيف يصح أن يضيف ذلك إلى الرسول ﷺ وهو منزه عن الرغبة في الدنيا ولا يريد إلا ما أراده الله تعالى ؟

وجوابنا : أنه لم يضف ذلك إلى الرسول ﷺ على الحقيقة حتى يلزم ما ذكرته وإنما نسبه إلى غيره ممن كان بغيته الغنائم، وقد يصح أيضاً من الأنبياء إرادة عرض الدنيا من المباحات وإن كان تعالى يريد العبادات .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ **لَوْلا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ [الأنفال:٦٨] فالمراد : ما كتبه الله تعالى في اللوح المحفوظ من كون ما وقع من باب الصغائر المغفورة، وقيل : لولا كتاب سبق نزوله ما أحدثتموه من الأسرى، والكتاب هو القرآن فآمنتم به واستحققتم بالإيمان غفران صغائر ذنوبكم لمسكم فيما أخذتم من الأمر عذاب عظيم .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً** ﴾ [الأنفال:٧٠] أليس يدل ذلك على حدوث علم من الله تعالى ؟

وجوابنا : أنه تعالى يذكر العلم ويريد المعلوم من حيث صح أن معلوم العلم يكون على ما تناوله، وعلى هذا الوجه يمدح أحدنا صاحبه ويقول : قد علمت ما أنت عليه من الخير والفضل، وذلك كثير في القرآن .

سورة التوبة

[مسألة] وربما سألوا عن قوله تعالى : ﴿ فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ [التوبة:٢] ثم قوله : ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الحُرُمُ فَاقْتُلُوا المُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة:٥] وانسلاخها بانقضاء المحرم وذلك ينقض الأول .

وجوابنا : أنه كان في الكفار من له عهد ومن لا عهد له، ومن له عهد يختلف عهده، فقوله تعالى : ﴿ فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ [التوبة:٢] هو لمن هذا عهده، وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الحُرُمُ فَاقْتُلُوا المُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة:٥] هو لمن لا عهد له أو لمن ينقضي عهده بانقضاء هذه المدة، فلا اختلاف بين الكلامين .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ﴾ [التوبة:٣] كيف يتولون ؟

وجوابنا : أن هذه اللفظة تفيد التهديد، والمراد أنه تعالى قادر على إنزال العقوبة فلم لا يجوز عليه المنع، وما أكثر ما يرد في القرآن هذا اللفظ على الوجه .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ المُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة:٣-٤] كيف يصح أن يستثنيهم لمكان العهد وذلك لا ينجيهم من العذاب الأليم ؟

وجوابنا : أن قوله : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [التوبة:٣] يوهم أن الإقدام على كل كافر بالقتل يجوز، فأزال الله تعالى هذا الإيهام بقوله : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم ﴾ [التوبة:٤] والمراد : لكن الذين عاهدتم من المشركين فليس لكم إذا وفوا إلا الوفاء لهم، ومعنى قوله تعالى من بعد : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المُتَّقِينَ ﴾ [التوبة:٤] أن الوفاء بالعهد يحبه الله وهو من باب التقوى .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ ﴾ [التوبة:١٩] كيف يستقيم تشبيه سقاية الحاج بمن آمن بالله ؟

وجوابنا : أن المراد : أجعلتم القيام بسقاية الحاج كمن آمن بالله ؟ أو يكون : أجعلتم سقاية الحاج كإيمان من آمن بالله ؟ ومثل هذا الحذف يحسن في اللغة إذا كان الثابت في الكلام يدل على المحذوف .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ [التوبة:٢٩] ثم قوله : ﴿ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة:٢٩] كيف يصح فيمن يكفر بالله تعالى أن يسوغ له الكفر ببذل الجزية ؟

وجوابنا : أن قتلهم لأجل كفرهم وهو شرعي لا عقلي، ويجوز أن يكون الصلاح في ذلك ما لم يعطوا الجزية، فإذا أعطوا حرم قتلهم، وربما يكون في ذلك هدايتهم للإسلام إذا أقروا ثم سمعوا الشرائع، وقد قيل : إن قتلهم على الشرك لو لم يجز تركه لأدى إلى الإكراه، وقد قال تعالى : ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ [البقرة:٢٥٦] .

فإن قيل فأنتم متى قلتم ذلك فإن في الكفار من لا يرضى منه إلا بالقتل فيجب أن يكون مكرهاً على الإسلام .

وجوابنا : أنه لا كافر إلا وقد يجوز أن يتخلص ببعض الوجوه، وإن كان مقيمًا على الكفر فلا يلزم ذلك .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ [التوبة:٣٠] ما فائدة وصف قولهم بذلك وكل الأقوال هذا سبيلها ؟

وجوابنا : أن المراد به أن هذا القول لا حقيقة له لأنه قد يوصف ما لا حاصل له من الأقوال بذلك، وقد يُقبل أحدنا على من يتكلم بما لا يصح فيقول هذا بلسانك ولا تقوله عن قلبك ويراد ما ذكرنا، ولذلك قال بعده: ﴿ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة:٣٠] فبين أن ذلك من الإفك الذي لا حاصل تحته .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ [التوبة:٣١] كيف يصح ذلك وليس فيهم من يتخذ أحبارهم أرباباً وإنما يقول بعضهم ذلك في عيسى فقط ؟

وجوابنا : أن المروى عن رسول الله ﷺ أنه قال في معناه : إنهم لما أطيعوا فيما أمروا به ونهوا عنه وصفوا بأنهم اتُخذوا أربابًا وذلك صحيح فيهم، وعلى هذا الوجه يوصف مالك العبد بأنه ربه إذا أطاعه، فالأمر مستقيم، وبين تعالى بعده بقوله : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣١] . أن الطاعة والعبادة لا تحق إلا لله وكل من يطيع غيره فإنما يطيعه بأمر الله فتكون طاعته طاعة لله، ثم قال تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ [التوبة:٣٢] فوصف باطلهم بهذا الوصف، وقال تعالى : ﴿ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ ﴾ [التوبة:٣٢] فوصف الحق بهذا الوصف لصحته وبيانه، ثم أردف ذلك بقوله تعالى :﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ ﴾ [التوبة:٣٣] فبين أن الذي يؤديه ﷺ هو الدين الحق، ووصفه بأنه يظهره على الدين كله تحقيقاً لقوله جل وعز ﴿ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ ﴾[التوبة:٣٢].

ثم بين ما عليه الأحبار والرهبان بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [التوبة:٣٤] فبين أن طاعتهم محرمة إلا من أمر الله بذلك فيه على ما قلنا .

ثم أتبعه بالوعيد العظيم لمن امتنع عن الزكاة بقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [التوبة:٣٤] وأكثر المفسرين علله أن المراد به مانع الزكاة، وبين أن الأموال التي منعت منها الزكاة ﴿ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ﴾ [التوبة:٣٥] وذلك من أعظم الوعيد .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ [التوبة:٣٦] كيف خصها بالنهي عن الظلم وحال جميع الشهور سواء في ذلك ؟

وجوابنا : أن للأشهر الحرم التي هي رجب وشوال وذو القعدة وذو الحجة مزية في أن الظلم فيها يكون أعظم، كما أن لنفس الحرم مزية الأماكن في الظلم فلذلك خصه بالذكر ولا يمنع ذلك فيما عداه أنه بمنزلته .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾[التوبة:٤٦] كيف يصح ذلك وقد أمرهم بالجهاد مع رسول الله ﷺ؟

وجوابنا : أنه لما كان في خروجهم مضرة على المسلمين لنفاقهم ؛ إذ كانوا يضمرون التخريب جاز أن يقول تعالى ذلك لأن الصلاح في صرفهم عن الخروج، ولو خرجوا على الوجه الصحيح لما كره الله ذلك، ولذلك قال تعالى بعده : ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ ﴾ [التوبة:٤٧] وقال : ﴿ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ ﴾ [التوبة:٤٨] وكل ذلك يشهد بصحة ما ذكرناه، وبين تعالى بعد ذلك ما يدل على أنه مع الفسق لا يتقبل من المرء شيء من الطاعات فقال : ﴿ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾ [التوبة:٥٣] والتقبل لا يصح إلا في الطاعات، فيدل ذلك على أن الفسق والكفر لا يمنعان من وقوع الطاعة وإن منعا من التقبل .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ [التوبة:٥٤] في صفة المنافقين وفاعل الإنفاق لا يجوز أن يكون كارهاً له .

وجوابنا : أن المراد أنهم يكرهون ذلك الإنفاق على الوجه الذي أمروا وإنما ينفقون خوفاً، ولا يمتنع أن يراد الشيء على وجه ويكره على وجه آخر، كما يراد من الغير أن يصلي لله ويكره منه أن يصلي على وجه الرياء والسمعة .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [التوبة:٥٥] كيف يصح أن يريد تعالى أن يعذبهم بأموالهم وأولادهم في الدنيا ؟

وجوابنا: أن تكثير الأموال والأولاد في الدنيا لا يكون عقوبة لأن الله تعالى يفعله تفضلاً أو مصلحة في الدين، لكنها لما جاز أن يكونا فتنة ومحنة وسبباً للعقوبة من حيث يغتر المرء بهما فينصرف عن طريق الطاعة إلى خلافه، جاز أن يقول تعالى ذلك بعثاً للبعد عن هذا الجنس من الاغترار، وهذا كقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُواً لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ [التغابن:١٤] ويحتمل أن يريد أنه يعذبهم في الآخرة بها فيكون التعذيب متناولاً الآخرة دون الدنيا.

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى: ﴿ وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ [التوبة:٦٠] كيف يصح أن يأمر الله تعالى ببذل المال تألفاً على الدين ومتى صاروا إلى الدين للمال لم ينتفعوا به؟

وجوابنا: أن ذلك وإن كان في الحال لا ينتفع به فقد يكون تلطفاً في الاستدراج إليه فيصير الواحد منهم بذلك من أهل الدين، وقد أمرنا الله تعالى بأن نأخذ أولادنا بالصلاة لمثل هذا المعنى وإن كانوا لا ينتفعون بالصلاة وليسوا مكلفين.

واختلف العلماء في المؤلفة هل يدخلون الآن في سهم من الزكاة، فأكثرهم بمنع من ذلك لظهور الإسلام وقوته واستغنائه عن تألف قوم في الذَّبِّ عنه والمجاهدة فيه.

ومن العلماء من يقول بل سهمهم ثابت أبدًا وإذا وجد من ليس يقوى على الإيمان ويظن أنه يصير من أهل القوة فيه إذا دفع ذلك إليه فيكون حاله كحال سهم في سبيل الله للذين يجاهدون.

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ [التوبة:٦١] كيف يصح أن يكون خيراً وما يسمع قد يكون الخير والشر والصواب والخطأ؟

وجوابنا: أنه تعالى قيد ذلك فقال بعده: ﴿ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ ﴾ [التوبة:٦١] فبين أنه إذن يقبل ما تكون هذه صفته وقبول الخير وما يؤدي إلى الخير هو طريقة الصالحين.

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ [التوبة:٦٢] فذكرهما ثم وحَّد، كيف ذلك ؟

وجوابنا : أن الواجب أن لا يذكر تعالى مع غيره، بل يجب أن يفرد بالذكر إعظاماً، وقد روي أنه ﷺ سمع رجلاً يقول : الله ورسوله فقال : الله ثم رسوله، ولذلك قال تعالى بعد ذكر نفسه ورسوله : ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ [التوبة:٦٢] فأفرد ذكره وقد أفرد الله ذكر جبريل وميكائيل عن الملائكة تفخيمًا لهما وتعظيمًا، فما ذكرناه أحق وأولى .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [التوبة:٦٧] كيف يصح ذلك وأكثر الفساق لا يوصفون بالنفاق ؟

وجوابنا : أنه تعالى بيَّن في المنافقين أنهم كذلك لأن جميع المنافقين هم فاسقون، وإنما كان يجب ذلك لو قال : إن الفاسقين هم المنافقون .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ ﴾ [التوبة:٦٨] كيف يصح ذلك في تعذيب المنافقين وإنما يستعمل «حسب» في الخير ويستعمل في خلافه حسيب ؟

وجوابنا : أن المراد بذلك الزجر عن النفاق كما تزجر من ينهمك في شرب الخمر، فتقول : حسبك هذا الفعل، فيكون على وجه الزجر لا على وجه الوصف، ولذلك قال تعالى بعده : ﴿ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [التوبة:٦٨] ثم إنه تعالى بعد ذكر قصة المنافقين ذكر ما يحقق عدله وحكمته فقال : ﴿ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [التوبة:٧٠] ولو كان الظلم خلقاً لله تعالى لكان هو الظالم دون أنفسهم .

ثم ذكر بعده جل وعز طريقة المؤمنين فقال : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾ [التوبة:٧١] فوقف رحمته تعالى على من هذه صفته، وبين أنها صفة المؤمنين وأن من ليس هو كذلك لا يمدح بالإيمان، وبين أنه

وعدهم جنات عدن على ما وصف، ووعدهم برضوان من الله ، وأن ذلك من باب الإنعام الأكبر والأعظم، وبين أن ذلك هو الفوز العظيم لأن من أوتي ذلك فقد أدرك نهاية المطلوب .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ [التوبة:٧٣] كيف يصح ذلك ومن حكم المنافقين أن لا يجاهدوا وأن يجروا مجرى المؤمنين في أحكام الدنيا ؟

وجوابنا : أن النفاق ما دام مكتوماً فحاله ما وصف، فأما إذا ظهر فحال المنافقين في المجاهدة كحال الكفار، وإنما ذكر تعالى ذلك عند ظهور نفاقهم على ما تقدم ذكره، ولو صح ما ذكرته لحملنا مجاهدة المنافقين على غير الوجه الذي تحمل عليه مجاهدة الكفار .

ولذلك قال تعالى لنبيه ﷺ بعد ذلك : ﴿ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ [التوبة:٧٣] وقال بعده : ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ ﴾ [التوبة:٧٤] فنبه بذلك على ظهور النفاق .

[مسألة] وربما قيل كيف قال تعالى في وصفهم ﴿ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ ﴾ [التوبة:٧٤] وكانوا لم يزالوا على النفاق ؟

وجوابنا: أن المراد : أظهروا الكفر بعد إظهار الإسلام وذلك دلالة على ما قلنا من أن نفاقهم ظهر فأوجب الله تعالى فيهم ما تقدم ذكره، ولذلك قال تعالى بعده : ﴿ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ [التوبة:٧٤] .

ثم قال تعالى بعده : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا ﴾ [التوبة:٧٥-٧٦] فنبه بذلك على عظم الذم في نقض العهد والمواثيق وأن من نقضه يكون أعظم حالاً ممن ابتدأ بذلك .

[مسألة] وربما قيل : ما معنى قوله جل وعز : ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾ [التوبة:٧٧] فأضاف نفاقهم إلى نفسه وأنه أدامه فيهم، كيف يصح ذلك مع حكمته ؟

وجوابنا: أنه تعالى لما خلاهم ونفاقهم ولم يلطف بهم من حيث كان المعلوم أنه لا لطف لهم لتقدم النفاق فيهم جاز أن يضيف ذلك إلى نفسه، وذلك قوله : ﴿ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ ﴾ [مريم:٨٣] والمراد به التخلية، ولذلك قال تعالى بعده : ﴿ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ ﴾ [التوبة:٧٧] فبين أن المراد هو ذلك لا أنه خلق فيهم النفاق .

وقال تعالى بعده : ﴿ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ * أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ﴾ [التوبة:٧٧-٧٨] وكل ذلك لا يليق إلا بزجرهم عن النفاق ولو كان هو الخالق لذلك فيهم لما صح، ولذلك قال تعالى بعده : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ [التوبة:٨٠] فبين أن استغفاره لا يؤثر وكذلك سائر الألطاف ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [محمد:١٧] لأن تقدم إيمانهم صير ما يفعله لطفاً لهم، فإذا لم يتقدم حرموا أنفسهم ذلك وخرجوا بسوء اختيارهم عن أن يتأتى فيهم اللطف فيكون ذلك كالجناية منهم على أنفسهم، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ * كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين:١٤-١٥] ويقال : إن المعاصي إذا اجتمعت وكثرت بلغ القلب في القسوة ما لا تؤثر فيه الألطاف .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً ﴾ [التوبة:٩٧] كيف يصح مع ذلك أن يقول : ﴿ وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ [التوبة:٩٩] وذلك كالمتناقض ؟

وجوابنا : أن الكلام إذا اتصل دل آخره على أوّله، فالمراد بذلك البعض ويحتمل أن يراد بالأعراب من امتنع عن المهاجرة، فقد كان يقال : مهاجر وأعرابي . وبين ذلك قوله تعالى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ ﴾ [التوبة:١٠٠] فميزهم من الأعراب الذين أرادهم بهذه الآية .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة:١٠٢] ما فائدة ذلك والله تعالى يقبل التوبة ممن لم يعمل إلا السيئات كما يقبلها ممن خلط الصالح بالسيئ ؟

وجوابنا : أنه تعالى نبه بقوله : ﴿ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ ﴾ [التوبة:١٠٢] على وقوع التوبة منهم والندامة، فلذلك خصهم بقبول التوبة لا أنه نفى قبول التوبة عن غيرهم ممن ذكرهم تعالى بقوله : ﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ ﴾ [التوبة:١٠٦] لأن هؤلاء لم يتوبوا بل أصروا فلذلك قال تعالى : ﴿ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة:١٠٦] لأنهم إذا بقوا فإما أن يصروا فالعذاب، وإما أن يتوبوا فتوبتهم مقبولة .

[مسألة] وربما في قوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة:١٠٣] كيف يصح الأخذ من قبل الرسول ﷺ وبفعل غيرهم لا يلحقهم المدح حتى يوصفوا بأنهم مطهرون مزكون ؟ وكيف يقول : ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ [التوبة:١٠٣] ؟

وجوابنا : أن المراد بذلك من تاب وقبل الله توبته، فبين أنه إذا أخذ منهم الصدقة فهذه حالهم وأمره بأن يدعو لهم بالرحمة والثواب، وهي معنى قوله : ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة:١٠٣] ولذلك قال بعده : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ ﴾ [التوبة:١٠٤] والمراد بهذا الأخذ : القبول، وذلك لا يليق إلا بالمؤمن التائب الذي يسر ويرضى بما فعله الرسول ﷺ من أخذ الزكاة منه .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة:١٠٥] كيف يصح من الرسول والمؤمنين أن يعملوا أعمالهم ولا سبيل إلى ذلك لا فيما بطن ولا فيما ظهر ؟

وجوابنا : أن المراد الأعمال الظاهرة التي يشهد الرسول بها ويشهد المؤمنون كما ذكره الله تعالى في الشهداء .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ [التوبة:١١١] كيف يدخل قتل الكفار لهم فيما به يستحقون المدح وذلك كفر بينهم ؟

وجوابنا : أن قتل الكفار لهم يتضمن وقوع الصبر الشديد على الجهاد، فيدل على هذه الطاعة العظيمة، فلذلك ذكره تعالى وعلى هذا الوجه الذي ذكرناه يوصف المقتول في الجهاد بأنه شهيد لما دل القتل له على ما ذكرناه، ودل تعالى بقوله فيما بعد : ﴿ **التَّائِبُونَ العَابِدُونَ الحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ المُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [التوبة:١١٢] على أن المؤمن لا يتكامل كونه مؤمناً إلا بهذه الخصال .

ونبه تعالى بقوله : ﴿ **مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الجَحِيمِ** ﴾ [التوبة:١١٣] على أنهم مستحقون العقاب لا يجوز لنا أن نستغفر لهم ونترحم عليهم، وإنما يجوز ذلك في المؤمن الذي نقطع بإيمانه أو تظهر منه دلالة ذلك، ودل تعالى بقوله : ﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ** ﴾ [التوبة:١١٥] على أنه تعالى يُريد بالضلال المضاف إليه العقاب وما شاكله، فلذلك قال : ﴿**حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ**﴾[التوبة:١١٥] فنبه على أن إضلاله بالعقاب لا يكون إلا بعد هذا البيان، وأضاف الإيمان والكفر إلى السورة في قوله : ﴿ **وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً** ﴾ [التوبة:١٢٤] إلى آخر الآية على وجه المجاز، لما كان الإيمان منهم عند نزولها ولما كان الرجس والكفر من الكفار عند نزولها، وذلك معلوم، وهو كقوله تعالى : ﴿ **وَاسْأَلِ القَرْيَةَ** ﴾ [يوسف:٨٢] إذ معلوم لكل واحد أن المراد : أهلها .

وزجر تعالى عباده بقوله : ﴿ **أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لاَ يَتُوبُونَ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ** ﴾ [التوبة:١٢٦] فبين أنه لا يدع بما ينزل بهم من الأمراض والمصائب والمحن ستراً يحجبهم عن الطاعة والتوبة وهم مع ذلك غافلون، وذلك زجر عظيم عن الإعراض وترك التوبة .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم** ﴾ [التوبة:١٢٧] أن ذلك يدل على أنه جل وعز يصرفهم عن الطاعة، فما تأويل ذلك ؟

وجوابنا : أن المراد : ثم انصرفوا بترك الطاعة والتوبة، (**صرف الله قلوبهم**) أي : عاقبهم على انصرافهم كما قال تعالى : ﴿ **فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ** ﴾ [البقرة:١٩٤] وقوله : ﴿ **وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا** ﴾ [الشورى:٤٠] .

[**مسألة**] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ [التوبة:٣٧] أن هذا كالنص في أنه تعالى خلق الكفر فيهم .

وجوابنا : أنهم كانوا يؤخرون الحج من شهر إلى شهر، فبين تعالى أنهم يَضِلُّون بذلك لا أن الله تعالى يفعله، فالإضلال منسوب إليهم لا إليه تعالى .

[**مسألة**] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ** ﴾ [التوبة:٨٧] أن ذلك يدل على أنه يمنعهم من الطاعة .

وجوابنا : أن كلامنا في الطبع وأنه علامة كالختم وأنه لا يمنع من الإيمان كما تقدم .

سورة يونس

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ [يونس:٣] إن ذلك كالنص في أنه تعالى جسم يجوز عليه المكان .

وجوابنا : أن المراد بالاستواء : الاستيلاء والاقتدار، كما يقال : استوى الخليفة على العراق، وكما قال الشاعر :

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهراق

وقد ثبت بدليل العقل أن ما يصح عليه الاستواء من الأجسام لا يكون إلا محدثاً مفعولا فلا بد من هذا التأويل .

(فإن قيل) فلماذا قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى ﴾ [يونس:٣] ومعلوم أن اقتداره لم يتجدد ؟

وجوابنا : أن « ثم » في اللفظ دخلت على الاستواء والمراد دخولها على التدبير وهو قوله :﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ ﴾[يونس:٣] والتدبير من الله تعالى حادث.

(ومتى قيل) : فلماذا خص العرش بالذكر وهو مقتدر على كل شيء ؟

فجوابنا : لعظم العرش وهذا كقوله تعالى : ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [الإسراء:١٠٢] وإن كان ربًا لغيرهما، ومعنى قوله بعد ذلك : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً ﴾ [يونس:٤] أن مرجع الخلق إليه حيث لا مالك سواه، كما يقال : رجع أمرنا إلى الخليفة إذا كان هو الناظر في أمرهم وليس المراد بذلك المكان .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾ [يونس:٧] أن ذلك يدل على جواز لقائه بالرؤية والمشاهدة .

وجوابنا : أن المراد : لا يرجون لقاء ثوابنا وإكرامنا ولا يرجون المجازاة على ما يكون في الدنيا، وهذا كقوله : ﴿ **الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ** ﴾ [البقرة:٤٦] وكقوله : ﴿ **إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ** ﴾ [المائدة:٣٣] .

وبعد، فقد يقال : لقي فلان فلاناً وإن لم يره، وقد يوصف بذلك الضرير إذا حضر غيره، وقد يرى الرجل غيره من بعد ولا يقال : لقيه، فليس معنى اللقاء الرؤية، ولذلك قال تعالى بعده : ﴿ **وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا** ﴾ [يونس:٧] فنبه بذلك على أن المراد أنهم لا يؤمنون بيوم القيامة، وقوله تعالى بعد ذلك : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ** ﴾ [يونس:٩] يدل على أن الهدى هو الثواب، فيكون حجة على ما نتأول عليه،

وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **فَنَذَرُ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ** ﴾ [يونس:١١] إن ذلك يدل على إرادته لذلك .

وجوابنا : أن المراد : نخلي بينهم وبين ذلك وإن كنا لا نأمر ولا نريد إلا الطاعة وهذا كقوله : ﴿ **أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزاً** ﴾ [مريم:٨٣] والمراد التخلية وكما يقال : أرسل فلان كلبه على من يدخل داره إذا لم يمنعه من الوثوب على الناس.

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ** ﴾ [يونس:١٤] أليس في ذلك دلالة على أنه تعالى لا يعلم الشيء حتى يكون ؟

وجوابنا : أن المراد بذلك : لننظر نفس العمل وهو تعالى يراه بعد وجوده وأما علمه فلم يزل ولا يزال .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى:﴿ **وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ** ﴾ [يونس:٢٥] فعمم ذلك ثم قال : ﴿ **وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ [يونس:٢٥] فخص، كيف يصح ذلك ؟

وجوابنا : أنه يدعو إلى دار السلام الكافة، ومعنى قوله ويهدي من يشاء أي : مَنْ قبل ما كلفه دون من لم يقبل، ويحتمل أن يراد بهذه الهداية نفس الثواب، فيكون قد دعا كل الخلق وأثاب من آمن منهم .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ** ﴾ [يونس:٢٦] أليس المراد بها الرؤية على ما روي في الخبر ؟

وجوابنا : أن المراد بالزيادة : التفضيل في الثواب، فتكون الزيادة من جنس المزيد عليه، وهذا مروي وهو الظاهر، فلا معنى لتعلقهم بذلك وكيف يصح ذلك لهم وعندهم أن الرؤية أعظم من كل الثواب، فكيف تجعل زيادة على الحسنى ؟ ولذلك قال بعده : ﴿ **وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ** ﴾ [يونس:٢٦] فبيّن أن الزيادة هي من هذا الجنس في الجنة .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى: ﴿ **وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّاً إَنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً** ﴾ [يونس:٣٦] كيف يصح ذلك وكثير من الأحكام يعول فيها على الظن ؟

وجوابنا : أنه تعالى ذكر ذلك في محاجة من يعبد الأصنام في قوله تعالى : ﴿ **هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ** ﴾ [يونس:٣٥] إلى غير ذلك، والظن في هذا الحق لا يقبل وإنما يقبل الاجتهاد .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ** ﴾ [يونس:٤١] ما الفائدة في هذا الجواب ؟

وجوابنا : أنه لا يقول ذلك على وجه الحِجَاج لكنه إذ أقام الحجة واستمروا على التكذيب صح أن يزجرهم بهذا القول، وقد كان ﷺ يختم بمثل ذلك، فكان تسلية من الله تعالى له وما بعده من قوله : ﴿ **أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لاَ يَعْقِلُونَ** ﴾ [يونس:٤٢] وقوله : ﴿ **أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ** ﴾ [يونس:٤٣] كل ذلك يدل أن المراد طريقة الزجر لهم .

ثم ذكر تعالى بعده بقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [يونس:٤٤] أن الظلم من قبلهم ولم يؤتوا إلا من جهة تقصيرهم وأنهم ممكنون من تركه والعدول عنه كما نقول في هذا الباب .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا العَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ [يونس:٨٨] كيف يجوز من موسى أن يسأل ربه ذلك وأن يعتقد أنه تعالى رزقهم لكي يضلوا ؟

وجوابنا : أن المراد : أنعمت عليهم بهذه النعم فصيروها سبباً لضلالتهم فمعنى قوله : ﴿ لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ ﴾ [يونس:٨٨] أن عاقبتهم ذلك كقوله : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُواً وَحَزَناً ﴾ [القصص:٨] وأما قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ [يونس:٨٨] فهو دعاء عليهم وقد ضلوا .

ويجوز أن يدعى على من قد ضل وكفر بضروب العقاب، ويجوز أنه يدعو عليهم بالاخترام والإماتة اللذين معهما لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم في الآخرة لأنه من المعلوم أنه لا يؤمن أبداً كلما عجل اخترامه يكون عقابه أخف، وبين تعالى بقوله ﴿ حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ ﴾ [يونس:٩٠] ثم قال : ﴿ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ المُفْسِدِينَ ﴾ [يونس:٩٠] أن الإيمان مع الإلجاء لا ينفع وإنما ينفع والمرء متمكن من اختيار الطاعة والمعصية وداعيته مترددة بين الأمرين .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ العِلْمُ ﴾ [يونس:٩٣] كيف يصح في العلم أن يكون سبباً للاختلاف والقول الباطل ؟

وجوابنا : أن المراد بذلك أنهم اختلفوا وقد أقام الحجة وأوضح الطريق لهم على جهة الندم لهم، ولذلك قال بعده : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [يونس:٩٣] .

[مسألة] وربما قيل : كيف يجوز أن يقول تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ ﴾ [يونس:٩٤] ومعلوم أن الشك في ذلك لا يجوز عليه ؟

وجوابنا:أنه تعالى ذكره والمراد : من شك في ذلك على وجه الزجر، أو قال ذلك لأهل الكتاب الذين يجوز أن يسألهم غيرهم عما في الكتب من تصديق محمد ﷺ .

[مسألة] وربما قالوا في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ أليس ذلك يدل على أن تقدم كلمته تعالى يمنع من الإيمان ؟

وجوابنا : أن المراد أن من المعلوم أنه لا يؤمن وقد سبقت الكتابة من الله تعالى بذلك في اللوح المحفوظ لا يؤمن، لكنه إنما لا يؤمن اختياراً، وكما سبق ذلك في الكتاب فقد سبق فيه أيضاً أنه يمكن من الإيمان فيعدل عنه بسوء اختياره، ولذلك قال تعالى : ﴿ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ﴾ [يونس:٩٧] ولو كان ذلك يمنع من الإيمان لم يكن في مجيء الآيات فائدة، وقوله تعالى من بعد : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ ﴾ [يونس:٩٩] دلالة على أنه لم يشأ إيمانهم على وجه الإكراه مع قدرته على أن يكرههم عليه وإنما سأل ذلك على وجه التطوع والاختيار لكي يفوزوا بما عرضوا له من الثواب، وقوله تعالى من بعد : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقاً عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس:١٠٣] بعد تقدم ذكر العقاب يدل على أن من ليس بمؤمن من الفساق والكفار لا ينجيهم الله من العقاب .

[مسألة] وربما قيل : كيف جاز أن يقول موسى للسحرة : ﴿ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴾ [يونس:٨٠] وذلك معصية لا يحسن الأمر بها ؟

وجوابنا : أنه قال لهم لا على وجه الأمر لكن على وجه التعريف بأنهم مبطلون، وأن باطلهم ينكشف بما سيأتيه، فهو قريب من تحدي الأنبياء بالمعجزات .

[مسألة] وربما قيل : ما فائدة قوله تعالى : ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾ [يونس:٩٢] والنتيجة لا تكون إلا بالبدن ؟

وجوابنا : أن المراد أنا ننجيك خاصة دون غيرك .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس:١٠١] كيف يفعل من ذلك ما لم يغن عنهم شيئاً ؟

وجوابنا : أن ذلك كالزجر من حيث ينصرفون عما فيه حظهم، ويحتمل أنه لا يغني عنهم في الآخرة إذا عوقبوا من حيث تركوا القبول .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ [يونس:٥٣] كيف يجوز وقد سألوه أن يقتصر على الجواب واليمين دون الحجة ؟

وجوابنا : أنه قد أقام الحجة، وإنما أرادوا منه الفتوى فأفتاهم، وأكد ذلك باليمين .

سورة هود

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى: ﴿ الـر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ [هود:١] كيف يصح ذلك والتفصيل ليس بشيء غير الإحكام ؟

وجوابنا:أن الله تعالى كتب القرآن في اللوح المحفوظ ثم أنزله مفصلاً إلى الرسول لا جملة واحدة بحسب المصلحة، فهذا معنى قوله، ثم قال : ﴿ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾[هود:١] لأنه تعالى أمر بإنزاله على هذا الحال من التفصيل بعد إحكام الجميع.

وهذه الآية تدل على أن القرآن فعله تعالى من حيث وصفه بأنه أحكمه، وذلك لا يتأتى إلا في الأفعال ومن حيث وصفه بأنه فصلت آياته، ومن حيث وصفه بأنه من لدن القديم تعالى، وإنما يقال ذلك في الأفعال كما يقال : إن هذه النعم من فضله وبين ما تقتضيه آيات الكتاب بقوله : ﴿ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ * وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ [هود:٢-٣] فبين ما تضمنه الكتاب وبين حال التائب وأنه يمتعه متاعاً حسناً ﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ [هود:٣] وبين حكم المصير بقوله : ﴿ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ [هود:٣] ثم بين أن المرجع إلى الله تعالى والمراد : إلى يوم لا حاكم ولا مالك سواه وهو يوم القيامة .

وبيّن بقوله تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود:٦] تكفله بأرزاق كل حي، **(ومتى قيل)** فإذا تكفل بذلك فلماذا يلزمه السعي ؟

فجوابنا : أن تكفله هو على هذا الوجه لا على حد الابتداء، كما أن تكفله برزق الولد هو على وجه المباشرة لا على وجه الابتداء .

وبين أن كل ذلك مكتوب في الكتاب المبين، وفائدة كتابة ذلك في اللوح المحفوظ أن الملائكة تعتبر بذلك وتعرف قدرة الله تعالى وعلمه إذا وافق ما يحدث من الأمور ذلك المكتوب .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ** ﴾ [هود:٧] ما الفائدة في خلقها في هذه الأيام وهو قادر على أن يخلقها في لحظة واحدة ؟

وجوابنا : أنه تعالى خلقها في هذه المدة مصلحة للملائكة لكي يعتبروا بذلك، كما أنه قادر على جمع كل رزق لنا في يوم واحد لكنه للمصلحة يفعله حالاً بعد حال ولذلك قال بعده : ﴿ **لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً** ﴾ [هود:٧] وبين تعالى بقوله : ﴿ **وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ** ﴾ [هود:٧] إنكارهم للإعادة وبين بقوله : ﴿ **وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ** ﴾ [هود:٨] استعجالهم بما كان يخوف به الرسول ﷺ ، وبين آخراً بقوله : ﴿ **أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ** ﴾ [هود:٨] أن ذلك مؤخر لأنه تعالى حليم لا يعجل العقوبة ويمهل توقعاً للتوبة .

وبين تعالى طريقة الإنسان المذمومة بقوله : ﴿ **وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ** ﴾ [هود:٩-١٠] فبين أنهم عند الإحسان إليهم يفرحون، فإذا نزع ذلك لمصلحة يوجد منهم كفر النعمة، وإذا أجزل النعم عليهم يسلكون طريقة الفخر والفرح دون الانقطاع إلى الله تعالى والتواضع له .

وذلك تأديب من الله تعالى فيما ينبغي أن يفعله المرء عند الغنى والفقر وفيما يكره منه، ولذلك قال بعده : ﴿ **إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾ [هود:١١] فاستثناهم من القوم .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ** ﴾ [هود:١٧] ما الفائدة في هذا الابتداء ولا خبر له ؟

وجوابنا : أن الخبر قد يحذف إذا كان كالمعلوم، والمراد : أفمن كان بهذا الوصف كمن هو يكفر ولا يسلك طريقة العبادة وما توجبه البينة .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ ﴾ [هود:١٨] أنه يدل على جواز المكان عليه لأن العرض لا يصح إلا على هذا الوجه .

وجوابنا : أنهم لما عرضوا في الموضع الذي جعله الله تعالى مكانا للعرض صح ذلك، ومعنى قوله تعالى من بعد:﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود:٢٠] أنهم من حيث لم يقبلوا ولم ينتفعوا بما سمعوا ورأوا كانوا في حكم ما لا يسمع ولا يبصر، ولو أراد الحقيقة لما ذمهم من قبل بقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ [هود:٢٠] .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾ [هود:٣٤] أن ذلك على أنه تعالى يريد الضلال .

وجوابنا : أن مراد نوح عليه السلام عند مخاطبة قومه بذلك إنه إن كان تعالى يريد حرمانهم وخيبتهم من الفوز بالثواب وإنزال العقاب فنصحه لا ينفع، وذلك إحالة على المعلوم من حالهم أورده على وجه الزجر لهم .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ ﴾ [هود:٤٥] أليس في ذلك دلالة على أنه تعالى وعده تخليص ابنه مع القوم ثم لم يقع، فكيف يصح ذلك ؟

وجوابنا : أنه تعالى قد كان وعد بنجاة أهله وأراد من آمن منهم، وظن نوح أن ابنه منهم، ولذلك قال تعالى بعده : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾[هود:٤٦].

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ ﴾ [هود:٨٨] إن ذلك يدل على أن الطاعات من فعل الله تعالى .

وجوابنا : أن التوفيق من فعل الله تعالى في الحقيقة وهو ما يفعله مما يدعو العبد إلى العبادة، كخلق الولد والغنى وما شاكله، فنحن نقول بالظاهر والقوم لا يمكنهم ذلك؛ إذ قالوا : إن الله تعالى يخلق أعمال العباد لأنّ خلقه ذلك مما يغني عن اللطف والتوفيق والمعونة والهداية، فكان ذلك على مذهبهم يجب أن لا يصح .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ ﴾ [هود:١٠٦-١٠٧] أليس ذلك يدل على انقطاع العذاب من حيث وقته بداوم السموات والأرض اللذين يفنيان وأنتم تقولون بالخلود، فكيف يصح ذلك ؟

وجوابنا : أن للنار سماء وأرضاً وكذلك الجنة ولا يفنيان، فهذا هو المراد، وقد قيل : إن المراد بذلك تبعيد خروجهم، فعلقه تعالى بما يبعد في العقول زواله على مذهب العرب في مثل قول الشاعر :

إذا شاب الغراب أتيت أهلي وصار القار كاللبن الحليب

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ [هود:١٠٧] إن ذلك الاستثناء يدل على انقطاع العقاب، فكيف يصح ذلك مع قولكم بالخلود ؟

وجوابنا : أن المراد : أوقات الموقف للمحاسبة قبل دخول النار، وعلى هذا الوجه ذكر الله تعالى في السعداء مثل ما ذكره في الأشقياء فقال : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ [هود:١٠٨] وقوله تعالى من بعد لرسوله ﷺ : ﴿ فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ ﴾ [هود:١٠٩] على وجه الزجر لغيره على نحو ما قدمناه من قبل .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [هود:١١١] كيف يصح أن يوفيهم نفس العمل ؟

وجوابنا : أن المراد جزاء العمل من الثواب وعقاب، وهو الذي يصح أن يفي به وعده .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾ [هود:١١٣] كيف يصح ذلك وقد أبيح لنا مخالطتهم ؟

وجوابنا : أن المراد : الركون إليهم فيما يتصل بالمدح والإعظام وما يجري مجرى الموالاة، ولم يرد ما يتصل بالمعاشرة، ومعنى قوله من بعد : ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ [هود:١١٤] أن التوبة تزيل عقاب المعاصي، وكثرة الطاعات تكفر السيئات، ومعنى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ [هود:١١٨] بالإلجاء والإكراه لكنه إنما شاء منهم ذلك على وجه الاختيار لكي يفوزوا بالثواب .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [هود:١١٨-١١٩] أليس ذلك يدل على أنه خلقهم للاختلاف الذي في جملته المعصية، وذلك يدل على أنه تعالى مريدٌ منهم ذلك ؟

وجوابنا : أن المراد : للرحمة خلقهم ؛ لأنه قال ﴿ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [هود:١١٩] «فلذلك» راجع إلى الرحمة لا إلى الاختلاف، والرحمة من الله تعالى لا تكون إلا بإرادته، فكأنه قال : ولكي يرحمهم خلقهم، وهو أقرب مذكور إليه وقد ثبت بالدليل أن الاختلاف الباطن لا يريده الله تعالى بل يكرهه أشد كراهة، فقد نهى وزجر عن فعله .

[مسألة] وربما سألوا عن قوله تعالى : ﴿ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴾ [هود:٥٦] كيف يصح ذلك إذا لم يكن هو الخالق لتصرف الحيوان ؟

والجواب عنه : أن المراد أنه قادر على تصريفها كما يشاء، والعرب تذكر ذلك على هذا المعنى فتقول : ناصية فلان بيد فلان .

[مسألة] وربما سألوا في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [هود:٧٤] كيف يجوز منه وهو نبي أن يجادل الملائكة في ذلك ؟

وجوابنا : أنه جادل ليعرف ما لأجله استحقوا العذاب، وهو أحد الوجوه التي يجادل المجادل لأجلها .

سورة يوسف

أول ما نذكر في هذه السورة أنها مشتملة من آداب الأنبياء صلوات الله عليهم ومن آداب الأخلاق والتمسك بالصبر والحلم، وتوقع الفرج بعد حين، والتشدد في الصبر على المعاصي واحتمال المكاره على ما لو تأمله القارئ وتمسك بكله أو بعضه لعظم موقع ذلك في دينه ودنياه .

فليتأمل القارئ أولاً رؤيا يوسف للكواكب والشمس والقمر وأن أباه ـ صلى الله عليهما وسلم ـ كيف أمره بكتمان ذلك عن إخوته والصبر في كتمان ذلك صعب فاحتمله تحرزاً من حسدهم .

وليتأمل ثانياً كيف جاد به على إخوته لئلا يستوحشوا وظن السلامة مع خوفه منهم عليه حتى أقدموا على ما أقدموا .

وليتأمل ثالثاً أنه بعد ظهور ذلك منهم كيف احتملهم ولم يجازهم على ما فعلوه بقطعهم وإخراجهم عن محبته وعن النظر لهم .

وليتأمل رابعاً صورة يوسف فيما وقع إليه من امرأة العزيز، وكيف تشدد في الاحتراز عنها واحتمل لذلك الحبس الطويل حتى كانت عاقبة صبره ما حصل من اعتراف الكل بصيانته ووصوله إلى الملك والبغية .

وليتأمل خامساً ما دفع إليه إخوته في تلك السنين الصعبة من التردد إلى يوسف يطلبون من جهته القوت واحتمالهم لما عاملهم به .

وليتأمل سادساً كيف صبر عليهم وكيف احتمل في تخليص أخيه إلى حضرته واحتباسه عنده على مهل وقد كان يمكنه التعجل .

وليتأمل سابعاً كيف حسنت معاملته مع إخوته حين ظفر بهم وقد كانوا عاملوه من قبل بما عاملوه به .

وليتأمل ثامناً كيف توصل إلى إزالة الغمة عن قلب أبيه وصبر إلى أن ظفر بالوقت الذي أمكنه فيه إحضاره عنده على أحسن الوجوه .

وليتأمل تاسعاً كيف كان صبر يعقوب ﷺ في بابه وفي باب غيبة أخيه وهو كالراجي لعودهما إليه واجتماعه معهما .

وليتأمل عاشراً كيف قبل يوسف عذر إخوته وقد اعتذروا إليه مع تلك الجنايات العظام، فكان جوابه : ﴿ **لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ** ﴾ [يوسف:٩٢] .

وليتأمل حادي عشر كيف قبل يعقوب أيضاً عذرهم وزاد بأن قال : ﴿ **سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾ [يوسف:٩٨] إلى وجوه أُخَر تركنا ذكرها .

ثم إنه تعالى قال في آخر السورة لرسوله ﷺ ولجماعة المكلفين : ﴿ **ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ** ﴾ [يوسف:١٠٢] فنبه بذلك على وجوب التمسك بهذه الأخلاق والآداب، وكذلك قال تعالى في أول السورة : ﴿ **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ** ﴾ [يوسف:٣] لأن النفع يعظم بذلك من تأمله وهذا معنى قوله : ﴿ **أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا** ﴾ [محمد:٢٤] لأن من تدبر القرآن وتمسك بأحكامه وآدابه وأخلاقه انفتح قلبه للخيرات دينًا ودنيا، فإذا قرأه من غير تدبر يصير قلبه كأنَّ عَلَيْهِ قفْلاً لا يتغير عما هو عليه .

فهذه المقدمة التي قدمناها في هذه السورة تنفع فيها وفي القرآن، ثم نذكر ما فيها من المتشابه على طريقتنا في هذا الكتاب .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى لرسوله : ﴿ **وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ** ﴾ [يوسف:٣] كيف يقول ذلك ولم يكن موصوفاً من قبل بذلك ؟

وجوابنا : أن المراد من الغافلين عن هذه القصة وما شاكلها، وإلا فمعلوم من حاله ﷺ التيقظ لكل ما يتعلق بالدين .

[مسألة] وربما قيل : كيف قص يوسف رؤياه على يعقوب كأنه مصدق بها؟ وكيف أمره أبوه بكتمان ذلك بقوله : ﴿ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ ﴾ [يوسف:٥] كأنه عالم بصدق الرؤية مع أنها قد تخطئ وقد تصيب ؟ وكيف قال : ﴿ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً ﴾ [يوسف:٥] فأخبر عن أمر مستقبل لا يعرفه ؟

وجوابنا : أن مثل ذلك قد يعمل فيه بالظن فلا ينبغي أن لا يفعل إلا اليقين ويحتمل أنه عرف من إخوته من قبل ما يوجب أن يأمره بالكتمان وما يعلم عنده أنهم لو وقفوا على هذه الرؤيا لكادوا له، ولو كان مثل ذلك لا يصح إلا مع العلم لقلنا : إنه تعالى قد أوحى إليه إما جملةً وإما مفصلاً .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ ﴾ [يوسف:٦] أهو من قول يعقوب أو من قوله تعالى ؟ فإن كان من قول يعقوب فكيف عرف ذلك ؟

وجوابنا : أنه من قول يعقوب وقد كان الله أعلمه ذلك، يبين ما قلناه قوله أخيراً : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [يوسف:٦] .

فإن قيل : فإذا عرف ذلك فكيف يجوز أن يغتم على ما ذكره الله تعالى في الكتاب ويخفى عليه حال يوسف ؟

وجوابنا : أنه قد عرف ذلك من جهة الله تعالى على شرط أن يبقى، فلذلك كان خائفًا .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [يوسف:٨] كيف يجوز ذلك لهم وهم أنبياء أو مرشحون للنبوة ؟

وجوابنا : أن محل الولد من أبيه أن ينزله منزلة سائر أولاده، فلا يقبح قولهم : إن أبانا لفي ضلال مبين، إذ مرادهم ذهابه عن إنزالهم هذه المنزلة أيضاً، وبعد، فلو

قبح لكان ذلك قبل حال التكليف على ما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ ﴾ [يوسف:١٢] لأن هذا القول لا يليق إلا بحال الصبي وفقد كمال العقل وقولهم : ﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ ﴾ [يوسف:٩] إنما صح أيضاً لأن الحال حال الصبا وفقد كمال العقل، فكذلك سائر ما فعلوه بيوسف لما أرسله يعقوب معهم .

(فإن قيل) كيف كانت الحال حال الصبا وقد قال تعالى بعده : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ [يوسف:١٥] .

وجوابنا : أنه يحتمل أن يكون بمنزلة قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾ [النحل:٦٨] ويكون بطريقة الإلهام أو إظهار أمارة، ويحتمل في هذا الإيحاء أن يكون إلى يعقوب لتقدم ذكر يعقوب .

[مسألة] وربما قيل : ما معنى قوله تعالى : ﴿ فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ﴾ [يوسف:١٧] ؟ وما معنى : ﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ [يوسف:١٨] فكيف يصح منهم الكذب ووصف الدم بالكذب ؟

وجوابنا : أنه يحتمل في قولهم : أكله الذئب أنهم قالوه تعريضاً لا خبراً على التحقيق، ويحتمل أن يكونوا قد كذبوا لكنه وقع منهم في حال الصبا .

فأما قوله : ﴿ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ [يوسف:١٨] فمن أحسن ما يوجد في مجاز ؛ فإنهم صوروه بخلاف صورته فصار كالكذب، ويحتمل أن يكون المراد : بدم واقع من كاذب على معنى قوله : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً ﴾ [الأنبياء:١١] أي : أهلها وسكانها وقوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً ﴾ [القصص:١٤] يدل على ما قلناه من أنه كان ذلك في حال الصبا .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ﴾ [يوسف:٢٤] أليس ذلك كان بعد البلوغ والنبوّة، فكيف يصح من الأنبياء العزم على الزنا ؟

وجوابنا : أن المراد بقوله : ﴿ هَمَّتْ ﴾[يوسف:٢٤] العزيمة منها، وبقوله : ﴿ وَهَمَّ ﴾ [يوسف:٢٤] الرغبة والشهوة وإن كان شديداً في الانصراف عن ذلك، وقد يقال : هم فلان بكيت وكيت بمعنى اشتهى .

ويحتمل ما قيل إنه هم بها لولا أن رأى برهان ربه فنفاه عنه بشرط قد وجد ولذلك قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ﴾ [يوسف:٢٤] وقال بعد ذلك بآيات حاكياً عنها إنها قالت : ﴿ الآنَ حَصْحَصَ الحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [يوسف:٥١] .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ * وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [يوسف:٢٦-٢٧] كيف يصح الحكم بمثل ذلك مع تجويز خلافه ؟

وجوابنا : أنه لا يمنع في شريعة ذلك الزمان الحكم بمثل ذلك، وقد يجوز مثل ذلك في شريعتنا أيضاً في أشياء كثيرة كالحكم بالقافة عند بعضهم، وكإلحاق الولد بالفراش عند جميعهم، وكرد اللقطة بالعلامات عن بعضهم .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ [يوسف:٣١] كيف يصح ذلك من جماعة العقلاء حتى يتفق منهن قطع اليد عند مشاهدته ؟

وجوابنا : أن حديث يوسف إذا كان قد تمكن في قلبهن لما سمعن من خبر امرأة العزيز وشدة كلفها به لم يمتنع وبين أيديهن فاكهة ومعهن ذلك السكين أن يخرجن في حال إرادتهن لقطع ذلك وأكله إلى أن يقع منهن خطأ، وليس في القرآن أن ذلك القطع كيف كان وفي أي موضع كان في اليد، ولا في القرآن كم كان عدد النسوة، ولا فيه أن ذلك وقع من جميعهن أو من أكثرهن، ومثل ذلك لا يُسْتَنْكَر .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى في جواب منام الفتيين كيف يصح أن يقطع بذلك فيقول : ﴿ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ ﴾ [يوسف:٤١] ويقول : ﴿ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ [يوسف:٤١] وذلك كلام قاطع بهذا الأمر ؟

وجوابنا : أنه يجوز أن يكون قاله من وحي، فقد كانت الحال حال نبوّة، ولو لم يثبت ذلك لجاز أن يحمل على وجه الظن، على أن الخبر في ذلك كان يثبت لديه، فالقرآن يدل على أن نفس يعقوب ونفس إبراهيم صلى الله عليهما وسلم كانوا قد أوتوا المعرفة بتأويل الرؤيا، وقد قيل في الخبر : إنهما قالا بعد إظهارهما ما رأياه أنهما كذبا، فقال يوسف : ﴿ **قُضِيَ الأَمْرُ** ﴾ [يوسف:٤١] وذلك لا يكون إلا عن وحي .

[مسألة] وربما قيل : كيف يصح وهو في السجن أن يظهر أن أباه إبراهيم وإسحق ويعقوب ولا يظهر ذلك في القوم، وكيف يصح ممن نجا منهما أن لا يذكر يوسف إلا بعد زمان وإلا بعد رؤيا الملك، أوَليس كل ذلك نقيض العادات ؟

وجوابنا : أن يوسف عليه السلام كان في صورة العبد الرقيق لذلك الملك وكان يخاف أن يظهر من كلامه ما يدل على خلاف ذلك خاصة فيمن كان خادماً لذلك الملك وراجياً لأن يعود إلى الخدمة، فلذلك أخفى نسبه، فأما النسيان فقد يصح في مثل ذلك إذا قل الحرص في مثله، فلذلك قال تعالى : ﴿ **فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ** ﴾ [يوسف:٤٢] وقال : ﴿ **وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ** ﴾ [يوسف:٤٥] ثم ما كان من جوابه لرؤيا الملك وموافقة الصدق في ذلك، يدل على نبوّته .

[مسألة] وربما قيل : إن يوسف لما أجاب في رؤيا الملك ﴿ **وَقَالَ المَلِكُ ائْتُونِي بِهِ** ﴾ [يوسف:٥٠] ولم يذكر له جواب الرؤيا، كيف يصح ذلك ؟

وجوابنا : أنه في هذه السورة قد ذكر تعالى أشياء حُذِفَ جزءٌ منها اختصاراً ولدلالة الكلام عليه، وذلك يحسن .

[مسألة] وربما قيل : كيف يجوز وقد أمر الملك أن يخلص من السجن أن يختار أن يبقى فيه ويقول : ﴿ **ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ** ﴾ [يوسف:٥٠] وقد كان يمكنه أن يخرج ثم يفتش عند ذلك ؟

وجوابنا : أنه رأى وقد أحب الملك حضوره عنده أن التفتيش عن ذلك يكون أقوى وموقعه أحسن، فأوهم أنه لا يخرج من السجن إلا وقد ظهرت براءة ساحته

كالشمس، فلذلك قال ما قال : فلما قلن ما قلن من قولهن : ﴿ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ﴾ [يوسف:٥١] أيقن بظهور أمره فيما كان اتُّهم به، فعند ذلك خرج إلى حضرة الملك .

[مسألة] وربما قيل : كيف جاز من يوسف أن يمدح نفسه فيقول : ﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف:٥٥] ومدح النفس مكروه ومَنْهِيٌّ عنه بقول الله تعالى : ﴿ فَلاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ [النجم:٣٢] وكيف يجوز للنبي أن يتولّى من قبل الكفار ؟

وجوابنا : أن مدح النفس عند الحاجة إليه يحسن، فلا يكون المراد المدح، بل يكون المراد ذلك الوجه الذي يقع به النفع، وعلى هذا الوجه قال ﷺ : «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلاَ فَخْرَ» فنبه بقوله : ولا فخر على أن مراده ليس مدح النفس، فيوسف ﷺ أظهر ذلك لما كان في توليته الخزائن من المصلحة خصوصاً في تلك السنين الشديدة، فأما تولي ذلك من جهة الكفّار فإنه يحسن إذا لم يمنع الشرع منه فإن كان ذلك الملك كافراً فذاك حسن وإن كان مؤمناً فلا سؤال .

[مسألة] وربما قيل : كيف يجوز في إخوته وهم جماعة أن لا يعرفوا يوسف كما قال تعالى : ﴿ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ [يوسف:٥٨] وذلك بخلاف العادة في الجماعة ؟

وجوابنا : أن القوم فقدوا يوسف وهو في سن الصبا فتغير وجهه، وقد كان لباسه أيضاً من قبل بخلاف لباسه وقد صار له الملك وكذلك سائر أحواله، وكان القوم يتهيّبونه عند المخاطبة لشدة الحاجة إليه، وكلُّ ذلك مما يجوز أن لا يعرفه القوم فيجوز أن حالته في معرفته لهم بخلاف حالهم لتمكنه من الأمور وفراغ قلبه لتأملهم .

[مسألة] وربما قيل : كيف يجوز مع المجاعة الشديدة أن لا يكيل لهم مع الحاجة حتى يأتوا بأخيه ومثل ذلك لا يحل ؟

وجوابنا : أنه عرف أن الحاجة ليست في ذلك الوقت، وكان له بغية في حضور أخيه وأنه سينتهي ذلك إلى حضور أبَوَيْه أيضاً، فلذلك فعل .

[مسألة] وربما قيل : كيف يجوز أن يخفى خبره عليهم المدة الطويلة مع قرب المسافة بين مصر وبين البدو الذي كانوا فيه حتى يجري الأمر على ما ذكره الله عز وجل في كتابه ؟

وجوابنا : أن إخوة يوسف لما أقدموا على ما فعلوه في أمر يوسف وحمله جماعة من السيارة وقد اشتروه بثمن بخس ظنوا فيه خلاف ما ظهر فقلَّ تفتيشهم عنه، ولما حمل واشتراه ذلك العزيز لامرأته واتخذاه كالولد كان كالمكتوم عن الناس مع حسن صورته، ومثله ربما يخشى ظهوره، ثم أقام محبوساً ما أقام وتردد في المجلس فعمي أمره وقد طالت المدة، فلذلك ولأمثاله خفي خبره على أبيه وإخوته .

فأما خبرهم فلم يخف عليه لأن الذي عامل به إخوتَه يدل على أنه كان بذلك عارفاً وكان يتلطف في تحصيل أخيه ثم أبيه بالوجوه التي أباحها الله تعالى، ومثل هذا السبب قد يخفى عنده الخبر، فلذلك خفي على يعقوب وعلى إخوته خبره .

(**فإن قيل**) كيف يجوز مع شدة محبة يعقوب أن لا يفتش عن خبره وقد كان قال لهم ما يدل على أنه اتهمهم في أن الذئب أكله ؟

فجوابنا : أن يعقوب ما كان يعرف الأخبار إلا من جهة أولاده لأن سائر الناس كان يقبض عنهم وأولاده كانوا لا يفتشون عن ذلك لأن سبب الجناية كان منهم وظنوا أنه مفقود في الحقيقة، ولأن شدة حزنه وما لقي من المحن في تلك السنين كان يشغل عن مثله .

(**فإن قيل**) كيف يجوز من يعقوب وهو نبي أن يحزن كل ذلك الحزن على يوسف، أوَليس ذلك يصرف عن أمور الآخرة ؟

قيل له : قد أبيح للوالد محبة الولد والسرور بأحواله خصوصاً إذا كان الولد على مثل صفات يوسف أو ما يقاربها، ويحتمل أيضاً أنه كان اشتد حزنه لأنه ظن أنه قصّر في حفظه وأنه فرّط في أن سلمه إلى إخوته فتضاعف حزنه لذلك أيضاً .

فإن قيل : كيف جاز أن يقول يوسف وقد جعل السقاية في رحل أخيه إنهم لسارقون وهذا في الظاهر كذب ؟

فجوابنا : أنَّ جَعْلَ السقاية في رحل أخيه يجوز أن يكون من قبله بأمره، فأما ما قاله المؤذن من أنهم سارقون فهو من قبل المؤذن لا من قبل يوسف .

فإن قيل : فكيف قال : ﴿ فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ * قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ﴾ [يوسف:٧٤-٧٥] ؟

فجوابنا : أن كل ذلك ليس من قول يوسف، فأما تملك السارق فقد كان فى دين ذلك الملك ويجوز أن يكون في بعض شرائع الأنبياء، فلذلك قالوا : فهو جزاؤه .

فإن قيل : وكيف قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾[يوسف:٧٦] وأخذه على هذا الوجه معصية لا يجوز أن يشاءه الله فكيف يصح ذلك ؟

فجوابنا : أن المراد مشيئة حصوله هناك حتى يصح أخذه لأنّ كل ذلك مما يجوز أن يشاءه الله ، ولذلك قال بعده : ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ﴾ [يوسف:٧٦] .

فإن قيل : كيف يصح أن يقول يعقوب ﷺ : ﴿ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ [يوسف:٩٤] فيضيف إليهم التفنيد والذم له ؟ وكيف جاز أن يقولوا له : ﴿ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ [يوسف:٩٥] فينسبون الضلال إليه ؟

فجوابنا : أنه لا يمتنع أن يجد ريح يوسف وأمارات حياته وأن يكون الله تعالى قوّى ذلك لما أراده من اجتماعهم، وأما الضلال في اللغة فهو الذهاب عن الشيء الذي فيه نفع، فأرادوا بقولهم : إنك لفي ضلالك القديم أنك تجري على عادتك في العدول عما ينفعك ومثل ذلك قد يجوز أن يقال للأنبياء فيما يتعلق بأمور الدنيا .

فإن قيل : كيف يعود بصيراً بإلقاء القميص إليه ؟

قيل له : إنه نبي وفي أيام الأنبياء قد يصح ظهور ما يخرج عن العادة، فإن لم يكن من معجزات يعقوب فهو من معجزات يوسف، فلا سؤال في ذلك .

واختلفوا فقال بعضهم : كان بصره قد ضعف لا أنه قد زال ومثل ذلك كالمعتاد إذا كان المرء شديد الخوف ثم يعود له الفرج والسرور فتعود قوة بصره ومنهم من قال : بل كان بصره قد زال على ما يدل الظاهر عليه، فيكون الجواب ما تقدم .

فإن قيل : كيف قال وقد عاد بصرُه : ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف:٩٦] أو ليس ذلك يدل على أنه كان عالماً بحياة يوسف ؟

فجوابنا : أنه لا يمتنع أن يكون عالماً بذلك من جهة الوحي، ولا يمتنع أن يكون ظاناً لذلك لعلامات وأمارات، وإذا علم فقد يجوز أن يكون عالماً بشرط لا يحل معه القطع، ويجوز خلافه، وأحواله كانت تدل على أنه لم يكن قاطعاً على موته ولا يمتنع أن يكون قد أُوحي إليه بما يدل على عوده إليه آخراً .

فإن قيل : كيف يجوز أن يقولوا : ﴿ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ [يوسف:٩٧] وهذا كلام معتذر تائب فيكون جوابه : ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ﴾ [يوسف:٩٨] فلم يقبل عذرهم في الحال وذلك لا يجوز على الأنبياء ؟

فجوابنا : أنه قبل عذرهم في الوقت، وإنما وعدهم باستغفار مستقبل يقتضي استدعاء حصول المغفرة من قبل الله تعالى، فأراد الدعاء لله تعالى، وذلك مما لا يجب في الوقت وإنما يلزم في الحال قبول العذر فقط، كما قال يوسف عليه السلام : ﴿ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾ [يوسف:٩٢] ويحتمل أنه عليه السلام لم يعرف أن مقصدهم بقولهم : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَنَا ﴾[يوسف:٩٧] الاعتذار الخالص وإن كانوا قد تابوا من قَبْلُ فقال : سوف أستغفر لكم ربي إذا عرفت منكم الإخلاص .

فإن قيل : كيف قالوا وقد دخلوا عليه : إنك لأنت يوسف وقد ترددوا عليه حالاً بعد حال حتى قال : ﴿ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي ﴾ [يوسف:٩٠] وكيف يخفى عليهم حديث أخيهم خاصة ؟ وكيف قال لهم : ﴿ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴾[يوسف:٨٩] وكانوا أنبياء؟

فجوابنا : ما تقدم من أن حال يوسف قد تغير في صورته وفي محله وكانوا لا يتأملون تأمل متعرف، فلذلك خفي عليهم، فأما أخوه فكانوا يعرفونه، ولم يقل

يوسف : ﴿ وَهَذَا أَخِي ﴾ [يوسف:٩٠] لأنهم لم يعرفوه لكنه أراد إظهار نعمة الله عليه باجتماع أخيه معه، ولذلك قال : ﴿ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف:٩٠] فأما قوله : ﴿ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ [يوسف:٨٩] فالمراد به أيام الصبا، وقد يقال لمن لا يعرف الأمور : إنه جاهل لا على طريق الذم .

فإن قيل : فما معنى قوله وقد آوى إليه أبـويه : ﴿ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَـاءَ اللَّـهُ آمِنِينَ ﴾ [يوسف:٩٩] وكانوا قد دخلوا ؟

فجوابنا : أنهما التقيا به خارج مصر فقال ما قال وذلك صحيح، وهذا كما يستقبل المرء من يعظمه خارج البلد وأراد بذلك تعريفهم أنهم تخلصوا مما كانوا عليه من المحق والمجاعة في ذلك البدو.

فإن قيل : فما معنى : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً ﴾ [يوسف:١٠٠] وكيف يسجدون له وذلك من العبادات التي لا تليق إلا بالله تعالى ؟

فجوابنا : أن رفعه لهما على العرش كان على وجه الإعظام وإيصال السرور إليهما برفعها على السرير المرتفع، فأما السجود فقد يحسن شكراً لله إذا وصل المرء إلى نعم عظيمة، فيجوز أن يكون سجودهما له على هذا الوجه، وأضيف السجود إليه لما كان سبب ذلك، كما يضاف السجود إلى القبلة على قريب من هذه الطريقة .

ويحتمل في السجود أن يكون وقع منهما على وجه الإعظام له، فإن ذلك يحسن على بعض الوجوه . وقد قيل : إن الله تعالى ذكر السجود وأراد الخضوع بضرب من الميل إلى الارض أقرب إلى الظاهر، بيَّن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ ﴾[يوسف:١٠٠] ودل بقوله : ﴿ مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ [يوسف:١٠٠] على أنه قد زال عن قلبه ما عملوه به فأضافه إلى الشيطان تحقيقاً لذلك، ودل بقوله وقد جعله الله نبياً : ﴿ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِـرَةِ ﴾ [يوسف:١٠١] بعد التحية وقوله : ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِـي بِالصَّـالِحِينَ ﴾ [يوسف:١٠١] على وجوب الانقطاع إلى الله تعالى والخضوع له في المسألة مع العلم بالغفران .

فمنّ الله تعالى على نبينا ﷺ بقوله : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ [يوسف:١٠٢] لأن في قصة يوسف من العجائب والعبر ما يوجب الشكر، ودل بقوله ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف:١٠٣] على أن من يؤمن من الناس قليل من كثير، وإن كان الأنبياء يحرصون على إيمانهم، ودل بقوله : ﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ [يوسف:١٠٤] على أن دعاء الغير إلى الإيمان لا يكاد يؤثر إلا مع رفع الطمع، ودل تعالى بقوله : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف:١٠٥] على أن الواجب على العاقل التفكر في الآيات إذا شاهدها وأن ذلك من أعظم ما يأتيه المرء، وكذلك قال بعده : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف:١٠٦] .

ثم بين ما يلحقهم إذا أعرضوا عن الآيات من العقاب فقال : ﴿ أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً ﴾ [يوسف:١٠٧] فنبه بذلك على وجوب الحذر من قرب الساعة وقرب الأجل .

ثم أمر نبيّه ﷺ بأن يقول : ﴿ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ [يوسف:١٠٨] ودل بذلك على أن هذا الدعاء كما يلزم الرسول يلزم من اتبعه من أهل المعرفة واليقين .

ودل بقوله : ﴿ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف:١٠٨] على وجوب تنزيه الله تعالى ممن يدعو إلى الدين عما لا يليق به وقوي من نفسه ﷺ من بعد بقوله : ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾ [يوسف:١١٠] .

وبين ما في قصص الأنبياء من النفع في الدين فقال ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ [يوسف:١١١] وهذا أحد ما يدل على أن الواجب أن يُقْرَأ القرآن بتدبر حتى ينتفع المرء بذلك .

سورة الرعد

[مسألة] وربما قيل في قوله تعـالى : ﴿ **اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا** ﴾ [الرعد:٢] كيف يصح أن يرفعها بعمد ونحن لا نراها ؟

وجوابنا : أن المراد أنه يرفعها ويمسكها لا بعمد أصلاً، ودل بذلك على قدرته لأن أحدنا لا يصح أن يرفع الثقيل إلا بعمد، وعلى هذا الوجه قال : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا** ﴾ [فاطر:٤١] وذلك من عظم نعم الله تعالى، فلولا ذلك لم يصح التصرف على الأرض ولا أن يدور الفلك والشمس والقمر والنجوم .

[مسألة] وربما قيل : ما معنى قوله تعالى : ﴿ **ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ** ﴾ [الرعد:٢] إذ لم يجز عليه المكان ؟

وجوابنا: أن المراد الاستيلاء والاقتدار، وذكر « ثم» في الاستواء والاقتدار وأراد ما بعد من تسخيره الشمس، لأن اقتداره ليس بحادث ولا متجدد فكأنه قال ثم : ﴿ **وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ** ﴾ [الرعد:٢] وهو مستولٍ على ذلك مقتدر ثم يدبر الأمور التي قدر آجالها .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ [الرعد:٣] ما الفائدة في قوله : « اثنين» وقد عقل ذلك مما تقدم ؟

وجوابنا : أنه تأكيد يفيد فائدة زائدة لأن الزوجين قد يراد بهما أربعة، فبين بقوله : « اثنين» المراد وهو خلقه من كل شيء الذكر والأنثى وما يجري مجراه، وفي قوله : ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ** ﴾ [الرعد:٣-٤] دلالة على نعمه وأن الواجب التفكر فيها ليستدل بها على قدرته وليعرف ما يلزم من شكره وعبادته، وجعل جل وعز ذلك مبطلاً لقول من أنكر الإعادة، فلذلك قال : ﴿ **وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ** ﴾ [الرعد:٥] .

[مسألة] وربما قيل : ما فائدة قوله تعـالى : ﴿ وَأُوْلَئِكَ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ ﴾ [الرعد:٥] وإنما يحسن ذلك منا لأنا لا نقدر على التعذيب والمنع إلا بالآلات ؟

وجوابنا : أنه تعالى يزجر المكلف عن المعاصي بما جرت العادة أن يعظم خوفه لأجله، كما يرغب في الطاعة بما جرت العادة به من الملاذ والمناظر، وإلا فهو قادر على أن يؤلم المعاقب بغير هذه الأمور .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد:٨] أما يدل ذلك على أن كل شيء مخلوق من جهته ؟

وجوابنا : انه تعالى ذكر ذلك بقوله : ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ [الرعد:٨] فبين بعده أن كل شيء عنده بمقدار لأنه عالم بكل ذلك، وقد يقال : «عنده» ويراد به في علمه كما يقال ذلك ويراد القدرة ويراد الفعل، ولذلك قال بعده : ﴿ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ ﴾ [الرعد:١٠] .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد:١١] أليس ذلك يدل على أنه الفاعل لهذه التغيرات ؟

وجوابنا : أنه أضافها إليهم كما أضافها إلى نفسه، والمراد أنهم إذا غيروا طريقتهم في الشكر والطاعة غير الله تعالى أحوالهم بالمحن وغيرها زجر بذلك المكلف عن المعاصي .

فإن قيل : فقال بعده : ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ ﴾ [الرعد:١١] وذلك يدل على أن السوء من عنده .

فجوابنا : أن المراد : المحن والشدائد، وتوصف بالسوء مجـازاً ولـيس في الآيـة أنه يفعل ذلـك وإنمـا فيهـا أنـه إذا أراده لا مـرد لأن مـا يريـده الله تعـالى يكـون أبـداً بالوجود أولى إذا كان ذلك المراد من فعله .

فأما إذا أراد من عباده الطاعات فإنما يريدها على وجه اختيار، وقد يجوز أن لا تقع لسوء اختيار المكلف .

[مسألة] ومتى قيل : فما معنى قوله تعالى : ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ﴾ [الرعد:١٣] وكيف يصح التسبيح من الرعد ؟

وجوابنا : أن المراد دلالة الرعد وتلك الأصوات الهائلة على قدرته وعلى تنزيهه، وذلك كقوله تعالى : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾[الحديد:١] لدلالة الكل على أنه منزه عما لا يليق، ولذلك قال : ﴿ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ﴾ [الرعد:١٣] ففصل بين الأمرين، وقوله بعد: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً ﴾ [الرعد:١٥] معناه : يخضع، فالمكلف العارف بالله يخضع طوعاً وغيره يخضع كرهاً لأنا نعلم أن نفس السجود لا يقع من كل واحد .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الرعد:١٦] ألا يدل ذلك على أنه الفاعل لكل شيء وعلى أن العبد لا يفعل وإلا كان يتشابه فعله بفعل الله ؟

وجوابنا : أن قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴾ [الرعد:١٦] زجر للعاصي والكافر بأن شبهه بالأعمى وترغيب للمؤمن بأن شبهه بالبصير، ونبه بقوله : ﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ ﴾ [الرعد:١٦] على أن عبّاد الأصنام بمنزلة العميان في عبادتهم لها مع أنها لا تنفع ولا تضر، فهو معنى قوله : ﴿ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الخَلْقُ عَلَيْهِمْ ﴾ [الرعد:١٦] ثم بين أنه الخالق للنعم التي يستوجب عندها العبادة فلا تليق العبادة، إلا به ولا مدخل لأفعال العباد في ذلك، وقد بينا من قبل وجوهًا في أن قوله تعالى : ﴿ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الرعد:١٦] لا يدل إلا على أن المقدر من هذه الأجسام والنعم من قبله، فلا وجه لإيراد ذلك، وبيّن تعالى ما أراده بقوله من بعد : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾ [الرعد:١٧] فدل بذلك على مراده .

وقال بعده : ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الحَقَّ وَالْبَاطِلَ ﴾ [الرعد:١٧] ثم قال بعده : ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ * لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ ﴾ [الرعد:١٧-١٨] بأن عصوا وخالفوا، ثم قال : ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [الرعد:١٩] .

وبين صفة ذوي الألباب فقال : ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلاَ يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ * وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ * وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِراً وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [الرعد:٢٠-٢٤] .

فانظر أيها القارئ لكتاب الله كيف صفة من ينال الحسنى ويفوز بثوابها، وكيف صفة ذلك الثواب العظيم، فإنه جل جلاله لم يقتصر على أن لهم الجنة حتى بين أن من صلح من الأقربين يحصل معهم هناك ممن كلف ويحصل معهم من لم يكلف أيضاً من الذرية، وأن الله تعالى يأمر ملائكته بالدخول عليهم في كل وقت بالسلام والتحية، ويعرّفونهم أن كل ذلك جزاء لهم على ما صبروا فإنهم صبروا قليلاً فدام لهم ذلك الملك والنعيم، فهو معنى قوله : ﴿ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [الرعد:٢٤] لأنها دائمة على عظم نعمها وخلوصها من كل شائبة .

ثم إنه تعالى ذكر خلاف ذلك فيمن خالف ربه وعصى فقال : ﴿ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [الرعد:٢٥] فالملائكة تلعنهم حالاً بعد حال عن أنفسهم وعن ربهم ولهم سوء الدار وهو النار الدائمة التي عقابها خالص عن كل روح وراحة .

وقد حكى بعض الأئمة أنه سئل عن وصف المؤمن فتلا هذه الآية، ولو أردنا أن نفسرها لطال الكتاب فإن قوله : ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ ﴾[الرعد:٢٠] يدخل فيه القيام بسائر الواجبات التى عهدها إلينا والقيام بكل الأمانات والوفاء بكل العقود، وكذلك كل فضل منه .

ثم بين تعالى : ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [الرعد:٢٦] يعني أهل النار، ثم قال : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ ﴾ [الرعد:٢٦]

وقوله بعد ذلك : ﴿ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ [الرعد:٢٧] يدل على أن المراد بالهداية ما نقول من الإثابة وغيرها .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [الرعد:٢٨] أليس ذلك مخالفاً لقوله في المؤمنين حيث قال : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال:٢] ؟

وجوابنا : أن الطمأنينة المذكورة هاهنا المراد بها المعرفة وسكون النفس إلى المجازاة مع الوجل والخوف من المعاصي، فالكلام متفق لأن المؤمن ساكن النفس إلى معرفة الله تعالى وإلى المجازاة على الطاعات، ومع ذلك خائف مما يخشاه من التقصير ووجل القلب، فظن في مثل ذلك أنه مختلف إذ قد نادى على نفسه بقلة المعرفة، ولذلك قال تعالى بعده : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾ [الرعد:٢٩] .

وبين تعالى عظم شأن القرآن بقوله من بعد : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى ﴾ [الرعد:٣١] . وجواب ذلك محذوف، والمراد : لكان هذا القرآن، وذلك يدل على أنه في الفصاحة قد بلغ نهاية الرتبة، وأنه صار معجزاً لذلك .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ بَل لِّلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعاً ﴾ [الرعد:٣١] أليس يدل ذلك على أنه الفاعل لكل شيء ؟ وقوله من بعد : ﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً ﴾ [الرعد:٣١] أليس ذلك يدل على أنه لم يشأ من جميعهم الإيمان وإلا لهداهم ؟

وجوابنا : أن المراد به أنه هدى بعض الناس دون من لم يجعله بصفة المكلف ويحتمل أن يكون المراد : لهداهم بالإلجاء حتى يجتمعوا على الإيمان، وقوله : ﴿ بَل لِّلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعاً ﴾ [الرعد:٣١] صحيح لأن المراد : اقتداره على كل شيء، وأن ما يريده لا يصح فيه المنع، وقوله تعالى من بعد : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ [الرعد:٣١] يدل على أن وعده ووعيده لا يقع فيهما خُلْف .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [الرعد:٣٣] أليس يدل ذلك على أن الله يصد الكافرين عن طريق الخير ويفعل الإضلال وذلك لا يجوز ؟

وجوابنا : أن ذلك يدل على أن هذا التزيين من الشيطان ومن أنفسهم، ولولا ذلك لوجب أن يكون تعالى صاداً لهم عن السبيل مع علمنا بأن ذلك لا يجوز عليه، وإنما أراد بقوله : ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ ﴾ [الرعد:٣٣] أي بالعقوبة على ما فعله، فما له من هاد إلى الجنة، ولذلك قال : ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ ﴾ [الرعد:٣٤] .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ ﴾ [الرعد:٣٥] أليس فيه الدلالة على أن الجنة مخلوقة الآن وذلك بخلاف ما تقولون ؟

وجوابنا:أن جنة الخلد والثواب ليست بمخلوقة الآن، وذلك بخلاف ما تقولون وإلاَّ لفنيت إذا أفنى الله تعالى العالم، فكان لا يكون أُكلها دائماً، فدل على أنه تعالى يخلقها في الآخرة فيدوم أكلها .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ﴾ [الرعد:٣٩] أما يدل على جواز البدء على الله تعالى ؟

وجوابنا : أن المراد بذلك أنه جل جلاله يمحو عن المؤمن الصغائر لأنها مغفورة، ويحتمل أنه المنسوخ والناسخ، ويحتمل أنه يمحو ما لا مدخل له في الثواب والعقاب ويثبت ما له مدخل في ذلك، ويحتمل أنه يمحو ما كتب من آجال وأرزاق من مضى ويثبت ذلك فيمن يبقى ويحدث .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً ﴾ [الرعد:٤٢] كيف يصح المكر على الله إذ بَيِّنٌ أنه من صفات الذم ؟

وجوابنا : أن المراد إنزاله بهم العقاب وما شاكله من حيث لا يعرفون كما ذكرنا في سورة البقرة في قوله : ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [البقرة:٩] وما شاكله .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ [الرعد:١١] فيقولون كيف يصح ذلك ؟

وجوابنا : أن حفظهم وإن لم يقع من الأمر فإنه يقع عند تقدم الأمر، فالمراد : يحفظونه عن أمر الله يذكر الأمر ويراد به التقوية والتمكين، فلما كانوا يحفظونه بأن مكنهم ويقويهم جاز ذلك .

سورة إبراهيم

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ الـر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [إبراهيم:١] كيف يفعل الرسول ذلك ؟

والجواب أن المراد : يدعوهم إلى العدول إلى الإيمان عن الكفر ويبين لهم ذلك، فوصف بأنه يخرج لما كان يفعل السبب الداعي إلى ذلك، ولذلك قال : ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ [إبراهيم:١] إذ المراد أن ذلك بأمره ووحيه، وهذا أحد ما يدل على الإيمان وما عدلوا عنه من الكفر بفعلهم، فيكون بيانه سبباً لاختيارهم العدول عن الكفر إلى الإيمان، وقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ ﴾ [إبراهيم:٣] يدل على أن ما يقع منهم من جهتهم لأنه لو كان خلقاً لله فيهم لما صح أن يستحبوا شيئاً على شيء .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [إبراهيم:٤] أما يدل ذلك على أنه بعد البيان هو الذي يضل ويهدي ؟

وجوابنا : أن المراد أنه يضل عن طريق الجنة إلى النار ويهدي إلى الجنة من أزاح علته ببيان الرسول ﷺ لكي تكون الحجة لله عليهم، وهو كقوله : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء:١٥] وقوله : ﴿ وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [إبراهيم:٨] يدل على أنه يكلف الناس لينفعهم ولحاجتهم إلى ذلك وأنه غني عن كل شيء .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ [إبراهيم:٩] أليس ذلك يتناقض بأن يقول آخراً : ﴿ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ [إبراهيم:٩] ويقول أولاً : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [إبراهيم:٩] ؟

وجوابنا : أن المراد بآخره هو قوله : ﴿ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ [إبراهيم:٩] وأتاهم خبرهم على الجملة دون التفصيل، فالكلام مستقيم، ويحتمل أن يريد أنه أتاهم نبأ هؤلاء على الجملة ويريد بقوله ﴿ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ [إبراهيم:٩] التفصيل من أحوالهم، فلذلك قال بعده : ﴿ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ﴾ [إبراهيم:٩] .

وقد ذكرنا من قبل أن ذلك ذم لهم، وهو كناية عن ترك القبول منهم لأن هناك استعمالاً لليد في رد قولهم وبيانهم، ولذلك قال : ﴿ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ [إبراهيم:١٠] فبين أن مراده تعالى بتكليفهم هذا الغفران .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [إبراهيم:١١] فأحالوا إيمانهم إلى الله تعالى .

وجوابنا : أن المراد بذلك الإرسال والنبوّة لأن قومهم قالوا : إنهم بشر مثلنا فأجابوهم بقولهم ﴿ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [إبراهيم:١١] وأرادوا النبوة وإظهار المعجزات، هذا ونحن نضيف الإيمان أيضاً إلى الله تعالى ونقول : إنه من نعمه لما كان الوصول إليه بيسره وألطافه مع التمكين، وكذلك نقول في الطاعات : إنها من الله ولا نقول ذلك في المعاصي، وقد نهى عنها وزجر عن فعلها، ولذلك قال تعالى بعده : ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا ﴾ [إبراهيم:١١-١٢]

[مسألة] وربما قيل : كيف ذكر أولاً جل وعز قولهم : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [إبراهيم:١١] ثم كرره ثانياً ؟ ما الفائدة في ذلك ؟

وجوابنا : أنهم في الأول قالوا : ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [إبراهيم:١١] وأرادوا فيما يتصل بالنبوّة، ثم قال ثانياً : ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [إبراهيم:١٢] وأرادوا في صبرهم على ما يعرض في النبوّة، فأحد الأمرين غير الآخر .

[مسألة] وربما قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَيَأْتِيهِ المَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ [إبراهيم:١٧] أليس ذلك يتناقض ؟

وجوابنا : أن ذلك كناية عن شدة عذابهم وإن لم يكونوا أمواتاً، وهو كقوله : ﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى ﴾ [الحج:٢] ولذلك قال بعده : ﴿ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ [إبراهيم:١٧] .

وبين تعالى أن عمل الخير من الكفار لا ينفع فقال : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ [إبراهيم:١٨] فبين أن كفرهم يحبط كل خير عملوه وبين أن ذلك هو الضلال البعيد ثم بين تعالى بعده بقوله حكاية عمن استكبر عند قول الأتباع : ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً ﴾ [إبراهيم:٢١] أنهم ﴿ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ﴾ [إبراهيم:٢١] وذلك في الآخرة، فمرادهم إذاً : لو هدانا الله تعالى إلى الجنة وعدل بنا عن النار لفعلنا ذلك بكم، وهذا يدل على أن الهدى قد يكون على هذا المعنى، كما قد يكون بمعنى الدلالة والبيان، وقوله : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾[إبراهيم:٢١] يدل على أن العذاب دائم لا كما يقوله بعض الجهال من أنه ينقطع.

وقوله تعالى من بعد حكايةً عن الشيطان : ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ﴾ [إبراهيم:٢٢] يدل على ان الشيطان لا يقدر إلا على الوسوسة وعلى أن وسوسته لا تزيل الذم والعقاب عمن قَبِلَ منه، وأن اللوم في كل فاعل على نفسه يرجع، وقوله من بعد : ﴿ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم:٢٢] يدل على أن الظلم من الذنوب العظام التي يستحق بها العذاب .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [إبراهيم:٢٧] أن ذلك يدل على أن إيمانهم من فعل الله فيثبتهم عليه ؟

وجوابنا : أن المراد يثبتهم على الخيرات ديناً ودنيا لأجل إيمانهم، فلذلك قال : ﴿ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾ [إبراهيم:٢٧] ولذلك قال بعده : ﴿ وَيُضِلُّ

اللَّهُ الظَّالِمِينَ ﴾ [إبراهيم:٢٧] أي يضلهم عما يفعله بالمؤمنين ديناً ودنيا، ولذلك قال بعده : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً ﴾ [إبراهيم:٢٨] تعجباً منهم من حيث لم يعرفوا موقع نعم الله تعالى وعدلوا عن شكره وطاعته، ورغبنا عاجلاً في الطاعة فقال : ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِراً وَعَلاَنِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خِلالٌ ﴾ [إبراهيم:٣١] فبين أن الذي ينفعهم في الآخرة أن يطيعوا بأنفسهم وبأموالهم قبل اليوم الذي فيه لا ينتفع أحد بمكسب وتصرف .

ثم بين تعالى أنواع نعمه بقوله جل وعز : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ [إبراهيم:٣٢] إلى قوله : ﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا ﴾ [إبراهيم:٣٤] ترغيباً للعبد في شكر هذه النعم حالاً بعد حال، ثم قال تعالى من بعد : ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم:٣٤] .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴾ [إبراهيم:٣٥] كيف يصح أن يسأل ربه هذين الأمرين ثم يوجد خلاف ذلك فإنا نجد البلد يجري فيه الخوف العظيم ونجد في أولاده من يعبد الأصنام ؟

وجوابنا : أن قوله « آمناً » لا يدل على كل شيء، فقد يكون آمناً من ضروب الخوف غير آمن من سواه، ومعلوم ما يحصل بمكة من الأمن، ويحتمل أنه دعا ربه أن يجعله آمنًا في أيامه حتى يؤمن بعضهم ويتألفوا على طاعته .

والمراد بقوله : ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ ﴾ [إبراهيم:٣٥] من هو موجود منهم وقد نزههم الله تعالى عن ذلك، وقوله بعد ذلك : ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ ﴾ [إبراهيم:٣٦] يعني الأصنام، فمراده أنهن صرن سبباً للضلال لا أن الصنم يصح أن يضل ويهدي، ولذلك قال بعده : ﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [إبراهيم:٣٦] يعني بالتوبة .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى: ﴿ إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ [إبراهيم:٣٧] كيف يصح ذلك وهو الذي بنى البيت على ما ذكره الله تعالى في كتابه بقوله : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ﴾ [البقرة:١٢٧] ؟

وجوابنا : أنه يحتمل في قوله : ﴿ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ [إبراهيم:٣٧] أن يكون المراد : عند تلك البقعة التي بُني فيها البيت . ويحتمل أن بناء البيت كان قائماً ثم اختل فبناه إبراهيم فيكون الكلام مستقيمًا، ومعنى قوله من بعد : ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ ﴾ [إبراهيم:٤٦] أن عنده إنزال العقوبات بهم من حيث لا يشعرون وسمّاه مكراً مجازاً، ومعنى قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ﴾ [إبراهيم:٤٨] أنهما يصيران على خلاف هذه الصورة، سماه تبديلاً كما يقال : إن فلاناً قد تبدل، إذا تغيرت أخلاقه. ويحتمل أن يكون الله تعالى يبتدئهما فيخلق أرضاً غير هذه في القيامة وسماء غير هذه فيكون أقرب إلى الحقيقة .

سورة الحجر

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ [الحجر:٢] كيف يجوز ذلك ولا شك في أنهم يتمنون في الآخرة ذلك، فما فائدة ﴿ رُبَمَا ﴾ [الحجر:٢] ؟

وجوابنا : أن ذلك من باب الردع، وربما يكون أقوى، فأحدُنا يقبل على ولده وقد عدل عن التعلم فيقول : ربما تندم على ما أنت عليه، فيكون في الزجر أبلغ، ولأن الكافر قد يسلم ويتوب فلا يقطع منه على ذلك، ومعنى قوله من بعد : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر:٣] بين صحة ما قلناه ؛ لأن ذلك وإن كان بصورة الأمر فهو تهديد وزجر عظيم .

[مسألة] وربما قيل : ما فائدة قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾ [الحجر:٤] وكل شيء يفعله فهو في معلومه ويثبت في أم الكتاب، فأي فائدة في هذا التخصيص ؟

وجوابنا : أن القوم كانوا يستعجلون العذاب من الأنبياء إذا توعدهم، فبين تعالى أن ذلك مؤقت بوقت لا يقدم ولا يؤخر .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الحجر:٦] كيف يصح ذلك مع جحدهم لنبوّته وإنكارهم أن الله تعالى أنزل ذلك عليه ؟

وجوابنا : أنهم قالوا على وجه أن ذلك صفته عند نفسه لأنه ﷺ كان يدعى ذلك وهذا كرجل يدعى أنه صانع فينادي بما يدعيه وإن كان المنادى لا يعترف له به، وبين ذلك ما ذكروه من بعد : ﴿ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ * لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

[الحجر:٦-٧] وبين تعالى لهم أنه ما ينزل الملائكة إلا بالحق، ومتى أنزلهم لم يكن إنكار وإمهال، وقوله تعالى من بعد : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر:٩] يدل على أن القرآن لا يغير ولا يبدل ولا يزاد فيه ولا ينقص، وشبههم بمن يجهل ما يشاهده بقوله جل وعز : ﴿ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ * وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ [الحجر:١٣-١٥] فبين أنهم في العدول عن التمسك بالنبوات والقرآن بهذه المنزلة .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ ﴾ [الحجر:٢١] أما يدل ذلك على أن أفعال العباد من خلقه لدخوله في قولنا شيء ؟

وجوابنا : أن المراد أن عندنا علم كل شيء، ولذلك قال : ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر:٢١] أو يكون المراد : عندنا القدرة على ما ذكرنا من النعم، فلا ننزّل ذلك إلا بقدر الحاجة إليه، بيّن ذلك أنه تعالى قال من قبل : ﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ * وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ﴾ [الحجر:١٩-٢٠] فبين بعده أنه قادر على إدامة ذلك وكنّى عن القدرة التي لا آخر لها بذكر الخزائن، ولذلك قال بعده : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾ [الحجر:٢٢] فذكر ما ينزله من الأمطار وما ينتبه من الأقوات ثم قال : ﴿ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ [الحجر:٢٢] ، ثم قال : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴾ [الحجر:٢٣] دل كل ذلك على عظم نعمه على عباده مرغباً لهم في شكره وطاعته .

ثم بين تعالى كيف خلق آدم من ﴿ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر:٢٦] وكيف خلق الجان ليعتبر بذلك، وكيف أمر بالسجود لآدم، وتقدم القول في ذلك، وبين بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ [الحجر:٤٢] أن الذي يقال من أن الشيطان يخبط لا أصل له، وإنه إنما يوسوس فلا يكون له سلطان إلا على من يتّبعه فيقبل منه الوسوسة، وعلى هذا الوجه كرر تعالى في القرآن التحذير من الشيطان، فحاله في ذلك دون حال الواحد من الإنس إذا رغب غيره في المعاصي، فعلى هذا الوجه قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر:٤٣] التابع والمتبوع .

ثم بين تعالى ما للمتقين من المنزلة بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴾ [الحجر:٤٥-٤٦] إلى آخر الآيات، وأدب الله تعالى نبيَّه ﷺ بقوله : ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴾ [الحجر:٨٨-٨٩] فأمره بتحقير ما عليه الكفار من متاع الدنيا، وأمره بالتواضع لمن آمن به، وأمره بأن يقوم بالإنذار في كلا الفريقين فلا يمنعه تمنع القوم عن الإنذار كما لا يمنعه إيمان من آمن به عن ذلك .

ثم أقسم تعالى بعد ذلك على أنه يسألهم أجمعين عما كانوا يعملون، ولم يقتصر على الخبر حتى أكده بالقسم زجراً للناس عن المعاصي، فإن من تصوَّر أن معاصيه طول عمره محصية عليه يصير في الآخرة كالمشاهد لها جميعًا يزجره ذلك عن الإقدام عليها وترك التوبة منها .

ولذلك قال بعده للرسول ﷺ : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر:٩٤] فقد أقمت الحجة عليهم ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ [الحجر:٩٥] الذين يقع في قلبك الخوف منهم، فشبَّهه تعالى بالصَّادع في الإبلاغ والإنذار ليكون مقيمًا للحجة على من آمن وكفر، وأكد تعالى بقوله : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ [الحجر:٩٧] فقد كانوا ينسبونه مرة إلى السحرة ومرة إلى الجنون ومرة إلى الفِرْية، ومثل ذلك يعظم على المرء ويأنف منه، فقوّى الله تعالى قلبه على احتماله وعلى ألا يجعله سبباً للفتور في الإبلاغ والبيان، فلذلك قال بعده : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ * وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجر:٩٨-٩٩] .

وهذه الآداب وإن خص الله تعالى بها الرسول ﷺ فهي عامة في سائر الناس، وهو من عظيم نعم الله تعالى على خلقه إذا تأملوه وتمسكوا به، فما أحد من المكلفين إلا وله وليّ وعدو يتردد بين محن ونعم، فكل ذلك تأديب له .

سورة النحل

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ ﴾ [النحل:٢] وكيف يكون إنزالهم بالروح ؟ وكيف يكون الروح أمراً ؟

وجوابنا : أن المراد به ذلك القرآن والشرع كما قال : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى:٥٢] وسمّى القرآن روحاً لأنه بمنزلة الروح الذي يحيا به أحدنا من حيث يحيا به الإنسان في أمر دينه، وأنه يؤدي إلى الحياة الدائمة، **فإن قيل** : فما معنى قوله : ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ ﴾ [النحل:١] ؟ وهل المراد به هذا الأمر الذي تنزله الملائكة ؟ **قيل له** : بل الأقرب في أتى أمر الله أنه الوعيد، ولذلك قال بعده : ﴿ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل:١] لأنهم كانوا يستعجلون العذاب، كقولهم : ﴿ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ [الأعراف:٧٧] وكما قال : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ﴾ [الحج:٤٧] فبين أن أمر الله قد أتى بالوعيد في الآخرة، والله تعالى حليم لا يعجل فلا تستعجلوه .

ثم قال تعالى : ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [النحل:٢] وعنى به الأحكام وسائر الشرائع التي بيّنها الله تعالى في القرآن وعلى لسان الرسول ﷺ ، ولذلك قال بعده : ﴿ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ [النحل:٢] ثم قال بعده : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النحل:٣] وبيّن أنه خلق ذلك لكي يؤمن العباد وذلك يبطل قول من يقول : خلق بعضهم ليكفروا، وكيف يقول جل وعز : ﴿ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النحل:٣] وهو الذي يخلق فيهم الشرك ويجعلهم بحيث لا يقدرون إلا عليه ؟

[مسألة] وربما قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل:٨] وإنما يخلق ما يخلقه لمصالح المكلفين ؟

وجوابنا : أن ما لا يعلمه الملائكة (قد يكون صالحاً لنا)[1] وقد يجوز فيما يخلقه أن يكون نفعاً لنا وإن لم نعلمه أو نفعاً لبعض الحيوان أو تفضلاً فلا يلزم ما قالوه.

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ** ﴾ [النحل:٩] كيف يصحّ في السبيل أن يكون على الله، وكيف يصح أن يكون منها جائر ؟

وجوابنا : أنه تعالى لما بيّن من قبل نعمه وبين من جملتها الأنعام والخيل والبغال وكيف خلقها نفعاً للمكلفين قال بعد ذلك إن على الله قصدُ السبيل، والمراد بيان ما يلزم المكلف وإزاحة سائر علله، فلا يجوز أن يكلفه ما لا يصح إلا بالأنعام وغيرها إلا ويخلقها له، وكذلك سائر ما يحتاج إليه، وبيّن بقوله : (**ومنها جائر**) أن في جملتها ما يخرج المكلف عنه ويعصى مع أن في جملتها ما يقبل ويطيع، ولو شـاء ﴿ **لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾ [النحل:٩] بالإلجاء لكن ذلك لا ينفع .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعـالى : ﴿ **أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ** ﴾ [النحل:١٧] أما يدل ذلك على أنه لا فعل إلا لله ؟

وجوابنا : أنه تعالى بيّن من قبل أصناف النعم من إنزاله الماء وإنباته أنواع الخيرات والثمرات وتسخيره الليل والنهار والبحر وما فيها من النعم والنجوم ودلالتها على الأمور، فقال بعده تنبيهاً للخلق عما يلزم شكره وعبادته : ﴿ **أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ** ﴾ [النحل:١٧] فبعث بذلك على عبادة الله تعالى وبكّت به من يعبد الأصنام وغيرها ممّا لا تصحُّ منه هذه النعم، ولا يدخل في ذلك أفعال العباد لأنه نبّه بذلك على أن الواجب أن يفعلوا الطاعة والشكر والعبادة، وكيف يكون نفس الفعل خلقاً من قبل الله تعالى ؟

ولذلك قال بعده:﴿**وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا**﴾[النحل:١٨]، فبين أن الذي قَدَّم ذكره من نعمه هو قليل من كثير النعم التي يفعلها الله تعالى حالاً بعد حال في جسم الإنسان وحواسه وجوارحه وغير ذلك، ثم قال : ﴿ **وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ** ﴾ [النحل:١٩] يخوّف بذلك العبد من أن يخالف ما يظهر من الطاعة، ويبعثه على أن

---

(١) في النسخة المخطوطة : فيكون صلاحًا لها . اهـ . مصححه .

يكون باطنه في الإخلاص كظاهره والذي بيّن ما قلناه قوله تعالى من بعد : ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ [النحل:١٩-٢٠] .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [النحل:٢٥] كيف يصح أن يحملوا أوزار غيرهم ؟ ولئن جاز ذلك لم يمتنع أن يعذب الله تعالى أطفال المشركين بذنوب آبائهم .

وجوابنا : أن الذين أضلوهم لما كانوا سبباً لضلالهم جاز أن يقول تعالى ذلك والمراد أنهم لما ضلوا وأضلوا كانت أوزارهم أعظم كما روي عنه ﷺ : فيمن سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً أَنَّ عَلَيْهِ وِزْرَها وَوِزْرَ مَنْ عَمِلَهَا والمراد مثل ذلك لا أنَّ عين ما يستحقه من يتأسَّى به يستحقه من سَنَّ فعل السُّنَّة السيّئة .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ ﴾ [النحل:٣٦] أما يدلّ ذلك على أنه تعالى يهدي ويضل وأن ذلك من خلقه ؟

وجوابنا : أن المراد : فمنهم من هدى الله إلى الثواب لتمسكه بالعبادة، ومنهم من حقّت عليه الضلالة عن الثواب إلى العقاب بمعصيته، وهذا كقوله : ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلاَلٍ وَسُعُرٍ ﴾ [القمر:٤٧] فسمّى نفس العقاب ضلالاً كما سمّى نفس الثواب هدى في قوله : ﴿ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ [محمد:٤-٥] والهدى بعد القتل لا يكون إلا بالإثابة، ولذلك قال بعده : ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ ﴾ [النحل:٣٧] فنبّه بذلك على ما ذكرنا، ويحتمل أن يريد بالهدى زيادة البصيرة، فيفعله بمن قبل وأطاع عنده دون من علم أنه لا يقبل، كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى ﴾ [محمد:١٧] .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً ﴾ [النحل:٦٨] كيف يصح أنه يوحي إلى ما لا يعقل وعندكم أنه تعالى إنما يوحي إلى الأنبياء ؟

وجوابنا : أن المراد بذلك : ألهمها هذه الأمور وخلق فيها العلم بهذه الأشياء ولم يرد بذلك الوحي الذي يكون بإنزال الملائكة، وكل أمر يلقى إلى الغير على وجه الإخفاء والاستسرار يوصف بأنه وحي، فلما كان ما ألهم جل وعز النحل على هذا الحد جاز أن يقول أوحى إليها، ونبه بذلك على عجيب أمر النحل فيما تتعاطاه من هذا الطعام الذي هو أشرف الأطعمة، وكيف تلتقط ذلك من الشجر المختلف حتى يحصل منه هذا الطعام، وكيف تتولى مكان ذلك وكيف ترتبه، ومتى تأمل العاقل ذلك عرف به من عجيب نعم الله تعالى ما لا يكاد يوجد في سائر الحيوان .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ** ﴾[النحل:٧٩] أما يدل ذلك على أنه تعالى يخلق فيها الطيران؟

وجوابنا : أنه تعالى لما جعل في الجو الهواء المتكاثف الذي يصح من الطير أن يطير فيه ويتوقف عليه جاز أن يضيفه إلى نفسه بأنه سخرها لما فعل ما لولاه لم تثبت في الجو لأنه تعالى جعل ذلك الهواء اللطيف بمنزلة الماء الذي يسبح فيه، وهذا هو وجه الكلام .

ثم إنه تعالى بعد ذلك رغب في عبادة الله تعالى بأقوى وجوه الترغيب فقال : ﴿ **مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ** ﴾ [النحل:٩٦] فنبه بذلك على أن ما عندنا له نهاية وآخر، وأن الذي يدوم من النعم هو ما يجازي جل وعز عباده المطيعين به، فرغب بذلك في فعل ما يؤدي إلى هذه النعم الباقية، ولذلك قال بعده : ﴿ **وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [النحل:٩٦] .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ** ﴾ [النحل:٩٨] كيف يصح ذلك والاستعاذة تتقدم قراءة القرآن لا أنها تتأخر عنه ؟

وجوابنا : أن المراد : فإذا عزمت على قراءة القرآن وهممت فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم، وهذا كقوله : ﴿ **إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ** ﴾ [المائدة:٦]

والمراد : إذا أردتم ذلك، ومثل ذلك يستعمل في اللغة بقول القائل لغيره : إذا سافرت فاستعد لسفرك، يريد : إذا هممت بذلك، وقوله تعالى من بعد : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [النحل:٩٩] يدل على أن سلطان الشيطان ليس إلا بالوسوسة فقط، فمن يَقْبَلْ منه يوصف بأن له عليه سلطاناً دون من لا يقبل، ولذلك قال : ﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ ﴾ [النحل:١٠٠] .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ ﴾ [النحل:١٠١] كيف يصح أن يفعل تعالى ما يدعوهم الى تكذيبه وذلك مفسدة ؟

وجوابنا : أنه تعالى ذكر ما يقولون عند إبدال آية مكان آية ولم يذكر أنه السبب في هذا القول، بل كانوا في تكذيب الرسول على طريقتهم، ومثل ذلك جائز عندنا ولا يكون مفسدة وإنما يكون مفسدة متى وقعت المعصية عنده ولولاه كانت لا تقع .

وبيّن تعالى ما به يدفع عنهم هذه الشبهة فقال : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [النحل:١٠٢] وإنما أحالهم على علمهم برتبة القرآن في الفصاحة، ولولا ذلك لقالوا له : ومن أين روح القدس أنزله ؟ فبطل بذلك ما أوردوه .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لاَ يَهْدِيهِمُ اللَّهُ ﴾[النحل:١٠٤] أليس هذا يدل على أن من لم يؤمن لم يهده الله كما يقوله المخالف ؟

وجوابنا : أن المراد : لا يهديهم إلى الجنة والثواب من حيث لم يؤمنوا، ولذلك أتبعه بقوله : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النحل:١٠٤] .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ ﴾ [النحل:١٠٦] أليس ظاهره يقتضي إباحة الكفر والكذب وذلك قبيح لا يجوز على الله تعالى ؟

وجوابنا : أن قوله ﴿ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ ﴾ [النحل:١٠٦] استثناء منقطع، ومعناه : لكن من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان، فإن قال قائل : إن السؤال عليكم في ذلك لازم لأنه كأنه قال : لكن من أكره على الكفر والكذب (والإكراه) [1] لا يحسن ذلك قيل له : إنه تعالى لم يبين ما يكره عليه وما يأتيه المكره والذي يكره عليه هو غير الذي يأتيه المكره لأن المكره إنما يكرهه على الكفر والكذب، والذي ينبغي أن يأتيه المكره هو ما أباحه الله تعالى له من التعريض، فكأنه يقول : إن لم تقل إن الله ثالث ثلاثة قتلتك، فيقول هو عند الإكراه ذلك على وجه الحكاية أو على وجه دفع الضرر من غير أن يقصد الخبر فيحسن منه ذلك عند الإكراه .

فأما نفس الكذب فلا يحسن من العاقل على وجه وفي العلماء من يقول : إذا كذب فالإثم مرفوع عنه وإن كان قبيحاً لمكان الإكراه، والذي قدمناه هو الصحيح ولذلك قال تعالى بعده : ﴿ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ ﴾[النحل:١٠٦] فمدحه ثم ذمه بقوله : ﴿ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللّهِ ﴾ [النحل:١٠٦] إذا كانوا مختارين والإكراه زائل، وقوله تعالى : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ﴾ [النحل:١٠٧] يدل على قدرتهم على الطاعة والمعصية فصحّ بذلك أن يؤثروا أحد الأمرين على الآخر لأن قوله : ﴿ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ [النحل:١٠٧] المراد به : آثروا ما يشتهونه من الباطل، وقوله : ﴿ عَلَى الآخِرَةِ ﴾ [النحل:١٠٧] المراد به على ما يؤدي إلى عمارة الآخرة من الحق، ثم قال تعالى : ﴿ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [النحل:١٠٧] مع علمنا بأنه قد بين لهم ودلهم على ما يلزمهم ولولا ذلك لما كفروا يدل على أنه أراد بما نفاه الهدى إلى الثواب والجنة على ما بيّناه من قبل .

ثم بين تعالى حال الكافرين بأنه طبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم والمراد به تشبيه حالهم بحال من هذا صفته ولولا ذلك لم يكن ليذمهم، ولذلك قال بعده : ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [النحل:١٠٨] ومن يمنعه الله من هذه الأفعال لا يسمى غافلاً ثم حقق ذلك بقوله : ﴿ لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [النحل:١٠٩] وقوله

---

(١) في النسخة المخطوطة : وبالإكراه . ا هـ . مصححه .

تعالى من بعد : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل:١١٠] يدخل في جملته من أُكره على الكفر بمكة حتى صبر وعرّض ثم تخلص بالهجرة .

وذلك يبين أن كِلاَ الأمرين يحسن من المكره وأن الأفضل أن يصبر على ما يخوف به ولا يدخل على طريق الإباحة .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾ [النحل:١١١] أليس ذلك يدل على إثبات نفسين لنا وذلك لا يصح عندكم ؟

وجوابنا : أن المراد بالنفس غير المكلف، فكأنه قال : يوم يأتي كل مكلف تجادل عنه نفسه، وهذا أحد ما يدل على صحة القول بالعدل، لأنه لو لم يكن له فعل وكان الله تعالى يفعل فيه إن يشاء الكفر وإن يشاء الإيمان لم يكن للمجادلة وجه، ثم قال تعالى بعده : ﴿ وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾[النحل:١١١] والمراد جزاء ما عملت لأن نفس عملها وقد تقضي لا يجوز أن توفاه، فليس إلا ما ذكرناه، ولذلك قال بعده ﴿ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُون ﴾ [النحل:١١١] والظلم إنما يصح في المجازاة لا في نفس العمل .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾ [النحل:١١٢] بعد ذكر كفرهم أليس ذلك يدل على أنه تعالى يعاقب في الدنيا الكفار وعندكم أن ما يلحقهم من فقر ومرض لا يكون عقاباً ؟

وجوابنا : أنه يحتمل أن الصلاح عند كفرهم ما يفعله بهم من جوع وخوف لأن ذلك عقوبة كما تأولنا عليه قوله تعالى : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ ﴾ [النساء:١٦٠] .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى :﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ﴾ [النحل:١١٩] أليس الفاعل مع الجهالة معذوراً فيما يأتيه ؟ فكيف أوجب الغفران بالتوبة من ذلك ؟

وجوابنا : أنه قد يقال ذلك فيمن دخلته الشبهة فيعمل السوء عندها فلا يكون معذوراً، والأصل في الجهالة أنه موضع الذم .

[**مسألة**] وربما قيل في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ﴾ [النحل:١٢٣] أليس ذلك يوجب أنه متعبد بشرائع إبراهيم ﷺ وذلك بخلاف قولكم ؟

وجوابنا : أنه إذا كان يتبع ما يعرفه من شرائعه فذلك جائز عندنا، وإنما ننكر كونه ﷺ متعبداً بشرائع من تقدم على معنى أنه عرف ما دعوا إليه فتمسك بذلك من دون أمر مبتدأ من قبله تعالى أوحى به إليه ثم أوجب تعالى بقوله : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل:١٢٥] على رسوله ﷺ أن يدعو إلى توحيد الله وعدله وإلى سائر ما يكون ديناً وحقاً . وبين له كيف يدعو : وذلك واجب على غير الرسول ﷺ أن يفعله بمن يجهل الدين، كما قال تعالى: ﴿ قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً ﴾ [التحريم:٦] وبين هذا بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل:١٢٥] على أن من أقدم في باب الدين على مالا يحل فهو مؤاخذ على ذلك . ودل به على أن الضلال والاهتداء من قبل العبد، وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ﴾ [النحل:١٢٦] وهو مجاز لأن ما يفعله العبد لا يكون عقاباً في الحقيقة، فهو كقوله تعالى : ﴿ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة:١٩٤]، ثم بين تعالى أن الصبر على ذلك والأخذ بالعفو خير من الانتقام، وبين أن صبره ﷺ يكون بالله تعالى بقوله : ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ ﴾ [النحل:١٢٧] فدل بذلك على أن الصبر وسائر الطاعات إنما تقع بألطافه وتيسيره .

وبيّن بقوله تعالى من بعد : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل:١٢٨] أنه تعالى يخص بالغفران والرحمة من يوصف بأنه متق ومحسن، وذلك يدل على قولنا في الوعيد .

سورة الإسراء

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ [الإسراء:١] كيف يصح قطع هذه المسافة في هذه الأوقات القصيرة ؟ وما فائدة ذلك ويصحّ منه تعالى أن يريه الآيات من دون ذلك، وإن كان المراد أنه عُرِجَ به إلى السماء كما رُوِيَ في الخبر فذلك ممكن من المدينة ؟

وجوابنا : أن ذلك من معجزاته ﷺ ولا ننكر في يسير من الأوقات ذلك، كما جعل الله تعالى معجزة سليمان الريح بقوله تعالى : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴾ [سبأ:١٢] وإذا كان الصلاح أن يريه الآيات التي ببيت المقدس فلابد من أن يسري به إلى هناك . وما رُوِيَ في خبر المعراج ففيه ما يجوز أن يصحّ وفيه ما لا يصحّ كما ذكر فيه أنه تعالى في مكانه وأنه ﷺ كان يذهب إليه ويعود ـ تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً .

وقوله تعالى من بعد في كتاب موسى: ﴿ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾[الإسراء:٢] يدل على أن الهدى هو الدلالة والبيان لا نفس الإيمان كما يقوله المجبرة . وقوله تعالى من بعد : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ﴾ [الإسراء:٤] فالمراد به الإعلام كقوله تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ ﴾[الحجر:٦٦] ولذلك أضاف الفساد إليهم بقوله تعالى : ﴿ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ﴾[الإسراء:٤] وقوله تعالى : ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ [الإسراء:٧] يدل على قدرتهم على الأمرين وأنهم إذا أساءوا فمن جهتهم، وبيّن تعالى بقوله : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء:٩] أن الواجب على من يتلوه أن يتدبر ذلك فيكون داعية له إلى التمسك بما هو أقوم وصارف عن طريقه من لا يؤمن بالآخرة .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ﴾[الإسراء:١٢] كيف يصح ذلك ومعلوم أن كون آية النهار مبصرة دون الليل لا صحة له مع وجود القمر؟

وجوابنا : أن ذلك يدل على أنه تعالى يحرك الشمس في سمائها فإذا كانت بحيث يصحّ أن تُرى كان نهاراً، وإذا كانت بخلافه كان ليلاً، وأن ذلك لا يكون بالطبع ولا بغيره على ما ذهب إليه بعض الملحدة، وذلك من عظيم نعم الله تعالى كما قال : ﴿ لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ [الإسراء:١٢] .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ﴾ [الإسراء:١٣] إن ذلك لا يعرف في اللغة ؛ لأنه لا يقال فيمن له الحق أو عليه أنه طائره في عنقه .

وجوابنا : أن كتاب الله تعالى وصف بأنه عربي فما يوجد فيه يجب أن يعلم أنه لغة إما مجاز وإما حقيقة، وإذا كنا نقبل ذلك متى ورد به شعر منظوم أو كلام منثور (فلأن) [1] يلزم ذلك لما ذكرنا أولى، والمراد : ألزمناه جزاء عمله وما يستحقه، وذلك من فصيح الكلام، وقد يقال فيما يخرج من سبب وحظ : خرج لفلان الطائر بكذا، فلا وجه لما قالوه، والوجه فيه ظاهر، لأن الطائر يلزم المرء لا بحسب اختياره، وربما يجتهد في دفعه فلا يصح، فجعل تعالى ما يستحقه على ذنوبه بهذه المنزلة، ولذلك قال تعالى : ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً ﴾ [الإسراء:١٣] فبين أن المطوي المكتوم الذي يمكن المرء إصلاحه بالتوبة يصير في الآخرة ظاهراً، ولذلك قال تعالى بعده : ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾ [الإسراء:١٤] .

قال الحسن البصري لقد عدَل عليك من جعلك حسيب نفسك، فكل ذلك زجر عن المعاصي، وبين بقوله تعالى : ﴿ مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ [الإسراء:١٥] أن الاهتداء بالإيمان والضلال بالكفر من قبل العبد، وحقق ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ [الإسراء:١٥] وأن أحداً لا يؤاخذ بما يفعله غيره، أكدّ ذلك بقوله تعالى ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء:١٥] فإذا كان

---

(١) في النسخة المخطوطة : (فبأن) .

تعالى لا يعذب حتى يقيم الحجة بالرسل وبالبينات فكيف يجوز أن يعذب المرءَ على أمرٍ لم يقدر عليه ؟ وكيف يجوز أن يعذب الطفل بذنب أبيه وهو من لا يقدر ولا يعرف الخير من الشر ؟ وكل ذلك يبطل قول هؤلاء المجبرة .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا ﴾ [الإسراء:١٧] أليس ذلك يدل على أنه أراد منهم ذلك الفسق ؟

وجوابنا : أنه تعالى لم يذكر ما أمرهم به، ومعلوم أنه لم يأمرهم بالفسق بل أمرهم بخلافه، فكأنه قال تعالى : ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾ [الإسراء:١٧] بالطاعة ﴿ فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ ﴾ [الإسراء:١٧] أي الوعيد والهلاك المعجل، ولذلك قال بعده : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ﴾ [الإسراء:١٧] وقدُ قرئ : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَّرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾ [الإسراء:١٦] فتأويله : أمرناهم بمنعهم عن المعاصي ففسقوا فيها، وقد قيل : إن معنى قوله : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً ﴾ [الإسراء:١٦] إرادة الطاعة منهم والعبادة دون الهلاك، فإن ذلك قد يستعمل في اللغة على هذا الوجه، فقد يقال : إذا أراد العليل الهلاك تعاطى التخليط في المأكل، لا أنه في الحقيقة يريد الهلاك، وإن أراد التاجر أن تأتيه البضائع من كل جهة فعل كيت وكيت، لا أنه يريد ذلك في الحقيقة، وما قدمناه أولاً أقرب إلى المراد .

والذي يحكى من القراءة الثانية وهو قوله تعالى : ﴿ أَمَّرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾ [الإسراء:١٦] فالمراد به يقرب مما قدمناه ؛ إذ المراد : كثرناهم ليطيعوا ففسقوا فيها، ولذلك قال بعده ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ﴾ [الإسراء:١٧] وكل ذلك ترغيب في الطاعة وتخويف من خلافها .

وقوله تعالى من بعد : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ ﴾ [الإسراء:١٨] دلالة على أنه يمكن العبد من الطاعة والمعصية، فإذا أراد العاجلة وما يتصل بالهوى والشهوة لم يمنعه وإن كان يزجره عن ذلك، وقوى هذا الزجر بقوله : ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً ﴾[الإسراء:١٨] ثم قال تعالى :

﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ ﴾ [الإسراء:١٩] يعني الفعل الذي يؤدي إلى الثواب في الآخرة ﴿ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً ﴾ [الإسراء:١٩] وإذا وصف تعالى سعي العبد بأنه مشكور فقد عظم موقعه .

ثم بيّن أنه لأجل المعصية لا يمنع من الإنعام المعجل فقال : ﴿ كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً ﴾ [الإسراء:٢٠] فإن عطاء المعجل تفضل وقد تكفل تعالى بهذا التفضل للعاصي وللمطيع، وإنما يخص المؤمن بالثواب لأنه مما لا يحسن أن يفعل إلا بمن يستحقه كما لا يحسن منا الإعظام إلا لمن يستحق وإن حسن منا الهبات لمن يستحق ولمن لا يستحق .

ثم بين أنه فضل بعضهم على بعض وأن الفضل العظيم هو الفضل في الآخرة فقال تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء:٢١] وبين تعالى في قوله : ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء:٢٣] وقضاؤه لا يكون إلا حقاً، وأن المراد بذلك الإلزام، وبين في الآيات جل جلاله جملة مما إذا تمسك بها المرء عظمت منزلته إلى قوله : ﴿ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً ﴾ [الإسراء:٣٨] فدل بذلك على أنه كاره للسيئات لا كما يقوله كثير من العامة أنه يريد ذلك ويشاؤه، كيف يجوز ذلك مع شدة نهيه عنها وزجره وتخويفه ووعيده ؟

وذكر تعالى في هذه الآيات من الآداب والأحكام نحو عشرين خصلة إذا تدبرها القارئ عظم نفعه بها، وفي جملتها ما يلزم في حق الأبوين وما يجب أن يتعاطاه في تدبير النفقات، وما ينبغي أن يستعمله في حق الأولاد واليتامى، وبَسْط ذلك يطول . **فإن قيل** : يقول تعالى : ﴿ وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ ﴾ [الإسراء:٢٩] وذلك مما لا يقع من أحد فكيف نهى عنه ؟ **قيل له** : ليس المراد بذلك ما يقتضيه ظاهره، بل المراد أن لا يضيق على نفسه وعلى من تلزمه نفقته، وهذا من أفصح الكلام في وصف البخل، ولذلك قال تعالى بعده : ﴿ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ [الإسراء:٢٩] منع بذلك من التبذير، ثم نبه على ما يقتضي ذلك من الحسرة فيما بعد فقال : ﴿ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً ﴾ [الإسراء:٢٩] .

ثم بين تكفله تعالى بالرزق فقال : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ [الإسراء:٣٠] يعني بحسب المصالح، وبعث النبي ﷺ على تدبر هذه الآيات بقوله تعالى من بعد : ﴿ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ﴾ [الإسراء:٣٩] والمرء يلزمه أن ينظر ويتدبر في وصية الله للصالحين .

[**مسألة**] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾[الإسراء:٤٤] كيف يصح ذلك من الجمادات؟

وجوابنا : أن من تدبر ذلك عرف المراد، فإنه تعالى قال من قبل : ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً ﴾ [الإسراء:٤٣] يعني اتخاذ قوم آلهة سواه، ثم أتبعه بذكر الدلائل على التوحيد فقال : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ ﴾ [الإسراء:٤٤] يعني أنها تدل على توحيده وتنزيهه عن الأشباه، فالمراد بتسبيح السموات والأرض ومن فيهن ما ذكرناه لا أن المراد به القول الذي يسمّى تسبيحاً، لأن دلالة هذه الأمور على توحيد الله تعالى أوكد من دلالة القول، فهذا معناه .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء:٤٤] يجب أن يحمل على ما ذكرناه ؛ لأنه لا شيء إلا وله حظ في الدلالة على توحيد الله، وكذلك قال تعالى : ﴿ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء:٤٤] لأن ذلك إنما يعرفه من ينظر ويتدبر، ومَنْ هذا حاله قليل في الناس .

[**مسألة**] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً ﴾ [الإسراء:٤٥] كيف يصح أن يمنعهم من سماع القرآن الذي فيه الشفاء والبيان ؟

وجوابنا : أن المراد بذلك مَنْ المعلومُ أنه لا ينتفع، بل يظهر منه الأذى للرسول ولذلك قال تعالى : ﴿ أَكِنَّةً ﴾ [الإسراء:٤٦] والمراد أنهم لشدة انصرافهم عن الانتفاع به صار قلبهم بهذا الوصف وصاروا كالصم، ولذلك قال تعالى : ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ ﴾ [الإسراء:٤٦-٤٧] فبين أنهم لا ينتفعون ويؤذون، ولذلك قال من بعد : ﴿ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً ﴾[الإسراء:٤٧] ثم قال : ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا﴾[الإسراء:٤٨].

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ فَضَلُّوا فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء:٤٨] أما يدل ذلك على أنهم لا يقدرون على خلاف هذا الضلال ؟

وجوابنا : أنهم لا سبيل لهم بالطعن في نبوّتك إلى تحقيق ما نسبوه إليك من سحر وغيره، وليس المراد أنهم لا يقدرون على الطاعة .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ ﴾ [الإسراء:٥٩] كيف يجوز في تكذيبهم من قبل أن يكون مانعاً ؟

وجوابنا : أن المراد الآيات التي لا ينتفع القوم بإظهارها، فقد كانوا يطلبون عين المعجزات الظاهرة على الأنبياء كقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً ﴾[الإسراء:٩٠] إلى غير ذلك، فبين تعالى أن جرى العادة بتكذيب الأمم بمثل ذلك يمنع من أن يفعله تعالى، ويحتمل أن يريد بذلك إهلاك المكذبين الذين لا يؤمنون كما جرت به عادته تعالى فيمن يكذب الأنبياء من الغرق وغيره من ضروب الإهلاك .

ولذلك قال بعده : ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً ﴾ [الإسراء:٥٩] فأما قوله تعالى : ﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً ﴾ [الإسراء:٥٠] فالأمر فيه ظاهر أنه ليس بأمر، وكذلك قوله : ﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ ﴾ [الإسراء:٦٤] أنه تهديد وزجر، فليس لأحد أن يسأل عن ذلك، ولذلك قال بعده : ﴿ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً ﴾ [الإسراء:٦٤] .

وبيّن من بعده أنه لا سلطان للشيطان إلا من جهة الوسوسة الضعيفة فقال : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ [الإسراء:٦٥] ، ويحتمل أنه يريد تعالى بذلك أهل الإيمان والصلاح من حيث لا تؤثر فيهم وسوسة الشيطان .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى ﴾ [الإسراء:٧٢] كيف يصح ذلك مع علمنا بخلافه ؟

وجوابنا : أن المراد من ذهل عن تمييز الخير والشر في الدنيا فهو بأن يذهل عن ذلك في الآخرة أولى، وليس المراد إثبات العمى في الحقيقة، بل هو ترغيب في التمسك بالطاعة، وبين تعالى بعد ذلك ألطافه التي خص بها الرسول ﷺ بقوله تعالى : ﴿ **وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ** ﴾ [الإسراء:٧٣] وبقوله : ﴿ **وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً** ﴾ [الإسراء:٧٤] وإنما كان ﷺ يمنع من هذه الأمور لما جرت به عادة الله تعالى من صرفه عنها .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا** ﴾ [الإسراء:٧٦] كيف يصح منهم إخراجه من الأرض ؟

وجوابنا : أن المراد الأرض المعهودة فهذه الألف واللام دخلتا على معهود، فبيّن تعالى ما كانوا عليه من شدة المعاداة حتّى همّوا بإخراجه من الأرض المعروفة به ﷺ وبين أن ذلك لو تم لما لبثوا إلا قليلا على سنة الله تعالى فيمن تقدم .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً * إِذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ** ﴾ [الإسراء:٧٤-٧٥] ما فائدة إضافة الضعف إلى الحياة وإلى الممات ؟

وجوابنا : أن ذلك وعيد بالعذاب المعجل في حال الحياة في الدنيا والمؤخر إلى الآخرة فأضاف ذلك العذاب إلى الممات لما كان لا يموت إلا بعده .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ** ﴾ [الإسراء:٥٢] ما الفائدة في ذكر الحمد في استجابتهم يوم القيامة ؟

وجوابنا : أن المراد إنكم حامدون لله تعالى على نعمه المتقدمة وإن أمر بكم إلى النار وإلى المحاسبة الشديدة، ويحتمل : ﴿ **فَتَسْتَجِيبُونَ** ﴾ [الإسراء:٥٢] استجابة حامد شاكر لا يمكن من جهتكم الامتناع .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً** ﴾ [الإسراء:٧٨] كيف يصح أن يخصه بأنه مشهود والله تعالى شاهد لكل شيء ؟ وكيف يضيف القرآن إلى الفجر ؟

وجوابنا : أن المراد : أقم القرآنَ الفجرَ فنبه بذلك على وجوب القراءة في الصلاة ، وبين ما لهذه الصلاة من الخصوصية بأنه يشهدها ملائكة الليل والنهار، وقوله تعالى من بعد : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً ﴾ [الإسراء:٧٩] يدل على أن موقع هذا التهجد عند الله عظيم وإن كان نفلاً، ومعنى «عسى» هو وقوع ذلك لا بمعنى الشك، وعلى هذا الوجه قال المتقدمون في عسى ولعل إنهما من الله واجبان .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء:٨٢] أليس يوجب ذلك أن بعضه شفاء ورحمة دون بعض ؟

وجوابنا : أن المراد أنه ينزل ما يدعوهم إلى التمسك بالأيمان ولا يجب ذلك في كل القرآن، وبعد فإن ذكر بعضه بهذا الوصف لا يدل على أن سائره بخلافه .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ [الإسراء:٨٥] كيف يصح أن يكون هذا جوابه ؟

وجوابنا : أن المراد أنهم سألوه عن الروح ولماذا يحتاج الحيّ منا إليها، فبيّن تعالى أن ذلك ممّا لا يعلمه إلا الله تعالى، ولم يسألوه عن نفس الروح ما هو وقد قيل : إنهم سألوه عن جبريل ﷺ في وقت نزوله بالوحي دون آخر وذلك مما لا حاجة بهم إلى معرفته، ولذلك قال بعده :﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾[الإسراء:٨٥].

ثم بين تعالى عظم شأن القرآن بقوله : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ [الإسراء:٨٨] فنبه بذلك على أن له من الرتبة في الفصاحة ما لا تدركه العباد انفردوا أو اجتمعوا ولو كانوا يقدرون عليه وإنما صرفوا عنه لم يكن لهذا القول معنى، وبين تعالى بقوله : ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً ﴾ [الإسراء:٩٠] أنه تعالى لا يجعل معجزات أنبيائه ما يوافق شهوة القوم، وإنما يظهر من ذلك ما يعلمه أصلح، فلذلك قال وقد طلبوا تفجيراً لينبوع وطلبوا البيت من الزخرف، وأن يرقى في السماء وأن

ينزّل عليهم الكتب والجنة من النخل والعنب، وإسقَاط الكسف من السماء، وأن يأتي بالله والملائكة قبيلا بالكلمة الواحدة ما كان جواباً لهم وهو قوله تعالى : ﴿ **قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً** ﴾ [الإسراء:٩٣] .

والمراد أن معرفتي بالمصالح مفقودة، وأنه تعالى هو العالم بذلك . فبين أن بعثة الملك ليست لصلاح كبعثة البشر بقوله تعالى : ﴿ **قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَّسُولاً** ﴾ [الإسراء:٩٥] فبين أن قبول الشرع للبشر من البشر أقرب .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى وَجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُماً** ﴾[الإسراء:٩٧] كيف يصح ذلك وهم يسمعون في الآخرة ويتكلمون؟

وجوابنا : أنه تعالى لم يذكر إلا أنهم يحشرون كذلك لا أنهم يكونون بهذا الوصف أبداً، فلا تناقض في الآيات الواردة في ذلك .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ [الإسراء:١٠٢] كيف يجوز أن يقول لفرعون ذلك مع ادعائه أنه الإله دون الله تعالى ؟

وجوابنا : أنه لا يمتنع أن يجحد ذلك وإن كان يعلمه طالباً لثبات ملكه وقد اتفق منه أشياء تدل على ذلك نحو قوله : ﴿ **يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى** ﴾ [غافر:٣٦-٣٧] وغير ذلك، وإنما يصح أن يسأل عن ذلك على إحدى القراءتين، فأما إذا قرئ : علمت فإنما المراد موسى وقد عنى نفسه بذلك .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ** ﴾ [الإسراء:١١٠] كيف يصح ذلك والمدعو هو الله تعالى ؟

وجوابنا : أن المراد الدعاء بذكر الله تعالى أو بذكر الرحمن، فنبه تعالى على أنه متى دعا داع بأي اسم من أسمائه الحسنى جاز، ولذلك قال تعالى : ﴿ **أَياًّ مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى** ﴾ [الإسراء:١١٠] .

سورة الكهف

[**مسألة**] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجاً * قَيِّماً** ﴾ [الكهف:١-٢] كيف يصح أن ينفي عنه أن يكون قيماً كما نفى عنه العوج ؟

وجوابنا : أنه لم يدخل في العوج، وصار قوله (**قيماً**) من صفات الكتاب، كما أن قوله (**لِيُنذِرَ**) من صفات الكتاب، فكأنه قال : ﴿ **وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجاً** ﴾ [الكهف:١] وجعله ﴿ **قَيِّماً لِّيُنذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِّن لَّدُنْهُ** ﴾ [الكهف:٢] وقد قيل : إنه مؤخر في الذكر وهو مقدم، فكأنه قال : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الكِتَابَ قيماً ولم يجعل له عوجاً، وذلك في المعنى يؤدي إلى ما قدمناه في الفائدة .

[**مسألة**] وربما قيل في قوله تعالى:﴿**إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا**﴾[الكهف:٧] كيف يصح ذلك وعلى الأرض ما لا يصح كونه زينة للأرض كالحشرات وغيرها؟

وجوابنا : أن المراد : ما على الأرض من شجر وزرع ونبات دون غيره، لأن قوله : زينة لها يدل على ذلك، ولأنه عد ذلك في جملة النعم يدل عليه، ولذلك قال : بعده ﴿ **لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً** ﴾ [الكهف:٧] وبين بعده بقوله : ﴿ **وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً** ﴾[الكهف:٨] أنه يجعل الأرض عند الحشر بخلاف ما هي عليه الآن.

[**مسألة**] وربما قيل في قوله تعالى:﴿ **أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الكَهْفِ وَالرَّقِيمِ** ﴾ [الكهف:٩] كيف يصح أن يبتدئه بذلك وهو لم يعرف شيئاً من أحوالهم ؟

وجوابنا : أن مثل ذلك قد يقال في اللغة ابتداء لتوكيد ما يورد من الحديث وعلى هذا الوجه قال تعالى : ﴿ **أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ** ﴾ [الفرقان:٤٤] وقد قيل : إنه ﷺ سئل عن ذلك فصح أن يعلمه الله تعالى به على هذا الوجه من القول .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ [الكهف:١٨] كيف يصح ذلك ومعلوم أن صفة الراقد خلاف صفة المستيقظ فيما يشاهد؟

وجوابنا أنهم كانوا وهم رقود بصفة المستيقظ في فتح[1] العيون والتبسم وذلك من آيات الله تعالى العجيبة وظاهر ذلك أنهم بقوا تلك المسافة الطويلة رقوداً وذلك من آياته العجيبة وان كان في الناس من تأوّل الآية على أنهم كانوا موتى لاجل قوله تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ ﴾ [الكهف:١٩] ولا يقال ذلك إلا فيمن أحياه الله تعالى بعد الممات، والاقرب الاول لانه اذا جعلهم راقدين هذه المدة الطويلة صح أن يقول بعده ﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ ﴾ [الكهف:١٩] .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى ﴿ وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً * إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الكهف:٢٣-٢٤] أليس ذلك يدل على أنه تعالى يشاء كل أمر واقع قبيح وحسن ؟

وجوابنا : أن ذلك تأديب لرسول الله ﷺ ولأمته في أن لا يقع منهم القطع على ما ذكر أنهم يخبرون به من الافعال لان القاطع على ذلك لا يأمن أن يكون كاذباً فينبغي أن يقيده بالمشيئة لأنها تخرج الخبر من أن يكون مقطوعاً به، ولولا صحة ذلك لوجب أن يكون ﷺ لا يخبر بأمر المستقبل إلاّ مع العلم بأن الله تعالى قد شاءه وذلك لا يصح .

وقد كان ﷺ يعزم على المباح كما يعزم على ما هو عبادة والله تعالى لا يشاء إلا الطاعة ولولا صحة ذلك لَحَسُنَ مِنْ أَحَدِنا كما يقول : تقول الصدق غداً إن شاء الله، أو أن يقول أسرق وأزني إن شاء الله وذلك محظور على لسان الأمة، فالمراد إذاً تعليق الكلام بالمشيئة ليخرج من أن يكون خبراً قاطعاً لا أن تعلقه به على وجه الشرط .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا ﴾ [الكهف:٢٨] أليس أضاف جل وعز ذلك إلى نفسه ؟

---

(١) لفظة فتح ساقطة من الأصل المطبوع، وفى النسخة المخطوطة:قبح، والصواب ما أثبته . ا هـ . مصححه .

وجوابنا : أن المراد : من وجدناه غافلاً، ولولا ذلك لما صح أن يقول تعالى من بعد : ﴿ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ [الكهف:٢٨] وأن يذمه على ذلك، وقد قيل : إن المراد : جعلنا قلبه خالياً عن الكتابة التي ذكر الله تعالى أنه يَسِمُ بها قلوبَ المؤمنين في قوله : ﴿ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ ﴾ [المجادلة:٢٢] فلما أخلى قلبه عن ذلك وصفه بهذا الوصف .

فأما قوله تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف:٢٩] فهو تهديد، ولذلك قال بعده :﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف:٢٩] وذكر الحسن بن أبي الحسن ـ رحمه الله ـ في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ [الكهف:٣٩] أن ذلك يدل على أنه تعالى لايشاء إلا الطاعة، فكأنه قال : قلت القول الذي يشاؤه الله دون ما أوردته من قولك : ﴿ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾ [الكهف:٣٥-٣٦] وبين تعالى بقوله : ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا ﴾ [الكهف:٤٢] كيف يتحسر على ما أنفقه وأمل فيه المنافع إذا خاب أمله، وجعله ذلك لطفاً في المحافظة على طاعة الله تعالى على ما يستحقه من ثواب الآخرة .

ثم ضرب تعالى مثل الحياة الدنيا فقال : ﴿ كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ﴾ [الكهف:٤٥] وبعث بذلك المكلف على الحرص على عمل الآخرة من حيث يدوم نعيمها، وبين تعالى أن المال والبنين زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات أولى بتكليف المرء لها .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفّاً ﴾ [الكهف:٤٨] كيف يصح في جميعهم أن يكونوا كذلك في حال المحاسبة ؟

وجوابنا : أنه ليس المراد أنهم يعرضون صفاً واحداً، بل المراد أنهم يعرضون من دون اختلال واختلاط فيشاهد بعضهم بعضاً، فمن ظهر أنه من أهل الخير يكون سروره بمعرفة الناس بحاله أعظم لوقوف الخلائق على صورة أمره، ومن هو من أهل النار يعظم غمه، وهو معنى قوله : ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ [الطارق:٩] وبين تعالى بعده

التخويف الشديد من المعاصي بقوله : ﴿ وَوُضِعَ الكِتَابُ فَتَرَى المُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا ﴾ [الكهف:٤٩] وذلك يدل على أن المرء يؤاخذ بالصغائر كما يؤاخذ بالكبائر إذا مات على غير توبة، ومعنى : ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً ﴾ [الكهف:٤٩] : ثواب ما عملوا حاضرًا ؛ لأن عملهم قد فنى في الحقيقة، وقوله من بعد : ﴿ وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾[الكهف:٤٩] يدل على أن المعاقَبَ يستحق العقوبة على ما فعله، وعلى أنه تعالى منزه عن الظلم وسائر القبائح، وقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجِنِّ ﴾ [الكهف:٥٠] يدل على أنه ليس من الملائكة، وقوله : ﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ [الكهف:٥٠] يدل على أن الفسق هو الخروج إلى عداوة الله، وقوله ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي ﴾ [الكهف:٥٠] تحذير شديد عن اتخاذه وليّاً والقرب منه، ولذلك قال : ﴿ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴾ [الكهف:٥٠] ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المُضِلِّينَ عَضُداً ﴾ [الكهف:٥١] يدل على أن المُضِل لأجل إضلاله لا يعينه تعالى ولو كان الإضلال من قبله كما يقول المجبرة لما صح ذلك، وقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ﴾ [الكهف:٥٢] يدل على أن الفعل للعبد فلذلك بكَّتَهم على اتخاذه من دون الله .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَرَأَى المُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا ﴾ [الكهف:٥٣] وصفهم بالظن وهم يعلمون ذلك في الآخرة .

وجوابنا : انه أراد بالظن العلم، ولذلك قال عقبه : ﴿ وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفاً ﴾ [الكهف:٥٣] وقد يذكر في الأمور المستقبلة الظن مع العلم لأنه من باب ما يجوز أن يقع ويجوز أن لا يقع، فمن حيث كان هذا شأن الشيء في نفسه وهذا حاله جاز أن يعبّر عنه بذلك .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا القُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ [الكهف:٥٤] كيف يصح ذلك وإنما ذَكَرَ تَعَالَى فيه بعض الأمثال ؟

وجوابنا : أن ذلك مبالغة كقوله تعالى : ﴿ **وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ** ﴾ [النمل:٢٣] ومذهب العرب في ذلك معروف، والمراد من كل مثل يحتاج العباد إليه في أمر دينهم وما هذا حالُه موجودٌ في القرآن من صفات الأمور الدنيوية وصفات الآخرة وغيرهما، وقوله تعالى : ﴿ **وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً** ﴾ [الكهف:٥٤] يدل على أنه الفاعل فيصح أن يجادل عن نفسه ولو كان كل تصرف مخلوقاً فيه لما صح ذلك .

وقوله تعالى ﴿ **وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا** ﴾ [الكهف:٥٥] من أقوى الأدلة على أن الإيمان فعلهم والامتناع منه كذلك ؛ لأنه لا يصح أن يقال للمرء : ما منعك أن تكون طويلاً صحيحاً أو مريضاً لما كان ذلك من خلق الله فيه، وقوله تعالى من بعد : ﴿ **إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى** ﴾ [الكهف:٥٥] يدل على أن الهدى هو البيان والدلالة، ويدل على أن الاهتداء بهذا الهدى من قبله، وقوله تعالى من بعد : ﴿ **وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ** ﴾ [الكهف:٥٦] يدل على أن العبد يستحق على فعله الطاعة ما يبشر به من الثواب، وعلى المعصية ما ينذر به من العقاب، ولو كان الأمر كما يقوله المجبرة في أنه عز وجل يخلق الأفعال فيهم وأن له أن يعاقب من أطاعه ويثيب من عصاه لما صح ذلك، وقوله تعالى : ﴿ **وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ** ﴾[الكهف:٥٦] لا يصح لولا أن الكفر من قبلهم، ولو كان الله هو الخالق له فيهم لكان لهم أن يقولوا: لا عيب علينا في ذلك وإن كان باطلاً لأن الله جل وعز خلقه فينا، ولما صح أن يقول تعالى : ﴿ **وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُواً** ﴾ [الكهف:٥٦] وقد منعوا من خلاف ذلك، وقوله تعالى من بعد : ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا** ﴾ [الكهف:٥٧] كيف يصح أن يبالغ تعالى في وصفه بظلم نفسه وهذا الإعراض من قبل الله تعالى، ولو شاء خلاف ذلك لما صح .

وبعد ذلك وصفهم بالأكنة والوقر لمّا لم يقبلوا ما أُمروا به على وجه المبالغة، والمراد أن ذلك ما يؤنس منهم أن يختاروه، فصاروا بمنزلة ما لا يفقه ولا يسمع ولذلك قال تعالى : ﴿ **وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً** ﴾ [الكهف:٥٧] ثم بيّن تعالى رحمته بتأخير العقاب عنهم وهذه حالتهم، فقال : ﴿ **وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ**

يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ العَذَابَ ﴾ [الكهف:٥٨]، ولذلك يوصف تعالى بأنه حليم محسن إلى من أساء كما أنه محسن إلى من أحسن فيمهل ولا يعجل لئلا يكون للعاصي حجة يتعلق بها وليصح أن يقال له : ما أوتيت فيما قدمت عليه إلا من قبل نفسك، وقوله تعالى : ﴿ بل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلاً ﴾ [الكهف:٥٨] يدل على أن وعيده تعالى حق لا يقع فيه خلف .

[مسألة] وربما قيل : كيف قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾ [الكهف:٦١] فأضاف النسيان إليهما، ثم قال تعالى من بعد : ﴿ قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا ﴾ [الكهف:٦٢] ثم قال : ﴿ فَإِنِّي نَسِيتُ الحُوتَ ﴾ [الكهف:٦٣] حاكياً عن فتاه، ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ [الكهف:٦٣] وذلك كالمتناقض ؟

وجوابنا : أنه تعالى أضاف إليهما النسيان لما بلغا مجمع بينهما، ثم أضاف ذلك إلى الفتى لما جاوزا وإذا اختلف الحالان صح، وقد يصح فيما تحمله المسافر أن أن ينسب الحال فيه إليهما لما كان لا يتم ذلك إلا بهما، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ ﴾ [الكهف:٦٣] دليلنا على أن الفعل للعبد لأنه لو كان خلقاً لله تعالى لكان قوله لو قال : وما أَنْسَانِيهُ إلاَّ الرحمنُ أولى وأصوب .

ومتى قيل : النسيان عندكم من فعل الله تعالى فكيف يصح ذلك فيه ؟

فجوابنا : أن المراد بالنسيان هنا (التقاعد)[1] والإهمال، وذلك من فعل العبد، فعلى هذا الوجه حصلت الإضافة .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾ [الكهف:٦٧] كيف قطع في ذلك وهو أمر مستقبل لا يعرفه إلا علاَّم الغيوب ؟

وجوابنا : أن ذلك من قول صاحب موسى وكان نبيّاً، فيجوز أنه تعالى عرفه ذلك، ويحتمل أنه لما كان عارفاً بأن الذي يفعله من خرق السفينة وقتل الغلام بالغ في التعجب منه مبلغاً عظيما أن ذلك مما يتعذر الصبر عن معرفة علته فقال : ﴿ لَن

---

(١) في النسخة المخطوطة : ترك التقعد . اهـ . مصححه .

تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾ [الكهف:٦٧] لما قوي ذلك في ظنه، ولذلك قال تعالى : ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً ﴾[الكهف:٦٨] وقول موسى ﷺ : ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِراً ﴾ [الكهف:٦٩] يدل على قوة عزمه على الصبر، ثم قال بعده : ﴿ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلاَ تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً ﴾ [الكهف:٧٠] ويحتمل أن يكون المراد بقوله تعالى ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾ [الكهف:٦٧] أن ذلك يثقل عليه، فقد يقال : إن فلاناً لا يقدر على سماع كلام فلان، وأراد أنه يثقل عليه .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى:﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾ [الكهف:٧٢] عند خرق السفينة وقتل الغلام، أليس ذلك يدل على أن القدرة مع الفعل فنفي استطاعته عن الصبر لما لم يصبر ؟

وجوابنا : أن المراد ليس هو الاستطاعه التي هي القدرة، بل المراد ثقل ذلك عليه لما رأى الأمر العجيب ولم يعرف تأويله ووجه الحكمة فيه، فلذلك قال تعالى : ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً ﴾ [الكهف:٧٨] فبين أنه إنما لم يستطع الصبر لأنه لم يعرف تأويله ولو عرفه كان يستطيع، وهذه الاستطاعة هي بمعنى ما يثقل على المرء ويخفف .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾[الكهف:٧٩] ثم قال تعالى : ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً ﴾ [الكهف:٧٩] فإنه إذا كان يأخذ كل سفينة فكيف يصح أن يقول ذلك ؟

وجوابنا : أن المراد : يأخذ كل سفينة صحيحة غصباً، وذلك ما يعقل من الكلام بقوله تعالى : ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ [الكهف:٧٩] لأنه نبه بذلك على أن ذلك الملك كان ينصرف عن أخذ المعيب من السفن إلى أخذ الصحيح، فأما قوله جل وعز : ﴿ وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً * فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً ﴾ [الكهف:٨٠-٨١] فإن من تدبر يعرف به حكمة الله تعالى وعدله وأنه يفعل بالمكلف أقرب الأشياء إلى طاعته، وأنه تعالى ينفي عنه ما يدعوه إلى معصيته، فأمر عز وجل صاحب موسى بقتل الغلام لما كان

لو بلغ كان بلوغه داعية كفرهما، ويدل أيضاً على أن الكفر من فعلهما لأنه لو كان خلقاً من الله تعالى لم يصح ذلك، وقوله عز وجل ، ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ [الكهف:٨٢] يدل على أن ذلك كان من أمر الله تعالى وإذنه .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ [الكهف:٨٦] كيف يصح أن يجدها تغرب في شيء من الأرض وهي إنما تغرب في مجاري غروبها ؟

فجوابنا : أنها تغرب على وجه يشاهد كذلك كما توجد الشمس تغرب في البحر إذا كان المرء على طرفه، وكما يقول المرء : إن الشمس تطلع من الأرض وتتحرك في السماء والمراد بذلك ما ذكرناه من تقدير المشاهدة، وقوله تعالى من بعد : ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُكْراً ﴾ [الكهف:٨٧] يدل على أن ذلك الظلم فعل العبد وعلى أن هذا التعذيب فعل ذي القرنين، فلذلك أضاف العذاب المتقدم إلى نفسه ثم العذاب المتأخر إلى ربه .

[مسألة] وربما قيل في قصة يأجوج ومأجوج كيف يصح وصفه لهم بأنهم ﴿ لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً ﴾ [الكهف:٩٣] ثم وصفهم بأنهم يفسدون ؟ وكيف يصح قوله تعالى : ﴿ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً ﴾ [الكهف:٩٧] وكيف يصح أن يبقوا على الزمان لا يستطيعون ذلك حيث يقول تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ﴾ [الكهف:٩٨] يعني الحشر؟

وجوابنا : أن قوله : ﴿ لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً ﴾ [الكهف:٩٣] يحتمل مع كمال عقلهم للمباينة في اللغة ويحتمل خلافه، فلا يدل على ما ذكروا، وقوله : ﴿ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ ﴾ [الكهف:٩٤] يحتمل أن يكون مع كمال العقل ويحتمل مع فقده، كما يقال فيمن لا عقل له : إنه يفسد الزرع بل يقال ذلك في البهائم، وذلك السد معمول بالصفر وما يجري مجراه فصح أن لا يمكنهم التأثير فيه لفقد الآلات ولقوة السد وإحكامه، ويحتمل أنه تعالى يصرفهم عن الشغل بذلك فيبقى إلى يوم القيامة .

واختلفوا في يأجوج ومأجوج فمنهم من قال : هم غير مكلفين، ومنهم من قال : يجوز أن يكون تكليفهم بجميع العقلي والشرعي بأن يسمعوا الأخبار ممن يقرب من السد فتتواتر عندهم، ومنهم من قال : بل تكليفهم بالعقلي دون الشرعي الذي لم تبلغ دعوته إليهم، ثم ذكر تعالى من بعد ما تعظم الفائدة به لمن تدبره فقال سبحانه : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٤] فبين تعالى أن أعمال من لا يحفظ عمله فيفسدها بالكفر والفسق تكون إلى خسار وتبار وتصير كالحسرة في الآخرة، فلذلك قال : ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ ﴾ [الكهف:١٠٤] والمراد : ذهب هدراً، ولذلك قال آخراً : ﴿ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ وَزْناً ﴾ [الكهف:١٠٥] فنبه على أن كل من حبط عمله يكون حكم سعيه في الخيرات هذا الحكم .

ثم بين أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلم يحبطوا ما فعلوه ﴿ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الفِرْدَوْسِ نُزُلاً * خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴾ [الكهف:١٠٧-١٠٨] فإن مساكن الدنيا قد يبتغي المرء عنها حولا وليس كذلك الجنة، وفي قوله تعالى عز وجل : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ البَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي ﴾ [الكهف:١٠٩] ما إذا تأمله العاقل علم أن كلمات الله تعالى لا تحصر، وأنه قادر على ما لا نهاية له، ومَنْ هذا حَالُه كيف يصح أن يقال : محدث أو مخلوق ؟ !

سورة مريم

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى ﴿ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِياً ﴾ [مريم:٦] أليس يدل على أن صلاحه من قبل الله تعالى ؟

وجوابنا : أن الرضا قد يكون كذلك بأمور يفعلها الله به من كمال العقل والحزم ومن النبوة وغير ذلك، فلا يصح تعلقهم به .

[مسألة] وربما سألوا وقالوا : كيف خاف زكريا ﷺ الموالى فرغب إلى ربه أن يرزقه ولداً يرثه، من حق الأنبياء قلة الفكر في أمور الدنيا ؟

وجوابنا : أنه لم يَعْنِ وراثة المال بل عنى وراثة العلم والدين والنبوة، فأراد أن يكون ذلك في داره، ولم يذكر أيضاً ما الذي خافه من الموالي، وقد يحتمل أن يكون خاف منهم التغير إذا مات، فأحب أن يكون هناك من يقوم مقامه في النبوة حتى لا يتغيروا .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَى ﴾ [مريم:٧] ما الفائدة في ذكر الاسم واللقب والكل في ذلك سواء، وما الفائدة في قوله : ﴿ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِياً ﴾ [مريم:٧] ولو جعل له سمياً لم تتغير البشرى ؟

وجوابنا : أن من تمام نعمة الله أن يرزقه المسمى ويتولى اسمه لأن ذلك يكون في الإنعام أزيد، وكذلك إذا لم يكن له من قبل من يساويه في الاسم كان الإحسان أعظم .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكِبَرِ عِتِياً ﴾ [مريم:٨] كيف يستبعد ذلك وهو نبيٌّ وقد بشّره الله تعالى به لأجل ما ذكره ؟

وجوابنا : أن ذلك استبعاد من حيث العادة لا من حيث القدرة، وذلك يصح في الأنبياء كما يصح في غيرهم، ولو أن نبيّاً من الأنبياء بَشَّرَ مَنْ بالبادية بنهر جار لجاز أن يقال : كيف يصح ذلك في هذا المكان فيكون ؟ استبعاداً من حيث العادة لا من حيث القدرة .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً ﴾ [مريم:٩] أليس ذلك يدل على أن المعدوم ليس بشيء ؟

وجوابنا : أن المراد : ولم تك شيئاً على الوصف الذي أنت عليه من الفضل والنبوة فإذا صح أن أخلقك على هذا الوجه صح أن أرزقك ولداً مع كبرك، فلا تستبعد ذلك في القدرة وجواز مثله في العادة، وقوله تعالى : ﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾ [مريم:١٢] يدل على أن القوة قبل الفعل على ما نقول، وإلا كان لا يصح ذلك كما لا يصح ممن لا يَدَ لَهُ أن يقال : خُذ بيدك، فأما قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً ﴾ [مريم:١٢] فيدل على أن مخالفة الصبي للبالغ هو من حيث العادة لا من حيث القدرة، وقوله : ﴿ وَحَنَاناً مِّن لَّدُنَّا ﴾ [مريم:١٣] أراد الإنعام العظيم عليه بأن جعله نبياً وناصحاً وباعثاً على الخيرات، وقوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً ﴾ [مريم:١٠] لا يدل على أنه لم يكن واثقاً بما بُشِّر به على ما رُوِيَ عن بعضهم أنه شك في البشري، بل مراده بذلك التوكيد لما بشر به وأن يجعل له آية تدل على الوقت الذي يرزق فيه الولد وإن كان قد عرف بالبشارة ذلك لكنه جوّز التقديم والتأخير .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّاً ﴾ [مريم:١٨] أليس ذلك يتناقض لأنه إذا كان تقياً استغنى فيه عن التعوذ وكان الأقرب أن يقول : إنى أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إن لم تكن تقيا ؟

وجوابنا : أنها قالت هذا القول وهي لا تعرفه، فقالت أعوذ بالرحمن منك إن كنت ممن يتقيه ويخشى عذابه على وجه التخويف كقول القائل : إن كنت مؤمناً فلا تظلمني، وقوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً ﴾ [مريم:١٧] يدل على أن خلقة الملائكة مخالفة لخلقة الناس فتمثل بهذه الخلقة، ويدل على تقارب خلقتهم في البنية لخلقة البشر وإن كانت لهم آلات وعظام، ويجوز أن تنفصل وتتصل

وإنما أنزل إليها جبريل ﷺ وإن كان نزوله من المعجزات وعلماً لزكريا ﷺ فقد كان نبياً في ذلك الوقت، وقول مريم : ﴿ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِياً ﴾[مريم:٢٣] لا يدل على كراهتها لما قضاه الله فيها وفي ولدها، وإنما تمنت ذلك من حيث يعصى الناس (في أمرها) [١] لخروجه عن العادة ولما يلحقها من الخجل .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ ﴾ [مريم:٢٨] كيف يصح أن يقال لها ذلك وبينها وبين هارون أخي موسى الزمن الطويل ؟

وجوابنا : أنه ليس في الظاهر أنه هارون الذي هو أخو موسى، بل كان لها أخ يسمى بذلك وإثبات الاسم واللقب لا يدل على أن المسمى واحد، وقد قيل : كانت من ولد هارون كما يقال للرجل من قريش : يا أخا قريش .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِياً * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِياً * وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَياً ﴾ [مريم:٢٩-٣١] فكيف يصح للطفل أول ما يولد أن يتكلم بذلك وأن يكلف بالصلاة والزكاة ؟ وأي فرق بين من يجوِّز ذلك وبين من يجوِّز تكليف الموتى ؟

وجوابنا : أنه تعالى قادر على إكمال عقله وتقوية جسمه في تلك الحال وإن كان كِلاَ الأَمْرَيْنَ يحصل فينا في العادة في الوقت الطويل بالتدرج، وإذا كان كذلك وألهمه الله تعالى هذا القول صح أن يقول ما قال، وصح سائر ما وصف به نفسه، أو ليس يوجب قوله : (وأوصاني بالصلاة والزكاة) أنه في هذا الوقت خاصة ؛ لأن الوصية تتقدم وتتأخر، وإنما جعل الله معجزة عيسى ﷺ في حال ولادته لما كان في ذلك من إزالة الريب بذلك عن القلوب وبغير هذه الآية لا يكاد يزول .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [مريم:٣٥] كيف يصح في أمر محال أن يقال : ما

---

(١) في النسخة المخطوطة : لأمرها .

كان لله أن يفعله، وإنما يصح ذلك فيما يصح ويمكن، ولذلك لا يقال : ما كان لزيد وهو شاب أن يلد رجلاً شيخاً لأن ذلك يستحيل ؟

وجوابنا : أن القوم كانوا ينسبونه إلى ذلك فنفى عن نفسه على الوجه الذي كانوا يضيفونه إليه، ولذلك قال : ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ [مريم:٣٥] فنزه نفسه عن ذلك، وبين أن كل الأولاد من خلقه وأنه قادر على خلقهم فلا يجوز عليه الولادة، وقد يقال ذلك بمعنى البيان والدلالة إذا دلّ وبين أن ذلك لا يجوز عليه .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ يَا أَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ﴾ [مريم:٤٤] كيف جاز من إبراهيم عليه السلام أن يقول ذلك ولم يكن أبوه ممن يعبد الشيطان ؟

وجوابنا : أنه أراد : لا تتبعه ولا تطعه، كما روي في تفسير قوله تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة:٣١] فقال ﷺ : لم يتخذوهم أرباباً بالعبادة لكن أطاعوهم في التحليل والتحريم، ولذلك قال إبراهيم ﷺ : ﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ ﴾ [مريم:٤٢] لأنه كان يعبد الأصنام فلا يجوز أن يريد بقوله : ﴿ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ﴾ [مريم:٤٤] إلا ما ذكرنا، ولذلك قال من بعد : ﴿ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً ﴾ [مريم:٤٥] ومعنى قوله من بعد : ﴿ قَالَ سَلاَمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ﴾ [مريم:٤٧] أنه إن تاب وقبل قول إبراهيم يستغفر له ويرجو له الثواب والنجاة، لأنه لا يستغفر له وهو على إصراره على الكفر .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ [مريم:٤٩] كيف يصح ذلك وولادة إسحق كانت بعد ذلك بزمان وولادة يعقوب أبعد من ذلك ؟

وجوابنا : أنه تعالى بين أنه لما اعتزلهم لم يدعه فريداً وحيداً بل خلق له الأولاد وليس في ذلك ذكر وقت مخصوص .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِياً ﴾ [مريم:٦٢] كيف يصح ذلك وليس في الجنة ليل يتلوه نهار ؟

وجوابنا : أن المراد بذلك تقدير وقت الأكل فقدّر جل وعز بما جرت به العادة لا أن هناك نهاراً بعده ليل، أو يجوز أن يكون لهم علامات تتقدر بها هذه الأوقات على حسب أوقات الليل والنهار، **وقد قيل** : إن هناك من الحجب وغلق الأبواب ثم فتحها ورفع الحجب ما يدل على ذلك، وبيّن تعالى من صفتهم ما تشتد فيه الرغبة فقال تعالى : ﴿ **لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلاَّ سَلاماً** ﴾ [مريم:٦٢] وقال : ﴿ **تِلْكَ الجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِياً** ﴾ [مريم:٦٣] .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا** ﴾ [مريم:٦٤] ما المراد بذلك ؟

وجوابنا : أنه بيّن به أنه مالك الأفعال في الأوقات الماضي والمستقبل والدائم، وأن التقديم والتأخير سواء في أنه عالم به، ولذلك قال بعده : ﴿ **وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِياً** ﴾ [مريم:٦٤]

وربما يتعلق بعضهم بقوله : ﴿ **رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا** ﴾ [مريم:٦٥] وقال : بينهما أفعال العباد، فيجب أن يكون ربها، وذلك يدل على أنه يكون خالقها .

وجوابنا : أن ما بينهما هو الأجسام كالهواء وغيره، فلا مدخل لأفعال العباد في ذلك، وبعد فقد يقال : إنه تعالى ربنا ورب أفعالنا لما صح منه أنه يمكن منها ويمنع منها، ولذلك قال بعده : ﴿ **فَاعْبُدْهُ** ﴾ [مريم:٦٥] وذلك بين خروج العبادة وما جرى مجراها مما ذكر أولاً، ومعنى قوله : ﴿ **هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِياً** ﴾ [مريم:٦٥] أي مثيلاً ونظيراً فذكر الاسم وأراد المسمى، فليس لأحد أن يسأل عن ذلك .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِياً** ﴾ [مريم:٧١] بعد ذكر جهنم أليس يدل ذلك على أن كل من يحشر يرد النار، فكيف يصح ذلك في أهل الثواب ؟

وجوابنا : أنه بمعنى القرب منها لا بمعنى الوقوع فيها، كقوله تعالى في قصة موسى : ﴿ **وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ** ﴾ [القصص:٢٣] وهذه طريقة العرب في الورود بمعنى القرب، ولذلك قال بعده : ﴿ **ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا** ﴾ [مريم:٧٢] لأنهم إذا قربوا سلك

بأهل الثواب مسلك الجنة وأدخل أهل العقاب النار ولا بد أن يتأول على ما ذكرناه، فإنه تعالى بين أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ومن هذه حالته لا يجوز أن يلقي في النار ويظن به ذلك، وبين تعالى بعده بقوله : ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ﴾ [مريم:٧٦] أنه عز وجل يخص المهتدي بألطاف من حيث آمن واهتدى وأن ذلك يؤديه إلى الباقيات الصالحات .

وذكر قبله : ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَداً ﴾ [مريم:٧٥] أنه تعالى يبقيهم ليزولوا عن الضلالة ويفعل بالمهتدين الهدى ليثبتوا على الإيمان .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزاً ﴾ [مريم:٨٣] كيف يصح قولكم : إنه تعالى زجرهم عن الكفر بأقوى زجر وعن القبول من الشيطان وهو يقول ذلك ؟

وجوابنا : أن المراد : خلينا بين الشيطان وبينهم ولم يمنع من ذلك لما فيه من المصلحة، وعلى هذا الوجه يقال فيمن ربط الكلب على باب داره ولم يمنعه من الوثوب على من زاره : قد أرسلت كلبك على الناس، وفي قوله : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً * وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً ﴾ [مريم:٨٥-٨٦] دلالة قوية على ما تأولنا عليه قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ [مريم:٧١] .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَداً * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً ﴾ [مريم:٩٠-٩١] كيف يصح أن يعظم ذلك هذا التعظيم ثم يأمرنا بأن نقرهم عليه بأخذ الجزية ؟

وجوابنا : أن الله تعالى ما عظم إلا العظيم من القول والكفر، وقد كان يجوز أن لا يخلق من يكفر لكنه تفضل وكلف لكي يؤمنوا، وكذلك لا يمنع أن يأمرنا بأن نقرهم على وجه أقرب إلى أن يؤمنوا عند المخالطة وسماع التوحيد وعندما ينالهم من الذل بدفع الجزية .

وبين أن كل من في السموات والأرض خلقه وهو قادر على أضعافه فلا يجوز أن يتخذ منهم ولداً مع قدرته على أن يكونوا له عبيداً .

سورة طه

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ العُلَى ﴾ [طه:٤] ما الوجه في أن يقول بعده : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [طه:٥] ؟

وجوابنا : أنه تعالى عظم شأن القرآن من حيث كان تنزيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ ثم أتبعه بما هو أعظم من ذلك فقال : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [طه:٥] والمراد استولى واقتدر عليه لأن العرش من أعظم ما خلق، فنبّه على أنه إذا كان مقتدراً عليه مع عظمه وعلى السموات وعلى الأرضين ويملك ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى فاعلموا عظم محل القرآن عمّن هذا وصفه، وتمسكوا بآدابه وأحكامه، فذلك بعث من الله تعالى على تدبر القرآن .

وقد بينا من قبل بطلان قول المشبهة بأنه تعالى استوى على العرش قلنا إن من يصح ذلك عليه يكون حِسًّا ذَا صُورَةٍ ومَنْ هذا حاله يكون محدثاً محتاجاً إلى مصور فالمراد الاستيلاء والقدرة كما ذكرناه .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [طه:٧] ما معنى قوله : ﴿ وَأَخْفَى ﴾ [طه:٧] ولا شيء أخفى من السر ؟

وجوابنا : أن ما يخطر بالقلب ويحدث المرء به النفس أخفى من السر، فنبه على عظم شأنه والعلم بذلك ثم قال : ﴿ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى ﴾ [طه:٨] فنبه بذلك على ما يجب من ذكر أسمائه التي تفيد عظم شأنه على ما قدمه من قوله : ﴿ تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ ﴾ [طه:٤] ولا فائدة في ذكر أسماء الله إلا بأن ينوي المرء بها ما تفيده مما يقتضي تعظيمه وإجلاله .

[مسألة] وربما قيل : ما فائدة قوله تعالى : ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ﴾ [طه:١٢] وإذا جاز أن يكون عليه سائر ثيابه فما المانع من أن يكون لابساً لنعليه مع كونه في الوادى المقدّس ؟

وجوابنا : أن النعلين تُلبسان لا على حدّ ما يُلبس سائر الثياب ولذلك لا يلبسهما المرء في بيته وإنما يلبسهما لدفع الأذى في المواضع التي تُخشى فيها النجاسات وغيرها، وعلى هذا الوجه جرت العادة فيمن يعظم المكان أنه يخلع نعله فأراد تعالى تنبيه موسى على عظم محل الوادى المقدس وأحب أن تلحقه بركة ذلك الوادي وهو يباشره برجله، وأحب أن يعرّفه عظم محله بهذا الصنيع، وقد رُوي عن نعليه أنهما كانا من جلد حمار ميت، فإن كان كذلك فهما أولى ما يخلع وإلا فالذي قدمناه وجه صحيح .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : **﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾** [طه:١٤] ما فائدة قوله : **﴿ لِذِكْرِي ﴾**[طه:١٤] والصلاة لا تقام إلا لذكره تعالى ؟

وجوابنا : أن قوله : **﴿ لِذِكْرِي ﴾**[طه:١٤] يرجع إلى الصلاة وإلى العبادة جميعاً فكأنه قال : فاعبدني لذكري وأقم الصلاة لذكري وهما جميعاً لا يصحّان إلا إذا كان المرء ذاكرًا لِلهِ تعالى وتوحيده لأن الغافل عن ذلك لا يعتد بما فعله، وعلى هذا الوجه يجتهد المرء في الصلاة أن يتحرز من السهو فيكون ذاكراً لله قاصداً بما يأتيه إلى عبادته وخص تعالى الصلاة بالذكر وإن دخلت في جملة العبادة تفخيماً لشأنها .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : **﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾** [طه:١٥] ما فائدة قوله تعالى : **﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾** [طه:١٥] ؟

وجوابنا : أن المراد : أخفى ما فيها لما في ذلك من المصلحة، فإن أراد تعالى أخفى موت كل أحد ففي ذلك مصلحة لأنه متى علم وقت موته كان ذلك إغراء بالمعاصي أن تطاول وإلجاء إلى الطاعة أن تقارب، وإن أراد تعالى ما يظهر من زوال التكليف وحصول أشراط الساعة فقد أخفاها، والمصلحة فيها ظاهرة لما بينا، فلما كان ذلك مصلحة أخفاها تعالى وذِكر ذلك بهذا اللفظ معتاد لقرب الأمر، والفائدة فيه أن يظن قربها فيكون المرء إلى الطاعة أقرب، ولذلك قال تعالى : **﴿ لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴾** [طه:١٥] .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ** ﴾ [طه:٦٣] لحن ظاهر، فكيف يجوز ذلك في القرآن ؟

وجوابنا : أن كثيراً من القراء قرأ : (إن هذين) وهي مَروية عن الحسن وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي وعمرو بن عبيد وعيسى بن عمر وعاصم، وقد حكى عن الزهري وغيره أنه قرأ : ﴿ **إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ** ﴾ [طه:٦٣] بتخفيف إن، وروي أيضاً ذلك عن عاصم، وبعد فإذا جاز في الحقائق أن يعدل عنها إلى المجاز في كتاب الله لم يمتنع مثل ذلك فيما ذكرته فيكون تعالى ذكر إن وأراد غيره، كما قيل : إن معناه نعم وأجل، وقد قيل : إن ذلك لغة بني الحارث بن كعب يقولون : رأينا الزيدان وقيل : شبهت الألف بقول القائل : يفعلان، فلم تغير، قال الزجاج : فيها إضمار، والمعنى : إنه هذان لساحران، وقيل : لما كان هذا يستعمل في موضع الرفع والنصب والخفض على أمر واحد لم تغير التثنية وأجريت مجرى الواحد .

وإذا كان في القرآن يدعى الحذف في مواضع كثيرة ليصح المعنى فما الذي يمنع من أن يدعى في ذلك حذف يخرج معنى الكلام من أن يكون لحناً، وإذا صحَّ ذلك فالحذف الذي يصحّ فيه كثير لا معنى لعده .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **قَالَ بَلْ أَلْقُوا** ﴾ [طه:٦٦] كيف يصح من موسى عليه السلام أن يأمر بذلك وهذا الفعل منهم قبيح ؟

وجوابنا : أنه أمر بشرط، فإنه قال : إن كنتم محقّين فيما تدّعون فافعلوا، وهذا كما يقول الحاكم للمُنْكِر : احلف على ما أَنْكَرْتَ، فيكون مُرادُه مثل ذلك، ولا يمتنع أن يقال : إن الإلقاءَ إذا انكشف به المعجز من موسى ﷺ جاز أن يحسن من وجه فلا يكون قبيحاً من كل وجه .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى * قُلْنَا لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى** ﴾ [طه:٦٧-٦٨] كيف يخاف موسى وهو عالم بما يظهر عليه وأنه يكشف عن بطلان ما أتوه ؟

وجوابنا : أنه يجوز أن يكون خائفاً على قوم قد شاهدوا ما فعلته السحرة أن يفسدوا ويثبتوا على فسادهم خصوصاً أن تأخر أمره تعالى بإلقاء العصا، ومن تأمل حال فرعون وقومه مع كثرتهم كيف ذهلوا عن القبول من موسى ﷺ مع ظهور أمره عَلِمَ أن شهوةَ المرءِ وهَواهُ مسلَّطان عليه، فيجب أن يتحرّز التحرّز الشديد من اتباع الهوى وإيثار الدنيا على الآخرة، ويبذل الجهد في اتباع الحق وإن شق، وأوْجَبَ مفارقة الإلْف والعادة ومفارقة السلطان والرياسة .

وكذلك القول في السحرة الذين آمنوا بموسى ﷺ لما رأوا أمره الذي بهرهم كيف انقادوا واختاروا الإيمان وحسن العاقبة على القتل والصلب ، فالمحكى عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ أنه قال : أصبحوا من أهل النار وأمسوا من أهل الجنة، كلام هذا معناه، وروي أنه أكرههم على ذلك السحر لقولهم : ﴿ وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ [طه:٧٣] ثم قال سبحانه : ﴿ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ يمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَى * وَمَن يَأْتِه مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ العُلَى * جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّى ﴾ [طه:٧٤-٧٦] فإن كان هذا من قول السحرة دلّ على استبصار منهم، وإن كان من كلامه تعالى دل على أنّ دارَ المجرمين غير دار الصالحين المؤمنين، وقوله تعالى : ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ [طه:٧٩] يدل على شدة الذم له وعلى أنه تعالى لا يضلّ عن الدين، وأنه أراد بإضافة الضلال إلى نفسه ما تأولناه من أن المراد به العقاب وما يتصل به، ولذلك قال تعالى : ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الفَاسِقِينَ ﴾ [البقرة:٢٦] ﴿ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ﴾ [إبراهيم:٢٧] ثم قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [الزمر:٣] إلى غير ذلك .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ ﴾ [طه:٨٥] ما الوجه في ذلك وقد آمنوا به ؟

وجوابنا : أن المراد بذلك تشديد المحنة على أمة الرسول لأن في حال حياته تكون المحنة أخف منها بعد وفاته، وكذلك حال حضوره تكون المحنة أخف من حال غيبته، ولذلك قال تعالى : ﴿ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴾[طه:٨٥] بما اتخذه من العجل .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ [طه:٨٢] والوصف المتقدم هو الاهتداء .

وجوابنا : أنه لزم هذه الطريقة وحفظها لما كلف من الطاعات لينتفع بذلك .

[مسألة] وربما قيل : ما معنى قوله تعالى حكاية عمّن لم يعبد العجل من بني اسرائيل : ﴿ مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا ﴾ [طه:٨٧] وما الفائدة في ذلك لأن هذا الكلام لا معنى له ؟

وجوابنا : أن مرادهم : إنا لم نجد السبيل إلى ردّ من عَبَدَ العجلَ ولم نتمكن من ذلك فلم نخلف ما كنا وعدناك من إنكار مثل ذلك .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿قَالَ يَا بْنَؤُمَّ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي﴾ [طه:٩٤] كيف يجوز ذلك على الأنبياء وقد أدبه الله تعالى بقوله : ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً ﴾ [طه:٤٤] فأمره بذلك في معاملة فرعون ويفعل بأخيه مثل هذا الفعل ؟

وجوابنا : أن ظاهر ذلك لا يدل على أن موسى فعل وإن كان هرون جوّز أن يفعل والذي في القرآن أنه أخذ برأسه يجره إليه ليظهر لبني إسرائيل غضبه عليهم، ومثل ذلك يحسن كما يحسن أن يأخذ نفسه، فأحب هرون أن لا يفعل ذلك وإن كان فيه إنكار وإظهار للغضب ويفعل ما يقوم مقامه .

[مسألة] وربما قيل : كيف يجوز في نبّي من أنبياء الله أن يقول : ﴿ وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ﴾ [طه:٩٧] فسمى العجل الذي اتخذه إلهاً ؟

وجوابنا : أن مراده : ما اتخذته على وجه التوبيخ، ولذلك قال بعده : ﴿ لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً * إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ [طه:٩٧-٩٨] .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْراً ﴾ [طه:١٠٣] كيف يصحّ أن يخفى عليهم ذلك مع كثرتهم لأنه تعالى قال : ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً ﴾ [طه:١٠٢] ؟

وجوابنا : أن المراد لبثهم بعد الممات، فإن ذلك يخفى ولا يعلم ولم يتفقوا على ذلك كما قال تعالى : ﴿ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْماً ﴾ [طه:١٠٤] .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ [طه:١٢٤] كيف يصحّ هذا الوصف وقد ثبت أنهم في الآخرة يبصرون كما قال تعالى : ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ ﴾ [الكهف:٥٣] ؟ وكيف يصح أن تكون معيَشَتهم ضنكاً وفيهم من ليس هذا وصفه ؟

وجوابنا : أنه تعالى يحشرهم عمياً ثم يُبصرون لأن أحوال الآخرة مختلفة، وقد قيل : مشبهاً بالأعمى لما ينزل به من الحيرة، **(ومتى قيل)** : كيف يصح ذلك مع قوله تعالى من قبل : ﴿ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً ﴾ [طه:١٠٢] وهذا صفة للبصر ؟

فجوابنا : أن المراد : نحشرهم زرقاً عمياً ثم يبصرون . وقد قيل : شبه الأعمى بالأزرق لذهاب السواد عن البصر، وقوله من بعد : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ يَخَافُ ظُلْماً وَلاَ هَضْماً ﴾[طه:١١٢] يدل على أنهم مع معرفتهم بالآخرة فإنهم آمنون .

سورة الأنبياء

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ القَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ * بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ ﴾ [الأنبياء:٤-٥] ما فائدة تكرار هذه الكلمة ؟ وكيف ترتبط بما تقدم ولم يتقدم في الكلام جحد فتليق به هذه الكلمة ؟

وجوابنا : أنه تعالى قد ذكر عن الكفار الجحود بقوله : ﴿ لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ [الأنبياء:٣] فبين تعالى بعده أنه عالم بجحودهم ثم ذكر : ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ ﴾ [الأنبياء:٥] فبين اختلاف أقاويلهم وأن فيهم من قال : إن الذي يأتينا من المنامات المختلفة، وقال بعضهم : افتراه، وقال بعضهم : هو سحر وأنهم تحيروا في أمره فذكر تعالى إنكارهم لنبوته وحقق ذلك بما حكاه عنهم بقوله : ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ ﴾ [الأنبياء:٥] وبين بقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ ﴾ [الأنبياء:٧] أنه في إزاحة العلة ببعثه الأنبياء قد بلغ الغاية فلم يبعث من نسب إلى نقص فيكون في بعثته تنفير عن القبول منه .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنبياء:٧] كيف يعرف أنه لم يرسل إلا الرجال فيرجع إلى مسألة أهل الذكر ؟

وجوابنا : أن أهل الذكر والعلم يعلمون أن بعثة الأنبياء إذا كانت للمصلحة والدعاء إلى الطاعة فلا بد من أن يكون المبعوث لا نقص فيه ولا عيب ينفر عنه، وبيّن تعالى بقوله : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ ﴾ [الأنبياء:١٦] أنه خلق ذلك على وجه الحكمة وعرض للثواب العظيم وخلق له ما يكون كلفًا، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ ﴾ [الدخان:٣٩] ومعنى قوله : ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً ﴾[الأنبياء:١٧] ثم حقق ذلك بقوله تعالى : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى البَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ

فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء:١٨] وقال لمن خالف الحق : ﴿ وَلَكُمُ الوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء:١٨] ثم بين تعالى حال عبادة الملائكة له وخضوعهم وأنهم لا يستكبرون عن عبادته، وكل ذلك ترغيب لنا في الطاعة، ثم قبح تعالى فعلهم فقال : ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ ﴾ [الأنبياء:٢١] تبكيتاً لهم، ثم بين فسادَ ذلك بقوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء:٢٢] فبين أنه لو كان يدبرهما آلهةٌ لفسد ما هما عليه بأن يريد أَحَدُهُما أنْ يكونَ ليلاً والآخَرُ نهاراً أو يريدُ أَحَدُهُما أن يكونَ حَرٌّ والآخر بَرْدٌ فكان التدبير فيهما يفسد، وهذا دليل علماء التوحيد في أنه لا ثاني لله تعالى، قد نبّه سبحانه عليه بهذه الكلمات اليسيرة، ونزّه نفسه عن هذا القول بقوله : ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٢] ثم بيّن تعالى حكمته في فعله لقوله : ﴿ لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٣] لأن من كل أفعاله حكمة لا يسأل عن فعل وإنما يسأل من في فعله سفه كما أن من في فعله قبح، وذلك يبطل قول هؤلاء المجبرة لأنه لو كان كل ظلم وقبح من فعله كان يجب أن يُسأل عما يفعل ـ تعالى الله .

وبين بقوله : ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ [الأنبياء:٢٤] أنّ من لا حجة معه فيما يأتيه فهو جاهل، وفي ذلك دلالة على فساد التقليد وأن كل قول لا برهان معه لا يصح، ثم قال : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ الحَقَّ ﴾ [الأنبياء:٢٤] فنبه بذلك على أن الحق هو الأقل، ثم نبه على بطلان قول النصارى فقال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ * وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٥-٢٦] فبيّن أن منزلة عيسى وسائر الأنبياء أنهم مكرمون ومعظمون وأنه منزه عن الولادة، ونزّه نفسه عن ولادة الملائكة كما كانت العرب تقولُه من أنهم بنات الله تعالى، فقال: ﴿لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾[الأنبياء:٢٧] وبين أنهم ﴿ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٨] وبيّن بذلك أن الشفاعة لا تكون إلا لِمَنْ ارتضى الطريقةَ، وبيّن أنهم مع عبادتهم العظيمة يشفقون وكل ذلك ترغيب لنا في العبادة وفي العدول عن الأباطيل من المذاهب .

وبين تعالى بقوله : ﴿ **وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ** ﴾ [الأنبياء:٢٩] أن من تكبر وأنزل نفسه عن منزلته فهو معذب عليه، وأن كل من قال ذلك فهذا سبيله، ثم بيّن تعالى دلالةَ حدوث الأجسام بقوله : ﴿ **أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا** ﴾ [الأنبياء:٣٠] وهذا هو دليل علماء التوحيد لأنه إذا لم يَخْلُ من الاجتماع والافتراق وهو الرتق والفتق يجب أن يكون محدثًا، فلو لم يكن في كتاب الله من التنبيه على أدلة التوحيد والعدل وغيرهما إلا ما ذكرناه في هذه الآية لكفى .

وكيف يذهب عن ذلك من يزعم أنه ليس في الكتاب التنبيه على علم الكلام ولا في السنن مع الذي ذكرناه، ثم بين تعالى عظم نعمه بقوله : ﴿ **وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ** ﴾ [الأنبياء:٣١] الآيات وقوله تعالى : ﴿ **وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ** ﴾ [الأنبياء:٣٤] فنبه بذلك على أنه خلق هذه النعم للمكلفين وأن تكليفهم منقطع وأن مراده تعالى أن يهيئهم لدار أخرى وهي دار الخلود دون هذه الدار، فلذلك قال : ﴿ **كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً** ﴾[الأنبياء:٣٥] فبين أنه يُكلِّف ثم يُميت ثم يُجازي .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى: ﴿**وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً**﴾ [الأنبياء:٣٥] أليس يدل ذلك على أن الشر كالخير في أنه من قبل الله تعالى ؟

وجوابنا : أن البلوى إنما تقع بالأمر والنهي ولا شبهة في أنه جل وعز لا يأمر بالشر، فالمراد به في الآية الميثاق والآلام وأنه تعالى يبلو المكلف بذلك كما يبلوه بالخير وينزل به المصائب والأمراض كما يعاقبه، وبين أن حال الدنيا ليست كحال الآخرة التي لا يتغير ما بأهلها إما عقاب يدوم وإما ثواب خالص يتّصل بهم، ولو كان الشر من قبل الله تعالى لوجب أن يوصف بأنه شرير إذا كثر منه، وعندهم لا شر إلا من قبل الله، والله تعالى عن قولهم علواً كبيراً، وقوله تعالى : ﴿ **وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ** ﴾ [الأنبياء:٣٥] يدل على أن المراد ما قدمناه وأنه يجازيهم على ما ابتلاهم به عند رجوعهم إليه، والمراد بقوله : ﴿ **وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ** ﴾ [الأنبياء:٣٥] إلى حيث لا حاكم ولا

مالك سواه، لأنّ في دار الدنيا قد فوض تعالى هذه الأمور إلى غيره، وفي الآخرة لا حاكم سواه، وهذا كما إذا تنازع الخصمان فإنهما يقولان : يرجع أمرنا إلى فلان، والمراد : هو الذي يفصل في ذلك ويحكم، فلا دلالة للمشبهة في شيء من ذلك .

[مسألة] وربما قيل : ما معنى قوله جل وعز : ﴿ خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ [الأنبياء:٣٧] ومعلوم أنه ليس بمخلوق من ذلك بل لا يصح ذلك فيه ؟

وجوابنا : أن ذلك من الكلام الفصيح في الإنكار والتبكيت، فمن يكثر غضبه يقال له : كأنك خلقت من الغضب، ومن يكثر نسيانه يقال فيه ذلك، فنبه تعالى على أن الواجب على المرء التوقف والتثبيت وتأمل ما يلزمه من الأدلة وغيرها، فلذلك قال بعده : ﴿ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلاَ تَسْتَعْجِلُون ﴾ [الأنبياء:٣٧] وقال تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الأنبياء:٣٨] يستعجلون لأنفسهم العذاب جهلاً منهم كما قال تعالى : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِين لاَ يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الحَقُّ ﴾ [الشورى:١٨] ولذلك قال تعالى بعده : ﴿ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لاَ يَكُفُّونَ عَن وَجُوهِهِمُ النَّارَ ولاَ عَن ظُهُورِهِمْ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ * بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ [الأنبياء:٣٩-٤٠] .

ثم أنه تعالى عزّى رسوله ﷺ في اختلافهم عليه وفي عنادهم فقال : ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الأنبياء:٤١] فبين أن الواجب فيما يفعل أن ينظر في عواقبه، فإذا كانت العاقبة مكروهة لم يحسن أن يغتبط بها فخلافهم عليك يا محمد إذا كان يعقب مثل ذلك فهو وبالٌ ودمارٌ، ثمّ بيّن تعالى أنه على اختلال أحوالهم حافظ لهم ودافع للمكاره عنهم فقال : ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ [الأنبياء:٤٢] يبعثهم بذلك على طاعته لإدامة النعم عليهم ونبههم بذلك أن لا إله سواه يدفع عنهم المكاره، فلذلك قال : ﴿ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ * أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الأنبياء:٤٢-٤٣] فهجّن بذلك صنيع عبّاد الأوثان، وبين تعالى أنه مع ذلك متّعهم بالبقاء لكي يؤمنوا وأطال عمرهم فقال : ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ العُمُرُ ﴾ [الأنبياء:٤٤] .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ أَفَلاَ يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ [الأنبياء:٤٤] كيف يصحّ تعلق ذلك بقوله ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاءِ ﴾ [الأنبياء:٤٤] ؟

وجوابنا : أنه بيّن قدرته على إفناء كثير من الخلق وخصّهم بأن متّعهم، فقد رُوِي عن بعض المفسرين أن المراد : موتُ العلماء، ورُوِي عن بعضهم أن المراد به : إنزال أسباب الهلاك على قوم منهم، وذكر تعالى الأرض وأراد هلاك أهلها .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلاَ يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾ [الأنبياء:٤٥] كيف يصحّ أن يصفهم بالصمم ثم يذمهم بقوله : ﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا ﴾ [الأنبياء:٤٦] ؟

وجوابنا أن ذلك جرى منه تعالى على مذهب العرب في وصفهم بما هو مبالغة في الإعراض عن سماع الآيات، لأن من اشتد إعراضه يوصف بأنه أصم لا يسمع كما قال تعالى : ﴿ إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ ﴾ [النمل:٨٠] وكما قال عز وجل في وصف الكفار : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ﴾ [البقرة:١٧١] وكما يقال : حُبُّكَ للشيءِ يُعْمِي ويُصِمُّ .

[مسألة] وربما قيل : ما معنى قوله تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ﴾ [الأنبياء:٤٧] وأي مدخل للموازين في أعمال العباد وفي المجازاة ؟

وجوابنا : أن المراد بذكر الموازين العدل في باب المجازاة، ولذلك قال تعالى بعده : ﴿ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء:٤٧] فهذا جواب بعض علماء التوحيد، وقال بعضهم : بل هناك موازين يوزن بها ما تظهر به حال المرء في أنه من أهل الثواب أو من أهل العقاب، ومن قال بذلك يقول : توزن الصحف التي فيها ذكر الحسنات والسيئات فيتبين الرجحان، وقال بعضهم : يجعل تعالى في إحدى الكفتين علامة من نور فتكون علامة الثواب، وفي الأخرى ظلمة فتكون علامة العقاب، والفائدة في ذلك أن يعرف في دار الدنيا ما يخاف في الآخرة عند ذلك من الفضيحة لمن عصاه فيزداد بذلك غماً ويصرفه ذلك عن المعاصي، وما يحصل من السرور لأهل الثواب في ذلك الموقف العظيم فيصير زائداً في المسألة والطاعات .

ونبّه بقوله جل وعز : ﴿ وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء:٤٧] على ما ذكرنا من أنه يتولى عز وجل المحاسبة . **ومتى قيل**: كيف يتولاه ؟ **فجوابنا**: أن يفعل كلاماً في بعض الأجسام فيظهر به حال المكلف، وإذا جاز ونحن في الدنيا أن يرزقنا وإن كان لا يرى ولا مكان له جاز أيضاً في الآخرة أن يكلم المكلف وأن يتعالى عن الرؤية والمكان .

وبين تعالى بعده أنه آتى موسى وهرون الفرقان وما هو ذكر للمتقين الذين يخشون ويشفقون ثم قال : ﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ ﴾ [الأنبياء:٥٠] يعني الفرقان، ﴿ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ [الأنبياء:٥٠]، وذلك تبكيت لمن أنكره، ثم بين تعالى قصة إبراهيم ﷺ ليبعث بذلك على الطاعة وما تحمله من الشدة في مخاطبة أبيه وقومه وصرفهم عن عبادة الأصنام إلى عبادة الله تعالى، ونبه بقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنبياء:٥٤] على فساد التقليد .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ * قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [الأنبياء:٥٥-٥٦] كيف يكون مجيباً لهم بهذا الكلام وبهذه الشهادة ؟

وجوابنا : أن قوله : ﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ ﴾ [الأنبياء:٥٦] كافٍ في بيان جوابهم لأن معرفة الله تعالى إنما تحصل بأفعاله، فلما تم ذلك خصه بقوله تعالى : ﴿ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [الأنبياء:٥٦] لا أنه جعل الحجة بشهادته بل أورده توكيدًا للدلالة .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾ [الأنبياء:٦٣] أليس ذلك يدل على أن إبراهيم ﷺ كَذَب في هذه الحال وأن الأنبياء يجوز[1] عليهم الكذب وأنتم تمنعون من ذلك ؟

وجوابنا : أنه ﷺ أورد ذلك على وجه التوبيخ لهم لينبههم على أن الذي تعبده القوم لا يصح منه نفع ولا ضرر، ولذلك قال بعده : ﴿ فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء:٦٣] قال : ﴿ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ ﴾ [الأنبياء:٦٥] ثم قال بعده : ﴿ قَالَ

---

(١) في الأصل المطبوع : (لا يجوز) وما أثبته من النسخة المخطوطة .

أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلاَيَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ ﴾ [الأنبياء:٦٦-٦٧] وكل ذلك يدل على ما قلناه .

[مسألة] وربما تعلق بعض المجبرة بقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً ﴾ [الأنبياء:٧٣] وأن ذلك يدل على أنه الخالق للطاعة .

وجوابنا : في ذلك أن المراد : جعلهم أنبياء بإظهار المعجزات وذلك من قبله جل وعز وإن كانوا لا يتأهلون لذلك إلا بعد تقدم عبادات وطاعات من جهتهم، ولذلك قال بعده : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ ﴾ [الأنبياء:٧٣] فأضاف الخيرات إلى فعلهم وقال : ﴿ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ [الأنبياء:٧٣] بإضافة العبادة إليهم .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ [الأنبياء:٧٩] كيف يصح ذلك مع قوله : ﴿ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً ﴾ [الأنبياء:٧٩] ؟

وجوابنا : أن الذي حكم به داود كان حقاً وفهم سليمان نسخ ذلك فلا يدل على مناقضة في الكلام .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ﴾ [الأنبياء:٧٩] كيف يصح التسبيح من الجبال والطير ؟ وما معنى قوله بعد ذلك : ﴿ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء:٧٩]وقد أفهم ذلك بقوله : ﴿ وَسَخَّرْنَا ﴾ [الأنبياء:٧٩] ؟

وجوابنا : أن تسبيح الجبال هو ما يظهر من دلالتها على أنه تعالى منزه عمّا لا يجوز عليه كما ذكرنا في قوله جل وعز : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [الحديد:١] إلى غير ذلك، فلما سخر ذلك لداود على خلاف المعتاد فكان يتصرف فيه كما يريد جاز أن يقول : ﴿ يُسَبِّحْنَ ﴾ [الأنبياء:٧٩] بظهور أمر معجز فيها وفي الطير، فهذا معنى الكلام، وأما معنى قوله : ﴿ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء:٧٩] فهو إخبار عن طريقته جل وعز في فعل مثل ذلك، فلذلك أتبعه بما أظهره عليه وعلى سليمان ﷺ من العجائب وبما أظهره على أيوب وسائر الأنبياء صلوات الله عليهم .

وبين تعالى بعد ما اقتصه من أخبارهم وما أظهر من العجائب فيهم عظم منزلتهم فقال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا

خَاشِعِينَ ﴾[الأنبياء:٩٠] فبعث بذلك على التمسك بمثل هذه الطريقة، ولذلك قال تعالى : بعده : ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٩٢] فبعث بكل ما تقدم على إخلاص العبادة له ونبه على عظيم المجازاة في العبادة بقوله : ﴿ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ * فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴾[الأنبياء:٩٣-٩٤] فبين أنه يجازي على سائر ما فعل، ثم بين من بعد أشراط الساعة بقوله : ﴿ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ﴾ [الأنبياء:٩٧] وبين كيف ينزل بهم أنواع الخيرات إذا عاينوا العذاب .

فأما قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء:٩٨] فالمراد به الأصنام والأوثان ولا يدخل في ذلك المسيح كما ظنه من لا يعرف، وذلك محكي عن بعض المتقدمين، بيّن ذلك أنه قال تعالى : ﴿ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾ [الأنبياء:٩٨] ولو كان المراد العقلاء لأورده بلفظ «من»، وظاهر ذلك أنه جل وعز يعيد هذه الأصنام كالحطب في النار فيشاهدها من كان يعبدها فيكون حجة أعظم، وبيّن الفضل بين منزلة هؤلاء وبين منزلة الذين سبقت لهم منه الحسنى فقال تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء:١٠١] وبيّن أنه لا يحزنهم الفزع الأكبر وأن الملائكة تبشرهم بمنزلة الثواب وبيّن بقوله تعالى : ﴿ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا ﴾ [الأنبياء:١٠٤] أنه تعالى قد أوجب على نفسه إعادة الخلق وما يتصل بهم .

[**مسألة**] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ ﴾ [الأنبياء:١١٢] كيف يصح ذلك وهو لا يحكم إلا بالحق ؟ وما الفائدة في أمره بهذا الدعاء ؟

وجوابنا : أن الدعاء بما لا يجوز خلافه قد يحسن، وعلى هذا الوجه ندعو الله للأنبياء والرسل ونقول : اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم، ونقول : اغفر للمؤمنين والمؤمنات، وعلى هذا الوجه قال إبراهيم : ﴿ لاَ تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ [الشعراء:٨٧] فكيف ننكر ذلك، وكيف نظن أنه يجوز أن يحكم بالباطل ـ تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً .

سورة الحج

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحج:١] كيف يتعلق وصف الساعة بالتقوى ؟

وجوابنا : أنه بيّن أنّ ذلك الأمر العظيم يزول عن المتقين فيأتون ما يخافه المجرم، وذلك ترغيب في التقوى وتزهيد في خلافها .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾ [الحج:٢] كيف يصح ذلك وليس هناك رضاع ولا حمل ؟

وجوابنا : أن ذلك كالمثل في عظم أهوال الآخرة وأنه يبلغ في العظم مبلغ ما يلهي المرء عن ولده في باب الرّضاع والحمل، وذلك لأن من أعظم الإشفاق إشفاق المرضعة على ولدها والحامل على حملها، هذا وقد يجوز أن يعيد الله المرضعة على الولد والحامل على صفتها، وقد روى عنه ﷺ أن كل أحد يموت يبعث على ما مات عليه، فيكون ذلك كالحقيقة .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى ﴾ [الحج:٢] أليس ذلك متناقضاً ؟

وجوابنا:أن المراد أنهم قد بُلّغوا في التحيّر إلى حد السكران وإن لم يكن هناك سُكْر، ويُحتمل أنهم سُكارى من الخوف والحيرة، وما هم بسُكارى من الخمر، ومثل ذلك يدخل في نهاية الفصاحة، فكيف يُعَدُّ مناقضاً ؟ وقد يُقبل المرءُ على من لحقه الدهش والحيرة فيقول مثل ذلك، فلذلك قال بعده ﴿ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾[الحج:٢] فنبه على أنه وصفهم بذلك لخوفهم من العذاب، وقوله تعالى بعد ذلك : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ

مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الحج:٣] يدل على أن معرفة الله تعالى مكتسبة وأن من لا علم له لا يحل أن يجادل، بل الواجب أن ينظر ويتعلم، وفيه دلالة على بطلان التقليد، وقوله : ﴿ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴾ [الحج:٣] يدل على أن هذا الاتباع فعله ولذلك ذمّه عليه، وقوله : ﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلاَّهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ ﴾ [الحج:٤] المراد به يصرفه عن طريق الجنَّة، ولذلك قال : ﴿ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الحج:٤] ونبّه تعالى على قدرته على الإعادة بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ [الحج:٥] فدل بخلقه الإنسان على الترتيب وبقدرته عليه على جواز الإعادة، ودلّ أيضاً بقوله : ﴿ وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ ﴾ [الحج:٥] على مثل ذلك، ثم حقق ذلك بقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الحج:٦] ما قدمت من قدرته على الاعادة، ومعنى ذلك أن إلهيته ووحدانيته هي الحق، فوصف بذلك نفسه وأراد ما ذكرنا، وذلك مُجاز لأن الحق هو عبارة عن صحة الأمور التي يعتقدها المحق، ولذلك أتبعه بقوله : ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا﴾ [الحج:٧] فبطل بذلك ما كان عليه فرقة من العرب من إنكار الإعادة كما وصفهم بقوله تعالى : ﴿ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾[يس:٧٨] .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ ﴾ [الحج:١١] ما المفهوم من ذلك ولا يعرف ذلك في اللغة ؟

وجوابنا : أن المنافق يظهر العبادة ويبطن خلافها، فشبه تعالى ظاهر أمره بحرف لأن الحرف هو طرف الشيء، والمرء يحتاج في العبادة أن يظهر باطناً وظاهراً فلمّا أظهر المنافق ذلك من أحد الوجهين وصفه تعالى بذلك، ولذلك قال بعده :﴿ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ﴾ [الحج:١١] وهذا الجنس من التشبيه يبلغ من الفصاحة ما لا تبلغه حقائق الكلام، ولذلك قال تعالى : ﴿ يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُ وَمَا لاَ يَنفَعُهُ ﴾ [الحج:١٢] فبين أنه يَعْبُدُ الأصنام وبيّن أن ضرر ذلك أقرب من نفعه وكل ذلك يحقق أن العبادة من فعل العبد .

وقوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ﴾ [الحج:١٥] يدل على أن العبد هو الفاعل لأنه إذا خلق فيه كل أفعاله فأيّ فائدة في النصرة ؟

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ ﴾ [الحج:١٦] إن ذلك يدل على أنه يهدي قوماً دونَ قومٍ بخلاف قولكم إن الهدى عام .

وجوابنا : أن المراد يكلف من يريد لأن في الناس من لا يبلغه حد التكليف أو يحتمل أن يريد الهداية إلى الثواب لأنها خاصة في المطيعين دون العصاة، ورغّب تعالى المؤمن في تحمل المشاق واحتمال ما يناله من المبطلين بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [الحج:١٧] فبيّن حسن عاقبة المؤمن عند الفصل ليكون في الدنيا وإن لحقه الذل صابراً، وعلى هذا الوجه قال ﷺ :« **الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر** ».

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ﴾ [الحج:١٨] كيف يصح السجود من هذه الأمور وأكثرها جمادات ؟

وجوابنا : أن المراد بهذا السجود الخضوع، فالمراد بذلك أنه تعالى يصرفها في الأمور ولا مانع، ولأجل ذلك لما ذكر الذي للمكلفين خص ولم يعم، فقال تعالى : ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾[الحج:١٨] لأن فيهم من ينقاد فيطيع وفيهم خلافه، ويحتمل أن يراد بالسجود دلالتها على تنزيه الله تعالى، فلما لم يصحّ فيها السجود أُريدَ ذلك ولما صح ذلك في الناس أُريدَت الحقيقة فخصه، ولذلك قال:﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾[الحج:١٨] لما لم يفعل السجود والعبادة، وقوله من بعد : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ [الحج:١٨] المراد به ما يشاء أن يفعله لا ما يشاء من غيره فليس للمخالفين أن يتعلقوا بذلك .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ [الحج:٢٢] كيف يصح أن يريدوا ذلك مع اليأس من الخروج وهذه الإرادة تكون قبيحة ولا يقع من أهل الآخرة القبيح عندكم ؟

وجوابنا : أن في العلماء من قال : ذكر تعالى الإرادة وأراد ما في نفوسهم من الميل إلى ذلك كما قال تعالى ﴿ **جِدَاراً يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ** ﴾ [الكهف:٧٧] وقال بعضهم : يحسن أن يريدوا ذلك وإن لم ينالوه على وجه الاستغاثة كما يحسن منهم الصياح والصراخ على هذا الوجه، فلهم في ذلك غرض يحسن منهم .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ القَوْلِ** ﴾ [الحج:٢٤] ما فائدة ذلك في وصف المؤمنين في الجنة ومعلوم أنهم يعرفون الطيب من القول أن يُهدوا إليه ؟

وجوابنا : أن المراد به ما يعرفون من تحية البعض للبعض، وذلك مخالف لما يقع في الدنيا لأغراض تتصل بمنافع الدنيا وبالتكليف، ويحصل في هذا القول من السرور بالتعظيم ما لا يوجد مثله في دار الدنيا، ومعنى قوله تعالى:﴿**وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الحَمِيدِ** ﴾ [الحج:٢٤] ما ينالهم من السرور بشكر نعم الله تعالى، ويحتمل أن يكون المراد بذلك ما يكون في دار الدنيا وأنهم هُدُوا إلى الإخلاص وإلى اتباع طريقة الحق.

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **وَالْمَسْجِدِ الحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً العَاكِفُ فِيهِ وَالْبَاد** ﴾ [الحج:٢٥] كيف يصح ذلك في الحرم وقد ثبت أنه مملوك ؟

وجوابنا : أن المراد نفس المسجد دون الدور والمنازل وفي ذلك خلاف (شائع)[1]، وعظم الله تعالى المعاصي في المسجد الحرام بقوله : ﴿ **وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾ [الحج:٢٥] وبقوله : ﴿ **وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ** ﴾ [الحج:٢٦] وبقوله : ﴿ **وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ** ﴾ [الحج:٣١] ولذلك قال بعده : ﴿ **ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى القُلُوبِ** ﴾ [الحج:٣٢] ومعنى قوله تعالى : ﴿ **وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً** ﴾ [الحج:٣٤] مواضع النسك لا نَفْس النسك الذي هو فعلها، فليس للمخالفين أن يتعلقوا بذلك، ونبّه بقوله تعالى : ﴿ **لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ** ﴾ [الحج:٣٧] على أن الذي يَنْتَفِعُ

(١) في النسخة المخطوطة : شديد . ا هـ . مصححه .

به الإخلاص دون صورة العمل ونبه بقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ [الحج:٣٨] على أن ذلك من قبل العبد لأنه لو كان من خلقه تعالى لما جاز أن لا يحبه ولا يريده .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ ﴾ [الحج:٤٠] كيف يصح هدم الصلوات ؟

وجوابنا : أن المراد أماكن الصلوات في غير المساجد، ثم أتبعه بذكر المساجد ومثل ذلك مفهوم كقوله : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ ﴾ [الأنبياء:١١] إلى ما شاكل ذلك ولذلك قال بعده : ﴿ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً ﴾ [الحج:٤٠] .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ﴾ [الحج:٤٠] كيف يصحّ ذلك وفي جملة المؤمنين من يغلب ؟

وجوابنا : أن النصر على وجوه، فلابد فيمن ينصر ربّه بالطاعة والجهاد أن يكون الله تعالى ناصره ببعض الوجوه، هذا والغلبة على المؤمن لا تخرجه عن أنه المنصور لأنه المحمود العاقبة .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ [الحج:٥٢] ما الفائدة في ذلك ولا رسول إلاّ وهو نبيّ عندكم ؟

وجوابنا : أن معنى وصف الرسول بأنه نبي إثبات ما يختص به من الرفعة العظيمة، فلما كانت الفائدة في ذلك مخالفة للفائدة في وصفه بأنه رسول جاز أن يذكرهما، (**فإن قيل**) : فما المراد بقوله : ﴿ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ [الحج:٥٢] وكيف يصحّ ذلك على الأنبياء ؟

فجوابنا : أن المراد : إذا تلا القرآن يلحقه السهو في قراءته وذلك معروف في اللغة، فلذلك قال بعده : ﴿ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ﴾ [الحج:٥٢] ولو كان المراد غير ما ذكرناه من التلاوة لم يصح ذلك، فأمّا ما يرويه الحشوية من أنه

ﷺ ذكر في قراءته أصنامهم وقال : إن الغرانيق العُلا شفاعتهن ترجى حتى فرح الكفار فلا أَصْلَ لَهُ، ومثل ذلك لا يكون إلا من دسائس الملحدة، فبيّن تعالى بذلك أن السهو في القراءة جائز على النبي ﷺ وأنه من بعد يبيّن الفضل من السهو ويبيّن الصحيح منه، ولذلك قال بعده : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ [الحج:٥٤] وقال بعده : ﴿ وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ﴾ [الحج:٥٥] .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لله يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الحج:٥٦] كيف يصح ذلك والملك في كل حال لله عز وجل ؟

وجوابنا : أن المراد أنه في دار الدنيا ملك كثيراً من الناس الأمور، وفي الآخرة لا حاكم سواه البتة ولذلك يحكم بينهم .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى: ﴿وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الحج:٦٨] كيف يصح هذا الجواب وهو تعالى عالم بكل شيء ؟

وجوابنا : أن ذلك تحذير من مجادلتهم، فحذّرهم بذلك بعد البيان، ولذلك قال قبله : ﴿ فَلاَ يُنَازِعُنَّكَ فِي الأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الحج:٦٧] ثم قال : ﴿ وَإِن جَادَلُوكَ ﴾ [الحج:٦٨] فإذا تقدم البيان جاز من الرسول ﷺ الاقتصار على هذا الجنس من التحذير، ولذلك قال بعده : ﴿ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [الحج:٦٩] وبيّن تعالى أنه عالم بكل شيء فقال : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [الحج:٧٠]

وبين أيضاً أن ما علمه من الأمور التي تحدث قد كتبه ليستدل بها الملائكة فقال : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحج:٧٠] وحذر بذلك عبّاد الأصنام فلذلك قال بعده : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً ﴾ [الحج:٧١] ثم بيّن بعده ضعف المخلوقين بقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً ﴾ [الحج:٧٣] وأكد ذلك بقوله : ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ [الحج:٧٣] .

فبين أنه على حقارته يغلب المرء فلا يتمكن الإنسان من استنقاذ ما سلبه، وقد حكي عن أبي الهذيل - رحمه الله تعالى - أن بعض الملوك سأله وقال ما الفائدة في خلق الذباب ؟ فأجاب بأن في ذلك إذلالُ الجبابرة .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعـالى : ﴿ **اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ** ﴾ [الحج:٧٥] أليس يدل ذلك على نقيض قوله تعالى : ﴿ **فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً** ﴾ [فاطر:١] ؟ فأيها هو الصواب، أيكون بعضهم كذلك أو كلُهم أجمع ؟

وجوابنا : أن بعضاً منهم يكون رُسُلا إلى الأنبياء دون الكل، ولئن كان جميعهم من الرسل فلا تناقض في ذلك .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ** ﴾ [الحج:٧٨] كيف يصح ذلك ولغة العرب صادرة عن إسماعيل ؟

وجوابنا : أن المراد المعنى دون نفس الاسم، فكأنه وصفهم بتمسكهم بالملة وبأنهم من أهل الثواب وهو المفهوم من وصفنا لهم بأنهم مسلمون ومؤمنون .

سورة المؤمنون

[مسألة] ومتى قيل : ما معنى قوله : ﴿ **الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ** ﴾ [المؤمنون:٢] ثم قوله آخراً : ﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ** ﴾ [المؤمنون:٩] فكرر ذلك وكيف مثله ؟

وجوابنا : أنه في الأول وصفهم بالخشوع في الصلاة، وفي الثاني وصفهم بالمحافظة على أوقاتها وليس ذلك بتكرار .

[مسألة] ومتى قيل : ما معنى قوله : ﴿ **أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ** ﴾ [المؤمنون:١٠-١١] ومعلوم أن معنى الميراث لا يصح فيهم ؟

وجوابنا : أنه شبه وصولهم إلى الفردوس من دون سبب يأتونه بوصول المرء إلى الأملاك بالميراث عند الموت، وهذا من أحسن ما يجري في الكلام من التشبيه .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً** ﴾ [المؤمنون:١٢-١٣] كيف يصح أن يتكرر خلق الشيء الواحد، فكيف يصح فيما خُلِقَ من طين أن يوصف بأنه مخلوق من نطفة ؟

وجوابنا : أنه تعالى ذكر الإنسان وأنه خلق من طين وهو آدم والنطفة لمّا كانت منه جاز أن يقول : ﴿ **ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً** ﴾ [المؤمنون:١٣] يعني الأولاد، وأما قوله : ﴿ **ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً** ﴾ [المؤمنون:١٤] فالمراد ما به صارت علقة، وهذا كما يقول المرء : عملت من الخشب باباً، والمراد أنه عمل ما به صار باباً، فالخلق في الشيء الواحد لم يتكرر وإنما يحدث فيه شيئاً بعد شيء .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ** ﴾ [المؤمنون:١٤] أليس ذلك يقتضي أنه غير ما تقدم ذكره ؟

وجوابنا : أنه لما صار بالحياة التي خلقها الله تعالى فيه على صفة لم يكن عليها جاز أن يقول ذلك مجازاً، وقد يقول الرجل في ولده وقد تأدب وتعلم وتغيرت أحواله : إنه غير الذي رأيتموه، وذلك ممّا يكثر في الكلام .

[مسألة] ومتى قيل : ما معنى قوله : ﴿ **فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ** ﴾ [المؤمنون:١٤] كيف يصح ذلك ولا خالق سواه ؟

وجوابنا : أن ذلك من حيث اللغة، فوصف كل من تدبر فعله وأتى به على وجه الصواب أنه خالق، وذلك مشهور في اللغة، فعلى هذا الوجه يصح ما ذكره تعالى وإنما منع أن يجري هذا الوصف إلا على الله تعالى مطلقاً من حيث كل أفعاله لا يكون إلا مقدّرة على وجه الصواب كما لا يقال مطلقاً في أحد سواه : إنه ربّ وإن كان قد يقال في زَيْدٍ : إنه ربّ دارِه وعبده، فمن حيث التعارف لا يوصف بذلك سواه .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ** ﴾ [المؤمنون:١٨] كيف يصح ذلك والماء إنما ينزل من السحاب ؟

وجوابنا : أن الصحيح أنه ينزل من السماء ويحمله السحاب ثم ينزل إلى الأرض وإنما يذكر ذلك بعض الأوائل لقولهم : إن الماء يصعد من الأرض كالبخار ويحمله السحاب ثم يصفو وينزل يصفو، وليس الأمر كما قالوه وكتاب الله أصدق من قولهم .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ** ﴾[المؤمنون:٢٠] كيف يصح ذلك في اللغة وهي لا تنبت بالدهن ولا الدهن ينبت؟

وجوابنا : أن المراد ينبت ما هو أصل الدهن وهو الزيتون الذي منه يخرج الدهن، وتنبت أي تخرج، وقد يقال في الشجرة : إنها تخرج كيت وكيت، ويقال أيضاً : إنها تخرُجُ بكيت وكيت، وقد قيل : إن الباء كالبدل من اللام لأن ذلك من حروف الجر فكأنه قال : تنبت الدهن، فالكلام صحيح على كل حال .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ﴾[المؤمنون:٤٤] كيف يصح وقد كان بين الرسل فترات ؟ وكيف يصح قوله تعالى : ﴿ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضاً ﴾ [المؤمنون:٤٤] وذلك تكرار ؟

وجوابنا : أنه تعالى وصف بعض الرسل بذلك، ولذلك قال بعده : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى ﴾ [المؤمنون:٤٥] وتقدم من قبل ذكر الرسل، فلا يمتنع من ذلك البعض أنه أرسلها على اتصال، ولا يمتنع إذا تقارب بعثة بعضهم بعد بعض أن يقال ذلك، فأما قوله : (فأتبعنا بعضهم بعضاً) فإنه يعني في الهلاك، ولذلك قال بعده : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ﴾ [المؤمنون:٤٤] فالمراد بذلك الأمم التي كان الله تعالى تعجل إهلاكها، وقوله من بعد : ﴿ فَبُعْداً لِّقَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ [المؤمنون:٤٤] دلالة على أن الذين ينجون من العذاب هم المؤمنون، ومعنى قوله من بعد : ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً ﴾ [المؤمنون:٥٠] أي دلالةً وعجزةً فإنه تعالى نقض العادات فيها وفي ابنها، وقوله تعالى من بعد : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً ﴾ [المؤمنون:٥١] يدل على أنه أباح الطيبات، وأنه لا يدخل في جملة الورع اجتنابها أكل ذلك .

وقوله من بعد : ﴿ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ ﴾ [المؤمنون:٥٤] المراد به التخلية كأنه تعالى يعزي الأنبياء، فقد كانوا يتشددون في الدعاء إلى الله تعالى ويغتمون بترك القبول، وقال تعالى : ﴿ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ ﴾ [المؤمنون:٥٤] أي في حَيْرتهم التي أوتوا فيها من قبل أنفسهم حتى حين، وذلك كالتهديد لأنّ قوله تعالى : ﴿ حَتَّى حِينٍ ﴾ [المؤمنون:٥٤] تنبيه على عذاب الآخرة .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ ﴾[المؤمنون:٧١] كيف يتعلق فساد السموات والارض باتباعهم أهواءهم ؟

وجوابنا : أن المراد : من كذب بالرسل وبالله تعالى وأثبت آلهة سواه، ولو صح مع الله تعالى آلهة إلا الله لفسد التدبير، وهذا هو المراد بالآية، كما نقوله في دلالة التمانع في قوله : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء:٢٢] ولذلك قال بعده :

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ [المؤمنون:٩١] ثم قال منزهاً لنفسه : ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَالِمِ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [المؤمنون:٩١-٩٢] .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠٠] فحكى جل وعز عنه ذلك، ثم قال : ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ﴾ [المؤمنون:١٠٠] ما الفائدة في ذلك وهو معلوم من قبل ؟

وجوابنا : أن المراد هذه طريقة في هذه الكلمة أنه يكررها ويتمنى عوده من حيث لا يتلافى ويقتصر على التمني .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ [المؤمنون:١٠١] كيف يصح نفي الأنساب وهي ثابتة في الآخرة كما قال تعالى : ﴿ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴾ [المعارج:١١-١٢] وقد يدعى الرجل في الآخرة بالآباء ؟

وجوابنا : أن المراد انقطاع النفع بعد نفخ الصور بالأنساب وقد كان ينتفع بها في الدنيا وإلا فالنسب الذي قد ثبت وتقضي لا يزول ، ولذلك قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴾ [عبس:٣٤-٣٥] وإنما سينتفع بذلك أهل الصلاح، فلذلك قال تعالى في سورة الرعد : ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ ﴾ [الرعد:٢٠] فوصفهم ثم قال في آخره : ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ [الرعد:٢٢-٢٣] فعند ذلك يعظم السرور بالاجتماع، وبعد ذلك قال تعالى حاكياً عمن خفت موازينه : ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ * رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾ [المؤمنون:١٠٦-١٠٧] وبيّن تعالى عظم ما أقدموا عليه بقوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِياً حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي ﴾ [المؤمنون:١٠٩-١١٠] فدل بذلك على عظم هذا الجرم، ثم بين ما لهم من المنزلة بقوله : ﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [المؤمنون:١١١] .

[مسألة] وربما قيل كيف يجوز أن يقولوا : ﴿ لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ [المؤمنون:١١٣] وذلك كذب منهم لأنه جواب لقوله : ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴾؟ [المؤمنون:١١٢] .

وجوابنا : أنهم لم يريدوا بذلك أحوال حياتهم بل أرادوا حال الوفاة، ولم يريدوا بقولهم : ﴿ لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ [المؤمنون:١١٣] التحقيق ؛ لأنهم لو أرادوا الخبر لكان هذا القول متناقضاً وكأنهم أرادوا أنهم وإن كثر لبثهم فهو قليل في حكم يوم أو بعض يوم في أنهم لم ينتفعوا بالتلافي والاستدراك، ولذلك قال بعده : ﴿ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [المؤمنون:١١٤] وقال بعده : ﴿ وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون:١١٥] فنبه على تقصيرهم حيث أمكنهم التلافي وأنهم فيما بعد فاتهم ذلك، وقوله تعالى من بعد : ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ ﴾ [المؤمنون:١١٧] دلالة على أن كل قول لا حجة فيه فهو محرم، ولذلك قال تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الكَافِرُونَ ﴾ [المؤمنون:١١٧].

سورة النور

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى ﴿ **سورة أنزلْنَاهَا** ﴾ [النور:١] كيف يصح إنزال السورة وذلك يستحيل فيها ؟

وجوابنا : عن ذلك وعن سائر ما في القرآن نحو قوله : ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ** ﴾ [القدر:١] وقوله : ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ** ﴾ [الدخان:٣] إلى غير ذلك هو أن المراد به إنزال السورة بإنزال من يحملها، وعلى هذا الوجه نصف القرآن بأن الله أنزله، وهذا كما يقال : أنزلنا الماء، ويراد بذلك الظرف، ونزحنا الماء من البئر إلى غير ذلك، وكما يقال : إن فلانا أظهر علمه، والمراد : أودعه الكتب، فمن هذا الوجه يستدل بهذه الآيات على حدوث القرآن لأن ما هو قديم لا يجوز فيه إنزاله بنفسه ولا بغيره .

وفي قوله تعالى : ﴿ **وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ** ﴾ [النور:١] ـ والآيات هي الأدلة ـ دلالة [1] أيضاً على حدوثه وفي قوله : ﴿ **لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾ [النور:١] دلالة على أن الله تعالى أراد من جميعهم التذكر .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **الزَّانِي لاَ يَنكِحُ إلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً** ﴾ [النور:٣]كيف يصح هذا الخبر ونحن نعلم أن الزاني قد يطأ وقد يعقد على غير الزانية؟

وجوابنا : أنه وإن كان في صورة الخبر فالمراد به الأمر، واختلف العلماء في ذلك، فمنهم من قال : هو منسوخ، ومنهم من قال : بل هو ثابت وأن المراد أن الزاني لا يحل له التزويج بالعفيفة حتى إنهم يقولون : إذا حدث الزنا منه بطل النكاح ومع أن ظاهره إنما يقتضي أنه في حال زناه لا يَنكِحُ إلاَّ زَانِيَةً لأن الزنى هو الوطء بغير شبهة وبغير نكاح ومِلْك، ومَنْ هذا سبيله فهو غير ناكح إلا الزانية ومن يقدر (فيها) [2] هذا التقدير .

---

(١) لفظة (دلالة) غير موجودة بالأصل المطبوع، وأثبتها من النسخة المخطوطة. اهـ . مصححه.
(٢) في النسخة المخطوطة : (فيه) . اهـ . مصححه .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لاَ تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [النور:١١] كيف يصح في إفكهم أن يكون خيراً مع قبحه وعظم الإثم فيه ؟

وجوابنا : أن المراد به خير لهم من حيث نالهم به من الغم ما صبروا عليه وإن كان كاذباً قبيحاً، فالمراد هو ما قد ذكرناه، ولذلك قال تعالى : ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ ﴾ [النور:١١] فذمهم وبين أن الذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم ومعلوم أن هذا الصنيع منهم كان كالسبب في تعظيم الرسول ﷺ والمتصلين بعائشة فصار الصبر عليه عظيم الثواب، ولذلك يقال الآن فيمن زُنيَ بأهل له : إنه إذا صبر فله ثواب، وإذا ظلم المرء فلم يخرج إلى المقاتلة على ذلك بل صبر فله ثواب .

وهذه القصة إنما ضمت إلى هذه السورة لتعلقها بالقذف والرمي اللذين بين الله تعالى حكمهما في الأجنبي وفي الزوجات، وهي تشتمل على أحكام وأدب يمكن أن يقال : إن جميع ذلك من الخيرات، فبين تعالى أن من يتولى كبر الشيء أعظم إثما مّمن هو كالتابع، وبيّن أن الواجب على من يسمع مثل ذلك أن لا يظن صحته بمن عرف عفته، ويؤيده قوله : ﴿ لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً ﴾ [النور:١٢] وفيه أن الواجب في مثله الاعتماد على الشهادة، فإذا انتفت وجب الكف، وهو معنى قوله : ﴿ لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ﴾ [النور:١٣] لأن المراد هَلاَّ فَعَلـوا ذلك ﴿ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ [النور:١٣] .

[مسألة] ومتى قيل : أليس من لم يأت بالشهود قد يكون صادقاً ؟ فكيف يصح ما ذكره تعالى ؟

وجوابنا : قولهم في القصة خاصة بأنه كذب وما يذكر في كتب الفقهاء من أن الملاعن يكذب نفسه، وأن ذلك منه كالتوبة يجب أن يكون كالمجاز، لأن الزوج إذا رمى امرأته فقد يكون صادقاً ويكذب نفسه، فإن كذب نفسه على الحقيقة فلذلك ذنب ثان لأن تكذيب الصادق كذب، وبين أنه لولا فضل الله عليهم لمسهم في ذلك عذاب

عظيم وما يمسهم فيه العذاب لا يكون خيراً، ونبّه بقوله تعالى : ﴿ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ﴾ [النور:١٥] على أن الخبر بلا علم يقبح، وبين أن الذنب قد يعظم عند الله وإن حَسِبَهُ المذنب هيّناً .

وبينا أن الخبر في مثل ذلك يسمى بُهتاناً، فدل بذلك على عظمه ؛ لأن في تلك الأخبار ما لا يسمى بذلك وإن كان كذباً، وبين قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ ﴾ [النور:١٩] أن محبة القلب بانفراده قد تكون ذنباً عظيما، فيبطل بذلك ما يظنه كثيرٌ من الناس من أنه لا يؤاخذ بما يقع في قلبه إذا لم يعمل، ولولا خوف التطويل لذكرنا سائر ما في هذه القصة من الفوائد .

فأما ما قاله آخراً من قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ﴾ [النور:٢١] فالمراد به إظهار الفضل والمدح، وذلك يصح من الله تعالى وليس المراد نفس الطاعة، فليس للمخالفين التعلق بذلك، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ [النور:٢٣] يدل على أن ذلك من الكبائر العظام، ويدل على أنه ملعون في الآخرة إذا لم يتب، والملعون في الآخرة لا يصح أن يكون من أهل الجنة .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ ﴾ [النور:٢٤] كيف تصح الشهادة من اللسان ؟

وجوابنا : بأن ينطقه الله ، وكذلك الكلام في أيديهم وفي أرجلهم ، وفي ذلك زجر عظيم لأن المُقدِم على الذنب إذا تصوّر أنه يجزى عليه في الآخرة بهذه الشهادة كان ذلك من أعظم زواجره . **(فإن قيل)** : فاللسان واليد والرجل هي المتكلمة بهذه الشهادة . **قيل له** : هذا هو الظاهر والله عز وجل قادر على أن يحييها مفردة لتتكلم بهذه الشهادة، كما يُروي عنه ﷺ في الذراع أنها كَلَّمَته وقالت : لا تأْكُلْني يا رسول الله فإني مسمومة وفي العلماء من يقول : هذه الشهادة من فعل الله تعالى، فإن وجدت في الأعصاب فيكون الله تعالى المتكلم، وأضيفت الشهادة إليها على وجه من المجاز .

[**مسألة**] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ [النور:٣٥] أليس يدل على ذلك أنه جسم وعلى أنه أحسن الأجسام كما قاله بعضهم ؟

وجوابنا : أن المراد أنهُ منوِّرُ السموات والأرض، بيــن ذلك أنه قـال تعــالى : ﴿ **مَثَلُ نُورِهِ** ﴾[النور:٣٥] فأضاف النور إليه وقال آخراً : ﴿ **يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ** ﴾ [النور:٣٥] ويحتمل أن يكون المراد نفس النور، ويحتمل إن تكون الأدلة وفي الوجهين من يفعل ذلك يوصف أنه منور، وإنما وصف نفسه بذلك مبالغةً من حيث إن كل الأنوار من قبله، كما يوصف بأنه رجاء وغياث إلى مَا شَاكَلَ ذلك، ولذلك قال تعالى من بعد : ﴿ **وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ** ﴾ [النور:٤٠] .

[**مسألة**] ومتى قيل : كيف يصح قوله عز وجــل : ﴿ **زَيْتُونَــةٍ لاَّ شَــرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ** ﴾ [النور:٣٥] ولا ثالث لهذين ؟

وجوابنا : أن المراد أن مكانها ليس مما تطلع عليه الشمس فقط ولا تغرب أي تظهر عليه الشمس عند الغروب فقط، بل مكانها المكان الذي لا تنقطع منه الشمس وذلك بيِّن في وجه المنفعة للأشجار .

[**مسألة**] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا** ﴾[النور:٤٠] بعد أن وصف الظلمات العظيمة كيف يصح ذلك ؟

وجوابنا : أن بعضهم قال : لا يراها أصلاً، وقال بعضُهم : بل الظلمات وإن عظمت مما تقرب المرء من تحريك أعضائه وقد يجوز أن يراها، فليس في ذلك مناقضة .

[**مسألة**] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ** ﴾ [النور:٤٥] كيف يصح الاقتصار على هذه القيمة وفي الحيوان ما يمشي على أكثر من أربع ؟

وجوابنا : أن تبيان هذه الأوصاف لا يمنع فوق أربع لو صح ما قاله فكيف وما يظهر له من الأرجل أكثر من أربع وإنما يمشي من جملتها على أربع، فالكلام تام .

سورة الفرقان

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾ [الفرقان:٢] أو ما يدل ذلك على أنه الخالق لأفعال العباد ؟

وجوابنا : أن المراد به الأجسام التي ننتفع بها لأنه تعالى ذكر ذلك عقيب قـوله : ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ﴾ [الفرقان:٢] وقد بينا من قبل أن الله لا يجوز أن يمتدح بفعل القبائح، فالمراد ما ذكرناه، وقوله تعالى : ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ [السجدة:٧] يدل على أن مراده بهذه الآيات ما يكون حسناً وحكمة، فالله تعالى استفتح هذه السورة بما يدل على قولنا، وهو قوله تعالى : ﴿ الَّذِي نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ [الفرقان:١] فبين أنه لينذر ويخوف كل واحد من العالمين، والتخويف إنما يراد منه الانصراف عن الكفر والمعاصي، فكيف يصح أن يبعثه ليصرفهم عما هو الخالق له فيهم، ولا يمكنهم وهو الخالق فيهم الانصراف عن ذلك ولو اجتهدوا كل الاجتهاد .

وقوله تعالى من بعد:﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ [الفرقـان:٩] أراد تعـالى أنهـم لا يسـتطيعون السـبيل إلى القـدح في نبوّتـه فـلا يصـح للمخالفين أن يسألوا عن ذلك في أن القدرة مع الفعل .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً ﴾ [الفرقان:١٢] كيف يصح ذلك في النار حتى توصف بأنها تراهم وهي جماد وحتى توصف بأن لها تغيظاً وزفيراً وذلك لا يصح إلا في الحي الذي يغتاظ مما يرى؟

وجوابنا : أن المراد بذلك التمثيل دون التحقيق، فمن يقرب مـن الشـيء يقـال : يراه، وقد يشبه صوت النار عند التلهف بالزفير الذي يظهر من المغتـاظ ، ويحتمـل أنـه تعالى ذكر (إذا رأتـهم) وأراد خزنتها، فـإنهم يغتـاظون فيكـون لهـم مـن الـزفير بعـد علمهم بما يقتضي ظهور ذلك .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ﴾ [الفرقان:١٥] كيف يصح ذلك ولا خير في النار أصلاً ؟

وجوابنا : أن المراد أيهما أولى بأن يكون خيراً، وقد يقول الحكيم لغيره من العصاة : إن التمسك بالطاعة خير لك من المعصية، والمراد ما قد ذكرنا .

[مسألة] وربما قالوا في قوله تعالى : ﴿ وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ ﴾ [الفرقان:١٨] وذلك خلاف قولكم .

وجوابنا : أن المراد أنه متعهم فاختاروا عند ذلك نسيان الذكر، والمراد بهذا النسيان ترك الواجب ؛ لأن النسيان في الحقيقة من فعل الله تعالى، فلا يجوز أن يذمهم عليه، ولذلك قال تعالى بعده : ﴿ وَكَانُوا قَوْماً بُوراً ﴾[الفرقان:١٨] وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً ﴾ [الفرقان:٢١] أحد ما يدل على أنه تعالى لا يجوز أن يرى، وإلا لم يصح أن يستعظم هذا القول منهم، كما لا يجوز أن ينزل الملائكة بدلا من البشر لكن إنزال الملائكة مقدور والحكمة تمنع منه والرؤية ليست مما يصح أصلا .

وفي قوله عز وجل : ﴿ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ﴾ [الفرقان:٢٨-٢٩] دلالة على أن المضل عن الدين ليس هو الله تعالى كما يقوله المجبرة .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الفرقان:٣١] كيف يصح أن يكون تعالى جعلهم أعداء للأنبياء ؟

وجوابنا : أنه تعالى إذا عظم الأنبياء واصطفاهم وخصّهم بالمعجزات وكان ذلك من قبله ولأجل ذلك عادوا الأنبياء جاز أن يضيف ذلك إلى نفسه من هذا الوجه بأنه يفعل فيهم العداوة مع زجره ونهيه عن ذلك، ومع إيجابه عليهم أن يتركوها إلى الولاية وإلى التصديق والانقياد، وحكى تعالى عن الكفار أنهم قالوا : ﴿ لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ [الفرقان:٣٢] كالذي فعله تعالى في كتب الأنبياء وجعلوا ذلك كالطعن، فقال جل وعز : ﴿ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ [الفرقان:٣٢] .

فبيّن أن إنزاله على تصرف الأوقات وتجديد ذلك على قلبه ما يوجب الثبات والصبر، وذلك معلوم من حال ما يرد على السمع في الأوقات المتباينة، وبعد فإنه ﷺ لم يكن يكتب ويقرأ، فلو أنزل عليه جملة واحدة لكان مخالفاً للحكمة، وبعد فإن إنزاله في وقته أحسن موقعاً من إنزاله قبله فعند الحوادث إنزال الله تعالى ما يتصل بها.

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ ﴾ [الفرقان:٣٤] كيف يصح حشرهم على وجوههم ؟

وجوابنا : أنه تعالى قادر على ذلك ويكون أدخل في الذل والإهانة ويحتمل أن يكون المراد أنهم يساقون وجهاً واحداً إلى جهنم من دون ميل وتوقف، كما يقول القائل : جئتك اليوم وجهاً واحداً .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ﴾ [الفرقان:٤٥] كيف يصح وصفه بأنه مدّ ولا يتأتى فيه ذلك ؟

وجوابنا : أن المراد به أنه مد ذلك أي : أدامه، كما قال تعالى في صفة الجنة ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ [الواقعة:٣٠] لما لم يكن هناك شمس، ومعنى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ﴾ [الفرقان:٤٥] أي دائماً لا ينقطع، لكنه جعل الشمس عليه دليلاً، وذلك أحد ما تظهر به نعمه لأنه بالشمس وطلوعها يعرفون كيفية الظل .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا ﴾ [الفرقان:٥٤] كيف يصح وإنما خلق آدم من طين ؟

وجوابنا : أن ذلك الطين إذا كان بالماء حصل على تلك الصفة فجاز أن يقول ذلك، ويحتمل أن يريد سائر أولاده لأنه من النطفة خلقهم فسمّاها ماءً، ثم ذكر تعالى ما يبعث المرء على التمسك به من الآداب والأحكام في صفة عباد الرحمن فقال تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [الفرقان:٦٣] فذكر من صفاتهم ثلاثة عشر خصلة إذا تأملها المرء وتمسك بها عظمت منزلته في الدين، ولولا خوف التطويل لشرحناهم ثم قال تعالى آخراً : ﴿ أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا * خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان:٧٥-٧٦].

فإن قيل : ذكر تعالى في جملته : ﴿ فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ [الفرقان: ٧٠] كيف يصح ذلك ومحال في السيئة الماضية أن تصير حسنة ؟

فجوابنا : أن المراد بالسيئات عقابها، وبالحسنات الثواب، فقال تعالى فيهم : إنهم إذا تابوا صار لهم بدلاً من العقاب الثواب، وفي قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ ﴾ [الفرقان: ٧٠] بعد ذلك من الكفر والقتل والزنا دلالة على أن التوبة مقبولة في كل ذنب لا كما يَظُنُّهُ قَوْمٌ في أنها لا تقبل في القتل .

[**مسألة**] وربما قيل : ما معنى قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ ﴾ [الفرقان:٧٧] وهل المراد بذلك المؤمن أو الكافر ؟

وجوابُنا : أنه تعالى قال ذلك عقيب وصف المؤمن، فالمراد به : لولا دعاؤهم الذي هو التوحيد والعدل لم يعبأ تعالى بهم حتى يرقيهم في منزلة الثواب على ما وصف، ويكون قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ ﴾ [الفرقان:٧٧] يرجع إلى من خالف حاله حال هؤلاء المؤمنين .

ويحتمل أن يكون المراد الكفار ؛ فإنه عز وجل لا يدخلهم في إنزال العقاب بهم لولا دعاؤهم وعبادتهم لغير الله، ومعنى قوله : ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ ﴾ [الفرقان:٧٧] أي بالله ورسوله ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً ﴾ [الفرقان:٧٧] .

سورة الشعراء

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ** ﴾ [الشعراء:٤] كيف يصح هذا الجمع في الأعناق وإنما الصحيح أن يقال خاضعة ؟

وجوابنا : أن قوله أعناقهم يشتمل على ذكرهم وذكر أعناقهم فقوله : ﴿**خَاضِعِينَ**﴾ [الشعراء:٤] يرجع إليهم وقد كان ﷺ يغتم بأن لا يؤمنوا، فبيّن تعالى أن ذلك موقوف على اختيارهم وأنه تعالى لو شاء لأنزل آية كانوا يخضعون لها فيؤمنون لا محالة قهراً، لكن لا ينفع ؛ إذ المراد أن يؤمنوا على وجه يستحقون الثواب معه .

وقد قيل : إن المراد بالأعناق جملتهم، كما يقال : جاءنا عنق من الناس، والأول أبيْنَ وبين بعده أنه وإن لم ينزل هذه الآية القاهرة فقد أنزل القرآن، فقال تعالى : ﴿ **وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ** ﴾ [الشعراء:٥] فبيّن أنه معقول كما نقوله وأنهم مع قيام الحجة به يعرضون عنه، فلا عليك يا محمد أن تغتم بكفرهم ﴿**فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ**﴾[الأنعام:٥] وبيّن بقوله : ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ**﴾ [الشعراء:٧] أي عزيز أن ذلك من الأدلة العظام التي لو نظروا فيها لعلموا أنّ ما هم عليه باطل .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ** ﴾ [الشعراء:١٢] وقد ناداه ربه ﴿ **أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾ [الشعراء:١٠] كيف يصح من ذلك أن يعتل بهذه العلة ؟

وجوابنا : أنه لم يرد الخوف على نفسه فإن الأنبياء لا يجوز أن يبعثهم الله تعالى إلاّ وقد وطّنوا أنفسهم على احتمال المكاره، وإنما أراد أنه يخاف منهم أن لا يقبلوا، وسأل ربه المعونة التي تكون أقرب إلى قبولهم، فأعانه الله عز وجل بأخيه

هارون، وقال : ﴿ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴾ [الشعراء:١٥] والاستماع وإن لم يَجُزْ على الله تعالى لأنه كالإصغاء فالمراد نفس السماع والله تعالى يوصف بذلك .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء:٢٢] كيف يصح أن يعتّدّ لفرعون بمثل ذلك ؟

وجوابنا : أن ذلك بمنزلة إنكار كونه نعمة لا بمنزلة الإقرار ؛ لأن الذي فعله ببني إسرائيل يجري مجرى الظلم العظيم، ويحتمل أن يكون المراد : عبدت بني إسرائيل وخيبتني مع الذي كان منك من تربيتي وغير ذلك، فيكون في الكلام حذف، فعند ذلك قال له : ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء:٢٣] فأجابه : رب السموات والأرض وما بينهما، لأنه تعالى إنما يعرف بأفعاله التي تختص به ولا تجوز عليه المشاهدة، فكان الذي أجابه به هو الجواب الحقيقي، ولم يزل يكرر مثل ذلك حتى قال : إنه لمجنون، ثم قال : ﴿ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ [الشعراء:٢٩] وليس ذلك بطعن في أدلته والله تعالى سخره لما علم من عاقبته أمر موسى ﷺ عند ظهور الآيات وما ينزل بهم آخراً من الهلاك، وعلى هذا ما فصله تعالى في القصة .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء:٧٥-٧٧] كيف يصح أن يقول : (فإنهم)، وإنما يقال في الأصنام فإنها ؟ وكيف يصح أن يصفها بأنها عدو وهي جماد ؟ وكيف يصح أن يقول : (إلا رب العالمين)، فيستثني من الأصنام رب العالمين ؟

وجوابنا : أن إبراهيم صلى الله عليه وسلم أجرى كلامه على طريقة اعتقادهم، وكانوا يعتقدون في الأصنام أنها تنفع وتضر كالناس بل أزْيَدْ، فلهذا جَمَعَهَا هذا الجمع ووصفها بهذا الوصف، وإلا فهو عالم بأن الأمر بخلاف ذلك، فنبأهم على أن كل ذلك يضرهم، وإنما ينتفعون بعبادة الله الذي خلق ويهدي ويطعم ويسقي إلى سائر ما ذكره من نعمه .

فإن قيل : كيف قال في جملة كلامه ﴿ وَاغْفِرْ لأَبِي ﴾ [الشعراء:٨٦] مع اصراره على الشرك ؟

فجوابنا : أنه دعا له على شرط التوبة والإنابة على ما تقدم قبل ذلك بيانه .

فإن قيل : فكيف قال : ﴿ وَلاَ تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾[الشعراء:٨٧] وذلك ممتنع في الأنبياء ؟

فجوابنا : أن الداعي قد يدعو بما يعلم أنه لا يقع على وجه الانقطاع إلى الله والتمسك بالخضوع وبيّن أنه في الآخرة لا ينفع مالٌ ولا بنون وإنما تنفع الأعمال الصالحة الخالصة مما يفسدها، وهو معنى قوله : ﴿ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ * وَأُزْلِفَت الجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الشعراء:٨٩-٩٠] وبيّن ما يقال لعابد الصنم في الآخرة بقوله ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * من دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴾ [الشعراء:٩٢-٩٣] وما يقولون بقوله : ﴿ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ العَالَمِينَ ﴾ [الشعراء:٩٧-٩٨] وبيّن بقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَضَلَّنَا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [الشعراء:٩٩] بطلان قول من يقول : إن الله يضلهم، فالقرآن يكذب قولهم، ثم ذكر تعالى بعد قصة موسى وهارون، وقصة إبراهيم وقصة نوح وهود وصالح ولوط وشعيب ما نزل بهم من الأمور، وأنزل الله تعالى بأممهم من العذاب وكل ذلك ليتأمل القارئ في كتاب الله تعالى فيعرف بذلك قدرته وحكمته ويكون ذلك داعية طاعته والانصراف عن معصيته .

فإن قال ففي جملة كلام موسى ﷺ : ﴿ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ [الشعراء:٢٠] كيف يصح أن يصف نفسه مع نبوّته بهذا ؟

فجوابنا : أن المراد بالضالين الذّاهلون عن التمسك بالطاعة فيما أقدموا عليه لأن ذلك وإن لم يكن من الكبائر فهو من الصغائر .

فإن قيل : ففي جملته : ﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ [الشعراء:٣٢] وقال في موضع آخر : ﴿ كَأَنَّهَا جَانٌّ ﴾ [الشعراء:٣١] وذلك كالمتناقض .

فجوابنا : أن المراد أنها كالثعبان في العظم، وكالجان في سرعة حركتها من حيث خلقت من نار السموم .

فإن قال : ففي القصة أن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون فأقر بأنه رسول كيف يصح ذلك ؟

وجوابنا : أنه أراد أنه كذلك في زعمه .

فإن قيل : ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ﴾[الأعراف:١١٠] كيف يعرفون ذلك؟

وجوابنا : أنه أراد بإلقائه العداوة بينكم أنه ينحاز بعضكم إلى بعض . **فإن قال** : فكيف قال : ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴾ [الشعراء:٤٦] وهم في تلك الحال مؤمنون ؟ **وجوابنا** : الذين كانوا سحرة .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ ﴾ [الشعراء:١٩٦] أليس ذلك يدل على أنه نفسه في زبر الأنبياء والمعلوم خلاف ذلك ؟

وجوابنا : أن ذكره ووصفه في زبر الأوّلين بين ذلك أنه عربي وسائر كتب الأنبياء بخلافه، ومعنى قوله من بعد : ﴿ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الشعراء:٢٠٠] يعني القرآن، أي جعلناه بحيث يعلم ويقرأ فلم يقع منهم الانتفاع بذلك.

[مسألة] ومتى قيل : ما معنى قوله : ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنذِرُونَ ﴾ [الشعراء:٢٠٨] كيف يصح أن يصير ذلك سبب هلاكهم وهو بأن يكون سبباً لنجاتهم أقرب ؟

وجوابنا : أن المراد ما أهلكنا أهل قرية إلا بعد إزاحة العلة بالمنذرين الذين هم الأنبياء وبعد كفرهم بهم ونصبهم العداوة لهم، فلذلك قال بعده : ﴿ ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ [الشعراء:٢٠٩] وفي قوله من بعد : ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ [الشعراء:٢١٠-٢١١] دلالة على إعجاز القرآن لأنه لو جاز أن يقدر العباد عليه لجاز مثل ذلك في الشياطين الذين لمخالطتهم بنا يعرفون هذه اللغات، وأدّبه الله تعالى بقوله : ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء:٢١٥] بعد

قوله تعالى : ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ** ﴾ [الشعراء:٢١٤] وقبل قوله تعالى : ﴿ **فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ [الشعراء:٢١٦] فلم يأمره من هذا القول في الكفار وأمره في المؤمنين بما ذكره، ومن تأمل ذلك وتمسك بمثله في العدو والوليّ فله الحظ الكثير في استعمال الأخلاق الحسنة .

ثم قال تعالى : ﴿ **وَتَوَكَّلْ عَلَى العَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ** ﴾ [الشعراء:٢١٧-٢١٩] فإن المرء إذا تصوّر فيما يأتيه أنه جل وعز يراه ويعلمه كان أقرب إلى أن لا يفعل إلا ما يحسن منه، والتوكل على الله هو أن يلتمس الخير ويبتعد عن الشر فيما عهد الله تعالى إليه، ولا يفارق هذه الطريقة إلى ما يكرهه، وليس التوكل ما يدعيه قوم من أعمال الخير وترك التكسب والاشتغال بطلب ما يحتاج إليه من الناس، فإن ذلك محرم في أكثر الآيات .

سورة النمل

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ** ﴾ [النمل:٤] كيف يصح أنه تعالى يكون مزيناً لأعمال الكفار ؟

وجوابنا : أن المراد : زيّنا لهم ما ينبغي أن يعملوه وما يجب عليهم السعي فيه، وقد يقال : لم يوجد مع ذلك أن عملهم على هذا الوجه، ولذلك قال بعده : ﴿ **فَهُمْ يَعْمَهُونَ** ﴾ [النمل:٤] وذكر تعالى ذلك بعد قوله في القرآن : ﴿ **هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ** ﴾[النمل:٢-٣] ثم قال عُقيب ذلك:إن من لم يؤمن قد زينا له ما يجب أن يأتيه لكنه يعمى عن ذلك، وقد قيل : زينا بمعنى موافقة الشهوة والهوى (للعلم بأنه)[1] تعالى يفعل الشهوة لكنه يصرف عنها، والوجه الأول أولى .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا** ﴾ [النمل:٨] ما معنى هذه البركة ؟ وما المراد بمن حولها ؟ وهل يتصل ذلك بموسى ﷺ ؟

وجوابنا : أن البركة هي بمعنى الثبات والبقاء، فبين تعالى ثبات تلك النار لموسى ومن حولها ؛ لأن موسى كان قد جاءها وصار هو وأصحابه حولها كما يتفق في العادة حال الناس مع النار، وقيل : أراد تعالى بقوله : (بورك من في النار) موسى عليه الصلاة والسلام، وأراد بمن حولها الملائكة عليهم السلام لأنهم حضروها، ويُحتمل في هذه البركة أنها لمكان البقعة التي أصابتها النار، ولذلك قال تعالى في سورة القصص : ﴿ **نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ** ﴾ [القصص:٣٠] وقد قيل في (من حولـها) أنهمُ لم يكونوا مؤمنين فأثبت الله تعالى البركة في النار لما جاءها موسى لما لَهُ من الفائدة في حضورها .

---

(١) في النسخة المخطوطة : (لعلمهم لأنه) . اهـ . مصححه .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ يَا مُوسَى لاَ تَخَفْ إِنِّي لاَ يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ * إِلاَّ مَن ظَلَمَ ﴾ [النمل:١٠-١١] كيف يصح هذا الاستثناء من المرسلين ولا يجوز أن يكون فيهم ظالم خائف ؟

وجوابنا : أنه قد قيل : إلا من ظلم بالإقدام على صغيرة ثم تلافاه بالتوبة فإنه غفور رحيم، وقد قيل : إن المراد : لكن من ظلم فإنه يخاف إلا أن يتوب فيكون كلاماً مستأنفاً في غير الرسل لئلا يَتوهم أن الخوف لا يزول عن الرسل، وقوله تعالى من بعد:﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ * وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل:١٣-١٤] لا تناقض فيه لأنّ الحجة بعد البيان واليقين .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى:﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا﴾[النمل:١٨-١٩] كيف يصح من سليمان أن يسمع قول النمل وكيف صح من النمل هذا القول ؟

وجوابنا : أنها لما قرُبت من موضع مسيره ﷺ وأنطقها الله تعالى بذلك صح أن يعلم، ومثل ذلك وإن كان معجزاً فانه يصح في أيام الانبياء صلوات الله عليهم .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ فَقَالَ مَا لِيَ لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ * لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ [النمل:٢٠-٢١] كيف يصح هذا القول من سليمان ﷺ في طير ليسْ بمكلف حتى يعذبه ؟ وكيف يذكر ذلك في جملة الزجر ؟ وكيف يزيد ذلك بأن يأتيه بسلطان مبين ؟ وكيف يعرف الهدهد ذلك من مراده حتى يأتيه بخبر سبأ ؟

وجوابنا : أن الله تعالى كان سخَّر له الطير وفي جملتها ما يكون أقرب الى الفهم ولو كان ممنوعاً من النطق، ويجوز في تلك الأيام أن يكون تعالى قد زاد في علمها بإلهام، وأن يكون سليمان قد تقدم من قبل بأمور عرفها الطير أو الهدهد خاصة، فلذلك قال : ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ [النمل:٢١] فأما قوله تعالى عز وجل : ﴿ لأُعَذِّبَنَّهُ ﴾ [النمل:٢١] فالمراد به التأديب، فكما يؤدب المرء من قارب البلوغ فكذلك قال للهدهد، فأما الذبح فقد يجوز أن يكون جائزاً في شريعته كما ثبت في شريعتنا مثله فيما يؤكل، فلا مطعن على ذلك بما ذكروه .

وقوله من بعد في صفة المرأة وأنها تملكهم وأنهم يسجدون للشمس من دون الله فقد يصحّ وقوع مثله ممن لم يبلغ حد التكليف، فلا يصح أن يعترض به على ما ذكرنا، وقوله تعالى من بعد : ﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الكَاذِبِينَ ﴾ [النمل:٢٧] يصح في الهدهد وإن كان لا يعرف التوحيد إذا أجرى الكلام على الحد الذي ذكرنا، فإن مثله يصح من المراهق لأنه قد يعرف الفصل بين من يظهر التوحيد ويعبد ربه بأفعاله وبيْن من يسجد لغير الله تعالى وإن لم يكن مكلفاً .

[**مسألة**] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ [النمل:٤٠] كيف يصح نقل عرشها من ذلك الموضع البعيد في هذا القدر من الأوقات إن ذلك معلوم استحالته ؟

وجوابنا : أن سرعة الحركة والتحريك لا يعلم منتهى حده، فلا سريع إلا ويجوز أسرع منه، فلا يمتنع صحة ذلك إذا كان الله تعالى مقويًا له عليه، ومعنى (قبل أن يرتد إليك طرفك) المبالغة في الإسراع لأن ذلك قد يقال في الأمر السريع الشديد السرعة، ويحتمل أن طرفه لا يرتد إلا بعد أوقات ويكون ذلك كالمعلوم من حاله لأن من نظر إلى جهة ربما أطال النظر إليها ثم يرتد طرفه .

ومعنى قوله من بعد في قصة لوط ﷺ : ﴿ أَتَأْتُونَ الفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ [النمل:٥٤] الفائدة فيه إعظام ما فعلوه، لأنه إذا كان جهرة فهو أعظم من أن يكون خفية، ورُبَّ شيءٍ يحسن على خلوة ويقبح (كونه) [1] بحيث يشاهد، وما ذكره تعالى من بعد من قوله : ﴿ قُلِ الحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ ﴾ [النمل:٥٩] فيه تنبيه على عظم نعمة الله جل وعز ليتدبر فيقام بحق شكره، فذكر ما يقارب عشرين خصلة من النعم التي لا يقدر عليها غيره منبهاً على توحيده، ثم قال في آخره : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [النمل:٦٤] مُوبخاً لهم على جحد ذلك، ثم حكى قول الكفار : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا ﴾ [النمل:٦٧] فإنه يقبح منهم هذا القول مع تقدم تلك

(١) لفظة (كونه) غير موجودة بالنسخة المخطوطة .

الدلائل، ومع قوله بعد ذلك : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل:٦٩] وقوله : ﴿ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [النمل:٧٥] يدل على أن الحوادث كلها مكتوبة في اللوح المحفوظ ليستدل بذلك الملائكة على قدرة الله وعلمه .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ [النمل:٨٨] كيف يصح أن يحسبها من يشاهدها جامدة ساكنة مع شدة الحركة وسرعتها ؟

وجوابنا : أن الجمود في العادة الاتصال، ولا يكون إلاَّ مع السكون، وعند سرعة الحركة لا يحتمل التفرق، فقال تعالى إنها (تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ) وهي على حالها التي يظن أنها لا تكون إلا مع السكون، وقد قيل : إنها تبلغ في سرعة الحركة ما لا يكاد يظن أنها متحركة خصوصاً إذا كان المرء يتحرك مع حركتها، فيكون كراكب السفينة فإنه يظن مع سائر الركاب أنهم ساكنون وإن كانوا يتحركون أسرع حركة .

وقوله تعالى ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [النمل:٨٨] أحد ما يدل على أن الكفر والفساد ليس من فعله وإلا لكان يصح وصفه بأنه محكم متقن، وقوله تعالى من بعد:﴿وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [النمل:٩٢] يدل على أن الاهتداء والضلال من فعل العبد، وقوله تعالى من بعد :﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [النمل:٩٣] لكي يتصور المرء نفسه فيما يأتي ويذر أنه يبصر ويسمع .

سورة القصص

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً** ﴾ [القصص:٥] أليس جَعْل الله تعالى لهم أئمة يدل على أنه خلقهم كذلك فإذا كانوا أئمة بأفعال فيجب أن تكون تلك الأفعال خلقاً لله ؟

وجوابنا : أنهم إنما يكونون أئمة بالعقل والخوف والتمكن وبالألطاف من قبل الله تعالى، وكل ذلك من خلقه، وهو الذي أراد تعالى، وقيل : إن المراد : حكمنا بذلك كقوله تعالى : ﴿ **وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ** ﴾ [القصص:٤١] فالمراد عند الجميع : قضينا وحكمنا وبيّن ذلك قوله تعالى : ﴿ **وَنَجْعَلَهُمُ الوَارِثِينَ** ﴾ [القصص:٥] فأراد بذلك نحو ما ذكرنا ؛ لأن البركة لا تكون باختيار الوارث، وكذلك قال : ﴿ **وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ** ﴾ [القصص:٦] وإذا كان موسى ﷺ وقومه إنما تم لهم ما تم بما أنزل الله تعالى بفرعون وبما خصه به من المعجزات وكل ذلك من فعله صحّ أن يقول : «**وجعلناهم أئمةً**» وليس المراد خلق فيهم صلاتهم وعبادتهم .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ المُرْسَلِينَ** ﴾ [القصص:٧] كيف يصح أن يُوحى إليها وقد بيّن في غير آية أنه ما أرسل إلا رجالاً ؟ وكيف يصح وهي لم تكن نبية فيوحى إليها بما لا يعلم إلا من قبله تعالى ؟

وجوابنا : أنه يجوز أن يعرفها ذلك على لسان نبي الزمان، فلا يلزم ما قلتم ويحتمل أنه ألهمها ذلك فقوى في ظنها كل ذلك إلى حصول العلم لها به .

وقد قيل : أراها تعالى ذلك في المنام بعلامات مخصوصة فعلمت بها، والأقرب ما قدمناه من أن رسولاً كان في الزمان فعرّفها، أو نزل جبريل فعرفها على أن ذلك من معجزات ذلك الرسول .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً ﴾ [القصص:٨] وكيف يصح ذلك مع قول امرأة فرعون : ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لاَ تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً ﴾ [القصص:٩] ؟

وجوابنا : أن المراد بقوله تعالى : ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً ﴾ [القصص:٨] العاقبة، والمراد بقوله تعالى : (قرة عين) ما دعاهم إلى التقاطه، وذلك لا تنافي فيه .

وقد ثبت أنّ هذه اللفظة قد يُراد بها المآل وما يقصد إليه، كقول القائل في المرضعة والوالدة : إنها تُربّي ولدها لكي تنتفع به ويبقى لها .

وقد يُقال : «مرضعة للموت» إذا كان هذا هو العاقبة، وعلى هذا الوجه قال الشاعر :

وأم سمــــاك فـــلا تجزعـــي فللموت ما علمت الوالـــدة

فأما قوله تعالى من بعد : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا ﴾ [القصص:١٠] فالمراد : فراغ قلبها من سائر أمور الدنيا سوى أمر ولدها فلذلك قال تعالى : ﴿ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [القصص:١٠] أي تصدق بما أوحينا إليها .

وقوله تعالى : ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ ﴾ [القصص:١٢] المراد به : الصرف والمنع لا التحريم في الحقيقة، وذلك كقوله تعالى في أهل النار : ﴿ إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [الأعراف:٥٠] فليس لأحد أن يطعن بذلك، وكقوله : ﴿ وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأنبياء:٩٥] وقوله تعالى : ﴿ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ [القصص:١٣] يدل على أن ذلك الوحي كان مقطوعاً به على ما ذكرناه .

[مسألة] ومتى قيل في قوله تعالى : ﴿ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَـــذَا مِـــنْ عَـــدُوِّهِ ﴾ [القصص:١٥] كيف يصح ذلك وإنما يقال : هذا من أعدائه فيستقيم الكلام ؟

فجوابنا : أن المراد ما ذكرته، والعدو قد يقع على الجمع وعلى الواحد على طريقة العرب في المصادر .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾[القصص:١٥] كيف يصح من النبي أن يقع منه قتل من لا يحل دمه ؟

وجوابنا : أن وَكْزَه كان على وجه الدفع لمّا أراد مخاصمته ولم يظن أنه يؤدي إلى قتله، وذلك كالمرء يؤدب ولده استصلاحاً له فيؤديه إلى الموت، وهذا من الصغائر التي نجوزها على الأنبياء، ولذلك قال: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾[القصص:١٥].

وذلك يدل على أن أفعال العباد ليست من خلق الله تعالى وإلا كان الأشبه به أن يقول : هذا من عمل الرحمن، ولذلك قال بعده : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [القصص:١٦] وقوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ [القصص:١٧] أحد ما يدل أيضاً على ما قلناه ؛ لأن فعل المجرمين (إن كان خلقًا من الله تعالى فما فائدة تحرزه من أن يكون ظهيراً لهم لأنه تعالى) [1] إن خلق جرمهم فلا فائدة في أن يكون ظهيراً، وإن لم يخلق (هو) [2] أيضاً فلا فائدة في ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ [القصص:١٨] يحتمل أنه ظهر منه ما يوجب أن لا يعنيه، ويحتمل أنه خاف إن أعانه على نفسه منهم فلا مطعن في ذلك، وقوله من بعد : ﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالأَمْسِ ﴾ [القصص:١٩] يدل على التأويل الثاني وأنه خاف من ذلك، فلهذا امتنع من نصرته، وقوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا المَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ المَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾ [القصص:٢٠] أحد ما يدل على وجوب العمل بالخبر فيما يجري مجرى الخوف ولذلك خرج خائفاً إلى مدين وسأل الله تعالى أن ينجيه من القوم الظالمين، ولو كان ظلمهم من خلق الله لكان ينجيه من نفسه ـ تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً ـ وقوله تعالى من بعد : ﴿ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ

---

(١) ما بين القوسين غير موجود في الأصل المطبوع وأثبته من النسخة المخطوطة .

(٢) لفظة (هو) غير موجودة بالنسخة المخطوطة . اهـ . مصححه .

فَقِيرٌ ﴾ [القصص:٢٤] مع شدة حاجته عجيب في اقتصاره على هذا القدر حتى دعاه شعيب وأمَّنه وكفاه وأنكحه ابنته، وقضى له موسى بعد ذلك أحسن الأجلين .

فالمروي عن المفسرين أنه قضى الأجل الأكمل، وقوله بعد : ﴿ نُودِيَ مِن شَاطِئِ الوَادِ الأَيْمَنِ فِي البُقْعَةِ المُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ ﴾ [القصص:٣٠] أحد ما يدل على حدوث كلام الله تعالى وإلا كان يجب أن يكون أبداً قائلاً لموسى هذا القول .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا المَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحاً لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى ﴾ [القصص:٣٨] كيف يصح على فرعون أن يظن هذا الظن مع كمال عقله ومعرفته بأن القصور وإن بُنيت أطول منها فلا يصح فيها ذلك ؟ وكيف يصح أن يقول هذا القول مع قوله تعالى في سورة بني إسرائيل : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [الإسراء١٠٢] فإن كان عالماً بذلك فكيف يصح أن يظن الاطلاع إلى إله موسى ؟

وجوابنا : أن فرعون لما ادعى الإلهية وصدقه قومه لجهلهم كان يظهر القدرة ويدعيها وإن كان في الباطن يعلم خلاف ذلك، وعلى هذا الوجه قال : «ما علمت لكم من إله غيري» مع علمه باحتياجه إلى الأكل والشرب ودفع المضار، فعلى هذا الوجه قال لهامان . وذلك لا يمنع من أن يكون في الحقيقة عالماً بالله تعالى على ما يدل عليه قوله : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ ﴾[الإسراء:١٠٢] فليس بين الآيتين اختلاف .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ ﴾ [القصص:٤٩] أليس يدل على شك منه في النبوة ؟

وجوابنا : أنه تعالى قال ذلك على وجه الحجاج، ولذلك قال بعده : ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [القصص:٤٩-٥٠] فأما قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص:٥٦] فالمراد : لا تثيبه، وليس

المراد لا تدله ولا تبين، وكيف يصح ذلك وقد قال جل وعز : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى:٥٢] أو يقال : إنه ظهر منه ﷺ شدة المحبة لإيمان أبي طالب عمه وأن يكون من أهل الجنة، فأنزل الله تعالى ذلك مُنبهاً به على أن الجنة لا تُنال إلا بالعمل الصالح، ولذلك قال : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [القصص:٥٦]

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾ [القصص:٦٨] كيف يصح أن يصف نفسه بأنه يختار ما اختاروه أو يختار ما لم يختاروه ؟ وأي فائدة في ذلك ؟

وجوابنا : أن المراد : ما كان لهم الخيرة في ترك عبادة الله واتخاذ الأصنام آلهة ولذلك قال بعده : ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [القصص:٦٨] فبين أنه الخالق لما يشاء وأنه يختار لهم التوبة لأن هذه الآية عُقّيب قوله : ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَعَسَى أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴾ [القصص:٦٧] فبين أنه تعالى يختار للمكلفين ما هو أصلح، وأنه ليس لهم الخيرة فيما يختارونه بإرادتهم وشهوتهم .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ ﴾ [القصص:٧٦] كيف يصح أن يبلغ في الغنى هذا الحد ومثل ذلك متعذر في العادة ؟

وجوابنا : أن العصبة قد يقل عددها ويكثر فلا يمتنع أن يكون الله تعالى قد آتاه من الأموال ما فرقه في الظروف الكثيرة وبلغت مفاتيح غلقها ما ذكره الله تعالى ولسنا نعلم أن الغلق في ذلك الزمان كيف كان، فإنه قد يعظم فتعظم لذلك مفاتيحه وقد يصغر، ومعلوم أن كثيراً من الملوك يجتمع في خزانته مثل ذلك وأكثر، فلا حاجة لاستبعاد ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لاَ تَفْرَحْ ﴾ [القصص:٧٦] لا بد من حذف في الكلام وهو : لا تفرح بما حصل فَرَحَ من يظن أنه يدوم ويبقى، وقوله : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ ﴾ [القصص:٧٧] يدل على ما قلناه، فكأنهم أشاروا عليه بأن ينفقه

في سبيل الله وينصرف عن الجمع الكثير، وقوله : ﴿ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ [القصص:٧٧] المراد به التمتع بالقدر الذي يخرج في العرف .

وقد قيل : إن المراد : أن يأتي في الدنيا ما يفوز لأجله بالآخرة ؛ إذ الدنيا إنما تراد لمثل ذلك إذا وسّع الله على المرء، ولذلك قال تعالى آخراً : ﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ﴾ [القصص:٨٠] حاكياً عن أولي العلم منهم، ونبه تعالى بقوله : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ ﴾ [القصص:٨١] على أن الاعتداد بالدنيا وإن كثرت من أعظم الخطأ، وأن الواجب تفريق ذلك في مصالح الدين والدنيا، وقال تعالى : ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣] فإن من تكون بغيته جمع الأموال وعمارة الدنيا ويلهو عن الآخرة فمراده العلو في الأرض والفساد، فإن أضاف إلى ذلك التسلط على الناس لما فضله الله به فهو أعظم، (ولم يعن)[1] بذلك إرادة العلو في باب الدين، فإن بلغ الأنبياء هذه الرتبة العالية فيجوز أن يريدوا انقياد الناس لهم ودخولهم تحت طوعهم .

وقوله عز وجل : ﴿ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [القصص:٨٤] أحد ما يدل على أنه لا يزيد في العقاب البتة وإن كان يزيد على الثواب التفضل الكثير، وقوله تعالى من بعد : ﴿ وَلاَ تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ [القصص:٨٨] المراد به أنه يفني جميع الأشياء ثم يعيد ما يجب إعادته، وقوله : (إلا وجهه) المراد به : إلا هو، فليس للمشبهة تعلق بذلك، ويلزمهم إن أثبتوا لله وجهاً ويداً أن يقولوا إن سائره يفنى ويبقى وجهه وليس ذلك مما يعتقده مسلم، وعلى هذا السبيل يقال هذا وجه الأمر وهذا وجه الصواب فقد يذكر الوجه ويراد نفس الشيء، فعلى هذا الوجه نتأول الآية .

---

(١) في الأصل المطبوع : (ولمن يعنى) وما أثبته من النسخة المخطوطة وهو الصواب . ا هـ . مصححه .

سورة العنكبوت

بيّن تعالى في هذه السورة ما إذا وطّن المكلف نفسه عليه كان باعثاً له على العبادة وصارفاً له عن المعاصي فقال تعالى : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ ﴾ [العنكبوت:٢] فبيّن أن المؤمن لا يخلو من فِتن ومِحن وشدائد، وأن الواجب أن يعتبر بذلك ويصبر، وصبره على ذلك يدعوه إلى الصبر على العبادة وعن المعاصي، ثم بيّن أن هذه عادة الله تعالى فيمن تقدم أيضاً فقال جل وعز : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ [العنكبوت:٣] وذكر العلم وأراد المعلوم ؛ لأنه تعالى عالم لم يزل ولا يزال ولا يعلم الشيء عند كونه فقط .

ومثل ذلك يجري مجرى الوعيد كقول القائل لغيره : أنا عالم بتقصيرك إذا قصرت، وبوفائك إذا وفيت، ثم بيّن من بعد بقوله : ﴿ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾[العنكبوت:٦] أن من تمسك بعبادته فإلى نفسه أحسن، وأنه تعالى ما أراد بتكليفه إلاَّ أن يعرضه للمنزلة العالية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [العنكبوت:٦] وبيّن أنه وصّى المرء ببرّ الوالدين إيجاباً لحقهما وأنه يجب أن لا يمتنع من برهما وإن دعواه إلى الشرك لكنه لا يطيعها في باب الدين ويصاحبهما بالمعروف.

[مسألة] ومتى قيل : ما معنى قوله : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴾ [العنكبوت:٩] وأيّ فائدة في هذا الإدخال وقد آمنوا وعملوا الصالحات ؟ ولم صاروا هم بأن يدخلوا في الصالحين أولى من أن يدخل الصالحين في جملتهم ؟

وجوابنا : أنه تعالى قد بين ما للصالحين من المنزلة في الآخرة وما يفعله بهم من معونة ونصرة في الدنيا، ثم بين أن كل من آمن وعمل صالحاً فهو داخل في هذا الوعيد باعثاً لهم على التمسك بالإيمان .

وبيّن من بعد أن المعتبر بالإخلاص لا بالقول فقال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ﴾ [العنكبوت:١٠] .

وبين أن النفاق يمنع من دخول المنافق وإن أظهر الإيمان فيما وعد به الصالحين فقال تعالى : ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾ [العنكبوت:١١] .

[مسألة] ومتى قيل : ما معنى قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ ﴾ [العنكبوت:١٢] .

فجوابنا : أن الله تعالى أنكر ذلك عليهم بقوله : ﴿ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ ﴾ [العنكبوت:١٢] وإنما قالوا ذلك، إيهاماً للمؤمنين بأنهم ينصرونهم في الدنيا وينفعونهم لا بأنهم يحملون خطاياهم في الحقيقة .

ثم بيّن تعالى أن الأمر بالضد من ذلك وأن هؤلاء الكفار يحملون أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم لأنهم إذا دَعوا غيرهم إلى الكفر والمعاصي كانت هذه منزلتهم .

[مسألة] ومتى قيل في قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً ﴾ [العنكبوت:١٢] كيف يصح أن يعيش المرء هذا القدر وهذا بخلاف العادة ؟

فجوابنا : أن من ينكر ذلك فمراده دعاء إلى التعطيل والإلحَادِ، والله تعالى قادرٌ على ذلك، وعلى هذا الوجه بيّن أمر الجنة وأنه يبقيهم .

ومن تأول ذلك على أن المراد أن دعوته إلى الشريعة بقيت هذه المدة فقد أخطأ، وكان ﷺ يدعو حالاً بعد حال ويصبر عليهم كما ذكره الله تعالى في نبوّة نوح ثم دعا عليهم آخراً بقوله : ﴿ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيَّاراً ﴾ [نوح:٢٦]

لما علم بأنهم لا يؤمنون، وأنزل الله تعالى بهم من بعد العذاب، وقوله عز وجل : ﴿ فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ * فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾ [العنكبوت:١٤-١٥] يدل على أنه بقي هذه المدة، وأنه بقي بعدها أيضاً، ولذلك قال ﴿ وَجَعَلْنَاهَا ﴾ [العنكبوت:١٥] يعني السفينة ﴿ آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [العنكبوت:١٥] .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت:١٦] ما فائدة قوله تعالى : ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت:١٦] والمعلوم أن ذلك خير لهم على كل حال ؟

وجوابنا : أن ذلك يقال على وجه التهـديد لا لأن علمهم يدخل ذلك في أن يكون خيراً، ثم بين لهم أن الذين يعبدونهم لا يملكون لهم رزقاً ولا نفعاً، وأن الواجب عبادة من يبتغى من جهته الرزق ومن إليه المرجـع في الإثابة .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً ﴾ [العنكبوت:٢٥] كيف يصح وقوع الكفر في الآخرة ؟

وجوابنا : أن المراد بهذا الكفر الجحد والإنكار، فإن المودة بين المبطلين تكون في الدنيا دون الآخرة كما قال تعالى : ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف:٦٧]

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ * قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ﴾ [العنكبوت:٣١-٣٢] كيف خفي على إبراهيم أنهم لم يريدوا بالإهلاك لوطاً ومن آمن معه حتى قال ما قال، فأجابوه بما أجابوا ؟

وجوابنا : أنه يجوز في الدنيا أن يلحق العذاب بالعصاة ويكون فيهم غيرهم فيكون ذلك محنة، فلما كان ذلك مجوزاً جاز أن يقول إبراهيم ﷺ ما قال، ولا يمنع أن يكون في ظنه أن القوم لا يعرفون أن لوطاً فيها فعرّفهم ذلك، وقوله تعالى من بعد : ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ﴾ [العنكبوت:٤٠] لذكر ما أنزله بأمم الأنبياء من العذاب، وقوله بعد ذلك : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٠]

يدل على أن هذه الأفعال أفعال العباد ليصح أن يؤاخذوا بها وأن ينسب الظلم إلى أنفسهم كما نقوله في هذا الباب، وقوله من بعد: ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ [العنكبوت:٤٤] يدل على ما نقوله من أنه لا يفعل إلا الحكمة والصواب، وفي قوله بعـد : ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ [العنكبوت:٤٥] ربـما يقال : إنا نرى من يصلي ولا ينتهي عن ذلك فكيف يصح هذا الظاهر ؟

وجوابنا عنه أن الذي تنهى الصلاة عنه هـو الـذي لا يقـع، والمصـلي وإن فعـل منهما الكثير فمعلوم من حاله أنه غير فاعل لشيء من ذلـك في بعـض الأوقـات، فبـيّن الله تعالى أنه أوجبها لأن عنده لا يختار المصلى الفحشاء والمنكر وإلا فالصلاة محـال أن تنهى .

فالمراد ما ذكرناه وهذا أحد ما يعتمد عليه في أنه تعالى لا يعبد بهذه الشرائع إلا لهذا الوجه، وقوله من بعد : ﴿ وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ [العنكبوت:٤٦] **ربما قيل فيه** : إن ظاهره يقتضي فيمن ظلم منهم أنه يجادل بما ليس أحسن وذلك لا يصح ؟

وجوابنا : أن من ظلم منهم نفسه وتمرد لا يكون ما يلزمنا أن نرد به عليه مثل الذي نخاطب به غيره وإن كان الجميع حسناً أنّا نفعل مع بعضهم ما غيره أحسن منه وإن كان كل ذلك من باب الحسن، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لأَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٨] يدل على ما نقوله من أنه تعالى ينزه الأنبياء عن كل أمر ينفر عنهم، وقوله تعالى من بعد : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ [العنكبوت:٥٤] ربما يتعلق به الخوارج في أن كل فسق كفر وربما يتعلق به من يقول : إنه مع الإيمان لا يضر شيء .

وجوابنا : أن ذلك لا يمنع من أن يحيط بغيرهم فلا يدل على ما قالوه، وفي قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [العنكبوت:٥٥] دلالة على أنهم يعاقبون ويعرفون أن ذلك العقاب عدل من حيث عملوا وأذنبوا ولو كان ذلك من خلق الله تعالى فيهم لما صح ذلك .

وقوله تعالى من بعد : ﴿ **يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ** ﴾ [العنكبوت:٥٦] ربما يقال : ما الفائدة في ذلك وهو معلوم للمخاطب ؟

وجوابنا : أن المراد : فإياي فاعبدون ولا يصدنكم عن العبادة عدم الاستقرار في مكان واحد، بل يجب أن يكون الوفاء بعبادة الله تعالى ولو مع التحول إن تتحولوا فأرض الله واسعة .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ** ﴾ [العنكبوت:٦٤] كيف يصح ذلك في وصف الدار التي هي جماد ؟

وجوابنا : أنه تعالى بيّن بهذا المجاز ما لا يفهم بالحقيقة، إذ المراد أن هذه الدار من حق الحياة فيها أن تدوم ولا تنقطع، ومن حقها أن يدوم نعيمها بلا بؤس وأن يتصل (ولا مشقة)[1] .

---

(١) في النسخة المخطوطة : (ولا شوب) . اهـ . مصححه .

سورة الروم

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ ﴾ [الروم:٤-٥] كيف يصح أن يفرحوا بغلبة بعض الكفار لبعض ؟

وجوابنا : أنه تعالى لما بشر المؤمنين بأنهم سيغلبونهم ذكر ذلك، فلو لم يكن إلا ما يظهر من صدق هذا الوعد لكفى . فكيف وقد ينصر المؤمن مما يجري من الذل على الكفار من قبل الكفار أيضاً؟ ولذلك قال تعالى بعده : ﴿ وَعْدَ اللَّهِ لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ [الروم:٦] وبيّن أن الأكثر من الناس لا يعلم إلا ظاهر الحياة الدنيا دون ما يتعلق بالدين بقوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ [الروم:٦-٧] ومتى قيل في قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ ﴾ [الروم:٧] لماذا كرر؟ وما الفائدة فيه؟ وهل يحمل على التأكيد أو فيه مزيد فائدة؟

فجوابنا : (جواب هذا السؤال لم نجده فى شيء من نسخ هذا الكتاب، وإنما وجدنا مكان الجواب بياضًا، كذا وقد ذكر الزجاج فى تفسيره فقال : (هم) الأول مرفوعة بالابتداء، و (هم) الثانية ابتداء ثان، و (غافلون) خبر (هم) الثانية، والجملة الثانية خبر الأول، والفائدة فى الكلام أن ذكر (هم) ثانية وإن كانت ابتداء يجرى مجرى التوكيد كما نقول : زيد هو عالم، وهو أوكد من قولك : زيد عالم، ويصلح أن تكون الثانية بدلاً من (هم) الأولى مؤكدة أيضًا كما نقول : يرانيه إياه، ورأيت زيدًا نفسه، ولعل قاضى القضاة لم ير منه جوابًا شافيًا وأراد إشفاء منه فيوقف فيه، أو لا يمتنع أن يكون قد أجاب عنه فى نسخة أصله ولا يكون قد وقع البيان) (١) .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ [الروم:١٠] كيف يصح أن يسمى ما يفعله بهم تعالى سوءاً وذلك لا يكون إلا قبيحاً ؟

---

(١) ما بين القوسين ساقط من الأصل المطبوع، وأثبته من النسخة المخطوطة . اهـ . مصححه .

وجوابنا : أنه أجرى هذا اللفظ على ما هو جزاء عليه كقوله : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾[الشورى:٤٠] وذِكْرُه كثير في اللغة وإلا فما يفعله تعالى لا يكون إلا عدلاً وحكمة، وذلك لا يوصف بهذا الوصف، ولذلك لا يحسن وصف الله تعالى بأنه مسيء.

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ [الروم:١٤] ثم قال : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ [الروم:١٥-١٦] .

فبين أنهم عند قيام الساعة يتفرقون إلى هذين القسمين : كافر ومؤمن، فقولك أن الفاسق له منزلة بينهما يبطل .

وجوابنا : أنه تعالى قال : (يتفرقون) ثم ابتدأ بقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [الروم:١٥] ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [الروم:١٦] فذكرهما ولم ينف ثالثاً لهما، وقد ثبت حكم ذلك الثالث بسائر الآيات .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ ﴾ [الروم:٢٢] أليس يدل ذلك على أن كلامهم من خلق الله تعالى ؟

وجوابنا : أن اختلاف خلقة الألسنة من قبله تعالى ولأجل هذا الاختلاف يدرك كلامهم مختلفاً، فمن كان في لسانه رقة لا يكون كلامه بمنزلة كلام من في لسانه غلظ وكذلك اختلاف منافذ الرياح والنفس، فبيّن تعالى أن في ذلك آية وعبرة .

وهذا الجواب أولى من قول من يقول : إن المراد به اختلاف اللغات وأنها من باب التوقيف وتضاف إلى الله تعالى لأن الوجه الذي به يقع الاعتبار في اختلاف الألسنة هو في كيفية إدراكنا ؛ لأن الكلام في اللغات هل هي توقيف أو اصطلاح فيه الخلاف الكثير .

ومعنى قوله تعالى من بعد : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ﴾ [الروم:٢٥] أنهما تقومان بفعله وإرادته، وذكر الأمر على وجه التفخيم لشأنه لأن[1]

(١) في الأصل المطبوع : (كأن) وما أثبته من النسخة المخطوطة . ا هـ . مصححه .

هناك أمراً هو قول، وهذا كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل:٤٠] وقوله تعالى من بعد : ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ [الروم:٢٥] يجري هذا المجرى لأنه تعالى لا يدعوهم في الحقيقة لكنه يجيبهم ويكمل عقولهم ويمكنهم فيخرجون ويرجعون إلى الله تعالى بمعنى إلى حيث لا حاكم سواه وقوله تعالى من بعد : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم:٢٧] ربما **قالوا فيه** : إن ذلك يدل على جواز الضعف عليه .

وجوابنا : أنه بمعنى هيّن كما إذا قلنا في الله أنه أكبر وأعظم فالمراد به كبير عظيم، وكما قال الشاعر :

إن الذي سمك السماء بنى لنـا ‌ ‌ ‌ ‌ بيتـاً دعائمـه أعـز وأطـول

والمعنى أنه عزيز طويل .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾ [الروم:٤١] كيف يصح ظهور الفساد لأجل كسبهم ؟

وجوابنا : أنهم إذا أفسدوا في الأرض وظلموا ومنعوا الحقوق يظهر بذلك الفساد في الموضعين، وإذا قلت النعم من جهة الله تعالى لأجل ذلك كان ردعاً لهم عن أمثال ما فعلوا، ولذلك قال تعالى : ﴿ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم:٤١] ولا يمتنع أن يكون الصلاح عند كسبهم أن يقع من الله تعالى التضييق في المعيشة على وجه الاعتبار كما فعله تعالى بأمم الأنبياء من إنزال العقاب بهم، ولذلك قال تعالى بعده : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ﴾ [الروم:٤٢] فبيَّن ما نالهم لأجل شركهم، وقوله من بعد : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ القَيِّمِ ﴾ [الروم:٤٣] هو خطاب للكل ما إن كان لفظه خاصاً، والمراد بالوجه نفس الإنسان، فكأنه قال : فأقم نفسك للدين القيم حتى لا تحول عنه ولا تزول فلا تأمن في كل وقت من الاخترام، فإذا ثبتّ على الاستقامة كنت من الفائزين، ولذلك قال تعالى بعده : ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ [الروم:٤٣] وقوله تعالى من بعد : ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾ [الروم:٤٤] يدل على أنه من فعله وإلا كانت إضافته إلى خالقه أولى وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلأَنفُسِهِمْ

يَمْهَدُونَ ﴾[الروم:٤٤] يوجب أن ذلك من فعلهم أيضاً، وقوله تعالى من بعد : ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ ﴾ [الروم:٤٥] يدل أيضاً على ذلك لأن المجازاة من الله تعالى على نفس ما خلق لا تصح، وقوله تعالى من بعد : ﴿ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ [الروم:٤٥] يدل أيضاً على ذلك ؛ لأن الكفر إن كان من خلقه فقد أراده وأحبه، وإذا أراده فقد أحب الكافر ؛ إذ محبة الكافر هى محبة كفره، وقوله تعالى من بعد : ﴿ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ﴾ [الروم:٤٧] يدل على أن الجرم من قِبَلهم وقوله تعالى من بعد : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم:٤٧] يدل على أن إيمانهم من قِبَلهم إذ لو كان خلقاً من الله لكان ناصراً لنفسه وذلك محال، وقوله تعالى من بعد : ﴿ فَإِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى ﴾ [الروم:٥٢] هو على وجه المبالغة لتركهم القبول والتفكر، وكذلك قوله : ﴿ وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ ﴾ [الروم:٥٢] ، ولذلك قال تعالى بعده : ﴿ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾ [الروم:٥٢] .

ولو أراد حقيقة الصم لكان حالهم في الإقبال كحالهم في الإدبار، ولذلك قال تعالى بعده : ﴿ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ﴾ [الروم:٥٣] فأما قوله عز وجل : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ﴾ [الروم:٥٤] والضعف عرض لا يصح أن يخلق الجسم منه فالمراد المبالغة في ضعفه وهو على ما هو عليه، وبيّن أن آخر أمره أن لا ينتظر له قوة بعد ضعف وهو قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ﴾ [الروم:٥٤] وكل ذلك تحريك لهم على التدارك إلى التوبة خصوصاً وقد أدرك حال الشيبة.

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ [الروم:٥٥] كيف يصح أن يخبروا بذلك ويقسموا عليه وهو كذب وعندكم أنهم في الآخرة هم ملجؤون إلى أن لا يفعلوا القبيح ؟

وجوابنا : أن المراد بذلك إخبارهم عن أنهم ما لبثوا غير ساعة عند أنفسهم لأنّ ما بين الموت والإعادة وإن طالت مدته فهو كالقصير من الأوقات في أن المعاد لا يتبين له ذلك، وقوله تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ [الروم:٥٧] يدل على ما نقول لأنه إن كان ظلمهم من خلق الله فهم مستغنون عن المعذرة .

سورة لقمان

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ [لقمان:١٠] كيف يصح مع ثقلها وعظمها أن تقف لا على عمد ؟

وجوابنا : أنه تعالى إذا أسكنها حالاً بعد حال وقفت وإن كانت ثقيلة كما أن أحدنا يمسك يده وقد بسطها، فمن حيث يفعل فيها السكون حالاً بعد حال تثبت ولذلك متى لم يسكنها سقطت، لأنّ أحدنا يغفل ويلهو والله سبحانه يتعالى عن ذلك .

واختلف المفسرون في ذلك فقال بعضهم : الفائدة فيه نفي نفس العمد أصلاً على ما ذكرنا .

وقال بعضهم : الفائدة فيه أنا لا نرى العمد، والأول هو أقوى وهو داخل في الأعجوبة، وقوله تعالى من قبل : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [لقمان:٦] يدل على أن المضل هو الإنسان وأنه مذموم، ويدل على أن كل قول قيل بلا علم في الأديان فهو مذموم، وقوله تعالى من بعد : ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً ﴾ [لقمان:١٥] يدل على أن العشرة بأحوال الدنيا قد تحسن مع المباينة في الدين، ثم بين أن من أناب إلى الله يجب أن يتبع فقال : ﴿ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ ﴾ [لقمان:١٥] إلى قوله تعالى من بعد حاكياً عن لقمان : ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾ [لقمان:١٦] القصد فيه أن يتأمله المرء فيعمل به، فإن هذه الوصية جامعة للانقطاع إلى الله تعالى بعد المعرفة بعلمه وقدرته لأن قوله تعالى : ﴿ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان:١٦] يؤذن بأن ما أقدم المرء عليه دق أم جل فهو معلوم لله ، وتكون المجازاة بحسبه، وذلك ردع عظيم وهي جامعة القيام بالعبادات وهو قوله : ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاَةَ

وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ ﴾ [لقمان:١٧] وهي أيضاً جامعة للآداب وما ينبغي أن يتمسك به المرء من الأخلاق والتواضع وهو قوله : ﴿ وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً ﴾ [لقمان:١٨] إلى آخر الكلام، وقوله من بعد : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [لقمان:٢٠] يدل على أن التمسك بالمذاهب إنما يحسن إذا كان عن علم، وقوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ [لقمان:٢١] مما لا مزيد عليه في بطلان . التقليد لأنه تعالى بيّن أنهم إذا جاز أن يتركوا الدليل اتباعاً لآبائهم من دون دلالة فقد جاز أن يرجعوا إلى اتباع الشيطان فيما يدعوهم إليه ؛ لأن ما في كلا الموضعين هو اعتماد على القول من دون دلالة، وهذا هو الذي نعتمد عليه في بطلان التقليد ونقول : إنه إذا جاز تقليد الآباء في الإسلام فيجوز تقليد أولاد النصارى لآبائهم لأن كل ذلك اعتماد على قبول القول من غير دلالة، وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ [لقمان:٢٧] يدل على أن كلام الله مقدور له يحدث حالاً بعد حال لا كما قاله قومٌ من أنه متكلم بذات أو بكلام قديم لا يصح فيه زيادة ولا نقصان .

[مسألة] وربما تعلقوا بقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ ﴾ [لقمان:٣١] وقالوا : يدل ذلك على أن جريه من فعل الله تعالى ليكون مضافاً إلى الله تعالى، ولولا ذلك لوجب أن يكون مضافاً إلى الملاح ولما صح أن يكون آية وقد قال تعالى : ﴿ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ ﴾ [لقمان:٣١] .

وجوابنا : أن وجه الاعتبار في ذلك خلقه تعالى للماء في البحر على الصفة التي معها تجري السفن، وخلقه الرياح على هذا الوجه، ولولا ذلك لما صح جريها بفعل العباد، وفي ذلك آيات الله تعالى ونعمه لأنه لولا ذلك لما صحّ التوصل إلى قطع البلاد وجلب النعم وقوله تعالى :﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾[لقمان:٣٢] يدل على أن الجحد لا يكون من خلق الله تعالى ؛ إذ لو كان من خلقه لما صح أن يذمه هذا الذم العظيم وقوله تعالى من بعد : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴾ [لقمان:٣٣]

أي عقاب ربكم بالتحرز من المعاصي، وقوله تعالى : ﴿ وَاخْشَوْا يَوْماً لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ [لقمان:٣٣] من أقوى دلالة ما يدل على أن وعده ووعيده لا يجوز أن يقع فيهما خلف، ومن أقوى ما زجر الله به عباده عن المعاصي .

فإذا تدبر المرء عند قراءته ما ذكرنا عظم انتفاعه بذلك؛ ولـذلك قال بعـده : ﴿ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ [لقمان:٣٣] يعني بذلك متاعها ﴿ وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الغَرُورُ ﴾ [لقمان:٣٣] زجر بذلك عن قبول كل قول يغر المرء ويصرفه عن التمسك بطاعة الله، ثم بين تعالى ما يختص به عز وجل من العلم ولم يطلع العباد عليه بالأدلة وإن جاز أن يطلع أنبياءه على بعضه ليكون معزاً لهم فقال جل من قائل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ [لقمان:٣٤] وفي ذلك دلالة على بطلان قول من يحكم أن أحكام المنجمين صحيحة فيما جرى هذا المجرى .

سورة السجدة

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ** ﴾ [السجدة:٥] أليس ذلك صريحاً في أنه تعالى في السماء ؟

وجوابنا : أنه جعل جل وعز السماء مكاناً للملائكة وللأرزاق التي بها يحيي الناس، ولذلك قال تعالى : ﴿ **وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ** ﴾ [الذاريات:٢٢] فلأجل ذلك قال : ﴿ **يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ** ﴾ [السجدة:٥] ومعنى قوله : ﴿ **ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ** ﴾ [السجدة:٥] أي إلى المكان الذي لا حكم فيه إلا حكمه، لأنّ الملائكة طوع الله ولا يفعلون إلا بأمره .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ** ﴾ [المعارج:٤] .

وجوابنا : أن المراد بهذه الآية نزول الملائكة بالوحي وغيره من السماء إلى الأرض ورجوعها إلى مكانها فلا يكون ألف سنة، بل بين السماء والأرض مسير خمسمائة عام، وأما الآية الثانية فالمراد بها يوم القيامة، ويدل عليه قوله تعالى :﴿ **إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً * وَنَرَاهُ قَرِيباً** ﴾ [المعارج:٦-٧] فبين أنه يطول ذلك الزمن على الكفار لشدته فيساوي لأجل تلك الشدائد خمسين ألف سنة، وقوله من بعد : ﴿ **الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ** ﴾ [السجدة:٧] يبين أنه لا قبيح في قوله ولا أسمائه، **فإن قيل** : ففي جملة ما خلق ما يقبح في الصورة .

فجوابنا : أن المراد نفي ما يقبح في العقل من فعله لا ما يستقبح في الصورة بين ذلك أن هيئة الإنسان في صلاته وقضاء حاجته والنهي عن المنكر قد يستقبح في المنظر وتوصف مع ذلك بأنها حسنة وحكمة، وقوله تعالى : ﴿ **أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ** ﴾ [السجدة:١٠] يدل على بطلان تعلقهم

في باب الرؤية بذكر اللقاء لأنّ الله عز وجل بين أنهم كافرون بلقاء ربهم وأراد كفرهم بالإعادة وبالثواب والعقاب، وقوله عز وجل من بعد : ﴿ **وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ** ﴾ [السجدة:١٢] المراد به : يقولون ربنا، وحَذْفُ مثل ذلك يحسن في الكلام إذا كان فيه ما يدل عليه، ولا يجوز أن يتمنوا ذلك ويسألوه إلا والعقاب من جهتهم يقع وباختيارهم يكون، وقوله تعالى : ﴿ **وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا** ﴾ [السجدة:١٣] فالمراد به على وجه الإلجاء الذي إذا وقع لم ينتفعوا به لأنهم إنما ينتفعون بما يفعلونه طوعاً ليستحقوا به الثواب، ولذلك قال تعالى : ﴿ **وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ** ﴾ [السجدة:١٣] وقوله : ﴿ **فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا** ﴾ [السجدة:١٤] يدل على أن اللقاء ليس بمعنى الرؤية وأراد : تركتم النظر والعلم بالإعادة، وقوله تعالى : ﴿**إِنَّا نَسِينَاكُمْ**﴾[السجدة:١٤] والنسيان على الله تعالى لا يجوز والمراد به : عاقبناكم على تركتكم على مثال قوله تعالى : ﴿ **وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا** ﴾ [الشورى:٤٠] وقوله تعالى : ﴿ **أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لاَّ يَسْتَوُونَ** ﴾ [السجدة:١٨] يدل على أن الفاسق ليس بمؤمن ؛ لأنه تعالى ميز بينهما فجعل للمؤمنين جنات المأوى وللفاسقين النار .

[مسألة] ومتى قيل : ما معنى قوله تعالى : ﴿ **وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾ [السجدة:٢١] .

فجوابنا : أن المراد : ما عجله من الآلام لكي يصلحوا، فسماه عذاباً مجازاً ويجوز أن يريد بذلك عذاب القبر أو الحدود التي تقام على بعضهم، فمن يعلم ذلك يكون أقرب إلى أن يرجع عن معاصيه، وقوله تعالى : ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا** ﴾ [السجدة:٢٢] أحد ما يدل على أن العبد مختار لفعله، وإلا فالإعراض ممن لا يقدر على الشيء وتركه محال لأنه لا يقال في أحدنا أنه أعرض عما يعجز عنه، وقوله تعالى من بعد : ﴿ **إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ** ﴾ [السجدة:٢٢] والمراد به العقاب يدل على أن كل مجرم وإن كان من أهل الصلاة فالله تعالى ينتقم منه إلاَّ أن يكون تائباً أو جرمه صغيراً، وقوله تعالى من بعد : ﴿ **وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي**

إسْرَائِيلَ * وَجَعَلْنَا مِنهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ﴾ [السجدة:٢٣-٢٤] المراد به : جعلناهم أنبياء وعلماء يُقتدى بهم لأجل صبرهم، فدل بذلك على أن الأنبياء لولا صبرهم عن معاصي الله لما جُعِلُوا أنبياء، فيبطل بذلك قول من يجوز عليهم الكفر والكبائر قبل البعثة، وقوله تعالى من بعد : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [السجدة:٢٥] يحمل على أنه تعالى يفصل بينهم بالعلم، فينقاد المبطل ويعرف المحق حاله في ذلك فإن كان الفصل يقتضى نقل الأعراض فسيفعله تعالى .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾ [السجدة:٣٠] كيف يصح والقوم يكذبون بذلك كما قال تعالى بعده : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [سبأ:٢٩] ؟ ومن لا يؤمن بيوم القيامة كيف ينتظر ذلك ؟

وجوابنا : أن موتهم لما كان مقدمة الإعادة جاز أن يقول ذلك، ويحتمل أنهم على غير يقين مما قالوا، فهم على شك وتجويز، فحكمهم حكم المنتظر .

سورة الأحزاب

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى: ﴿ **مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ** ﴾ [الأحزاب:٤] ما معنى ذلك ؟ فإن كان تعريفاً لنا فهو معلوم .

وجوابنا : ما جعل لأحد ما يتسع به في النظر في الأمور وفي الاجتهاد وفي الرأي حتى لا يشغله بعض ذلك عن بعض، بين ذلك أن المراد مقصور على ما جرت به العادة على النظر في الدين والدنيا، وقد قيل : إنه كان في الصحابة من يلقب بذلك ويعتقد فيه الاتساع في الرأي والمعرفة فأنزل الله تعالى ذلك لأن المنافقين زعموا أن له قلبين .

[مسألة] ومتى قيل : ما المراد بقوله : ﴿ **النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ** ﴾ [الأحزاب:٦] كيف يصح أن يكون أولى بهم من أنفسهم ؟ وكيف يصح في أزواجه أن يكُنَّ أمهاتهم ؟

وجوابنا : أنه أولى بهم فيما يقتضي الانقياد في الشرع، وأولى بهم فيما يتصل بالإشفاق، أو المراد أنه أولى بهم من بعضهم لبعض كقوله تعالى : ﴿ **فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ** ﴾ [النور:٦١] وإما أن أزواجه ﷺ أمهات المؤمنين، فالمراد تأكيد تحريمهن على المؤمنين وتبرئة رسول الله عن أن يخلفه في أزواجه غيره، ولذلك روي عن عائشة في امرأة قالت : إنك أمي أنها أنكرت ذلك وقالت : إنما أنا أم رجالكم، لأن التزويج في الرجال يصح، فأكد ذلك بأن شبههن بالأمهات، وربما حذف التشبيه اللفظ ليكون على وجه التحقيق كما يقال للرجل البليد : هو حمار، ولمن لا يصغي ولا يفهم : إنه ميت، وقال تعالى : ﴿ **إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى** ﴾ [النمل:٨٠] .

[مسألة] ومتى قيل : ما معنى قوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ ﴾ [الأحزاب:٧] وقوله : ﴿ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً ﴾ [الأحزاب:٧] ما هذا الميثاق المأخوذ من أمم الأنبياء ؟

وجوابنا : أنه تعالى لما أعلمهم بوجوب طاعته وطاعة الرسول ودلهم على ذلك ببعثة الرسل وغيرهم وألزمهم القيام بذلك كان ذلك أوكد من المواثيق بالأيمان المغلظة وأعظم في وجوب الحجة عليهم في الآخرة، ولذلك قال تعالى بعده : ﴿ لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ [الأحزاب:٨] .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا العَذَابُ ضِعْفَيْنِ ﴾ [الأحزاب:٣٠] كيف يجوز أن يزيد في عقابهن وذلك ظلم يتعالى الله عنه ؟

وجوابنا : أن مكان اتصالهن برسول الله ﷺ وعظم نعمة الله عليهن بذلك وبغيره يوجب أن ما يقع منهن من المعصية يكون أعظم عقاباً، لأن المعصية تعظم بعظم نعمة المُعْصى كما أن معصية الولد لوالده وله عليه الحقوق العظيمة أعظم، فبيّن الله تعالى أن عقاب معصيتهن لو وقعت منهن يكون أعظم ؛ لأن ذلك عين المستحق ؛ فإن قيل : قد قال تعالى : ﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ ﴾ [الأحزاب:٣١] فإنه كان عظم المعصية لعظم النعمة، فيجب في الطاعة أن يكون موقعها منهن أخف لأن عظم النعمة كما يعظم المعصية يخفف أمر الطاعة .

وجوابنا عن ذلك أن الطاعة لله تعالى تعظم لوجه آخر، وهو أن الناس يقتدون بهن لعظم منزلتهن في القلوب كما قال ﷺ مِثْل ذلك فيمن سن سنة حسنة .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ ﴾ [الأحزاب:٣٣] أليس ذلك يدل على أنه تعالى يفعل فيهم الصرف عن المعاصي؟

وجوابنا : أن المراد بهذا أنه تعالى يلطف لهم زيادات الإلطاف فلا يختارون إلا الطاعة، فهذا معنى الإذهاب بالرجس، ولذلك قال بعده : ﴿ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ [الأحزاب:٣٣]

[مسألة] وربما قيل : ما معنى قوله في قصة زيد : ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ﴾ [الأحزاب:٣٧] ؟

وجوابنا : أنه تعالى أحب فيما أراده من تزوج النبي ﷺ بامرأة زيد أن يكون مظهراً لذلك لأنه من باب ما قد أحله الله تعالى له وأن لا يكون في قلبه من الناس ما يتكلف لأجله إبطان ذلك، ولذلك قال : ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ [الأحزاب:٣٧] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ ﴾ [الأحزاب:٥٠] مع أنه مقدم في الإنزال على قوله تعالى : ﴿ لاَ يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ ﴾ [الأحزاب:٥٢] وهي التاسعة لأن المعتبر في الناسخ أن يكون متأخراً في التعريف والإنزال لا في التلاوة، وقوله تعالى : ﴿ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ ﴾ [الأحزاب:٥٠] فيها اختلاف، فبعض المفسرين يزعم أن ذلك مقدار ثابت بيّن به تعالى أنه يحل له التزوج، فلا يدل على أنه ﷺ مخصوص بذلك كما خص بإباحة الزيادة على أربع، ومنهم من يثبت الموهبة، ولذلك قال تعالى : ﴿ خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأحزاب:٥٠] .

[مسألة] ومتى قيل في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ ﴾ [الأحزاب:٥٦] بعبارة واحدة ذلك عندكم ممنوع، منه وكيف يصح الصلاة من الله تعالى ومن الملائكة على الرسول ؟

فجوابنا : أن قوله تعالى : ﴿ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ [الأحزاب:٥٦] يرجع إلى الملائكة فقط لأنه تعالى يعظم أن يذكر مع غيره، ولكنه يعقل بذلك أنه جل وعز أيضاً يصلي على الرسول، وصلاته جل وعز معناها الرحمة العظيمة والإنعام الجسيم وصلاة الملائكة الدعاء، وقد قال تعالى قبل ذلك :﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ ﴾ [الأحزاب:٤٣] وذكر ذلك في عباده، والمراد أنه يرحمكم بالهداية لتصلوا إلى الثواب وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ ﴾ [الأحزاب:٥٦] المراد الدعاء له بالمغفرة والرحمة العظيمة .

وفي الفقهاء من استدل بذلك على وجوب الصلاة عليه وعلى وجوبها في التشهد ومن حيث قال : ﴿ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ [الأحزاب:٥٦] فقال بعض أصحاب رسول الله ﷺ : قد عرفنا معنى السلام عليك فكيف الصلاة عليك ؟ فعلمهم كيف يصلون عليه فيوردون ذلك في الصلاة كما علمهم التشهد من قبل .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ ﴾ [الأحزاب:٦٦] كيف يصح ذلك ؟

وجوابنا : أنه تعالى يفعل ذلك في الحقيقة لأنه قادر على ذلك فيكون أزيد في غمهم، وقوله تعالى من بعد : ﴿ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ العَذَابِ ﴾ [الأحزاب:٦٨] في السادة الذين اتبعوهم صحيح ؛ لأن من سن سنة سيئة يزاد في عقابه، فأما قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ﴾ [الأحزاب:٦٩] ففي المفسرين من قال : دخل ليغتسل فلما خرج وثيابه على حجر عدا الحجر حتى رُئِيَ مكشوفاً فبرّأه الله مما كانوا يضيفونه إليه من أنه عليه السلام آدر، وهذا مما أنكره مشايخنا، وقالوا : إن ذلك لا يجوز على الأنبياء، وأن المراد بالآية أنهم اتهموه بأنه قتل هارون أخاه لأنه مات قبله وكان في هارون ضرب من اللين وفي موسى ﷺ خشونة فلميلهم إليه قالوا هذا القول فبرّأه الله إعادة حتى برئ موسى من هذه التهمة .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ ﴾ [الأحزاب:٧٢] كيف يصح ذلك فيها وهي من جملة الجمادات التي لا يصح أن تعرف وتعلم ؟

وجوابنا : أن المراد : عرضنا الأمانة أي تضييع الأمانة وخيانتها على أهل السموات والأرض وهم الملائكة ﴿ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ [الأحزاب:٧٢] والإشفاق لا يصح إلا في الحي الذي يعرف العواقب، ثم قال تعالى : ﴿ وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾[الأحزاب:٧٢] ولو حمل نفس الأمانة لم يصح ذلك فيه .

سورة سبأ

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ** ﴾ [سبأ:١] كيف يصح ذلك وقد زال التكليف ؟

وجوابنا : أنه وإن زال فالشكر والحمد لله في الآخرة يكثر ؛ لأنهم يسرون بذلك فيشكرون نعم الوقت حالا بعد حال ويشكرون النعم المتقدمة، وما يفعله المرء لربه لا يكون داخلا في التكليف .

[مسألة] ومتى قيل : كيف يصح في قوله تعالى : ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ** ﴾ [سبأ:٣] وما تعلق به قوله تعالى : ﴿ **عَالِمِ الْغَيْبِ لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ** ﴾ [سبأ:٣] مما تقدم .

وجوابنا : أن من أقيمت له الدلالة على بطلان ما هو عليه مجوز إذا ذكر مذهبه أن يكون هذا جوابه لينبه على تقصيره، فبيّن الله تعالى بأنه عالم الغيب وأنه يجازي كل أحد يوم القيامة بما استحقه على ما ذكره من بعد .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ** ﴾ [سبأ:١٠] كيف يصح أن يأمر الله تعالى الجبال والطير ؟ وكيف يُلِين الحديد وفي تليينه إبطال كونه حديداً ؟

وجوابنا : أن ذلك بمنزلة قوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴾[النحل:٤٠] وليس ذلك بأمر، فالمراد بيان أن الجبال والطيور لا تمتنع عليه فيما يريده، فأما تليين الحديد فمعلوم أنه يلين بالنار ولا يخرج من أن يكون حديداً فجعله الله عز وجل لداود ﷺ بهذه الصفة أو جعله من حيث القوة بحيث يصرف فيه كتصرف أحدنا في الطين، وكل ذلك صحيح، ولما بيّن عظم نعمه على داود وسليمان بالأمور التي سخرها لهما قال تعالى من بعد : ﴿ **اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ**

شُكْرًا ﴾ [سبأ:١٣] وذلك يدل على أن النعم توجب مزيد الشكر والقيام بالطاعة على وجه الشكر، وبيّن تعالى بقوله : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ [سبأ:١٣] أن التكليف وإن عم الكثير فقليل منهم يقوم بحق شكره، وذكر تعالى ذلك ليجتهد كل أحد أن يكون من جملة هذا القليل فيفوز بالثواب، فأما قوله تعالى من بعد : ﴿ وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ ﴾ [سبأ:١٧] فلا يصح للخوارج الذين يقولون : إن كل ذنب كفر أن يتعلقوا به ؛ لأن المراد : وهل نجازي بما تقدم ذكره إلا الكفور، وقد أجرى الله تعالى العادة بأنه لا يعذب بعذاب الاستئصال في الدنيا إلا من كفر، وقوله تعالى : ﴿ وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ﴾ [سبأ:١٨] ربما يتعلق به المجبرة أنه تعالى يفعل السير، وذلك بعيد لأن المقدر للشيء لا يجب أن يكون فاعلاً له ؛ لأن من بين الشيء كيف يفعل يوصف بأنه قدره وإن كان الفعل من غيره، ولذلك قال بعده على وجه الأمر : ﴿ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴾ [سبأ:١٨] .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى :﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾ [سبأ:١٩] كيف يصح من العقلاء أن يسألوا ربهم أن يباعد بين أسفارهم وهي قريبة ؟

وجوابنا : أن ذلك منهم جاء على وجه الجهل كقوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ﴾ [الحج:٤٧] هذا إذا قُرئ على هذا الوجه، وقد قُرئ : ربنا باعد بين أسفارنا وذلك على وجه الجبر لأنه غير أحوالهم فنالهم من المشاق في أسفارهم خلاف ما كانوا عليه، وقد يقول الضعيف بعد عليّ الطريق (لمزيد) [1] مشقته وإن كان حال الطريق لم يتغير .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ ﴾ [سبأ:٢١] كيف يصح أن يصف نفسه بأنه يعلم بأنه لم يكن له عليهم سلطان وهو عالم بنفسه ؟

وجوابنا : أنه تعالى يذكر العلم ويريد المعلوم كما ذكرنا من قبل، فالمراد به أنه لا يقع من إبليس إلا الوسوسة والترغيب في المعاصي، وعند ذلك يتميز من يؤمن

---

(١) في الأصل المطبوع وفي النسخة المخطوطة : لمزية، والصواب ما أثبته . اهـ . مصححه .

ممن يشك ويجهل، ولذلك قال بعده : ﴿ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ [سبأ:٢١] أي هو عالم بهذه الأمور قبل أن تقع .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى:﴿ وَلاَ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ [سبأ:٢٣] من المراد بذلك ؟ وما معنى قوله من بعد : ﴿ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الحَقَّ ﴾ [سبأ:٢٣] ؟ وما الفائدة في هذا الجواب ؟

وجوابنا : أن المراد بذلك الملائكة، بيَّن تعالى أنهم لا يشفعون إلاَّ بإذنه، وأنهم بخلاف الشياطين، فلا يقع منهم إلا ما هو طاعة الله تعالى .

وفي الخبر عن ابن مسعود أنه تعالى إذا أراد أن يكلم ملائكته بما لا يريد ظهوره لغيرهم يحدث في السماء صوتاً عظيماً يفزع منه سائر الملائكة فإذا انجلى يقولون للملائكة الذين كلمهم الله ماذا قال ربكم ؟ فيجيبون بقولهم : قالوا الحق، أي : قال ربنا الحق، فيعلمون أن ذلك من الباب الذي يجب أن لا يظهر، فهذا معناه .

وقد قيل : إن الملائكة الذين ينزلون لكتب أعمال العباد إذا نزلوا فزع من هو دونهم من ذلك وتوهموا أن ذلك لقيام القيامة، فيسألون ويجابون بما تقدم، فأما قوله من بعد : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ:٢٤] فالمراد بيان الحق وتمييزه من الضلال كما يقوله أحدنا لمن يستدعيه لأنه ﷺ كان يعلم أنه على هدى وأن المشركين على ضلال، وقوله تعالى من بعد : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ القَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ [سبأ:٣١] دليل قوي على أن العبد هو القادر عليه لأنه تعالى لو كان هو الخالق فيهم الإيمان لما صح أن يقولوا : لولا أنتم لكنا مؤمنين، بل الصحيح أن يقولوا : لولا خلق الله تعالى الكفر فينا لكنا مؤمنين، فذلك يدل على قدرتهم على الإيمان واعترافهم يوم القيامة بأن الذي صرفهم عن الإيمان دعاء هؤلاء الرؤساء، وأنه لولا دعاؤهم لكانوا يختارون الإيمان .

وقوله تعالى من بعد : ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴾ [سبأ:٣٢] يدل أيضاً على ما ذكرنا لأنهم

بينوا أن الذي وقع منهم لم يكن صداً لهم عن الهدى، وقد ظهر لهم وتجلى أن ما وقع منهم إنما وقع باختيارهم، ولو كان تعالى يخلق فيهم لكان أقوى حجة لهم أن يقـولوا : أنحن صددناكم ؟ بل الله خلق فيكم ذلك . وقوله تعالى من بعد : ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ [سبأ:٣٧] بيان من الله تعالى بأن الأموال والأولاد لا تنفع في الآخرة وأن الذي ينفعهم إيمانهم وعملهم الصالح، وبيّن من بعد بقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ [سبأ:٣٩] ما يقوى قلب المرء على الإنفاق في طاعة الله، **فإن قيل** : فنحن نرى من ينفق ولا يخلف الله عليه شيئاً .

فجوابنا : أن المراد : فهو يخلفه متى كان صلاحاً ولم يكن فساداً، ولم يوقت ذلك بوقت، وذلك يبطل السؤال .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ [سبأ:٤٠] كيف يصح ذلك وفيهم من لم يكن يعبد الملائكة، بل أكثرهم ليس بهذه الصفة ؟

وجوابنا : أن الغرض إبطال عبادة الله دون بيان لمن كانوا يعبدون من مَلك أو جنّ أو (صنم) [1] ولذلك قال تعالى بعده : ﴿ فَالْيَوْمَ لاَ يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلاَ ضَرًّا ﴾ [سبأ:٤٢].

فإذا أقبل على الملائكة جلّ وعزّ ونبّه على أن من عبدهم فقد عبد من لا يملك له ضراً ولا نفعاً، فقد نبَّه بذلك على أن عبادة الجن والصنم بهذا التوبيخ أولى، وقوله تعالى من بعد:﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ﴾ [سبأ:٥٠] يدل على أن الضلال من قِبَل العبد ولا يضاف إليه من حيث زجر الله تعالى عن فعله، والاهتداء والإيمان وإن كان من فعله فإنه يضاف إلى الله تعالى من حيث أمر به ورغب في فعله ولطف فيه وأعان، وذلك صريح قولنا فيما يضاف إلى الله تعالى وما لا يضاف .

---

(١) لفظة (صنم) غير موجودة بالأصل المطبوع، وأثبتها من النسخة المخطوطة . اهـ . مصححه.

سورة فاطر

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ ﴾ [فاطر:١] وذلك متناقض .

وجوابنا : أنه لا يمتنع أن يكون بعضهم رُسُلاً إلى بعض ويكون ذلك توكيداً في ألطافهم، فأما قوله تعالى : ﴿ أُولِي أَجْنِحَةٍ ﴾ [فاطر:١] فالمراد أنهم بهذا الوصف فبعضهم له مثنى وبعضهم له رباع . ويُحتمل أن يكون الملك متمكناً من أجنحة هي ثلاث ومن أجنحة هي مثنى ومن أجنحة هي رُباع لأن الجناح لا حياة فيه وهو آلة الطيران، فقد يجوز فيه الزيادة والنقصان .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ ﴾ [فاطر:٣] أليس ذلك يدل على أن كل محدث مخلوق فالله خالقه لا خالق سواه وذلك بخلاف قولكم ؛ لأنكم تقولون أنه من فعل الشيء مقدراً فهو خالقه، وتستدلون بقوله : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون:١٤] ؟

وجوابنا : أنه تعالى إنما نفى خالقاً سواه ورازقاً لنا لأنه قال : ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ [فاطر:٣] ولا خالق بهذه الصفة إلا هو، وقد بيّنّا من قبل أن إطلاق هذه اللفظة لا يصح إلا في الله تعالى، فلا وجه لإعادته .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً ﴾ [فاطر:٨] كيف يصح أن يرى القبيح حسناً ؟

وجوابنا : أن الداعي له إلى القبيح زينه في عينه حتى اعتقده بهذه الصفة وهذه طريقة اتباع من يضل ويفسد، وبيّن تعالى بعده أنه الذي يضل عن الثـواب فقـال : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ [فاطر:٨] .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ [فاطر:٢٨] كيف يصح ومن ليس بعالم قد يخشى عقاب الله ؟

وجوابنا: أن المراد الخشية الصحيحة؛ فإنها لا تقع إلا مِنَ عَالِمٍ بالله تعالى على حقه، ومن عالم بثوابه وعقابه، ومن عالم بما تؤدي هذه الخشية من العبادات وبما معه يثبت ما يخشاه، فهذا معنى الكلام، ثم إنه تعالى رغَّب في طاعته نهاية الترغيب بأفصح قول فقال تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِراً وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ * لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ** ﴾ [فاطر:٢٩-٣٠]

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ** ﴾[فاطر:٣٢] كيف يصح في الأنبياء أن يكون بعضهم ظالمين وبعضهم مقتصدين وبعضهم سابقين بالخيرات والواجب أن يكون جميعهم من السابقين ؟

وجوابنا : أن المراد أنه تعالى أورث الكتاب الأنبياء الذين بعثهم من جملة عباده، والأقسام المذكورة لم ترجع إليهم بل ترجع إلى عبادنا، فكأنه قال : ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من جملة عبادنا، وعبادنا منهم ظالم لنفسه وهم الذين يعصون ربهم بكفر أو فسق، ومنهم مقتصد وهو المؤمن التائب الذي لم يرتفع منزلته في باب الثواب، ومنهم سابق بالخيرات وهم الذين علت من منزلتهم . فهذا معنى الكلام، وفيه وجوه من الأقاويل لكن الذي ذكرنا أَبْيَنَ، وهذه طريقتنا في اقتصار الأجوبة رغبة منا في أن لا يطول الكتاب، وقوله تعالى : ﴿ **رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ** ﴾ [فاطر:٣٧] وقوله تعالى لهم : ﴿ **أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ** ﴾[فاطر:٣٧] من أقوى ما يدل على أنهم كانوا يقتدرون على الإيمان وأنهم قصدوا أن لا يختاروا ذلك .

سورة يس

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ ﴾ [يس:٦] كيف يصح إثبات مكلفين لم ينذروا ؟

وجوابنا : أن ذلك يصح إذا كان المعلوم من حالهم أنهم يَعْصُون في كل شيء على كل حال، فجاز أن يقتصر بهم على التكليف دون الإنذار الواقع من الأنبياء، وعلى هذا الوجه تأخر القرآن في الزمن، فإن قيل : فإن كان كذلك فَلِمَ ذمَّهم تعالى بقوله : ﴿ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ [يس:٦] ؟

فجوابنا : لأنهم عصَوْا من حيث لم ينفع فيهم الإنذار، ولذلك قال تعالى :﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يس:٧] ثم ذمهم بأن شبّه حالهم بالمغلول وبمن سدت عليه الطريق، وقد مضى الكلام في أن مثل ذلك يقع منه تعالى على طريقة التشبيه والتمثيل لحالهم بحال من هذا وصفه .

وقد قيل : إن المراد لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم على هذا الحد من الشرع، والأول أقرب إلى الظاهر، وقوله تعالى من بعد : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ﴾[يس:١١] ربما تعلقوا به في أنه تعالى لم يهد إلا من كان قد اهتدى، وقد تقدم القول في تأويل مثل ذلك في قوله : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[البقرة:٢] في سورة البقرة، وبيّنا أن من لم يقبل شبه بمن يتعذر عليه القبول لما تعلمه من حال الرسول وأنه أنذر الكفار كما أنذر المؤمنين .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ [يس:١٤] ما الفائدة في إرسالهما إذا كان لابد من ثالث ؟

وجوابنا : أن المصلحة ربما تكون في الاقتصار على اثنين في الإرسال في وقت ثم فيما بعده تكون المصلحة في ضم ثالث إليهما، لأن المصالح تختلف

بالأوقات، ومتى قيل : كيف يصح بعثه الرسل في حالة واحدة والشرع واحد ؟ وما الفضل بين الجماعة في ذلك وبين الواحد ؟

فجوابنا : أنه إذا قُدِّر إرسال بعض دون بعض فلاختلاف المصالح في الأوقات وإذا جمع بينهم في الإرسال فلأن المصلحة في جماعتهم، ولا بد في المعجز من أن يظهر على كل واحد أو على جماعتهم، وقوله من بعد : ﴿ وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾ [يس:١٧] يدل على أنه لا نبي إلا وقد بلّغ ما جاء به قُبِلَ أم رُدَّ، وقوله عز وجل :﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾ [يس:٢٦] المراد به من جاء من أقصى المدينة يسعى، وظاهر ذلك يقتضى أن دخوله الجنة واقع وأنها ليست جنة الخلد، ولا يمتنع في بعض من يحبه الله تعالى أن يدخله بعض جنان السماء كما ذكرناه في الأنبياء والشهداء، فلا يصح أن يجعل حجة في أن جنة الخلد مخلوقة، ويدل ذلك على أن سرور المرء بوقوف قومه على عظم منزلته واجتماعه معهم لا يكاد يعدله غيره من السرور .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ * لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ [يس:٣٤-٣٥] أليس يدل ذلك على أنه تعالى جعل ما عملته أيديهم كما جعل الجنات وذلك يدل على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى ؟

وجوابنا :أن قوله:﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾[يس:٣٥] يرجع إلى (قوله)[1] ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ ﴾[يس:٣٥] فكأنه قال : ليأكلوا من ثمره وليأكلوا ما عملته أيديهم بالمكاسب وغيرها، فبين أنه جل وعز خلق لهم النعيم ومكنهم أيضاً من اكتساب النعيم، فيبطل ما قالوه، وقوله تعالى من بعد : ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾[يس:٤٦] أحد ما يدل على وجوب النظر في الآيات وفساد التقليد .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ ﴾ [يس:٤٧] ما معنى ذلك ؟ وهل يصح وقوعه من عاقل ؟

---

(١) فى الأصل المطبوع : قومه، وما أثبته من النسخة المخطوطة .

وجوابنا : أن الجاحد لربه والمنكر للقول بأن هذه النعم من جهة فاعل حكيم قد يجوز أن يقول لمن يعتقد ربه وأن النعم من قِبَله هذا القول لظنه أنه كالشبهة فيما ذهب إليه القول إذا كان الإطعام والإرزاق من قبله تعالى فما الفائدة في أن يحوج العبد إلى غيره، وهلا كفاه بنفسه، فعلى هذا الوجه يقع مثل هذا الكلام من العاقل، ولو علموا أن الإحسان من الله على العبيد لا بد أن يكون بحسب المصالح، وأنه قد يجعل حاجته إلى غيره وحمله الكلفة في ذلك لكي ينتفع (يكون)[1] له مصلحة في الطاعة التي يلتمس بها الثواب وإزالة العقاب لعلموا أن ذلك هو الحكمة والصواب، وقوله تعالى :﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ * فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً ﴾ [يس:٤٩-٥٠] أحد البواعث على المبادرة إلى الطاعات وإلى الثواب من حيث لا يأمن المرء الاحترام في كل وقت، ولذلك قال تعالى : ﴿ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلاَ إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [يس:٥٠] وقوله تعالى من بعد : ﴿ فَالْيَوْمَ لاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلاَ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [يس:٥٤] يدل على أن العبد يفعل ويستحق على فعله الثواب أو العقاب، وأنه لا يجوز أن يؤاخذ بعمل غيره، وأنه لا يجوز منه تعالى أن يعذب الأطفال بذنوب الآباء .

وقوله تعالى من بعد : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ﴾ [يس:٦٠] المراد به القبول من الشيطان على ما تأولنا عليه قوله تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة:٣١] قال ﷺ لما أحلوا وحرموا بقولهم وصفهم بذلك، وقوله تعالى من بعد : ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً ﴾ [يس:٦٢] يدل على أن الإضلال في الدين لا يكون من قبله تعالى كما يقوله القوم وإلا كانت الإضافة إلى الشيطان لا وجه لها، وقوله من بعد : ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [يس:٦٥] أحد ما إذا تصوره المرء يكون زاجراً له عن المعاصي لئلا تشهد عليه جوارحه بها يوم القيامة فتكون الفضيحة الكبرى .

وقد بينا من قبل أن هذا الكلام يفعله تعالى فيصير بصورة أن يكون الكلام كلام اليد والرجل، وأن هذا أقرب من قول من يقول : هو كلامهم .

---

(١) في الأصل المطبوع : فكون ، وما أثبته من النسخة المخطوطة . ا هـ . مصححه .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى: ﴿ **وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ** ﴾ [يس:٦٨] كيف يصح ذلك والمعلوم من حال كثير ممن يعمر أنه لا ينكس في الخلق ؟

وجوابنا : أنه لا بد من تقدير شرط في الكلام، فإن التعمير هو تطويل العمر وإطالة العمر قد تختلف، فإذا بلغ حداً مخصوصاً فلا بد من أن ينكسه في الخلق فتغير أحواله، فيجب أن يكون هذا هو المراد .

[مسألة] وربما تعلقوا بقوله تعالى: ﴿ **وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ** ﴾ [يس:٦٩] كيف يصح ذلك وهو ﷺ أفصح العرب ؟

وجوابنا : أن المراد أنا ما علمناه إنشاء الشعر فيكون حاله كحال من اتسع في معرفة اللغة، فما هو منهم، ولا يجوز حمله على أنه لم يكن يعرف أوزان الشعر أو لم يكن يحفظ الشعر، فإنه كان يحفظه ولا ينطق به، فإذا صار ذلك عادة له معروفة أبعد من التهمة فيما جعله الله معجزة له، ولذلك قال تعالى : ﴿ **إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ** ﴾ [يس:٦٩] .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا** ﴾ [يس:٧٠] أليس ذلك يدل على أن لله تعالى يدين ؟

وجوابنا : إن دل فيجب أن يدل على أيدٍ ولا يقول بذلك أحد وإذا وجب أن يتأول ذلك فكذلك سائر الآيات، وذكر تعالى الأيدي على طريق توكيد إضافة العمل إليه كما قال تعالى : ﴿ **بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ** ﴾ [النمل:٦٣] وكما يقال في كلام وقع من المرء : هذا ما عملت يداك، وإنما تذكر اليد من حيث إنها أقوى آلات الأفعال، وختم - جل وعز - السورة بالرد على من أنكر الإعادة، والذي أورده من أقوى ما يورد في ذلك وهو أنه إذا ابتدأ الحي وصح منه ذلك وهو عالم لذاته صح أن يعيده إذا أفناه لأن حال المعاد في صحة وجوده لا تغير حال القديم تعالى في صحة إيجاد ما يقدر عليه .

سورة الصافات

[**مسألة**] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴾ [الصافات:٦] كيف يصح ذلك والكواكب لا اتصال لها بسماء الدنيا لأنها جارية في أفلاكها؟

وجوابنا : أنها في المنظر كذلك، فصحَّ أن يصفها تعالى بهذا الوصف، وكل ما علا يوصف بأنه سماء .

[**مسألة**] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ [الصافات:١٢] وأنه قد قرئ بالضم وذلك يوجب جواز التعجب على الله تعالى .

وجوابنا : أن المراد : قل يا محمد : بل عجبتَ ويسخرون، فيكون فيه هذا الحذف ويحتمل أن يكون المراد استكثاره تعالى لذلك الأمر، فأجرى هذا اللفظ عليه مجازاً .

[**مسألة**] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴾ [الصافات:٨٨] كيف يصح ذلك على الأنبياء وعندكم أن أحكام النجوم باطلة ؟

وجوابنا : أنه ليس في الظاهر أنه أراد أحكام النجوم، فيحتمل أنه نظر في نفس النجوم، ويحتمل أنه أراه نجوماً كان تعالى قد جعلها علامة له فيما يريد معرفته أو كانت علامة لهم فيما كانوا ينظرون فيه .

[**مسألة**] وربما قيل في قوله جل وعز : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ [الصافات:٨٩] كيف يصح على الأنبياء الكذب ؟

وجوابنا : أنه يجوز في حال ما قال هذا القول أنه أصابه ببعض العلل فقال ذلك، ويحتمل أنه يريد : سأسقم كقوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ ﴾ [الزمر:٣٠] أي ستموت وكقوله : ﴿ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً ﴾ [يوسف:٣٦] .

[**مسألة**] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات:٩٥-٩٦] أليس في ذلك تصريح بخلق أعمال العباد ؟

وجوابنا: أن المراد: والله خلقكم وما تعملون من الأصنام، فالأصنام من خلق الله وإنما عملهم نحتها وتسويتها، ولم يكن الكلام في ذلك فإنه ﷺ أنكر عبادتهم فقال: أتعبدون ما تنحتون، وذلك الذي تنحتون الله خلقه، ولا يصح لما أورده عليهم معنى إلا على هذا الوجه وذلك في اللغة ظاهر لأنه يقال في النجّار: عَمِلَ السرير وإن كان عمله قد تقضى وعمل الباب، ونظير ذلك قوله تعالى في عصا موسى: ﴿ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ [الأعراف:١١٧] المراد ما وقع إفكهم فيه، فعلى هذا الوجه نتأول هذه الآية ومعنى قوله من بعد: ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [الصافات:٩٩-١٠٠].

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾ [الصافات:١٠٢] وقوله من بعد: ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ﴾ [الصافات:١٠٣-١٠٥] وقوله من بعد: ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ [الصافات:١٠٧] سؤالات، منها: ما رآه في المنام كيف يلزمه والأنبياء إنما تعمل على الوحي؟

ومنها: أنه كان يجعل ذلك كالأمر وكيف يصح أن يأمره بذبحه ثم يزول ذلك وهل هذا إلا كالبداء.

ومنها: أنه كان الفداء بذبح، فكيف يصح من غير جنس ما جعل فدية له؟

وجوابنا: أن رؤيا إبراهيم في المنام يجب أن تكون قد تقررت بما يعلم به أن ذلك بالوحي، ولولاه لما قال: ﴿ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾ [الصافات:١٠٢] ولما أخذ في ذبحه فإنه إن يفعل فقد مات الذبيح مع شدة إشفاقه على ولده، ولذلك قال ولده: ﴿ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ [الصافات:١٠٢] فلولا علمهما أن هذا أمر من الله لم يصح، فأما هذا عندنا فهو أمر بمقدمات الذبح، وعظم ذلك عليه لظنه أنه سيؤمر بإتمام الذبح لأن العادة جارية بأن الإضجاع وأخذ الآلة لا غرض فيه إلا الذبح، فعلى هذا الوجه فعل ما أمر وما ظنه لم يؤمر به، فلا يؤدي إلى البداء.

وقد قيل: إنه فعل الذبح لكنه عز وجل كان صرفه عن موضع الذبح وكان تعالى يلهمه فعل ما يفعله الذابح وبقي الذبيح حياً لما فعله الله تعالى، وقيل غير ذلك

فأما الذبح الذي أمره الله بأن يفدي به فذلك صحيح وإن لم يؤمر بالذبح، ويكون فداء عما لو أمر به لفعله، ولا يجب في الفداء أن يكون من جنس ما يجعل فداء منه، ولذلك يصح في الشاة أن يكون ذبحها فداء عن حلق الشعر في المحرم إلى غير ذلك، وقوله عز وجل من بعده : ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِياً مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [الصافات:١١٢] بعد ذكر الأمر بالذبح يدل على أن الذبيح هو إسماعيل على ما روي عنه ﷺ أنه قال : « أنا ابن الذبيحين » .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً ﴾ [الصافات:١٥٨] كيف يصح ذلك ولا أحد يجعل بين الله وبين الجنة نسباً ؟

وجوابنا : أنه يحتمل أن يريد الملائكة وقد تقدم ذكرهم لأنهم لا يُرَوْن كالجن وقد كانوا يقولون في الملائكة إنها بنات الله ـ تعالى الله عن ذلك ـ ويحتمل أنهم عبدوا الجن كما عبدوا الله بأن أطاعوهم، ويبين ذلك قوله : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ [الصافات:١٥٨] أي في العقاب .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴾ [الصافات:١٧١-١٧٢] كيف يصح ذلك ومنهم من غلب وقتل ؟

وجوابنا : أن النصرة ربما تعتبر فيها العاقبة، فمن عاقبته محمودة فهو منصور على من غلبه وعاقبته ذميمة، فالنصرة أبداً تكون للمطيعين خصوصاً ولهم نصرة بالحجة والأدلة وغيرهما .

[مسألة] وربما قيل : تقدم من قصة يونس ﷺ : ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ [الصافات:١٤٧] كيف يصح ذلك وظاهره الشك في هذا العدد وفي الزيادة ؟

وجوابنا : أن المراد به : ويزيدون أو : بل يزيدون على ما روى عن المفسرين، وقد يجوز أن يريد[1] في منظر عيون من يشاهدهم من دونه فالله[2] تعالى يعلم عددهم مفصلاً .

---

(١) في الأصل المطبوع وفي النسخة المخطوطة (يزيد) ، والصواب ما أثبته . اهـ . مصححه .
(٢) في الأصل المطبوع : (ما الله) وما أثبته من النسخة المخطوطة .

سورة ص

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى :﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لاَ تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ ﴾ [ص:٢١-٢٢] إن في هذه الآيات مطاعن :

منها : تسورهم عليه وهم خصمان كيف يصح ؟ **ومنها** : أنه جمع بقوله : تسوروا وثنّى بقوله : خصمان وبقوله : ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي﴾[ص:٢٣] وبقوله : ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾[ص:٢٤] .

ومنها : أن في الخبر أن ذلك ورد في قصة أوريا ورغبة داود في امرأة أوريا وأنه عليه السلام عرضه للقتل رغبةً فيها، إلى غير ذلك مما يذكره الجهَّال .

وجوابنا : أن الصحيح أن كانت تلك المرأة التي رغب فيها قد صارت أيِّماً بلا زوج فخطبها وكان من قبل ذلك خطبها غيره فسكنت إليه ولم يفتش عن ذلك فصار ذلك ذنباً صغيراً، وعلى هذا الوجه نهى ﷺ أن يخطب المرء على خطبة أخيه، ويدل على ذلك قوله : ﴿ وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾[ص:٢٣] فنبه بذلك على ما ذكرناه، والذي يرويه من لا معرفة له بأحوال الأنبياء صلى الله عليهم وسلم لا معتبر به .

فالله تعالى لا يبعث إلا من هو مُنزَّهٌ عن هذه المعاصي حتى إنهم لا يقدمون لا على كبيرة ولا على صغيرة يعرفونها قبيحةً، وإنما عاتبه الله تعالى ونبهه من حيث صار غافلاً عن خطبة متقدمة كان يمكنه أن يفتش عنها فلا يقدم على الخطبة بعد تلك الخطبة .

فأما التَّسوّر فإنه غير قبيح من الملائكة في زمن الأنبياء ليكون ما يؤدونه أقرب إلى التحريك والتنبيه، وأما التثنية والجمع فيجوز في اللغة في هذا المكان فإن قوله : خصمان يدل على اثنين، وقد يذكر ذلك ويراد أكثر بأن يكون مع المتداعيين غيرهما وإنما وُصفا بذلك من حيث تصورا بصورة الخصمين كيما ينبها داود عليه السلام .

فإن قيل : كيف قال : ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ ﴾ [ص:٢٤] ولم يعلم صحة ما ادَّعَى .

وجوابنا : أنه لا بد من أن يكون في الكلام حذف، فكأنه قال : إن كنت صادقاً فقد ظلمك، وإلا فالمعلوم أنه لا ظالم هناك، وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ ﴾ [ص:٢٤] يدل على أن ذنب داود ليس إلا ما قلناه من أنه رغب في ضم هذه المخطوبة إلى نسائه على الوجه الذي ذكرناه، وقوله تعالى : ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ﴾ [ص:٢٥] من بعد يدل على أن الذي فعله كان في تلك الشريعة محرماً ولولا ذلك لجوزناه حلالاً .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى :﴿ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ ﴾ [ص:٢٦] أن ذلك يدل على أن تصرفه من خلق الله .

وجوابنا : أنه إنما يدل على أنه فوض إليه هذه الأمور، فأما ما يأتيه من تصرفه فهو فعله، ولذلك صار مؤاخذاً بذلك الصغير الذي فعله على غفلة، ولذلك صح قوله : ﴿ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى ﴾ [ص:٢٦] لأنه إن كان ما يحكم به من خلق الله فكيف يضاف ذلك إلى الهوى، ؟ وكيف يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ [ص:٢٦] ؟

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴾ [ص:٣٤] كيف يصح أن يعزل عن النبوة ويصير على كرسيه بعض الشياطين على ما يُروى في ذلك ؟

وجوابنا : أن الذي يُروى في ذلك كذب عظيم، والصحيح ما رُوِيَ من أنه تفكر في كثرة نسائه ومماليكه فقال وقد آتاه الله من القوة إني لأطأهن في ليلة واحدة فيحملن ويحصل لي من الأولاد العدد الكثير ففعل ولم تحبل إلا واحدة وألقت جسداً غير كامل الخلقة فحُمِل ذلك الجسد إلى كرسيه، فنبهه عنده على أن الذي فعله من التمني كالذنب، وأنه قد كان من حقه أن ينقطع إلى الله تعالى فيما يرزق من الأولاد

قَلَّ أو كَثُرَ، فأناب عند ذلك وتاب مما كان منه، فأما أن يعزل ويؤخذ خاتم ملكه ويصير إلى بعض الشياطين ويطأ ذلك الشيطان نساءه فذلك مما لا يجوز على الأنبياء وقد رفع الله قدرهم عن ذلك .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي** ﴾ [ص:٣٥] كيف يصح من الأنبياء أن يَسْأَلُوا ذلك مع دلالته على الرغبة في الدنيا وعلى ما يجري مجرى المنافسة والحسد ؟

وجوابنا : أنه لا يمتنع وهو نبي أن يرغب إلى الله عز وجل فيما يظهر به فضله وكرامته عند الله، وليس في ذلك ما يشبه الحسد المذموم ؛ لأنه إنما يكون حاسداً إذا أراد انتقال نعيم غيره إليه، فأما إذا أراد لنفسه أعظم المنازل من الله تعالى ابتداءً[1] مع إرادته بقاء سائر النعم على أهلها فلا وجه ينكـر في ذلك، ولـذلك قـال تعـالى : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ ﴾ [ص:٣٦] إلى سائر ما ذكر مما يدل على أنه أجابه وأظهر فضله بهذه الأمور التي اختص بها .

ثم ذكر تعالى من بعد قصة أيوب ﷺ وأنه سأل الله عز وجل كشف الضر عنه فأجابه الله إلى ذلك وزاده، فالذي يرويه الجهال في قصته من كيفية البلاء إلى غير ذلك لا يصح، والذي يصح أنه تعالى أنزل به الأمراض والعلل والفقر والحاجة لما علم من المصلحة ثم أزال ذلك عنه بالنعم التي أفاضها عليه على ما نطق به الكتاب، فأما قوله تعالى في قصة أيوب ﷺ : ﴿ **وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلاَ تَحْنَثْ** ﴾ [ص:٤٤] يدل على أنه يحسن الاحتيال في التخلص من الأَيْمان وغيرها، وقد ذكر ذلك الفقهاء في كتبهم .

---

(١) في الأصل المطبوع : (ابتدأ) وما أثبته من النسخة المخطوطة . ا هـ . مصححه .

سورة الزمر

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ** ﴾ [الزمر:٣] أليس قد نفى أنه يهدي الكافر وأنتم تقولون قد هداه كما هدى المؤمنَ ؟

وجوابنا : أن المراد : لا يهديه إلى الثواب في الآخرة، وقد تقدم ذكر ذلك .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا** ﴾ [الزمر:٦] أليس ظاهر ذلك أنه خلق زوجها بعد أن خلقنا، فكيف يصح ذلك؟

وجوابنا : أن ثُمَّ قد تدخل في خبر مستأنف، فلا يوجب الترتيب في نفس المخبر عنه، كقول الرجل لغيره : قد عجبت مما فعلت اليوم، ثمَ ما صنعته أمس أعجب . وقوله من بعد : ﴿ **وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ** ﴾[الزمر:٦] والمراد به من كل جنس زوجين ذكراً وأنثى، فهي وإن كانت أربَعَة أجناس إذا قدر فيها ما ذكرنا صارت ثمانية وقوله تعالى من بعد : ﴿ **إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ** ﴾[الزمر:٧] يدل على أنه إنما يكلفنا لمنافعنا وحاجتنا، ويدل على أنه تعالى لا يريد المعاصي لأن الرضا يرجع في المعنى إلى الإرادة، فلو كان مُريداً للكفر كما قاله القوم لوجب إذا وقع أن يكون راضياً ؛ به لأن المريد لا يصح أن يريد من غيره أمراً فيقع ذلك الأمر على ما أراده إلا ويجب أن يكون راضياً به، وقوله تعالى من قبل : ﴿ **لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً لاَّصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ** ﴾[الزمر:٤] ذكره تعالى لا على وجه أن ذلك مما يصح أن يراد لكن على وجه الإحالة، بين به أن القادر على أن يخلق ما يشاء لا يجوز أن يتخذ ولداً، فعلى هذا الوجه ذكر ذلك، وقوله تعالى : ﴿ **وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ** ﴾ [الزمر:٦] ربما سألوا فيه وقالوا : كيف أنزلها ؟

وجوابنا : أنه تعالى خلقها في السماء ثم أنزلها إلى الأرض كما خلق آدم في السماء ثم أهبطه إلى الأرض .

[مسألة] وربما قيل : ما معنى قوله : ﴿ **يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ** ﴾ [الزمر:٦] والمعلوم أنه خلق واحد ؟

وجوابنا : أن المراد : خَلْقَ ما تتغير به النطفة فتكون علقة إلى أن يستقر الخلق التام، فهذا هو المراد، وقوله تعالى : ﴿ **وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى** ﴾ [الزمر:٧] يدل على أن أحداً لا يؤخذ بذنب غيره، فيبطل بذلك قولهم : إن الطفل يعذب بكفر أبيه .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ * وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ [الزمر:١١-١٢] كيف يصح أن يكون أول المسلمين وقد تقدمه من المسلمين ما لا يحصى عدده ؟

وجوابنا : أن المراد : وأمرت أن أكون أول المسلمين من قومي، وذلك معقول من الكلام، وفي قوله تعالى : ﴿ **قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً** ﴾ [الزمر:١١] دلالة على أن الأعمال لا يستحق بها الثواب إلا على هذا الوجه، وقوله : ﴿ **قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴾ [الزمر:١٣] يدل على أن النبوة لا تمنع من هذا الخوف، فكيف يمنع منه أن يكون المرء من أولاد الأنبياء كما يقوله بعض العامة من الإمامية حتى يزعمون أنَّ مَنْ وُلِدَ من فاطمة عليه السلام قد حرَّم الله تعالى النار عليه، وقوله تعالى من بعد : ﴿ **فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ** ﴾ [الزمر:١٥] وهو على وجه الزجر والتهديد لا أنه أمر في الحقيقة، وقوله تعالى من بعد : ﴿ **أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ** ﴾ [الزمر:١٩] يدل على أن الوعيد الوارد عن الله تعالى واجب لا يجوز خلافه، وإذا لم يجز أن ينقذ الرسول من النار فكيف يصح ما يقوله القوم من أنه ﷺ بشفاعته يخرج الكثير من أهل النار ؟

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ** ﴾ [الزمر:٢٢] أنه يدل على أن الإسلام من قبله تعالى .

وجوابنا : أن شرح الصدر بالإسلام غير الإسلام فلا يدل على ما قالوه، وإنما المراد بذلك أنه تعالى يورد عليه من الطاقة ما يدعوه إلى الثبات على الإسلام كما ذكرنا في قوله : ﴿ **فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ** ﴾ [الأنعام:١٢٥] وقوله : ﴿ **اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ** ﴾ [الزمر:٢٣] وهو القرآن فيدل على أنه محدث من حيث أنزله ومن حيث سماه حديثاً ومن حيث وصفه بأنه متشابه، وما هو قديم لا يصح ذلك فيه، وقوله : ﴿ **تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ** ﴾ [الزمر:٢٣] يدل أيضاً على حدوثه وقوله : ﴿ **ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ** ﴾ [الزمر:٢٣] يدل أيضاً على ذلك، وقوله : ﴿ **وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ** ﴾ [الزمر:٢٣] المراد : من يضلل الله عن طريق الجنة إلى النار كما قدمناه من قبل، وقوله : ﴿ **قُرْآناً عَرَبِياً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ** ﴾ [الزمر:٢٨] يدل على حدوثه وعلى أنه حدث بعد لغة العرب ليصح أن يوصف بأنه عربي، وقوله : ﴿ **وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ** ﴾ [الزمر:٣٧] لا يدل على ما قالوه ؛ لأن المراد : ومن يضلل عن طريق الجنة إلى النار فما له من هاد إليها، ومن يهده إلى الجنة فما له من مضل على ما تقدم ذكره، وقوله من بعد : ﴿ **فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا** ﴾ [الزمر:٤١] يدل على ما قدمنا ذكره من أن الاهتداء يضاف إلى الله تعالى دون الضلال وإن كانا جميعاً من فعل العبد .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً** ﴾ [الزمر:٥٣] إنه يدل على أنه لا مؤمن إلا ويغفر له الله تعالى وإن ارتكب الكبائر .

وجوابنا : أن المراد أنه يغفر ذلك بالتوبة بدلالة قوله : ﴿ **وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العَذَابُ** ﴾ [الزمر:٥٤] والآية في الكفار وردت، فلا شبهة في أنهم من أهل النار، ويدل على ذلك قوله : ﴿ **وَأَسْلِمُوا لَهُ** ﴾ [الزمر:٥٤] وقوله من بعد : ﴿ **بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الكَافِرِينَ** ﴾ [الزمر:٥٩] وقوله تعالى من بعد : ﴿ **وَيَوْمَ القِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وَجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ** ﴾ [الزمر:٦٠] مما روى فيه عن الحسن البصري ـ رحمه الله ـ أنه قال : ما ورد ذلك إلا

فيمن كذب على الله بأن أضاف الكفر إليه وزعم أنه خلقه وأراده وكذلك سائر المعاصي، وقوله من بعد : ﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لاَ يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الزمر:٦١] يدل على أن المتقين في الآخرة لا ينالهم من أهوالها كما يظنه بعض من خالفنا في ذلك وقوله من بعد : ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الزمر:٦٢] قد تقدم معنى الإضافة، وأن المراد به الأجسام التي قدرها الله تعالى إلى سائر ما يتصل بها دون أفعال العباد، وإذا كان الله تعالى تمدّح بأنه خالق كل شيء فكيف يدخل فيه الكفر والكذب والفواحش مع أن خلق ذلك إلى الذم أقرب ؟ وقوله تعالى : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ ﴾ [الزمر:٧١] أحد ما يدل على قولنا ؛ لأنه تعالى لو كان خالقًا للكفر فيهم لكانت الحجة لهم بأن يقولوا : وماذا ينفع مجيء الرسل إلينا مع أن الله تعالى خلق الكفر فينا وأراده وقضاه وقدره ؟

سورة غافر

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [غافر:٤] كيف يصح ذلك وقد يجادل فيها المؤمنون ؟

وجوابنا : أن المراد المجادلة الباطلة في آيات الله ، ولذلك ذمهم بذلك فهو كقوله : ﴿ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾ [غافر:٥] .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ [غافر:٧] كيف يصح مع عظم العرش وأنه لا خلق أعظم منه أن يكونوا حاملين له ؟ ولئن جاز ذلك فما الذي يمكن في نفس الأرض أن تحمله الملائكة ؟

وجوابنا : أن العرش في السماء في أنه مكان لعبادة الملائكة كالبيت الحرام في الأرض، ولذلك قال تعالى : ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ [غافر:٧] حواليه، ولا يمتنع مع ذلك أن يكونوا حاملين له إذا كان الله تعالى قد عظم خلقتهم وقواهم على ذلك، إما في كل حال وإما في بعض الأحوال .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ﴾ [غافر:٩] أن ذلك يدل على أن السيئات ليست من فعلهم .

وجوابنا : أن هذه المسألة من الملائكة لأهل الآخرة، فالمراد بذلك أن يقيهم جزاء السيئات وهو العقاب، وإلا فنفس السيئات من فعلهم في دار الدنيا، وليست الآخرة مما يقع تكليف فتقع هذه المسألة من الملائكة للمؤمنين، ولذلك قال تعالى بعده : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ * قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ ﴾ [غافر:١٠-١١] ولو لم يصح عذاب

القبر لكانت الإماتة مرة واحدة، وقولهم : ﴿ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا ﴾ [غافر:١١] يدل على أن الذنوب من قِبَلهم، ولو كانت من خلق الله تعالى فيهم لكانوا بدلاً من اعترافهم يقولون : ما ذنبنا إذا خلقت فينا ولم يمكننا أن ننفك منه ؟ وقوله تعالى من بعد : ﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ﴾[غافر:١٥] فالمراد به ما يرفعه من درجات غيره، فليس للشبهة بذلك تعلق .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [غافر:١٦] كيف يصح أن يقول ذلك وقد أفنى الخلق على ما يروى في الأخبار ولا يكون فيه فائدة ؟ وإن كان يقوله تعالى وقد أعاد الخلق فما الفائدة فيه وقد عرفوا في الآخرة أن الملك لله الواحد القهار ؟

وجوابنا : أنه تعالى يقوله وقد أعاد منبهاً بذلك على أنه لا حكم في الآخرة إلا له ولا ملك إلا له وأن الآخرة مخالفة للدنيا، فإنها وإن كان الملك فيها لله لكنه قد فوّض إلى الغير النظر في ذلك، وما يرى من أنه تعالى يقوله ولا أحد ولا يصح بل القرآن يشهد بخلافه، وهو قوله تعالى : ﴿ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاَقِ * يَوْمَ هُم بَارِزُونَ ﴾ [غافر:١٥-١٦] ثم قال تعالى : ﴿ لاَ يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾[غافر:١٦] فإنما يقول ذلك في ذلك اليوم، ولذلك قال تعالى بعده : ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لاَ ظُلْمَ الْيَوْمَ ﴾ [غافر:١٧] والمعروف للمكلفين من أهل الثواب والعقاب أن الواقع بهم هو المستحق وأنه لا ظلم هناك، وأنه بخلاف أيام الدنيا التي يجري فيها الظلم وغيره، وقوله تعالى : ﴿ لاَ ظُلْمَ الْيَوْمَ ﴾ [غافر:١٧] يدل على أن العبد هو الذي يفعل المعصية، ولو كان تعالى يخلقها فيه ثم يعذبه أبد الآبدين لكان ذلك ظلماً.

ويدل أيضاً على أن أطفال المشركين لا يعذبون ؛ لأنهم لو عذبوا ولا ذنب لهم لكان العقاب من أعظم الظلم وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [غافر:١٧] يدل على أنه تعالى ليس بجسم، وإلا كان يجب في محاسبة الخلق أن تطول كما يطول

ذلك منا، فإنما يكون سريع الحساب بأن يفعل المحاسبة في أجسام وأن يكون الكل في حال واحد، وقوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ ﴾ [غافر:١٨] ثم قال تعالى من بعد : ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ ﴾ [غافر:١٨] يدل على أن الشفاعة لا تكون إلا للمؤمنين فتزيدهم منزلة على وجه التفضل، ولو كانت الشفاعة لأهل الكبائر المصرّين لم يصح هذا الظاهر، وقوله تعالى من بعد : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ﴾ [غافر:٢٢] يدل على أن الذي لأجله حسن منه أن يعاقبهم أن الرسل جاءتهم بالبينات ومع ذلك اختاروا الكفر، ولو كان تعالى خلق ذلك فيهم لكان مجيء مرسل إليهم وأن لا يجيئوا إليهم سواء .

[**مسألة**] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ ﴾ [غافر:٢٨] كيف يصح أن يكون كاتماً لإيمانه مع أنه حكى عنه : ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ ﴾ [غافر:٣٠] ثم قال : ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ [غافر:٣٨] ولو كان مُظهراً لإيمانه لم يزد على ذلك .

وجوابنا : أنه يُحتمل في الأول أن يكون كاتماً لإيمانه، ثم من بعد لما جربهم وسلم منهم أظهره، وذلك لا يستحيل ويحتمل أن يكون معرضاً بتلك اللغة وحكى الله عنه على حسب مراده فيكون بالعربية تصريحاً وإن كان بتلك اللغة تعريضاً .

[**مسألة**] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِّنَ الْعَذَابِ ﴾ [غافر:٤٩] كيف يصح ذلك منهم مع علمهم بأنه لا يخفف البتة ؟

وجوابنا : أن مثل ذلك لا يقع من الممتحن على وجه الاستعانة بالغير والاسترواح إلى هذا القول وإن علم أن ذلك لا يتم . وقد قيل : إن ذلك يحسن في الآخرة لقوله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا ﴾[المائدة:٣٧] .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴾ [غافر:٢٥] كيف يصح ذلك وإنما كان هذا القتل في حال ولادة موسى، لا في هذه الحال ؟

وجوابنا : أنه في تلك الحال كان يأمر بقتل الأولاد لمّا ظهر في الأخبار أنه سيكون هناك من يغلبه من الأنبياء، وفي هذه الحال أمر أيضاً بهذا القتل لئلا يكثر أتباع موسى، فهما حالان مختلفان .

فأما قوله تعالى من بعد : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ [غافر:٨٤] وقوله تعالى : ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ [غافر:٨٥] يدل على أن الإيمان فعل للعبد، وأنه إذا فعله طوعاً ينتفع به، وإذا فعله على وجه الإلجاء لا ينتفع به، ولو كان خلقًا لله لم يصح ذلك .

سورة فصلت

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ [فصلت:٥] كيف يصح ذلك مع التكليف ؟

وجوابنا : أن ذلك حكاية تشددهم في الامتناع من القبول لا أنهم بهذا الوصف ولذلك ذمهم وزجرهم بقوله تعالى : ﴿ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾ [فصلت:٥] وقوله تعالى من بعد : ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِياً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ [فصلت:٣-٤] يدل على أن القرآن محدث من جهات، وقوله تعالى : ﴿ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لاَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ [فصلت:٦-٧] يدل على أن كفرهم لا يمنع من وجوب الصلاة والزكاة عليهم وإن كان فعلهم إنما يصح بأن يقدموا الإيمان .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت:٩] ثم قال : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ [فصلت:١٠] فتلك ستة، ثم قال : ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت:١٢] فصارت ثمانية، كيف يصح ذلك مع قوله تعالى في غير موضع : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ [الحديد:٤] وتلك مناقضة ظاهرة ؟

وجوابنا : أن قوله : ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ [فصلت:١٠] المراد به مع اليومين المتقدمين فلا يكون ذلك مخالفاً للآيات الأخر . وقد يقول المرء لولده أليس علمتك القرآن في سنة وَفَقَّهْتُكَ في الدِّين في سنتين ؟ يعني مع التي تقدمت، فأما قوله تعالى من بعد : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ [فصلت:١١] فالمراد به : قصد خلق السماء، فالاستواء في الحقيقة لا يصح على الله تعالى، وقوله تعالى : ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا

طَائِعِينَ ﴾ [فصلت:١١] فالمراد أنه أراد منهما الانقياد لما يريده فاستجابا، وذلك كقوله تعالى :﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[النحل:٤٠] والمراد أن تكون.

وقد يقول القائل : أردت كذا وكذا فقالت نفسي : لا تفعل، وقد يقال : (قالت)[1] السحاب فأمطرت قال الشاعر :

امتلأ الحوض وقال قطني .

وذلك كقوله تعالى : ﴿ جِدَاراً يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ [الكهف:٧٧] وكل ذلك ظاهر في اللغة وإنما يلتبس على من يقل تأمله، وقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ [فصلت:١٧] يدل على أنه تعالى قد هداهم بأن دلهم وبين لهم وأنهم لما لم يقبلوا لم يهتدوا، فالاهتداء فعلهم والهدى من قِبَل الله تعالى لا كما يقول من خالفنا في ذلك وزعم أن الهدى هو الإيمان، وقوله تعالى : ﴿ شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ ﴾ [فصلت:٢٠] فالمراد به : الردع عن المعاصي، لأنه إذا فعلها بهذه الجوارح شهدت عليه في الآخرة .

وقد ذكرنا من قبل أن هذه الشهادة من فعل الله تعالى فيها، وقوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [فصلت:٢١] فالمراد به ما ذكرنا من أنه فعل فيها ما صورته صورة الشهادة، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ ﴾ [فصلت:٢٢] فالمراد به : ما كنتم تظنون ذلك، ولذلك قال تعالى : ﴿ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لاَ يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [فصلت:٢٢] وقوله تعالى من بعد : ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ ﴾ [فصلت:٢٥] فالمراد به التخلية، فلما لم يمنعهم من ذلك جاز أن ينسبه إلى نفسه، وذلك كقوله تعالى : ﴿ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً ﴾ [مريم:٨٣] وكقول القائل لغيره : «قد أرسلتَ كلبك على الناس» إذا لم يطرده عن بابه، وقوله تعالى من بعد : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ ﴾

---

(١) في الأصل المطبوع : (أنت) وما أثبته من النسخة المخطوطة . ا هـ . مصححه .

[فصلت:٣٠] يدل على أنه لا بد مع التوحيد من الاستقامة في الأفعال والأحوال حتى يصير المرءُ من أهل الثواب، وقوله تعالى من بعد : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً ﴾ [فصلت:٣٣] يدل على أن من أعظم الأعمال الدعاء، ويدل على أنه إذا لم يقترن به العمل الصالح لم ينتفع به .

فإن قيل : فقد قال:﴿ وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت:٣٣] وأنتم تمنعونَ ذلك .

فجوابنا : أن المراد : من المنقادين للحق وذلك أوجب عندنا، وقوله من بعد : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِياً ﴾ [فصلت:٤٤] يدل على أنه تعالى فعله فجعله عربياً وكان يجوز أن يجعله أعجمياً .

سورة الشورى

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ ﴾ [الشورى:٥] كيف يصح ذلك مع قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [غافر:٧] ؟

وجوابنا : أن المراد : ويستغفرون لأهل الأرض الذين هم المؤمنون، لا لأهل السماء ؛ لأن أهل الأرض هم المحتاجون إلى الاستغفار، ويحتمل أن يكون المراد : ويستغفرون لأهل الأرض لإزالة عذاب الاستئصال عنهم، والأول أقوى ؛ لأن إحدى الآيتين يجب أن تنبنى على الأخرى كما يبنى المجمل على المفسر .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ [الشورى:٧] وهو يوم القيامة، كيف يصح أن ينذر يوم القيامة والتكليف منقطع ؟

وجوابنا : أن المراد : ينذرهم ما يلقون يوم الجمع وهم يخافون، فحال الإنذار هو حال التكليف، ولذلك قال تعالى : ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ [الشورى:٧] فبين وجه التخويف في ذلك، وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ [الشورى:٨] المراد أن يلجئهم إلى الإيمان لكنه لم يشأ إلا على وجه الاختيار تعريضاً للمثوبة، وقوله تعالى من بعد : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى:١١] ربما قالوا فيه : إن ظاهره يتناقض لأنه يقتضى أن لمثله مثلاً، ولو كان كذلك لما صح النفي لأنه يقتضى الإثبات .

وجوابنا : أن ذلك وإن كان مجازاً فهو مؤكد للحقيقة على ما جرت به عادة العرب وهو أوكد من قول القائل : ليس مثله شيء، وقوله تعالى من بعد : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى

أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ﴾ [الشورى:١٣] فالمراد به أنه شرع لكل الأنبياء أن يقيموا الدين فيما يتصل بالاعتقاد والتوحيد ؛ لأن ذلك مما لا يقع بينهم فيه خلاف، فأما الشرائع المختلفة فلكل منهم دين، وما هو دين أحدهم بمنزلة ما هو دين غيره لأنه دين لهم مضاف إليهم، ولذلك قال بعده : ﴿ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ [الشورى:١٣] فنبه بذلك على ما ذكرناه، وقوله : ﴿ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى:١٣] المراد به، ويهدي إلى رضوانه وثوابه من ينيب، فلا تعلق للمخالفين بذلك، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى:١٤] ربما سألوا فيه وقالوا : كيف يؤدي علمهم إلى التفرق ؟

وجوابنا : أنه تعالى أراد بالعلم البيان، وأنهم تفرقوا بعد البيان وبعد قيام الحجة ويحتمل أن يكون المراد : تفرقوا بعد العلم على وجه البغي كما ذكره تعالى، والمراد : المبطلون دون المحقّون .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ﴾ [الشورى:١٥] كيف يصح أن لا يكون له عليهم حجة ؟

وجوابنا : أن المراد : إنا قد بالغنا في إقامة الحجة حتى لم تبق باقية، فلا حجة بيننا وبينكم، وهذا على وجه التوبيخ، وإلا فمعلوم من دين الرسول ﷺ أنه كان لا يعذر القوم بل له الحجة العظيمة عليهم، ولذلك قال بعده : ﴿ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ [الشورى:١٥] وقال تعالى بعده فيمن يُحاج في الله من المبطلين : ﴿ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [الشورى:١٦] ولا يجوز ذلك إلا وحجة المحقين ثابتة .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى:﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ [الشورى:١٧] كيف يصح القول بأنه أنزل الميزان وهو أمر يتولى فعله الناس ؟

وجوابنا : أن المراد أنه أنزل الكتاب بالحق وأنزل التمسك بالميزان في باب المعاملات، وقد قيل : إنه في الابتداء أنزله الله تعالى وعرفهم كيف يتعاملون، وقد قيل : إن المراد بالميزان العدل نفسه، وقوله تعالى من بعد :﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ [الشورى:١٧] أحد ما يرغب في التوبة ويخوف من تركها، وذلك لطف عظيم للمكلفين.

[مسألة] وربما قيل : كيف يصح قوله : ﴿ **وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ** ﴾ [الشورى:٢٠] ومعلوم أن فيمن يريد حرث الدنيا من له نصيب في الآخرة ؟

وجوابنا : أن المراد : من كانت إرادته مقصورة على حرث الدنيا ؛ لأن من هذا سبيله لا نصيب له في الآخرة، وبين تعالى أنه لا يبخل عليه بما أراده من أمر الدنيا وإن كانت هذه حاله، وقوله من بعد : ﴿ **تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ** ﴾ [الشورى:٢٢] أحد ما يدل على أن من لم يتب من الظلمة سيعاقب لا محالة . ثم ذكر تعالى من بعد رحمته فقال : ﴿ **وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ** ﴾ [الشورى:٢٥] ، وقوله تعالى من بعد : ﴿ **وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ** ﴾ [الشورى:٢٧] يدل على أنه لا يفعل إلا ما يبعث على الطاعة والعبادة، فلذلك قال ﴿ **وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ** ﴾ [الشورى:٢٧] وقوله تعالى من بعد : ﴿ **وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا** ﴾ [الشورى:٤٠] فالمراد به الجزاء على السيئة، وذلك مجاز مشهور في اللغة ولذلك قال تعالى بعده : ﴿ **فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ** ﴾ [الشورى:٤٠] والمراد بذلك من عفا عن السيئة ولم يقابل بمثلها ولا كافأ عليه، ولذلك قال بعده : ﴿ **وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ** ﴾ [الشورى:٤١] فبيّن أنه إذا انتصر وقد ظلم فلا سبيل عليه، ولو كان ما فعله سيئة لما صح ذلك، ولذلك قال بعده : ﴿ **إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ** ﴾ [الشورى:٤٢] وبعث تعالى على الصبر فقال : ﴿ **وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ** ﴾ [الشورى:٤٣] وقوله تعالى : ﴿ **وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ** ﴾ [الشورى:٤٤] المراد من يضلله بالعقوبة وبالصرف عن الثواب فلا ولي له لأنه لا ناصر له وهذه حاله، ولذلك قال بعده : ﴿ **وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ** ﴾ [الشورى:٤٤] فيتمنّون الرجعة لكي يؤمنوا وعند ذلك بين الله عز وجل أن المؤمنين يقولون : ﴿ **إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** ﴾ [الشورى:٤٥] إذا عاينوا ما أنزل بهؤلاء الظالمين ولذلك قال بعده : ﴿ **أَلاَ إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي**

عَذَابٍ مُّقِيمٍ * وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ [الشورى:٤٥-٤٦] وقوله تعالى من بعد : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً ﴾ [الشورى:٥١] أحد ما يذكر في أن الرؤية على الله تعالى لا تجوز، وإلا فقد كان أصح أنه يكلم البشر على غير هذه الوجوه وربما قالوا في ذلك : ما معنى قوله : ﴿ إِلاَّ وَحْياً ﴾ [الشورى:٥١] ؟ وهل معناه غير ما ذكر في قوله : ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً ﴾ [الشورى:٥١] وما معنى : ﴿ أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ [الشورى:٥١] والحجاب على الله تعالى لا يجوز ؟

وجوابنا عن الأول أن المراد : على وجه الخاطر والإلهام، وقد يوصف ذلك بأنه وحي من الله .

وعن الثاني بأن الحجاب في نفس الكلام يصح، وإن كان على الله تعالى لا يصح وقوله تعالى من بعد : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ ﴾ [الشورى:٥٢] أحد ما يدل على أنه من قبل النبوة لم يكن مكلفًا بشريعة إبراهيم ولا غيره ولا كان يعرف الإيمان، وقوله تعالى من بعد : ﴿ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [الأنعام:٨٨] المراد به : من يكلفهم دون غيرهم، فلا يدل على أنه تعالى هدى بعض المكلفين دون بعض، ولذلك قال بعده : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى:٥٢] ومعلوم أنه هدى كل المكلفين .

سورة الزخرف

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا** ﴾ [الزخرف:٤] كيف يصح في القرآن ذلك وإنما أنزله على الرسول ﷺ ؟

وجوابنا : أن المراد أنه كتبه في اللوح المحفوظ على الوجه الذي تعرفه الملائكة ثم حصل الإنزال إلى السماء الدنيا في ليلة مباركة كما ذكره تعالى، ثم حصل الإنزال حالاً بعد حال بحسب الحاجة إلى الأحكام والقصص، وفي كل ذلك مصلحة، فأما في الأول فالملائكة يعرفون به ما يدعوهم إلى طاعته ويعرفون به أنه من عالم الغيب لأنه تعالى ذكر عند إثبات القرآن في اللوح المحفوظ ما سيكون من حاله وحال الرسول ﷺ من المصالح المعروفة، فلا تناقض في ذلك، وقوله تعالى من قبل : ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِياً** ﴾ [الزخرف:٣] أحد ما يدل على حدوثه من وجوه وقد بيناها من قبل .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ** ﴾ [الزخرف:٧] كيف يصح ذلك وفي الأنبياء من قبلوا منه وعظموه ؟

وجوابنا : أن المراد بذلك من دخل تحت قوله : ﴿ **وَكَمْ أَرْسَلْنَا** ﴾ [الزخرف:٦] وذلك لا يعم جميع المرسلين، ولذلك قال بعده : ﴿ **فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشاً وَمَضَى مَثَلُ الأَوَّلِينَ** ﴾ [الزخرف:٨] .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ** ﴾ [الزخرف:١٢-١٣] كيف يصح بعد ذكر الأنعام أن يقول : **(على ظهوره)** ولا يقول : على ظهورها ؟

وجوابنا : أن ذلك يرجع إلى لفظة «ما»، فقد يصح أن يفرد ما يرجع إليه كما يصح أن يجمع، وهذا كما نقوله في لفظة «من» أنها تارة يجمع ما يرجع إليها وتارة

يوحد، وفي قوله : ﴿ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾[الزخرف:١٣] دلالة على ما يلزم العبد من الشكر عند كل نعمة دقت أو جلت .

ثم قبح تعالى ما قاله بعض العرب من أن الملائكة بنات الله تعالى وبيّن أن ضربهم المثل لله تعالى بما يعدونه نقصاً من عجائب كفرهم فقال : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [الزخرف:١٧] وبين بقوله : ﴿ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ ﴾ [الزخرف:١٩] أن كل قول لا علم معه بصحته يصير وبالاً، وقوله من بعد ،﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم ﴾ [الزخرف:٢٠] يدل على أنه تعالى لا يشاء عبادة غيره، ولولا ذلك لما قال : ﴿ مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾ [الزخرف:٢٠] .

وقبح التقليد بقوله : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف:٢٢] ثم قال : ﴿ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف:٢٣] وقال بعد ذلك : ﴿ قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ﴾ [الزخرف:٢٤] وهذا هو الذي يبطل التقليد ويعلم أن الواجب اتباع الهدى والدلالة، وقوله تعالى من بعد : ﴿ وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِّن فِضَّةٍ ﴾ [الزخرف:٣٣] أحد ما يدل على أنه تعالى لا يخلق الكفر ولا يدعو إليه لأنه إن كان هو الخالق له فلا فائدة في هذا، وإنما يكون له فائدة إذا كان الكلام مع المختار للكفر، فعند هذا الضرب من النعم يختار ما لَولاَها كان لا يختاره، ثم بين تعالى أن كل ذلك متاع الدنيا وأن الآخرة عند الله للمتقين، والاتقاء معناه أن لا يتخذوا زخرفاً في الدنيا من المعصية فيترك المعصية ويتقي النار وذلك لا يصح إلا وهم المختارون لذلك .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف:٣٦] كيف يصح أن يكون تعالى يمنع من اتباع الشيطان ويقيضه للعبد ؟

وجوابنا : أن المراد ك من يعشُ عن ذكر الرحمن في الدنيا نقيض له شيطاناً في الآخرة فيصير قرينه كما ذكره الله تعالى في غير موضع، ولولا هذا التأويل لحملناه على معنى التخلية كما تأولنا عليه قوله تعالى : ﴿ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزاً ﴾ [مريم:٨٣] ولذلك قال بعد : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ المَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ القَرِينُ ﴾ [الزخرف:٣٨] ولذلك قال بعده : ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ اليَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ ﴾ [الزخرف:٣٩] وكل ذلك يبين صحة ما تأولنا .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ اليَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي العَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ [الزخرف:٣٩] ما فائدة هذا الكلام ؟ وكيف ينتفعون بالاشتراك في العقاب ؟

وجوابنا : أن المراد أن كل ممتحن في دار الدنيا إذا انفرد بالمحنة تكون محنته أثقل وأعظم وأغلظ منها إذا كان له شركاء فيها، فبين الله تعالى أن هذا القدر من الروح والخفـة لا يحصل في الآخرة لأهل العذاب إذا اشتركوا فيه، وقوله تعالى من بعد : ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي العُمْيَ ﴾ [الزخرف:٤٠] أحد ما يدل على أنه تعالى يذكر مثل هذا الوصف فيمن يمتنع من الإصغاء والقبول على ما تأولناه من قبل .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ﴾ [الزخرف:٤٩] كيف يصح أن يصفوه بأنه ساحر ويسألوه أن يدعو ربه وذلك متناقض ؟

وجوابنا : أن المراد أنهم قالوا بحسب اعتقادهم وقالوا : إن لم تكن كذلك على ما نعتقده فادع لنا ربك، وقد قيل : إن هذه اللفظة تستعمل في اللغة فيمن يعتقد فيه التقدم معرفة الأمور، فعلى هذا الوجه قالوا، ومعنى قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ [الزخرف:٥٥] أغضبونا، فالأسف في الحقيقة لا يجوز إلا على من يجوز عليه الحزن والغم وقد قيل : إن المراد : آسفوا رُسُلَنَا .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ** ﴾ [الزخرف:٦٠] كيف يصح أن يجعل من الناس ملائكة ؟

وجوابنا : أن المراد بقوله : ﴿ **مِنكُم** ﴾ [الزخرف:٦٠] ليس ما ذكرته، بل المراد أن ينزل الملائكة بحيث يرون في جملتهم فيكونون منهم، بين الله تعالى بذلك أن عيسى وإن فارق حاله ـ فى كونه لا من أب ـ حالهم فليس ذلك ببعيد عند الله تعالى، كما لا يبعد أن يجعل مع الناس ملائكة والله تعالى أنشأهم بلا ولادة .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلاَ تَمْتَرُنَّ بِهَا** ﴾ [الزخرف:٦١] ما المراد بذلك ؟

وجوابنا : أنه قد ظهر في الأخبار نزول عيسى عليه السلام عند الساعة، وأن الله تعالى جعله دلالة للساعة، فلذلك قال تعالى : ﴿ **فَلاَ تَمْتَرُنَّ بِهَا** ﴾ [الزخرف:٦١] لأن العلم والدلالة تمنعان من المرية، وقوله تعالى من بعد : ﴿**الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ** ﴾ [الزخرف:٦٧] يدل على أنهم في الآخرة بخلاف ما هم في الدنيا ففي الدنيا، يُحِبُّ بعضهم بَعضاً، وفي الآخرة يُغَلِّظ الله قلبَ بعضهم على بعض ويكون ذلك زائداً في غمومهم، وقوله تعالى من بعد : ﴿ **يَا عِبَادِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ** ﴾ [الزخرف:٦٨] يدل على أن المتقين لا تلحقهم أهوال الآخرة وتعلق بعضهم في أن الله تعالى يرى لجهله بقوله تعالى : ﴿ **وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ** ﴾ [الزخرف:٧١] وزعم أن من أعظم لذات العين رؤية الله تعالى، وهذا جهل عظيم لأن الواجب أن يثبت أولاً أنه يرى ثم يقول ذلك كما لو قال قائل : إنه داخل تحت قوله تعالى : ﴿ **وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ** ﴾ [الزخرف:٧١] بالمعانقة والملامسة لكان إنما يبطل بأن يقال : يجب أن تثبت أولاً أنه جسم يصح ذلك عليه ثم تقول هذا القول، وقوله تعالى من بعد : ﴿ **إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ** ﴾ [الزخرف:٧٤] يدل على أن غير الكفار من المجرمين هذا وصفهم .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى:﴿ **أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لاَ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ** ﴾ [الزخرف:٨٠] كيف يصح أن يكتبوا السر وهم لا يعلمونه ؟

وجوابنا : أنه تعالى يعرف الحفظة ما يفعله العبد بأمور من قبله فتكتبه إذا كان ذلك مما لا يشاهد فهذا الوجه وجه الكلام .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ** ﴾ [الزخرف:٨١] كيف يصح أن يكون أوّل عابد لمن له ولد ؟

وجوابنا : أن المراد : فأنا أول الآنفين مِنْ عبادة مَنْ هَذا حَالهُ وقد ذكر عن الفرزدق أنه قال :

وأعبد أن يهجى كليب بدارهم .

وأراد به الأنفة، ويحتمل أن يريد بذلك تبعيد أن يكون له وَلد لأن عبادته له تمنع من ذلك، وقوله تعالى:﴿ **وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ** ﴾ [الزخرف:٨٤] يدل على أنه يجوز عليه المكان وأنه يدبر الأماكن، ولو كان على العرش كما قالوا لم يصح ذلك .

سورة الدخان

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ** ﴾ [الدخان:٣] كيف يصح ذلك وإنما أنزله في المدة الطويلة حالاً بعد حال ؟

وجوابنا : أنه أنزله إلى السماء الدنيا في ليلة مباركة على ما تقدم ذكره ولذلك قال : ﴿ **فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ** ﴾ [الدخان:٤] لأنه تعالى أمر في تلك الليلة بأن الملائكة ينزلون القرآن حالاً بعد حال بحسب الحاجة إليه والمصلحة .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ** ﴾ [الدخان:١٠] ما المراد بذلك ؟ وكيف يرتقب ما لا يوجد في الدنيا ؟

وجوابنا : أنه يحتمل أن يريد : فارتقب ذلك للكفار والعصاة على وجه الردع لهم، ويحتمل أن يكون هذا الدخان أحد المعجزات كما رُوي عن ابن مسعود في انشقاق القمر، وقوله تعالى من بعد : ﴿ **وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ** ﴾ [الدخان:١٧] المراد به : امتحناهم وكلفناهم، وليس المراد أنا خلقنا الكفر فيهم كما يزعمه بعضهم ولذلك قال تعالى : ﴿ **وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ** ﴾ [الدخان:١٧] .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الأَثِيمِ** ﴾ [الدخان:٤٣-٤٤] كيف يصح أن يخوف تعالى بشجرة الزقوم وهي لا تعرف ؟

وجوابنا : أنه إذا وصف حالها صح التخويف بها، ولذلك قال تعالى : ﴿ **كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلْيِ الْحَمِيمِ** ﴾ [الدخان:٤٥-٤٦] وقوله تعالى من بعد : ﴿ **ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ** ﴾ [الدخان:٤٩] المراد به ذق العذاب إنك أنت الموصوف بذلك في الدنيا، ولذلك قال تعالى بعده : ﴿ **إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ** ﴾ [الدخان:٥٠] .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى: ﴿ **لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَى** ﴾ [الدخان:٥٦] كيف يصح استثناء الموتة الأولى من حالهم في الجنة ؟

وجوابنا : أن المراد : توكيد نفي الموت عنهم بذكر ما عرفوه من الموتة الأولى فالمراد سوى الموتة الأولى التي عرفوها .

سورة الجاثية

[مسألة] إن الله جل وعز جمع بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [الجاثية:٣-٤] بين كل الأدلة على الله تعالى لأنها إما بالنظر في الأجسام فيعلم أنها محدثة من حيث لا تنفك عن المحدثات ويعلم أن فاعلها مخالف لها، وإما بالنظر في أنفسنا بتجدد أحوالها على من برأها، وإما بالنظر في سائر الدواب والحيوان فيعلم بتغير أحوالها المدبر لها، ولا دليل على الله تعالى إلا وقد دخل تحت ما ذكرناه، ولكنه تعالى أراد ذلك أيضاً بذكر اختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق وتصريف الرياح، ثم قال في آخره : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الجاثية:٦] فبيَّن أن العدول عنها إلى سائر الأحاديث ترك لما يجب من النظر ثم قال تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ [الجاثية:٧] وتوعد على ترك هذه الطريقة فقال تعالى : ﴿ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الجاثية:٨] وكل ذلك بعث من الله تعالى على النظر والتذكر في هذه الأدلة وفي هذه النعم ليقوم بشكرها، ثم قال من بعد محققاً لما ذكرنا : ﴿ هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ [الجاثية:١١] فأشار إلى ما تقدم من الأدلة، وبيَّن أنها هدى، ولولا أنها هدى للكافرين لما توعدهم بالعذاب إذا عدلوا عنها، ثم أتبعه بقوله تعالى : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ ﴾ [الجاثية:١٤] نبَّه بذلك على أن الغُفران يكون من قبلهم إذا تمسكوا من طاعة الله بما يوجب الغفران، ثم قال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [الجاثية:١٥] فنبه بذلك على أن أمر الآخرة موقوف على هذين، فمن عمل صالحاً فله الجنة، ومن أساء فهو من أهل النار .

[**مسألة**] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ** ﴾ [الجاثية:١٨] كيف يصح أن ينهاه عما تمنع النبوّة منه ؟

وجوابنا : أن النبوة لا تمنع من القدرة على ذلك والتمكن منه وإنما لا يختاره فالنهي عن ذلك يصح ويكون أحد ما يدعو النبي إلى ترك ذلك، وقوله تعالى من بعد : ﴿ **أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً** ﴾ [الجاثية:٢١] يدل على أن الوعيد لاَحِقٌ بهم وأنهم من أهل العذاب لأنهم ؛ لو صاروا من أهل الجنة لكان تعالى قد سوى بينهم .

[**مسألة**] وربما قيل في قوله تعالى: ﴿ **أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ** ﴾[الجاثية:٢٣] كيف يصح اتخاذ الهوى إلهاً ؟

وجوابنا : أنه يطيع الهوى ويعدل عن طريق العقل، وذلك تشبيه يحسن في اللغة، ومعنى قوله تعالى : ﴿ **وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ** ﴾ [الجاثية:٢٣] أنه أضله عن الثواب إلى العقاب، ومعنى قوله تعالى : ﴿ **وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً** ﴾ [الجاثية:٢٣] ما قدمناه من العلامة التي يفعلها الله تعالى، وقد تقدم القول في ذلك، وقوله من بعد : ﴿ **هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ [الجاثية:٢٩] من أقوى الصوارف عن المعاصي، فإنها إذا تفرقت على الأوقات ثم جمعت في الصحيفة عظمت على من عرضت عليه، وقوله تعالى من بعد : ﴿ **ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا** ﴾ [الجاثية:٣٥] يدل على أن الإعراض عن الآيات من أعظم الذنوب، وكذلك الاغترار بالدنيا .

سورة الأحقاف

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ** ﴾ [الأحقاف:٩] كيف يصح أن يقول ﷺ ذلك وهو كلام شاك في أمره وأمرهم ؟

وجوابنا : أن المراد : ما أدري ما يُفعل بي ولا بكم فيما يوحى إليّ، فبيّن أن الوحي يأتي في المستقبل بما لا يعلمه في الوقت، وقال تعالى بعده : ﴿ **وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ** ﴾ [الأحقاف:٩] فبيَّن أنه بعد نزول الوحي ينذر ويحذر، وقوله تعالى من بعد : ﴿ **وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى** ﴾ [الأحقاف:١٢] - يعني القرآن - يدل على حدوثه، لأن ما تقدمه غيره لا يكون إلا محدثاً، وكذلك قوله تعالى : ﴿ **وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَاناً عَرَبِياً** ﴾ [الأحقاف:١٢] يدل على ذلك، وقوله تعالى من بعد : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ [الأحقاف:١٣] يدل على أن مَنْ هذا حاله لا تؤثر فيه أهوال الآخرة، وقوله تعالى : ﴿ **وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا** ﴾ [الأحقاف:١٩] يعني مِنْ جزاء ما عملوا لأنهم يتفاضلون في ذلك، وكذلك قوله : ﴿ **وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ** ﴾ [الأحقاف:١٩] أي جزاء أعمالهم، وقوله في الكفار : ﴿ **أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ** ﴾ [الأحقاف:٢٠] يدل على أنهم استحقوا العذاب لاستكبارهم وفسقهم على ما نقوله في ذلك .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ** ﴾ [الأحقاف:٢٩] أليس ذلك يدل على أنه خلق حضورهم ؟

وجوابنا : أن قول القائل صرفت إلى فلان فلاناً يريد أنه فعل ما عنده حضر من الأسباب وليس المراد أنه فعل نفس حضوره، ولذلك قال تعالى : ﴿ **فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا** ﴾ [الأحقاف:٢٩] فأضاف الحضور إليهم .

وفي الآية دلالة على أن في الجن من آمن بالرسول، وعلى أنهم مكلفون وفيهم مؤمنٌ وكافرٌ وعلى أنهم من أمة محمد ﷺ وأنه ﷺ دعاهم كما دعا الإنس، فلذلك قالوا في وصف القرآن : ﴿ **يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ * يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ** ﴾ [الأحقاف:٣٠-٣١] .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ** ﴾ [الأحقاف:٣٥] أن ذلك يدل على أن في الرسل من هو من أولي العزم وفيهم من ليس كذلك وأنتم تنكرون هذا القول ؟

وجوابنا : أن مثل ذلك قد يذكر ويُراد به الكل، فالمراد بقوله : ﴿ **مِنَ الرُّسُلِ** ﴾ [الأحقاف:٣٥] تمييز (الرسل)[1] من غيرهم دون التبعيض، فلا يدل على ما ذكروه .

---

(١) في الأصل المطبوع : (أولي العزم)، وما أثبته من النسخة المخطوطة . اهـ مصححه .

سورة محمد

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ** ﴾ [محمد:١٧] ومعلوم أنهم في بعض حروبهم نصروا الله بأن جاهدوا ومع ذلك لم ينصرهم ولم يثبّت أقدامهم .

وجوابنا : أنه لم يُرد بقوله : **إن تنصروا الله** بالاستقامة على الطاعة **ينصركم** في الدنيا، إذ يُحتمل أنه يُريد أن يَنْصركم في الآخرة ويثبت أقدامكم على الثواب لأن ذلك نصرة لهم، فيجري مجرى قوله : ﴿ **وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا** ﴾ [الشورى:٤٠] فكأنه قال : إن تنصروا الله يجازيكم على النصرة، ويحتمل أنه يريد أن الغلبة لكم على كل حال وإن غُلِبْتُمْ في الظاهر؛ لأن المغلوب إذا كان مستحقاً للثواب فهو المنصور، والغالب إذا كان من أهل العقاب فهو مخذول غير منصور، فان قيل : فقد قال تعالى بعده : ﴿ **وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ** ﴾ [محمد:٤] وكيف يصح ذلك مع الوعد لهم بالنصرة ؟

وجوابنا : أن المراد : لانتصر منهم بالإهلاك ؛ لكنه تعالى يمهلهم .

وربما قالوا في قوله تعالى : ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لاَ مَوْلَى لَهُمْ** ﴾[محمد:١١] كيف يجوز أن ينفى كونه مولى الكافرين وهو مولاهم وخالقهم ورازقهم؟

وجوابنا : أن المراد بأنه مولى المؤمنين أنه المتولي لحفظهم ونصرتهم في باب الدين، وذلك منفي عن الكافرين .

[مسألة] وربما قيل في قوله : ﴿ **مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ** ﴾ [محمد:١٥] إلى قوله : ﴿ **كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ** ﴾ [محمد:١٥] كيف يصح اتصال هذا الكلام بما تقدمه وإنما يحسن ذلك إذا قِيل : أفمن هو في الجنة كمن هو في النار ؟

وجوابنا : أن معناه أفمن كان في الجنة التي مثلها هذا المثل ووصفها هذا الوصف كمن هو في النار ؟ وفي الكلام حذف لما فيه من الدلالة على ذلك .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ [محمد:١٩] كيف يصح أن يقول ذلك لنبيه ﷺ وعِلمُه به متقدم مستقر ؟

وجوابنا : أن المراد الثبات على هذا العلم فى المستقبل، **فإن قيل** : فكيف قال ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾ [محمد:١٩] وهو مغفور له ؟

فجوابنا : أن يجتهد في التوبة من ذنبه لعظم منزلته ؛ لأن حال الأنبياء فيما يقدمون عليه أعظم من حال غيرهم .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ ﴾ [محمد:٢٥] كيف يصح أن يُملي لهم والإملاء هو الإبقاء، ولا يصح أن يكون إبقاؤهم من قِبَله بل هو من قبله تعالى ؟

وجوابنا : أن ﴿ سَوَّلَ لَهُمْ ﴾[محمد:٢٥] المراد به : زين لهم المعاصي، والمراد بقوله : ﴿ وَأَمْلَى لَهُمْ ﴾ [محمد:٢٥] أنه غرّهم بأن بسط لهم في الآمال وغلب في قلبهم أنهم يبقون فيتلافون، وفي السورة أدلة على مذهبنا منها قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ [محمد:٤-٥] فإن ذلك يدل على أن الهدى قد يكون إلى الثواب لأنه بعد القتل لا يصح سواه، وهو معنى قوله : ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ [محمد:٦] أي طيبها لهم، وقوله : ﴿ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [محمد:٤] يدل على أن الضلال قد يكون الإهلاك، ولذلك قال : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [محمد:٨] ومنها قوله : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى ﴾ [محمد:١٧] فإنه يدل على أن الألطاف والأدلة والخواطر التي ترد على المؤمن توصف بأنها هدى، وأن للمؤمنين من الحظ في ذلك ما ليس لغيرهم، ومنها قوله تعالى : ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾ [محمد:٢٤] فإنه يدل على وجوب النظر، وعلى أن التدبر فعلهم، فأما قوله : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴾ [محمد:٢٩] فالمراد بالمرض ليس هو الكفر، بل هو ما لحقهم بظهور أمر الرسول ﷺ من الغموم ؟ ومنها قوله : ﴿ وَلاَ تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ [محمد:٣٣] فذلك يدل على أن المكلف قد يبطل ثواب ما تقدم من عمله بالكبائر والكفر، لأن إبطال نفس العمل لا يصح، فالمراد به جزاء العمل، فأما قوله : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ ﴾ [محمد:٣١] فالمراد به : حتى يقع الجهاد، وقد ذكر العلم وأراد المعلوم ؛ لأن علم الله تعالى لا يتجدد ـ تعالى عن ذلك .

سورة الفتح

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ ﴾ [الفتح:٢٧] كيف يصح أن يستثنى في خبر بُشّرَ الرسول به ؟ وما فائدة ذلك ؟

وجوابنا : أنه كان مع الرسول ﷺ من المعلوم أنه يموت فلا يقع منه الدخول فلذلك استثنى، وقد قيل : إن الاستثناء متعلق بالأمن، فكأنه قال : لتدخلن المسجد الحرام وأنتم آمنون إن شاء الله ؛ لأن الأمن في داخل المسجد الحرام قد، يتغير وقد قيل : الفائدة أنه علَّمَنَا كيف نخبر عن الأمور وأن نستثني في ذلك .

[مسألة] وربما قيل في قوله من قبل : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح:٢] كيف يجوز فيما لم يقع من الذنب المتأخر أن يغفره ؟

وجوابنا : أن المراد : ما تقدم من ذنبك قبل النبوة وما تأخر عنها، وكلاهما مما يقع فيصح فيه الغفران، **فإن قيل** : فما تعلق الغفران بالفتح حتى يقول تعالى : فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ؟ **وجوابنا** أنه لا يمتنع في الفتح أن يكون سبباً في طاعات عظيمة مستقبلة تؤثر في غفران الذنب .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الفتح:١٠] ما الفائدة في هذا الكلام ؟

وجوابنا : أن المراد أنه أقوى منهم وأقدر، وفي ذلك زجر لهم عن نكث البيعة فأما من يزعم أن لله تعالى يداً تبعاً لهذا الظاهر فقد أبعد ؛ لأنه يلزمه إثبات يد فوق أيدي الناس، وفوق لا يستعمل إلا على وجه لم يجوزه أحد .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ ﴾ [الفتح:١٧] أن ذلك يوجب أنه لا حرج عليه في شيء .

وجوابنا : أنه لا حرج عليه ولا على المريض والأعرج في بعض العبادات كالجهاد وغيره، وهذا معقول من الكلام .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾ [الفتح:٢٤] أليس ذلك يدل على أنه تعالى خلق فيهم ذلك الكف ؟

وجوابنا : أنه لا يقال : إن فلاناً كفّ فلاناً عن كيت وكيت إلا بأن يبعثه على الكف ويسبب له ذلك، فهذا هو المراد .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ ﴾ [الفتح:٢٧] ما المراد بهذه الرؤيا ؟

وجوابنا : أنه ﷺ رأى كأن قائلاً يقول له : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ ﴾ [الفتح:٢٧] فحكاها الله تعالى كما رآها، فهذا معنى الكلام، نبه بذلك على أن في الرؤيا ما يصدق وما يكون خاطراً من قِبَل الله تعالى .

سورة الحجرات

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ** ﴾ [الحجرات:١٢] كيف يصح أن تنسب إلى أحدنا محبة ذلك مع كـونه كارهاً ؟ وكيف يجوز تشبيه ذلك بأكل لحم أخيه ميتاً ؟

وجوابنا : أن قوله تعالى : ﴿ **أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ** ﴾ [الحجرات:١٢] نفي للمحبة لا إثبات لها، فكأنه قال : كما لا يحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكذلك حال الغيبة يجب أن يكرهها ككراهة أكل لحم الميت، فأما هذا التشبيه فمن أحسن ما يضرب به المثل، وذلك لأن المرء نافر النفس عن أكل لحم أخيه الميت لقبحه، فبين الله تعالى أن غيبته تجري في القبح وفي أنه يجب أن ينفر عنها هذا المجرى .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا** ﴾ [الحجرات:١٤] أفليس قد ميّز بَيْنَ الإيمان والإسلام ؟

وجوابنا : أن الإسلام في اللغة هو الاستسلام والانقياد، وذلك ليس بإسلام في الدين على الحقيقة، ولذلك قال : ﴿ **وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ** ﴾ [الحجرات:١٤] ومن يكون مسلمًا في الحقيقة فقد دخل الإيمان قلبه، ولذلك قال بعده : ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** ﴾ [الحجرات:١٥] فبيَّن تعالى أنّ الأعراب لم يكونوا كذلك، بل كذبوا في قولهم : آمنا .

وفي السورة أدلة على ما نقول، منها قوله : ﴿ **أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ** ﴾ [الحجرات:٢] فبين به أن رَفْعَ الصوتِ بحضور الرسول يُحبط سائر طاعتهم حتى يصيروا كأنهم لم يفعلوا .

ومنها قوله : ﴿ إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ ﴾ [الحجرات:٦] فدل بذلك على أن الفعل لا يحسن إلا مع المعرفة دون أن يتبع في ذلك الفعل قول قائل مع الشك .

ومنها قوله : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ﴾ [الحجرات:٧] فدل بذلك على أن في الفسوق ما ليس بكفر وفي العصيان ما ليس بفسق ولو لم نميز بين الثلاثة .

ومنها ما نجعله أصلاً في النهي عن المنكر وهو قوله :﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾[الحجرات:٩] فأمر بالإصلاح أولاً ثم قال : ﴿ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ﴾ [الحجرات:٩] فأمر بالقتال ثانياً ونبه بالطرفين اللذين هما الإصلاح والقتال على ما بينهما من الوسائط، **فإن قيل** : فقد سمى الطائفتين مؤمنين وعندكم أنهما إذا اقتتلا لم يصح ذلك فيهما ؟

فجوابنا : أنه أثبتهما مؤمنين قبل البغي والقتال لأن قوله : ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا ﴾ [الحجرات:٩] معناه، اختاروا المقاتلة في المستقبل .

ومنها قوله : ﴿ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ ﴾ [الحجرات:١١] فدل بذلك على أن الفسق يخرج فاعله من أن يكون مؤمناً .

ومنها قوله : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ ﴾ [الحجرات:١٧] لأن ذلك يدل على أن الإيمان من نعمة الله تعالى من حيث ألطف لنا وسهل سبيلنا إلى فعله .

سورة ق

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ** ﴾ [ق:١] أن قوله ﴿ **وَالْقُرْآنِ** ﴾[ق:١] قسم، فكيف يصح أن يقسم بالقرآن وليس هناك شيء مقسم عليه؟

وجوابنا : أن المقسم عليه قوله :﴿ **قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا** ﴾[ق:٤] وما بعده، فأكد هذا الخبر بالقسم على عادة العرب، ونبه بذلك على ما يكون ردعاً عن المعاصي من حيث لا يعرفون طريق الاحتراز ومن حيث يعلم ما يأتون ويذرون وحكي عن الحسن أن المراد تأخير القسم، فكأنه قال : ﴿ **بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ** ﴾ [ق:٢] والقرآن يؤكد بذلك ما تعجبوا منه .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ * أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ** ﴾ [ق:٢٣-٢٤] كيف ثنَّى ذلك والأمر هو لواحد ؟

وجوابنا : أن في النار خزنة ولهم عدد، فلا يمتنع أن يكون خطابًا للاثنين، وأن يكون كما جعل على المكلف في الدنيا رقيبين فكذلك في الآخرة يُوكل به ملكين من الخزنة .

وقد قيل : إن الواحد قد يعبر عنه بالتثنية ويكون ذلك كالتوكيد كأنه قال : أَلْقِ أَلْقِ كما يؤكد المرء أمر غيره بأن يقول اضرِبْ اضرِبْ .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ** ﴾ [ق:٢٧] كيف يقول ذلك وقد أطغاه، والكذب في الآخرة لا يقع ؟

وجوابنا : أن المراد : ما أكرهته على الطغيان ولا ألجأته إليه لكنه اختار ذلك كقوله تعالى : ﴿ **أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم** ﴾ [سبأ:٣٢] .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ** ﴾ [ق:٣٠] كيف يصح مخاطبتها وهي جماد ؟

وجوابنا : في ذلك أن المراد : نقول لخزنة جهنم، وهذا كقوله : واسأل القرية ويحتمل أن يكون المراد استجابة جهنم لما يريده الله من حصول أهلها فيها كقوله تعالى : ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [فصلت::١١] والله تعالى قد أخبرنا فقال : ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [هود:١١٩] فبيَّن الحال إلى أن يملأها بعد المحاسبة .

[مسألة] وربما قيل : ما معنى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ [ق:٣٧] وكل المكلفين لهم قلب ؟

وجوابنا : أن المراد : لمن كان مستعملاً قلبه في التفكر والتدبر، فإن فيهم من ليس هذا سبيله .

[مسألة] وربما قالوا في قوله تعالى: ﴿ فَبَصَرُكَ اليَوْمَ حَدِيدٌ ﴾[ق:٢٢] ما معنى ذلك؟

وجوابنا : أن المراد المعرفة، وأنها قوية في الآخرة، فالشبهة زائلة، فشبهت في القوة بالحديد لأن معرفتهم في الآخرة ضرورية، وإلا فالقوم ينظرون من طرف خفي، وفي السورة أدلة على ما نقول، منها قوله تعالى : ﴿ لاَ تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ ﴾ [ق:٢٨] ولو كان الكافر ممن لم يعط قدرة الإيمان وخلق الكفر فيه لكانت الحجة له فكان لا يجوز أن يقال له ذلك، ومنها قوله : ﴿ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ * مَا يُبَدَّلُ القَوْلُ لَدَيَّ ﴾ [ق:٢٨-٢٩] لأن ذلك يدل على أن ما توعد الله به لا يتخلف، ومنها قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنَا بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق:٢٩] لأنه يدل على أنهم قد فعلوا ما استوجبوا به العقاب، ولولا ذلك لكان كل العقاب من باب الظلم والعبث من حيث خلق فيهم ما عاقبهم لأجله، ومن حيث خلقهم للكفر ومن حيث خلقهم للنار، فلو ابتدأهم بها لكان أقرب من أن يستدرجهم إليها، ومنها قوله تعالى : ﴿ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق:٣٣] فذلك إنما يصح إذا كانت الخشية تصرفه عن الفعل ولو كان مخلوقاً فيه لما صح ذلك، وقوله تعالى : ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [ق:٣٥] يدل على أنه تعالى يضم إلى ثوابهم التفضل، ولا نمنع من أن يكون ذلك عند شفاعة الرسول ﷺ ، فليس لمن خالفنا في الشفاعة أن يتعلق بذلك، وقوله في آخر السورة : ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق:٤٥] يحقق ما نقوله في الوعيد ويبين أن ذلك يصرف عن المعاصي، فلذلك أمر الله جل وعز نبيه ﷺ أن يذكرهم به، ولو كان ذلك خلقاً فيهم من جهة الله تعالى لما صح ذلك .

سورة الذاريات

[مسألة] وربما قالوا : كيف أقسم بالذاريات التي هي الرياح وبغيرها ؟

وجوابنا : أنه تعالى قد بيَّن مراده بقوله تعالى : ﴿ **فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾ [الحجر:٩٢] وبقوله تعالى : ﴿ **فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ** ﴾ [الذاريات:٢٣] وبين الرسول حيث قال : « **من كان حالفاً فليحلف بالله** » فيجب إذاً أن يكون المراد بكل ذلك : ورب الذاريات، ورب الطور، ورب القرآن .

وهذا أحد ما يدل على أن القرآن من جملة أفعاله، وأن الله تعالى ربه، ومعنى رب الذاريات أنه المالك ولا يجوز أن يملك إلا ما يفعله ويقدر عليه، فجميع ما أقسم الله تعالى به في أوائل السور يجب أن يحمل على هذا الوجه، لكن مع ذلك فيه فائدة وهي تعريف العباد إنعامه بما ذكر، كقوله تعالى : ﴿**وَالْفَجْرِ**﴾ [الفجر:١] وكقوله : ﴿ **وَالضُّحَى** ﴾ [الضحى:١] وكقوله تعالى : ﴿ **وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ** ﴾ [التين:١] إلى غير ذلك .

[مسألة] وربما قيل : لماذا قال تعالى : ﴿ **وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ** ﴾ [الذاريات:٢٢] ومعلوم من رزقنا أنه في الأرض ؟

وجوابنا : أن المراد ما هو الأصل لأرزاقنا وهو الماء النازل من السماء، ولولاه لما حصل ما نأكل ونشرب ونلبس إلى غير ذلك، وقوله تعالى : ﴿ **فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ [الذاريات:٣٥-٣٦] يدل على أن الإيمان والإسلام واحد وإلا كان لا يكون لمن نفى من المسلمين تعلق بمن أخرج من المؤمنين .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ** ﴾ [الذاريات:٤٧] أليس ذلك يدل على جواز الجوارح على الله تعالى ؟

وجوابنا : أن المراد به القوّة والقدرة، ولولا ذلك لوجب إثبات أيد كثيرة له ـ تعالى عن ذلك .

[مسألة] وربما قيل : ما معنى قوله تعالى : ﴿ **وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ** ﴾ [الذاريات:٤٩] وفي الأشياء ما لا زوج له كالجمادات وغيرها ؟

وجوابنا : أنه لا شيء إلا وقد خلق الله تعالى ما يخالفه بعض المخالفة ليدل بذلك على قدرته ولتتكامل به نعمته، وهذا كالذَّكر وَالأُنثى، وكما نعلمه في الثمار والفواكه، وكالليل والنهار، وكالحجر الصلب والرخو من الأشياء، وذلك تنبيه من الله تعالى على عظم قدرته وإنعامه، فلذلك قال تعالى : ﴿ **لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾ [الذاريات:٤٩] فأما قوله تعالى : ﴿ **فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ** ﴾ [الذاريات:٥٠] فلا يدل على أنه تعالى في مكان، بل المراد الفرار إلى طاعته وعبادته والتخلص من عقابه، فلذلك قال تعالى : ﴿ **إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ** ﴾ [الذاريات:٥٠] فأما قوله جل وعز : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** ﴾ [الذاريات:٥٦] فدلالة على أنه تعالى أراد من جميعهم عبادته وأنه خلقهم لذلك لا كما يقول المخالف من أنه أراد من المؤمنين الإيمان ومن الكافرين الكفر، وأنه خلق بعضهم للنار وبعضهم للجنة .

وقد بينا أن قوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الجِنِّ وَالإِنسِ** ﴾ [الأعراف:٧٩] لا يعارض ذلك ؛ لأن المراد : ذرأناهم للعبادة لكن مصيرهم إلى جهنم من حيث لم يختاروه، فهذه اللام لام العاقبة كقوله عز وجل : ﴿ **فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُواً وَحَزَناً** ﴾ [القصص:٨] وقوله من بعد : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القُوَّةِ المَتِينُ** ﴾ [الذاريات:٥٨] فالمراد به وصفه بالاقتدار على الأمور لا أن المراد إثبات قوة له ـ تعالى الله عن الحاجة علوًّا كبيرًا ـ ولو كان المراد ظاهره لوجب مع قوته أن يوصف بالمتانة التي هي الصلابة وذلك من صفات الأجسام .

سورة الطور

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور:٤٨] إن ذلك يدل على أن لله عيناً كما يقوله بعض المشبهة .

وجوابنا : أنه إن دل على ذلك دل على عيون وليس أقله بأن يدل عليه أولى من أكثره وليس ذلك قولاً لأحد، فالمراد به أنك بمرأى منا ومسمع وأنا نعلم تعيين أحوالك، وذكره تعالى ليبعثه على التشدد في الإبلاغ والصبر على كل عارض دونه .

[مسألة] وربما تعلق بعض المجبرة بقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ [الطور:٢١] وزعموا أن ذلك يدل على أن الإيمان من فعل الله .

وجوابنا : أن المراد : من يبلغ من الذرية ويؤمن، فبين تعالى أنه لأجل مشاركتهم لهم في الإيمان ألحقهم بهم، وبين ذلك قوله : ﴿ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ [الطور:٢١] والعامل لا يكون إلا مكلفاً، وقوله تعالى من بعد : ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور:٢١] يدل على أن أحداً لا يؤخذ بكسب غيره، فيبطل قول من خالفنا وزعم أن أطفال المشركين يؤخذون بذنب آبائهم .

سورة النجم

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴾ [النجم:١٣] أن ذلك يدل على أنه ﷺ رأى ربه مرة بعد أخرى .

وجوابنا : أن المراد بذلك جبرائيل عليه السلام لأنه المذكور من قبل بقوله تعالى : ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ﴾ [النجم:٥-٦] ثم قال بعد ذلك : ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ [النجم:١١] فأثبته رائياً له، ثم قال : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴾ [النجم:١٣] فأثبته رائياً له ثانياً وأراد رؤيته له على صورته التي هو عليها، فقد كان يَنزل على غير صورته في سائر الحالات ويبين ما قلناه قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ [النجم:٨-٩] وذلك لا يليق إلا بجبرائيل عليه السلام، وقوله تعالى من بعد : ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ [النجم:٣٢] يدل على أنه يغفر إلمام الإنسان بصغائر المعاصي إذا اجْتُنِبَت الكبائر، وقوله تعالى : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى * أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى * وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴾ [النجم:٣٧-٤٠] فيه دلالة على أن أحداً لا يؤخذ بذنب غيره .

[مسألة] وربما قالوا : إن قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴾ [النجم:٤٣] يدل على أن أفعالنا مخلوقة لله تعالى .

وجوابنا : أن ذلك إن دل فإنما يدل على أنه فعل الضحك والبكاء ولا عموم فيهما فإن فعلهما تعالى بائنين ثم الظاهر فمن أين أن كل ضحك وبكاء من فعل الله تعالى . فإن قيل : فما قولكم في الضحك، أهو من فعل العبد أو من فعل الله ؟ وقد يتعذر على المرء ترك الضحك فكيف يكون من فعله ؟

وجوابنا أن الضحك هو التفتح المخصوص الذي يظهر في الوجه، وذلك يكون من فعل العبد ولا حال يضحك فيها إلا ويجوز أن يتركه لأنه لو خُوِّفَ من الضحك لَتَرَكَه فأما الإبكاء فهو من فعله تعالى ؛ لأنه إنزال ما يدفع صفة الوجه، فحقيقته أنه تعالى هو الذي يُبكي العبد وإن كان العبد قد يتسبب في ذلك، وقد قيل : إن المراد بقوله : ﴿ أَضْحَكَ ﴾ [النجم:٤٣] أنه أنعم على أهل الثواب بالجنة والثواب ﴿ وَأَبْكَى ﴾ [النجم:٤٣] أنه عاقب أهل النار، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى * وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴾ [النجم:٤١-٤٣] وذلك لا يليق إلا بأمر الآخرة، فشبه ما ينالهم من النعيم والسرور بالضحك، وما ينالهم من العقاب بالبكاء .

[مسألة] وربما قيل في قوله : ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ﴾ [النجم:٤٥-٤٦] كيف يصح ذلك ونحن نعلم ما لا يخلق من النطفة من الذكر والأنثى ؟

وجوابنا : أن جميع ما فعله من الذكر والأنثى أصل الخلقة فيه النطفة وإن كانت ربما تكون بواسطة وربما لا تكون، وما يوجد على غير هذا الوجه لا نعلم فيه الذكر من الأنثى، وقوله عز وجل : ﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى ﴾ [النجم:٤٧] يدل على وجوب الإعادة لأجل الإثابة ؛ لأن في قوله : ﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ ﴾ [النجم:٤٧] دلالة الوجوب . وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الْأُولَى ﴾ [النجم:٥٠] ظاهرة أن بعد عادٍ عاداً ثانية فيكون هو الأول، وقد روى ذلك في الأخبار . ومن قال : إنه واحد تأول على ما قاله الحسن لأنه قال : هم الأول لنا من حيث كانوا قبلنا ونحن كالآخر لهم .

سورة القمر

[مسألة] وربما قيل : كيف يصح قوله : ﴿ **اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ** ﴾ [القمر:١] ولو كان قد انشق القمر على الحقيقة لنقل ذلك نقلاً ظاهراً ؟

وجوابنا : أن في العلماء من يقول : المراد به وانشق القمر في الساعة ؛ لأنه عند الساعة ينشق القمر إلى غير ذلك من الشرائط، لكن الصحيح ما قاله مشايخنا من أنه في أيام رسول الله ﷺ انشق القمر، وهو ظاهر القرآن، فإذا كان قد انشق بالمدينة أو بمكة وفي سائر الأماكن غيوم تحجب عن رؤية ذلك وكان أهل ذلك البلد في غفلة عنه إلا طبقة مخصوصة فليس من الواجب نقل ذلك بالتواتر، بل يجوز أن ينقله الآحاد وقد نقل ابن مسعود وغيره هذا كما نقل رد الشمس في أيام الرسول ﷺ ، فلم يجب في نقله الظهور لأن ذلك ظهر آخر النهار لقوم مخصوصين .

وقوله : ﴿ **وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا** ﴾ [القمر:٢] على وجه الذم يدل على أن ذلك قد كان . وقوله من بعد : ﴿ **تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا** ﴾ [القمر:١٤] الجواب فيه ما قدمنا من قبل . وما كرره الله من قوله : ﴿ **فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ** ﴾ [القمر:١٥] يدل على أنه تعالى يكرر هذه الأمور لكي يعتبر الناس بها، وأنه تعالى أراد من جميعهم الادّكار لا تركه على ما يقوله من خالفنا، وقوله تعالى من بعد : ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾ [القمر:٤٩] لا يدل على ما يقوله مخالفنا، وذلك لأنه تعالى قال : ﴿**يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ * إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾ [القمر:٤٨-٤٩] يعني في الآخرة في معاقبة أهل النار لأنه تعالى يعاقب كل أحد بقدر استحقاقه، ولذلك قال بعده : ﴿ **وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ** ﴾ [القمر:٥٠] وذلك لا يليق إلا بالآخرة التي لا يقع فيها من أحد مخالفة لله تعالى . وقوله : ﴿ **وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ** ﴾ [القمر:٥٣] يدل على أن كل ذلك يكتبه الحفظة ثم يقع التمييز عند المحاسبة، ويُحتمل أن يريد أن ذلك مكتوب في اللوح المحفوظ كما كتب تعالى الآجال والأرزاق .

سورة الرحمن

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ القُرْآنَ * خَلَقَ الإِنسَانَ * عَلَّمَهُ البَيَانَ** ﴾ [الرحمن:١-٤] إن ذلك يدل على أن علمه بالقرآن والبيان من فعل الله تعالى وذلك ممَّا لا نخالف فيه وإنما القول في العلم بالله وتوحيده وعدله وأنه اكتساب من العبد .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **وَوَضَعَ المِيزَانَ * أَلاَّ تَطْغَوْا فِي المِيزَانِ** ﴾ [الرحمن:٧-٨] إن ذلك تكرار لا معنى له .

وجوابنا : أن وضع الميزان المراد به ما تستقيم به المعاملات من الموازين وقوله تعالى : ﴿ **أَلاَّ تَطْغَوْا فِي المِيزَانِ** ﴾ [الرحمن:٨] المراد به : كيفية استعماله في المعاملات فأحد الأمرين مخالف للآخر .

[مسألة] وربما قيل : إنه تعالى ذكر في أول السورة :﴿ **خَلَقَ الإِنسَانَ * عَلَّمَهُ البَيَانَ** ﴾ [الرحمن:٣-٤] فكيف قال من بعد : ﴿ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾ [الرحمن:١٣] .

وجوابنا : أنه بعد ذلك ذكر مع الإنس الجن فقال : ﴿ **خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ * وَخَلَقَ الجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ** ﴾ [الرحمن:١٤-١٥] ثم عطف على ذلك بقوله تعالى : ﴿ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾ [الرحمن:١٦] لأنه كلف تعالى في الأرض الإنس والجن، وإنما كرَّر تعالى في هذه الآيات الكثيرة : ﴿ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾ [الرحمن:١٨] لأنه ذكر نعمة بعد نعمة فأتبعه ذلك وهذا مما يحسن مما يذكر نعمه وأياديه **فإن قال** : ففي جملة الآيات ما ليس فيه نعمة كقوله : ﴿ **يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ** ﴾ [الرحمن:٤٤] إلى غير ذلك .

فجوابنا : أن ذلك من النعم إذا تدبره المرء وخاف منه فصار زاجراً له عن المعاصي.

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ** ﴾ [الرحمن:٢٢] كيف يصح ذلك وإنما يخرج من أحد البحرين ؟

وجوابنا : أنه إذا خرج من أحدهما فقد خرج منهما، والمراد من هذا المجموع وقد قيل : إنه لا يخرج من البحر الذي ليس بعذب إلا إذا مَازَجَهُ الماء العذب .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى:﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنْبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَانٌّ ﴾ [الرحمن:٣٩] كيف يصح ذلك مع أنه تعالى قد ذكر أنه يسألهم أجمعين في غير آية ؟

وجوابنا : أن المراد أنهم لا يُسْألون على وجه التعرف لأن ذلك مكتوب معلوم وإن كانوا قد يُسْألون على غير ذلك، وقد تقدم كلامنا في مثل هذه الآية .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ ﴾ [الرحمن:٣١] كيف يصح ذلك ولا يجوز على الله تعالى الشغل والفراغ ؟

وجوابنا : أن ذلك مما يستعمل في الوعيد لأنه أقوى في الزجر والتهديد فالقائل يقول لمن يخوفه : سأفرغ لك إنْ خَالفتَ، فلأجْل هذه المبالغة ذكره تعالى وإلاَّ فالفراغ لا يصح إلا على من يشغله فعل عن فعل من حيث يفعل ولا يصح أن يضيف إلى السكون حركة ولا إلى القيام قعوداً .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ [الرحمن:٥٤] كيف يصح وصف البطائن التي هي دون الظهائر التي هي الأرفع ؟

وجوابنا : أنه بذكر البطائن قد دلّ على الظهائر، فإن كانت الظهائر أرفع فقد دلّ بذلك أنها أرفع من الإستبرق، وقوله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن:٤٦] لا يدل على جواز المكان على الله تعالى ؛ لأنه تعالى خوّف بذلك، والتخويف لا يكون بالمكان، فالمراد : ولمن خاف مقامه للمساءلة والمحاسبة، فأضاف المقام إليه وإن كان مقاماً للعبد لأنه معد من قبله لمقام العبد ولوقوفه فيه، وقوله تعالى : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ ﴾ [الرحمن:٦٠] أحد ما يدل على قولنا؛ لأنه عز وجل بيّن أن من أحسن جازاه الله تعالى بالإحسان، وعلى قولهم قد يؤمن ثم يخلق الله تعالى الكفر فيه فلا يصح ذلك على مذهبهم .

سورة الواقعة

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ ﴾ [الواقعة:٨-١٠] كيف زاد السابقين على أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة وفي سائر القرآن لم يذكر سواهما ؟

وجوابنا : أنه تعالى أراد أن يبيّن أن في العباد من له تقدم في عظم الثواب كالأنبياء وغيرهم فخصهم بالذكر وإن كانوا من أصحاب اليمين .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [الواقعة:٢١] كيف يصح في الآخرة ذبح الطيور وأكل لحمها وعنكم أن الآخرة ليست بدار تكليف للمرء ؟

وجوابنا : أن المراد بهذه الأطعمة أنها على هيئة لحم الطير وصورته لا أنّ هناك طيوراً تذبح .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ * لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴾ [الواقعة:٥١-٥٢] كيف يصح التوعد بما لا يعرف من جملة الأشجار ؟

وجوابنا : أن لفظة الزَّقُّوم معروفة بأنها تستعمل في الكريه من الأشياء، فَجَازَ أن يتوعّد الله تعالى بذكرها .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾[الواقعة:٥٨-٥٩] أليس ذلك يدل على أن فعل العباد مخلوق لله تعالى ؟

وجوابنا : أن إنزال النطفة ليس من فعل العبد عندنا، ولذلك يختلف الحال فيه فَمِنَ النَّاس مَنْ يُمنِي أسرعِ مِمَّا يُمني غيره كثُر أو نقُص وإذا كان ذلك من فعل الله وكذلك استقراره في الرحم، فلا سؤال علينا في ذلك .

فإن قيل : فما قولكم في قوله : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ [الواقعة:٦٣-٦٤] أليس يدل على أنَّ الزّرع من فعل الله تعالى ؟

وجوابنا : أن الزرع اسم للنبات الظاهر وذلك من خلقه تعالى وإنما يفعل العبد مقدمته، وبين ذلك أنه أضاف الحرث إليهم ثم أضاف الزرع إلى نفسه، وبين ذلك أنه عدّه في نعمِهِ، وطرح البذر ليس بنعمة وإنما النعمة النبات، فأما قوله تعالى : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ ﴾ [الواقعة:٨٥] فلا دليل للمشبهة فيه لأن الكلام فيمن حضره الموت، فالمراد إذاً إحاطة علمه بذلك، فأما قوله تعالى : ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ [الواقعة:٨٢] **فقد يقال** فيه : إن الكذب لا يجوز عندكم في الآخرة فما معنى ذلك ؟

فجوابنا : أن المراد وصفهم بذلك في الدنيا، **فإن قيل** : فما تعلق الكذب بالرزق ؟

فجوابنا : أنهم كانوا يكذبون على المطر والغيم ويقولون : إنا سُقِينا بنَوْءِ كذا فأنكر الله ذلك عليهم، فأما قوله تعالى من بعد : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ ﴾[الواقعة:٨٥] فالمراد به الملائكة الموكّلة بقبض الأرواح، وهو كقوله : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ ﴾ [الفجر:٢٢] والمراد : ملائكة ربك .

سورة الحديد

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ** ﴾ [الحديد:٣] كيف يصح هذا الوصف لله تعالى مع تضاده ؟

وجوابنا : أن المراد : هو الأول لأنه لا موجود إلا وجد بعده، وهو الآخر لأنه لا موجود إلا ويفنيه فيبقى بعده، وكلاهما في وصف الله تعالى صحيح . ومعنى قوله: (**والظاهر**) أنه المقتدر القاهر، من ظهور القوم على الفعل كقوله : ﴿ **فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا** ظَاهِرِينَ ﴾ [الصف:١٤] ومعنى (**الباطن**) أنه عالم بالسرائر، وكل ذلك صحيح في أوصاف الله عز وجل، ويدل **قوله** : ﴿ **هُوَ الْأَوَّلُ** ﴾ [الحديد:٣] على بطلان قول من يثبت لله تعالى علماً وقدرة وحياة وقِدَماً لأنه لو ثبت ذلك لم يصح كونه أولاً ويدل على أنه تعالى يفني الخلق ليصح أن يكون آخراً إذ الأدلة قد دلت على أن الجنة لا يفنى ثوابها .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ** ﴾ [الحديد:٧] ثمَّ قال في آخر الآية الثانية : ﴿ **إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ [الحديد:٨] كيف يصح أن يقول : آمنوا إن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ؟ **وجوابنا** : أن قوله : ﴿ **إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ [الحديد:٨] جعله تعالى شرطاً في أخذ الميثاق؛ لأنه ﷺ كان يأخذه بشرط الإيمان، ويحتمل أن يريد به : إن رغبتم في الإيمان وتمسكتم به، وقوله تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ** ﴾ [الحديد:٩] أحد ما يدل على أن مراده بإنزال القرآن إلى الرسول ﷺ وبعثته من بين الجميع أن يخرجوا من الكفر إلى الإيمان . **فإن قيل** : فقد قال تعالى : ﴿ **لِّيُخْرِجَكُم** ﴾ [الحديد:٩] فيجب أن يكون الإيمان من خلقه .

وجوابنا : أنه بيّن أنه يُخرِجهم بهذا السبب، ولو كان الإخراج والإيمان من خلقه لم يصحّ ذلك لأنه سواء أنزل القرآن أو لم ينزل فالحال واحدة، وقوله تعالى : ﴿ لاَ يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ ﴾ [الحديد:١٠] أحد ما يدل على فضل أكابر الصحابة ومن تقدم إسلامه كالعشرة وغيرهم وإنما كان كذلك لأن موقع الإنفاق من قبل كان أعظم من موقعه من بعد، ثم قال تعالى :﴿وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الحُسْنَى﴾[الحديد:١٠] مُنَبِّهاً بذلك على أن الثواب يَعُمُّ الْكُلَّ.

[**مسألة**] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الحَقِّ وَلاَ يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد:١٦] أليس ذلك يدل على أن الَّذِينَ آمنوا لم يكونوا خاشعين وأنه كان فيهم مَنْ هُوَ قاسي القلب، وذلك بخلاف قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ المُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ [المؤمنون:١-٢] ؟

وجوابنا : أن المؤمن لا يكون في الجملة إلا خاشعاً لله وإنما أمرَ تعالى أن يخشعوا لِذكْرِ الله وَعِنْدَ سماع القرآن لأن فيهم من يسمع غافلاً لاهياً، فهو كقوله تعالى : ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ ﴾ [النساء:٨٢]، فأما قوله تعالى : ﴿ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحديد:١٦] فهو من وصف الكفار من قبل، وقوله تعالى : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [الحديد:١٦] إنما قاله فيمن أُوتِي الكتاب ثم آمن فيما بعد .

[**مسألة**] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ﴾ [الحديد:١٩] كيف يصح ذلك وفي جملتهم الفساق وأصحاب الكبائر ؟

وجوابنا : أن المراد بذلك : من آمن بالرسول في أيامه، وكذلك كانوا، ولو صح فيه العموم لحملناه على التخصيص لأن المجاهر بالفسوق والفجور لا يُسَمَّى من الصدّيقين .

[**مسألة**] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ وَالْمِيزَانَ ﴾ [الحديد:٢٥] أتقولون : إن الميزان أنزله الله ؟

وجوابنا : أنه قد قيل ذلك على ما تقدم ذكره . وقيل : إن المراد : العدل وبيان صحة المعاملات بالميزان، والظاهر هو الأول، وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ [الحديد:٢٥] يتأول على ما قدمناه، وقوله تعالى بعد ذلك : ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ﴾ [الحديد:٢٥] والمراد به وقوع النصرة التي هي حادثة دون العلم، فإنه تعالى عالم بكل شيء لم يزل .

[مسألة] وربما قالوا في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ [الحديد:٢٧] أليس يدل ذلك على أن الرأفة والرحمة من خلق الله تعالى ؟

وجوابنا : أن المراد بذلك ما لا ينكر أنه من قبله وهو لين القلب وما به يفارق الرحيم غيره، فلا يدل على ما قالوه .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ ﴾ [الحديد:٢٨] كيف يصح وقوع المشي بالنور ؟

وجوابنا : أن المراد بهذا المشي التصرف أجمع، لأن ذلك لا يصحّ إلا بالنور الذي ينفصل من الشمس وبالعقل الذي يوصف بذلك مجازاً، وبعد، فإن حمل على الظاهر جاز لأن المشي يحتاج صحيحه ومقصوره إلى ضياء ليقع على الوجه الصحيح وقوله جل وعز : ﴿ لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ ﴾[الحديد:٢٩] لا يدل على أن أفعال العباد يخلقها الله تعالى، وذلك لأن المراد بهذا الفضل النعم التي هي الأجسام، فيدخل فيه الأكل والشرب واللباس وغيرها .

سورة المجادلة

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾ [المجادلة:٧] أليس ذلك كله يدل على جواز المكان على الله تعالى ؟

وجوابنا : بل يدلّ ذلك على خلافه؛ لأنه قال تعالى : ﴿ وَلاَ أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ ﴾ [المجادلة:٧] فالمراد به العلم والتّبيُّن لا أنه كائن معهم، ولذلك خصّ تعالى النّجْوَى التي تُستَتَسَر ليُبيِّن أنه عالمٌ بكل ما يخفي على سواه، ولذلك قال تعالى بعده : ﴿ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾ [المجادلة:٦] ولولا صحّة ذلك لوجب أن يكون تعالى مع كل واحد منّا حتى يكون في الأماكن كلهّا، وحتى إذا انتقل أحدُنا من مكان إلى مكان يجب أن يكون تعالى منتقلا ليكون معه، وذلك يوجب فيه أنه محدث تعالى الله عزّ وجلّ - وقوله تعالى من قبل في صيام الظِّهَار : ﴿ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ﴾[المجادلة:٤] يدل على قولنا؛ لأن عندهم أن الصحيح القوي لم يدخل في الصوم ولو يستطيع الصيام فلا يكون لهذا الشرط فائدة بل يلزم الكل الإطعام، والقول في الإطعام كالقول في الصيام، وقوله تعالى من بعد : ﴿ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ ﴾ [المجادلة:١٠] ولم يقل «من الرحمن» فدل على أنه فعل العباد لا خلق الله تعـالى، وقـوله : ﴿ وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [المجادلة:١٠] يعني أن كل ضَرَرٍ من غَمّ وغيره يحصل عند الوسوسة فليس من فعل الشيطان بل هو من قبل الله تعالى وهذا خلاف قولهم إن الشيطان يُحبطُ الأعمال .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلاَ مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[المجادلة:١٤] كيف يصح

أن يحلفوا على الكذب في الآخرة، وقوله تعالى بعده: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الكَاذِبُونَ ﴾ [المجادلة:١٨] ؟

وجوابنا : أن المراد بذلك أنهم يحلفون أنهم كانوا مؤمنين عند أنفسهم لا كفاراً فلا يكون ذلك كذباً منهم، وقوله تعالى : ﴿ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الكَاذِبُونَ ﴾ [المجادلة:١٨] يعني في الدنيا، فلا سؤال علينا فيه، وقوله تعالى : ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ﴾ [المجادلة:١٩] المراد به فعل ما عنده (نسوه وتركوه) [1] .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى ﴿ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ ﴾ [المجادلة:٢٢] أليس ذلك يدل على أنه خلق الإيمان ؟

وجوابنا : أن المراد أنه كتب ما يعلم به الملائكة إيمانهم، فنحن نحمله على الحقيقة وإن كان الإيمان من فعل العبد .

---

(١) في الأصل المطبوع : (فسقوا وأطاعوه) وما أثبته من النسخة المخطوطة . ا هـ . مصححه .

سورة الحشر

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ** ﴾[الحشر:٢] أنه يدل على أن إخراجهم من خلق الله. وربما قيل أيضاً : ما معنى : ﴿ **لأَوَّلِ الْحَشْرِ** ﴾ [الحشر:٢] فسمى خروجهم حشراً ؟

وجوابنا : أنه تعالى لما فعل سبب إخراجهم أُضيف ذلك إليه، ولما أمر بإخراجهم أُضيف إليه أيضاً، ولذلك قال تعالى : ﴿ **وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ** ﴾ [الحشر:٢] وذلك لا يصح إلا والخروج من قبلهم، وإنما سمَّاه حشراً من حيث وقع خروجهم على وجه الجمع والسوق كقوله تعالى : ﴿ **وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً** ﴾ [ص:١٩] وقوله تعالى من بعد : ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ** ﴾ [الحشر:٤] يدل على قولنا ؛ لأن مشاقَّة العبد لله ورسوله بأن الله تعالى يخلق ذلك فيه لا تصح وقوله تعالى : ﴿ **مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ** ﴾ [الحشر:٥] قد قيل فيه : إن المراد بالإذن العلم، وقد قيل : بل المراد فبأمر الله ولذلك قال تعالى من بعد : ﴿ **وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ** ﴾ [الحشر:٥] .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ** ﴾ [الحشر:١٢] أليس ذلك كالمتناقض ؟

وجوابنا : أنه بين بقوله تعالى : ﴿ **ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ** ﴾ [الحشر:١٢] أنه لا نصرة يجدونها بعد هذه النصرة، وعلى ذلك صح .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ** ﴾ [الحشر:١٨] ما فائدة هذا التكرار ؟

وجوابنا : أن المراد بالأول أن يتقوا الله في حفظ ما فعلوا من الطاعات، والمراد بالثاني أن يتقوا في جميع ما كلِّفوا، ولذلك قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الحشر:١٨] وأما معنى قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [الحشر:١٩] المراد أنه بتركهم طاعة الله خلاهم (وخذلهم) [1] ، ولذلك قال : ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ ﴾ [الحشر:١٩] .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا القُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ [الحشر:٢١] كيف يصح ذلك في الجبل وهو جماد ؟

وجوابنا : أن ذلك مثلٌ ضربه الله تعالى لمن لا يتفكر في القرآن ولا يخشع عنده، ولذلك قال تعالى :﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ﴾[الحشر:٢١] ويمكن أن يقال : إن المراد به أن الجبل لو كان حياً يصح أن يسمع ويتدبر لكان هذا حاله .

---

١) فى الأصل المطبوع وفى النسخة المخطوطة : (وخذلانهم) والصواب ما أثبته ا هـ . مصححه .

سورة الممتحنة

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **إلاَّ قَوْلَ إبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأستغفرن لَكَ** ﴾ [الممتحنة:٤] كيف يصحّ أن يستغفر له مع كفره ؟

وجوابنا أنّ ذلك وعد منه، وقد قال تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ** ﴾ [التوبة:١١٤] وذلك يقتضي أنَّ استغفاره كان بشرط وعلى وجه يحسن عليه، ولو كان استغفاره مطلقاً لما قال : ﴿ **وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ** ﴾[الممتحنة:٤] **فإن قيل** : فما معنى قوله تعالى من بعد :﴿ **رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ [الممتحنة:٥] ؟ **قيل له** : إنهم سألوا ربهم أن يزيل عنهم الأمور التي عندها يشمت الكفار بهم .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ** ﴾ [الممتحنة:١٠] كيف وصفهن بالمؤمنات قبل الهجرة وقبل القبول من الرسول ﷺ لأنه قال :﴿ **فَإنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إلَى الْكُفَّارِ** ﴾[الممتحنة:١٠]؟

وجوابنا : أن المراد بذلك : المُظْهِرَات للإيمان الراغبات في ذلك، فلا تناقض في هذا الكلام ؛ لأنهّن يُظهرنه وَيَرْغَبْنَ فيه ثم يدّعين ويختبرن فتعرف حالهن .

سورة الصف

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ ﴾ [الصف:٢-٣] أنه جعلهم مع الكبيرة مؤمنين وذلك بخلاف قولكم .

وجوابنا : أنه قد يكون مؤمناً وإن وعد بما لا يفعل إذا كان وعده خبراً عن عزمه فلا يكون كاذباً، ولكنه إذا أطلق الوعد ولم يستثن ثم لم يفعل يقبح منه، وقد حكي عن الحسن أنه قال المراد المنافقون، أظهروا الإيمان وحالهم هذه، والأول أقرب وقوله تعالى من بعد : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف:٥] المراد به : عاقبهم على زيغهم على نحو قوله تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى:٤٠] .

سورة الجمعة

[**مسألة**] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ** ﴾ [الجمعة:٢] كيف يصح أن يزكيّهم قبل أن يظهر منهم القبول والطاعة ؟

وجوابنا : أن المراد : ويزكيهم على الوجه الذي يحسن كما يتلو عليهم آياته على هذا الوجه، ويجوز أن يُراد به التزكية التي معها يجوز التكليف من عقل وتمييز وغيرهما، ويجوز أن يريد : ويدعوهم إلى ما يتزكون به، ولذلك قال تعالى : ﴿ **وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** ﴾ [الجمعة:٢] وقوله تعالى : ﴿ **ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ** ﴾ [الجمعة:٤] لا يدل إلاّ على أن النبوّة والكتاب من فضله، فليس لأحد أن يتعلق بذلك .

[**مسألة**] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **انفَضُّوا إِلَيْهَا** ﴾ [الجمعة:١١] لِمَ لَمْ يَقُلْ « إليهما » ؟

وجوابنا : أن الكلام إذا دلّ على ذلك جاز مثله، وقد قيل : إن المراد التجارة لأنها المقصودة من اللهو الذي هو تابع لها، فكأنه نبّه بذلك على ما ينفضون أجمع لأجله دون ما يختص به بعضهم دون بعض .

سورة المنافقون

[**مسألة**] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ** ﴾ [المنافقون:١] كيف يكونون كاذبين في هذه الشهادة التي هي حق ؟

وجوابنا : أن شهادتهم كالإخبار عن اعتقادهم، ولم يكونوا معتقدين لذلك فصاروا كاذبين، وقوله تعالى من بعد، ﴿ **اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً** ﴾ [المنافقون:٢] يدل على ذلك وأنهم أظهروا ما لا حقيقة له، وقوله تعالى :﴿ **فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ [المنافقون:١] يدل على أن الأفعال من قبلهم ؛ لأن الله تعالى إن كان خلق ذلك فيهم فكيف يصح كونهم صادّين ؟ أوَليس ذلك يوجب أنهم يصدّون الخالق الفاعل وذلك محال ؟

[**مسألة**] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ** ﴾ [المنافقون:٦] كيف يصح في النبي ﷺ أن يكون استغفاره إذا وقع لا ينفع ولا يُجاب إلى ملتَمسه ؟

وجوابنا : أن المراد : ما لم يقع، وما لم يقع لو وقع فكيف يكون حاله، فليس في ذلك أنه لا يجاب إلى ما يلتمس، وبعد، فإنه يُحتمل أن يستغفر لهم بشرط معلوم من حالهم خلاف ذلك، لأن ذلك وَرَدَ في المنافقين، فيجوز أن يريد استغفاره لهم على الظاهر، فإذا علم الله تعالى نفاقهم عَلِمَ أنه لا يغفر لهم ولا يكون في ذلك تركاً لإجابته لأن طلب الغفُران لهم إن كانوا على صفة ليس هم عليها .

سورة التغابن

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾ [التغابن:٢] أما يدل ذلك على أنه خلق الكافر كافراً وخلق المؤمن مؤمناً ؟

وجوابنا : أنه ليس فيه إلا أنه خلقهم ثم من بعد قسمهم، فلا يدل إلا على أن فيهم كافراً ومؤمناً، ثم الكلام في أنّ ذلك الإيمان والكفر مِمَّن ليس في الظاهر؛ وقال أُوَيْس - عليه رحمة الله : لو كان كما ذكروا لما قال : **(فمنكم كافرٌ ومنكم مؤمنٌ)** وقوله تعالى من بعد : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ [التغابن:٣] يدل على ما نقوله من أنه خلقه لمنفعة العباد ولكي يُطيعوا، وَوَصْفُه تعالى ذلك اليوم بالتغابن يدل على أن المُقَصِّر بالكفر والمعصية يعلم أنه كان يمكنه أن لا يقصر، وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ [التغابن:١١] يدل على ما نقوله من علامات يفعلها ليميز الملائكة من المؤمنين وغيرهم .

سورة الطلاق

[مسألة] وربما قيل في قوله تعـالى : ﴿ **لاَ تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً** ﴾ [الطلاق:١] أن ذلك يدل على أن الرجعة هو الذي يحدثها ؟

وجوابنا : أنه تعالى لم يفسر الأمر، والمراد عندنا الشهوة ومحبة القلب اللذان يدعُوانه إلى الرجعة ويغتم لأجلهما بما فعل من الطلاق، وقوله تعالى من بعد : ﴿ **قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً** ﴾ [الطلاق:٣] قد تقدم ذكر المعنى، وأن المراد : حكمه في هذه الأمور، وقوله تعالى : ﴿ **وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ** ﴾ [الطلاق:٧] المراد به من ضُيِّقَ عليه رزقه أَمَرَهُ بأن لا يَبْسُط يَدَه إلى ما لا يَحِلُّ له، بل ينفق مما آتاه من الخيرات .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً** ﴾ [الطلاق:٧] كيف يصح ذلك وفي الناس من لا يجد اليسر بعد العسر ؟

وجوابنا : أنه لا أحد ممَّن ضَيَّق عليه الله تعالى إلا ويؤتيه يُسراً بعد عُسْرٍ من جهة أرزاق الدنيا أو من جهة ثواب الآخرة إذا صبر واحتسب .

سورة التحريم

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **عَلَيْهَا مَلائكَةٌ غلاظٌ شدادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴾ [التحريم:٦] أليس ذلك يدل على أن الله تعالى يأمرهم ويكلفهم، وعندكم أن الآخرة ليست بدار تكليف ؟

وجوابنا : أنه في الآخرة يجوز أن يأمر تعالى ولا يكون أَمْرُه تكليفاً كما نقوله في قوله تعالى : ﴿ **كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً** ﴾ [الحاقة:٢٤] وإنما نمنع من ثُبوت الأمر في حال التكليف ولا يكون تكليفاً، والله تعالى يأمُر الملائكة الموكّلة بعذاب أهل النار بما يتلذذون به من عذاب أعداء الله فلا يعصون كما ذكره الله تعالى، ولا يجوز في الأمر إذا كان بِشَيْءٍ يُلْتَذُّ به أن يكون تكليفاً، وفي السورة أدلّة على قولنا، منها قوله تعالى : ﴿ **قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً** ﴾ [التحريم:٦] فلو لم يكن تصرف العبد من فعله لما صح أن يقي نفسه وغيره، ومنها قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ** ﴾ [التحريم:٧] لأنه لا يجوز أن يقول : «لا تعتذروا» ولهم عذر لأن ذلك سفه، فالمراد : لا تعتذروا فلا عُذْرَ لَكُمْ، ولو كان تعالى خلق الكفر في الكافر وأراده وأوجده فيه بالقدرة والإرادة لَكَانَ ذلك مِنْ أَوْكَد مِمَّا يعتذرون به ولكان لهم أن يقولوا : لو أقْدَرْتَنَا على الطاعة لفعلنا وإنما أوتينا من جهة أنك لم تقدِّرنا ولم تخلق فينا الإيمانَ بل خَلَقْتَ فينا ضِدَّه، ومنها قوله تعالى : ﴿**إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ [التحريم:٧] فإنه يدل على أن العمل من العبد والجزاء من الله تعالى .

سورة الملك

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِّلشَّيَاطِينِ ﴾ [الملك:٥] كيف يصح في النجوم أن يجعلها رجوماً للشياطين وهي ثابتة أبداً في مكانها ؟

وجوابنا : أن المراد : ما ينفصل منها ممّا يُشاكِلُها، فيصح بذلك إضافة الرجوم إليها .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ [الملك:١٣-١٤] أليس ذلك يدل على أنه الخالق لقولهم وسرهم ؟

وجوابنا أن المراد : ألا يعلم من خلق الصدر ما يودعون فيه من سر وجهر، فكأنه بين أنه عليم بذات الصدور ومقتدر عليها، وَمَنْ هذا حاله لا تخفى عليه خافية، وقوله من بعد : ﴿ أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ ﴾ [الملك:١٦] لا يدل على أن السماء مكانه، لأن المراد : مَنْ في السماء مُلْكُهُ وقدرته على الخسف والكسف وكذلك قال بعده : ﴿ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ﴾ [الملك:١٧] وقوله تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَنُ ﴾ [الملك:١٩] ربما تعلقوا به في أنه الخالق فيهم الوقوف في الهواء .

وجوابنا : أن المراد : أنه الفاعل في الهواء ما عنده يصح منها الطيران والوقوف.

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى:﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴾ [الملك:٣٠] كيف يصح ذلك ومعلوم أن الماء المعين يخرجه من معه الآلة ؟

وجوابنا : أن المراد : أن يصبحوا والماء قد غار ويبس، وذلك يدل على انقطاع الماء في ذلك المكان، ولا يعمل بالفأس إذا انتهى مكان الماء إلى هذا الحد، وبعد، فلولا أنه تعالى يمد بالماء لكان الفأس لا يؤثر في ذلك .

سورة القلم

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ ﴾ [القلم:٤٢] كيف يصح أن يكلف في الآخرة بالسجود من لا يستطيعه ؟

وجوابنا : أن ذلك ليس بدعاء على وجه الأمر، بل هو توبيخ وتبكيت لهم من حيث تركوا السجود وهم متمكنون، ولذلك قال بعده : ﴿ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴾ [القلم:٤٣] ولو كان الأمر كما يقوله المجبرة لكان الدعاء في الدنيا والآخرة سواء في أنه إن خلق فيهم السجود صاروا ساجدين وإن لم يخلق كانوا تاركين وفي قوله تعالى من بعد : ﴿ أَمْ عِندَهُمُ الغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [القلم:٤٧] دلالة على أنه تعالى يكتب في اللوح المحفوظ الكثير من الغيوب، وأما ذكر السّاق فالمراد به شدّة الأمر كقوله تعالى : ﴿ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴾ [القيامة:٢٩] يعني الشدة بالشدة يوم القيامة .

[مسألة] وربما تعلق بعضهم بقوله : ﴿ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ ﴾ [القلم:٥١] فقالوا : إن العين حق .

وجوابنا : أن المراد : النظر المكروه منهم عند قراءة القرآن عليهم، يبين ذلك أن العين لو كانت حقاً كما يقولون لكانت تؤثر فيما يعجب به ويعظم لا في خلافه .

سورة الحاقة

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ [الحاقة:١١] كيف يصح ذلك ومن خوطبوا بذلك لم يحْملوا في سفينة نوح ؟

وجوابنا : أن المراد : حملنا من أنتم من نسله، فهو بمنزلة قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ [البقرة:٤٩] والمراد : من أنتم منهم ونجاتكم بنجاتهم .

[مسألة] وربما قالوا في قوله تعالى : ﴿ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ * وَلاَ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ ﴾[الحاقة:٣٥-٣٦] أليس ذلك خلاف قوله :﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ ﴾؟ [الغاشية:٦]

وجوابنا أنه لا يمتنع في قوم أن لاطعام لهم إلا من ضريع، ويجوز أن يكون المراد : ليس لهم طعام إلا من ضريع ولا شراب إلاَ من غِسلين، وهو ما يسيل من صديدهم، فسمّاه طعاماً من حيث يستطعم .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ [الحاقة:٤٠] كيف جعله قول جبريل وهو كلام الله تعالى ؟

وجوابنا : أنه إذا سمع منه جازت هذه الإضافة لأنه منه علم ولولاه لم يعلم، فأما قوله عز وجل من قبل : ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ [الحاقة:١٧] فلا يصح أن يتعلق المشبهة لأن العرش في السماء مكان لعبادة الملائكة فيحملونه ويطوفون حوله، ويضاف إلى الله تعالى من حيث خلقه كما يضاف العبد إلى الله تعالى، وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴾ [الحاقة:٤٤-٤٥] لا يصحّ تعلقهم به لإثبات اليمين له تعالى ؛ لأن المراد القدرة على ما بيناه في غير موضع، وعلى هذا الوجه يقال : إن فلاناً يملك فلاناً ملك يمين، إذا أمكنه التصرف فيه وإن لم يكن له يمين، وعلى هذا الوجه قال الشاعر :

إذا مـــا رايـــة رُفعـــت لمجـــد   تلقاهـــا عرابـــة بـــاليمين

يعني ببأس وقوة .

سورة المعارج

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴾ [المعارج:٣] أليس ذلك يدل على جواز الصعود والنزول عليه ؟

وجوابنا : أن إضافة الشيء لغيره بهذا اللفظ قد تكون بأن يفعله، وقد تكون بخلافه، ولله تعالى معارج خلقها للملائكة، ولذلك قال :﴿ تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ [المعارج:٤] فلا تعلق للقوم بذلك .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً * وَنَرَاهُ قَرِيباً ﴾ [المعارج:٦-٧] كيف يصح وهو متناقض ؟ وكيف يصح القرب على الله تعالى ؟

وجوابنا أن المراد : يوم القيامة، وقوله تعالى : ﴿ يَرَوْنَهُ بَعِيداً ﴾ [المعارج:٦] بمعنى الظن ﴿ وَنَرَاهُ قَرِيباً ﴾ [المعارج:٧] بمعنى العلم وذلك لا يتناقض ولا يجوز أن يراد[1] به الرؤية وذلك اليوم معدوم .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً ﴾ [المعارج:١٩] أليس يدل على أن هلعه من خلق الله تعالى ؟

وجوابنا : أن المراد أنه خلق وهو على حد من الضعف يصيبه الهلع به عند الحوادث، ولذلك قال تعالى بعده : ﴿ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً ﴾ [المعارج:٢٠-٢١]

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ * كَلاَّ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴾ [المعارج:٣٨-٣٩] ما فائدة ذلك ؟ وهل هو تعلق بما وصفه من طمعهم ؟ وكيف يعلمون مِمَّاذا خُلقوا ؟

---

(١) فى الأصل المطبوع : تراه، وما أثبته من النسخة المخطوطة . ا هـ مصححه .

وجوابنا : أن ذلك ورد في الكفار الذين قال تعالى فيهم : ﴿ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ * عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴾ [المعارج:٣٦-٣٧] ولا يمتنع فيهم أنهم كانوا يعرفون مع كفرهم أنهم خلقوا من نطفة وأن ذلك الخلق من فعله تعالى، فيصح قوله تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴾ [المعارج:٣٩] في الجملة، وفائدته أنه بين أنّ من خُلِق من ماءٍ مهين لا يجوز أن يستوجب الجنة، وإنما يستوجبها لعمله، إذ الفضل يقتضي ذلك، ويحتمل أن يريد : خلقناهم مما يعملون من التكليف، فكيف يصح أن يطمعوا فيما طمعوا فيه ولا أثر لهم فيه ولا عين ؟

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ﴾ [المعارج:٤٠] كيف يصح ذلك وقد ذكر في موضع : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾ [الرحمن:١٧] وفي موضع : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ [الشعراء:٢٨] ؟

وجوابنا : أن المراد بالمشرق والمغرب جنس ذلك أو واحده في كل يوم والمراد بالمشرقين مشرق الشتاء ومشرق الصيف ومغربهما، والمراد بالمشارق ما نعلمه من اختلاف المطالع في كل يوم، فلا تناقض في ذلك .

سورة نوح

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾[نوح:٤] ثم قال بعده : ﴿ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لاَ يُؤَخَّرُ ﴾[نوح:٤] وهذا متناقض .

وجوابنا : أنه لا تناقض في ذلك، لأن ذلك الأجل المقدّر الذي ضمنه إذا عُبد الله تعالى وأطيع لا يتأخر، وهذا الأجل عندنا مُقَدّر غير محقق؛ لأنهم إذا لم يعبدوه فأجلهم هو المكتوب ولا تأثير يقع فيه . فإن قيل : فكيف قال تعالى ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ [نوح:٣-٤] ومن عبد الله واتقاه استحق غُفْرَان كلّ ذُنوبه ؟ **وجوابنا** أن «من» قد تدخل زائدة كما تدخل للتبعيض، وهي ههنا زائدة، ويحتمل أنه يريد أن الغُفران يكون في هذا الجنس كما يقال : باب من حديد وقوله تعالى من بعد : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَاراً ﴾ [نوح:٥-٦] المراد به تشدد القوم في الإنكار والجحود والنفور من قبول الحق ولذلك قال تعالى : ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ ﴾ [نوح:٧].

[مسألة] وربما تعلقت المشبهة بقوله تعالى : ﴿ مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً ﴾. [نوح:١٣]

وجوابنا في ذلك أن المراد ما لكم لا تعظمونه حق عظمته ؛ إذ الوقار الذي يظهر في الأجسام يستحيل عليه تعالى، ولذلك قال تعالى بعـده : ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ﴾ [نوح:١٤] فالمراد : ما يتعلق بخلقه من شكر عباده .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً * وَجَعَلَ القَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً** ﴾ [نوح:١٥-١٦] كيف يصح ذلك ونور القمر يكون على الأرض لا فيما بين السموات ؟

وجوابنا : أن المراد : وجعل القمر بينهن وبين الأرض نوراً، أو لما جمع السماء أجمع بلفظة واحدة جاز في نور القمر وهو ينالها أيضاً كما ينال الأرض أن يقول ذلك .

[مسألة] وربما سألوا في قوله تعالى : ﴿ **رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيَّاراً** ﴾ [نوح:٢٦] كيف يصح ذلك وأكثر أهل الأرض من الكفار ؟ وكيف يصح أن يظهر خلاف ما قدره الله تعالى من بقاء هؤلاء الكفار ؟ وكيف قال تعالى بعده : ﴿ **وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً** ﴾ [نوح:٢٧] والمولود لا يكون بهذا الوصف ؟

وجوابنا : أن مراد نوح عليه السلام الكفار الذين كانوا في زمنه ومن أعلمه الله أنه لو أبقاهم أبداً لم يؤمنوا، فدعا الله تعالى عليهم بهذا الدعاء، وأجاب الله دعوته بأن أغرقهم، فأما قوله تعالى : ﴿ **وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً** ﴾ [نوح:٢٧] .

فالمراد : من سيفجر ويكفر، نبَّه بذلك على أنه كما أن المعلوم أنهم لا يؤمنون فمن المعلوم أيضا أنه لا يكون في نسلهم مؤمنون .

سورة الجن

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الجِنِّ ﴾ [الجن:٦] كيف يصح ذلك ؟

وجوابنا : أن المراد : ميلهم إليهم وإلى القبول منهم، ومن أطاع غيره وعظمه يوصف بذلك، كما قال تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة:٣١] بأن أطاعوهم .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ ﴾ [الجن:٨] كيف يصح ذلك مع انقضاض الكواكب والشُّهُب عليهم ومنعهم من ذلك ؟

وجوابنا : أن المراد : طلبنا لمس السماء والقرب منها لتعرف الأخبار، فلذلك قال بعده : ﴿ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً ﴾ [الجن:٨] وذلك بيان منهم أنهم منعوا من ذلك .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً ﴾ [الجن:١٨] كيف يتعلق ما أمر به من ترك عبادة غير الله بأنّ المساجد لله ؟

وجوابنا : أنها مكان العبادة ومبنية لذلك، فقال : فلا تعبدوا فيها سوى الله .

سورة المزمل

[مسألة] وربما قالوا في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ [المزمل:٥] ما معنى وصف الوحي بالثقل ؟

وجوابنا : أن المراد : ثقل العمل بما فيه وتدبره والمعرفة بمراد الله تعالى ويحتمل أنه كان يثقل عليه أن يحفظه وأن يبلغه، وكان يحتاج في ذلك إلى تكليف وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الوِلْدَانَ شِيباً ﴾ [المزمل:١٧] كيف يصح وصف اليوم بذلك وكيف يضاف إليه ؟ **وجوابنا** أن المراد : ما يحصل في ذلك اليوم من الأهوال، فضرب له هذا المثل كما يقال مثله في المخاطبات عند ذكر الأمور الهائلة .

سورة المدثر

[مسألة] وربما قيل : ما معنى قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ [المدثر:٦] وكيف يتعلق أحدهما بالآخر ؟

وجوابنا : أن المراد : لا تستكثر ما تنعم به على غيرك بعثاً له على الزيادة في الإنعام، ويحتمل أن يكون المراد : لا تستكثره على وجه الامتنان.

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً ﴾ [المدثر:٣١] كيف يصح مع فضلهم أن يجعلهم أصحاب النار ؟ وكيف يصح قوله تعالى ﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾[المدثر:٣١] وأي تعلق لعدتهم بافتتان الكفار ؟

وجوابنا أن المراد : الموكلون بعذاب أهل النار ؛ لأنهم يضافون إلى النار لأنهم يضافون إلى النار بأنهم أصحابها، بل إضافتهم إلى ذلك أحق لأنهم يتصرفون في التعذيب بها ومعنى قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً ﴾ [المدثر:٣١] أن المعلوم من كثرة عددهم أنه أقرب إلى غمهم وحسرتهم، وكل ذلك بعثٌ من الله سبحانه على الطاعة وزَجْرٌ عن المعصية فلذلك قال تعالى : ﴿ لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً ﴾ [المدثر:٣١] وقوله تعالى من بعد : ﴿ وَلاَ يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [المدثر:٣١] قالوا فيه : كيف يصح أن يجعل تعالى لهم عدة لهذا الوجه الذي يقبح منهم فعله ؟

وجوابنا : أن هذه اللام لام العاقبة، فأما الكلام في الضلال والهدى فقد تقدم وقوله تعالى من بعد :﴿ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ * وَمَا يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾[المدثر:٥٥-٥٦] فالمراد به الذكر الذي هو الطاعة لأنه من قبيل ما لا يصح من العبد أن يشاءه إلا والله قد شاءه منه وكلفه إياه .

سورة القيامة

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى :﴿ **وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣] أنه أقوى دليل على أن الله تعالى يُرى في الآخرة ؟

وجوابنا : أن من تعلق بذلك إن كان ممن يقول بأن الله تعالى جسم فإنا لا ننازعه في أنه يرى بل في أنه يُصافح ويعانق ويلمس - تعالى الله عن ذلك - وإنما نكلمه في أنه ليس بجسم، وإن كان ممن ينفي التشبيه على الله فلا بد من أن يعترف بأن النظر إلى الله تعالى لا يصح؛ لأن النظر هو تقليب العين الصحيحة نحو الشيء طلباً لرؤيته وذلك لا يصح إلا في الأجسام، فيجب أن يتأوّل على ما يصح النظر إليه وهو الثواب كقوله تعالى : ﴿ **وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ** ﴾ [يوسف:٨٢] فإنا تأولناه على أهل القرية لصحة المسألة منهم، ويبين ذلك أن الله ذكر ذلك ترغيباً في الثواب كما ذكر قوله : ﴿ **وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ** ﴾ [القيامة:٢٤-٢٥] زجراً عن العقاب، فيجب حمله على ما ذكرناه، وقوله من قبل : ﴿ **بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ** ﴾ [القيامة:١٤-١٥] يدل على أنه لا عذر للعبد إن هو عصى ربه، ولو كان الكفر مخلوقاً فيه لكان له أوكد العذر على ما قدمناه من قبل، وقوله تعالى من بعد : ﴿ **ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى** ﴾ [القيامة:٣٨-٤٠] هو الذي يورده العلماء على جواز الإعادة وصحتها، فإنه تعالى إذا قدر على الإحياء أولاً على هذا الحد الذي نجد الإحياء عليه فيجب أن يقدر على إعادة ذلك .

سورة الإنسان

[مسألة] وربما قيل في قوله : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً ﴾ [الإنسان:١] كيف يصح وقد وصفه بأنه إنسان وأتى عليه حين من الدهر أن لا يكون مذكوراً ولا شيئاً ؟

وجوابنا : أن المراد : لم يكن له عند هذا الوصف من البنية والحياة والعقل ما أخبر به الله تعالى في خلق آدم ﷺ ، ثم قال تعالى بعد خلق آدم ﷺ : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ [الإنسان:٢] .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾ [الإنسان:٣] أما يدل ذلك على أنه ليس في المكلفين إلا كافر أوْ مُؤمن ؟

وجوابنا : أن الشاكر قد يكون شاكراً وإن لم يكن مؤمناً برًّا تقياً ؛ لأن الفاسق بغصب أو غيره قد يكون شاكراً فلا يدل على ما قالوا بل في الآية دلالة على ما نقول من أن الكافر والمؤمن هما سواء في أن الله تعالى قد هداهما، لا كما قالت المجبرة أنه تعالى إنما هدى المؤمنين، والمراد بِهِ أنه دَلّ الجميع وأزال علتهم، فمن عصى فمن جهة نفسه أتى .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً ﴾ [الإنسان:٥] كيف يصح الترغيب في ذلك وليس هو بمستطاب في الدنيا ؟

وجوابنا : أن رائحة الكافور لا شُبهة في أنها مستطابة واليسير منها مستطاب فرغَّب تعالى في ذلك على الجملة كما رغَّب في الخمر، وإن كان طعمه في الدنيا لا

يستطاب، وقد قيل : إن المراد : يشربون من نهر تربته الكافور، وكذلك إذا سألوا عن قوله : ﴿ كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً ﴾ [الإنسان:١٧] إذاً المراد التنبيه على الجملة وإن كان شراب أهل الجنة في نهاية اللذة .

[مسألة] وربما قالوا في قوله تعالى : ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ * قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ ﴾ [الإنسان:١٥-١٦] وهذا متناقض أن يكون من فضة ويكون قوارير؟

وجوابنا أن المراد أنها من فضة وقد بلغت في الصفاء والحسن بحيث يرى ما فيها حتى لا تكون حاجزاً ولا حائلا كالقوارير، وهذا نهاية ما يقع به الترغيب، فأما قوله : ﴿ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً * وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الإنسان:٣٠] فالمراد به : ما تشاؤون من اتخاذ السبيل إلى الرب إلا والله شاءه، والمراد أنه شاء العبادات، ولذا أنكرنا على القوم أنهم يصرحون بأنه تعالى قد شاء الفواحش - والله تعالى عن ذلك .

سورة المرسلات

[مسألة] وربما طعنوا على تكرير قوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المراسلات:١٥] .

وجوابنا : أن القصص إذا كانت مختلفة رجع الكلام إلى كل واحد منها، فيحسن كما ذكرناه في سورة الرحمن .

[مسألة] وربما قالوا في قصص الأنبياء : لِمَ كرّرَه الله تعالى ؟

وجوابنا : أنه تعالى أنزل ذلك تسلية للرسول ﷺ فيما كان المشركون يأتون به فكان ينزل مرة بعد مرة ليسليه في حال بعد حال، ولأن التالي يعتبر بذلك اعتباراً بعد اعتبار، وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ [المرسلات:٢٠-٢١] وربما تعلق به بعض المجبرة على أن افعال العباد مخلوقة من جهته تعالى، وذلك بعيدٌ ؛ لأن كون ذلك الماء في الرحم من فعل الله تعالى، وقد بيّنّاهُ من قبل . وقوله تعالى : ﴿هَذَا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ * وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾[المرسلات:٣٥-٣٦] من أقوى ما يدل على قولنا في العدل ؛ لأنهم إذا لم يعتذروا ولهم عذر فذلك لا يصح وقد نزل بهم من العقوبة ما لا دليل عليه، فالصحيح أن لا عذر لهم، وذلك لا يصح مع القول بأنه تعالى هو الذي خلق فيهم الكفر وقدرة الكفر وإرادة الكفر .

سورة النبأ

[**مسألة**] وربما قيل : لماذا قال تعالى : ﴿ **لابثين فيها أحقاباً** ﴾ [النبأ:٢٣] كيف يصح مع القول بخلودهم في النار أن يقدر كونهم فيها بالأحقاب ؟

وجوابنا : أن المراد : أحقاباً لا آخر لها كما يقال : أوقاتاً وساعاتٍ لانهاية لها لا أن المراد أحقاباً منقطعة، والآية وردت في الذين لا يرجون حساباً وهم الكفار، فلا يمكن أن يتأول على فساق أهل الصلاة .

[**مسألة**] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلاَ شَرَاباً** ﴾ [النبأ:٢٤] كيف يُذاق البرد وإنما خلقت هذه الحاسة ليذاق بها الطعم ؟

وجوابنا : أن البرد قد يُذاق بحاسة الطعم لا من حيث كانت حاسة لكن لأن محل الذوق يدرك به البرد، ومعلوم من حال المشرب أنه يكون بارداً يبلغ في اللذة ما لا يبلغه ما ليس كذلك، فهذا معنى الكلام . **وربما قالوا في** قوله تعالى من قبل : ﴿ **وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً** ﴾ [النبأ:٩] كيف يصح ذلك والسبات والنوم واحد، فكأنه قال : وجعلنا نومكم نوماً؟

والجواب : أن السُّبات هو نوم مخصوص يجد الإنسان فيه من الراحة ما لا يجده في غيره، ولذلك يوصف ذو النوم عند التعب بأنه في سبات ولا يوصف بذلك إلا وقد غرق في النوم، فبين تعالى نعمته بهذا النوع، وقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً** ﴾ [النبأ:٢١] المراد به أنها طريق الكل ثم بالقرب منها يتميز المثاب من غيره كما قال تعالى : ﴿ **ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً** ﴾ [مريم:٧٢] وأما قوله تعالى : ﴿ **يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلاَئِكَةُ صَفّاً** ﴾ [النبأ:٣٨] فقد قيل : إن المراد به جبريل عليه السلام، وقد قيل : هو ملك في صورة آدم ﷺ ، وقد قيل : بل المراد من له الروح وهم بنو آدم، فذكر تعالى أنهم يقومون والملائكة بهذا الوصف، وأن جميعهم لا يتكلمون إلا بإذن الرحمن، وأنهم لا يتكلمون في الآخرة إلا بالصواب، نبّه تعالى بذلك على الفصل بين الآخرة والدنيا .

سورة النازعات

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً** ﴾ [النازعات:١] أن ذلك قسم، فعلى ماذا وقع القسم ؟

وجوابنا : أن القسم قد يحذف جوابه إذا كان في الكلام دليل عليه، فكأنه قال : لتحشرن ولتعبثن أو لترون يوم ترجف الراجفة، تعظيماً لحال ذلك اليوم وبعثاً على الخلاص من أهواله .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا** ﴾ [النازعات:٢٧-٢٩] كيف يصح والسماء لا ليل فيها ؛ لأن الليل إنما يثبت بحركات الشمس، فإذا ظهرت فهو نهار وإذا غابت فهو ليل وذلك متعذر في السماء ؟

وجوابنا : أن إضافة الليل إلى السماء كإضافة الشمس والقمر والنجوم إلى السماء لما كان لولاها ولولا حركات الشمس في الأفلاك لم يكن ليل ولا نهار .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا** ﴾ [النازعات:٣٠] أن ذلك مخالف لقوله : ﴿ **خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ** ﴾ [فصلت:٩] .

وجوابنا : أن المراد بهذه الآية خلق نفس الأرض وأنه قبل السماء، والمراد بقوله : ﴿ **وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا** ﴾ [النازعات:٣٠] أنها وإن كانت مخلوقة فإن دحوها وبسطها متأخر، فلا اختلاف في ذلك، فأما قوله تعالى من بعد : ﴿ **وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا** ﴾ [النازعات:٣٢] فهو تشبيه بإرساء السفن إذا استقرت، فالمراد أنه قرها في أماكنها لا تزول ولا تحول وقوله تعالى : ﴿ **فَأَمَّا مَن طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى** ﴾ [النازعات:٣٧-٣٩] من أقوى ما يدل على أن العبد هو الفاعل ؛ لأنه لا يقال : طغى في فعل شيء إلا مع التمكن من فعله، ولا يقال : آثر شيئاً على شيء إلا وهو قادر على فعله وقوله تعالى : ﴿ **وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى** ﴾ [النازعات:٤٠] يدل أيضاً على تمكنه ؛ لأنه لا يوصف بذلك إذا كان الفعل مخلوقاً فيه، وفي قوله : ﴿ **إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا** ﴾ [النازعات:٤٥] مع أنه منذر للكل فائدة، وهي أن من يخشى هو القابل للإنذار والمنتفع به .

سورة عبس

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴾ [عبس:٨-١٠] كيف يصح وصفه للرسول بالتلهّي ؟

وجوابنا : أن العادل عن غيره لتشاغُله بسواه يُقال : لُهي عنه، فليس ذلك من اللهو الذي هو اللعب والتشاغل بما لا يفعله العاقل، وعظم الله قدر القرآن بقوله : ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ * فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ [عبس:١١-١٦] ثم إنه تعالى وصفَ الإنسان بما يكون بعثاً له على الطاعة فقال : ﴿ قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ * ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴾ [عبس:١٧-٢٢] . فجمع هذه الكلمات ما يقتضي الخضوع للمعبود، فقد خلقه كاملاً ثم درجه إلى أحوال الآخرة من الحشر والنشر، ثم بيّن كيف قدر له الطعام مع ذلك بإنزال الماء والإثبات وكيف قدر له أنعاماً أيضا للطعام، ثم بيّن مع ذلك أن يوم القيامة ﴿ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴾ [عبس:٣٤-٣٦] فإن قيل : كيف يفر في الآخرة ولا مفر ؟

فجوابنا : أن المراد عدوله عنهم لعلمه بأنه لا ينتفع بهم ولا ينتفعون به فيزول عن قلبه تلك الرقة والشفقة إلى غير ذلك من الأحوال، ولذلك قال تعالى : ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس:٣٧] .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ [عبس:٣٨-٤٢] أما يدل ذلك على أنه ليس مع أهل الجنة إلا الكفار ؟

وجوابنا : أن إثبات وصف الأمرين لا يدل على نفي ثالث إذا دل الدليل عليه فيجوز أن يكون بينهما مَنْ على وجهه غبرة ولا تلحقه القترة، وهم الفساق الذين ليسوا بكفار، بين ذلك قوله : ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ [عبس:٤٢] وفي الكفار من لا يوصف بأنه فاجر، فلو قيل للخوارج : هل يجب في كل كافر أن يكون فاجراً ؟ لم تجد في ذلك من الجواب إلا ما ذكرنا .

سورة التكوير

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ** ﴾ [التكوير:١٩] يعني جبريل عليه السلام، كيف يصح إضافة القرآن إليه وهو كلام الله ؟

وجوابنا : أنه المظهر لذلك حتى لولاه لما عرف، فصحّت إضافته إليه، وقد يضاف كلام الغير إلى من تحمّله، وذلك كثير في اللغة . فأما قوله من قبل : ﴿ **وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ** ﴾ [التكوير:٨-٩] وقوله : ﴿ **وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ** ﴾ [التكوير:٥] فيدل على أنه تعالى يُعِيد كل هؤلاء يوم القيامة، ويدل على أن من لا ذنب له لا يجوز أن يؤلم، فيبطل بذلك قول من يزعم في أطفال المشركين أنهم يعذبون بذنوب آبائهم ويدل على بطلان القول بأن المعاصي مخلوقة من الله في الإنسان، لأنه يجب أن يكون تعالى يعذّبهُ ولا ذنب له وقد نفى الله تعـالى ذلك وأبطله، وقوله تعالى : ﴿ **لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ** ﴾ [التكوير:٢٨-٢٩] المراد به : الاستقامة، فأما غير ذلك فموقوف على الدليل .

سورة الانفطار

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ ﴾ [الانفطار:٦] كيف ينكر ذلك عليه مع وصفه نفسه بالكرم ؟

وجوابنا : أن المراد : ما غرَّك بذلك في ارتكاب المعاصي العظيمة ؟ ولذلك قال تعالى بعد ذكر نعمه : ﴿ كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴾ [الانفطار:٩] وهذا أحد ما يدل على قدرة العبد على أن يعصي، ولولا ذلك لم يصح أن ينسب إلى الاغترار، وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ ﴾ [الانفطار:١٠-١١] هو بعث للمرء على الطاعة لأنه إذا تحقق في كل ما يأتيه أنه مُحصًى مكتوب في صحيفته محاسب عليه زجره ذلك عن فعله، وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ * يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ * وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴾ [الانفطار:١٤-١٦] يدل على أن الفاجر من أهل الصلاة مخلد في النار لأنه إذا لم يغب عن النار ولم يمت فهو كائن فيها، ويدل على أن الشفاعة لا تكون منه ﷺ لهم وإلا لم يكن ليعم كل فاجر بهذا الحكم .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ [الانفطار:١٧-١٨] أن ذلك تكرار لا فائدة فيه ؟

وجوابنا : أنه لما ذَكَرَ الأبرار وما ينالونه من النعم، والفجار وما يَنْزِل بهم من العذاب جاز أن يقول : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ [الانفطار:١٧] فيما يظهر فيه للأبرار ﴿ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ [الانفطار:١٨] فيما يحصل فيه للفجار، وذلك يفيد تعظيم شأن ذلك اليوم .

سورة المطففين

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ [المطففين:١] كيف يصح والمطفف قد يطفف اليسير وذلك من الصغائر ؟

وجوابنا : أن المراد : ويلٌ له بشرط أن لا يكون معه من ثواب طاعاته ما هو أعظم، وبشرط أن لا يكون معه توبة، فلا يلزم ما ذكروه؛ وبيّن تعالى أنهم إذا اكتالوا لأنفسهم يستوفون وإذا كالوا غَيرهم يخسرون وينقصون، ثم زجر عن ذلك بقوله تعالى : ﴿ أَلاَ يَظُنُّ أُوْلَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [المطففين:٤-٥] فإذا كانت هذه حالة مطفِّف فكيف حال من يأخذ أموال الناس بغير حساب ؟ وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ العَالَمِينَ ﴾ [المطففين:٦] لا يدل على قول المشبهة لأن المراد تعظيم شأن ذلك اليوم في العقاب والثواب، ولا يعظم بأن يكون تعالى قائماً فيه ـ تعالى الله عن ذلك ـ فالمراد إنزاله بأهل الثواب والعقاب ما يستحقون، ولذلك ذكر بعده الفجار والأبرار لبيان حال كل واحد منهم وعظم شأن الأبرار بتعظيم كتابهم وحقر شأن الفجار بتحقير الكتاب، ثم بيَّن تعالى ما ينال المؤمن في الدنيا من المجرمين وأنهم يضحكون منهم وما يئول أمرُ المؤمنين إليه في الآخرة من النعيم العظيم فقال : ﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴾ [المطففين:٣٤-٣٥] فنبه بذلك على أن صنيع الفجَّار وَبَالٌ عليهم وأنه منقطع كأن لم يكن، وصنع المؤمنين بالفجار ما ذكره تعالى مع كونهم في نعيمهم ويكونون كذلك أبداً .

سورة الانشقاق

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ** ﴾ [الانشقاق:١] أين الجواب لهذا الكلام ؟

وجوابنا : أن المراد : واذكر إذا السماء انشقت، وتدبر إذا السماء انشقت، فهو تنبيه على حال ذلك اليوم وترغيب في الطاعة، فلذلك قال تعالى بعده : ﴿ **يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ** ﴾ [الانشقاق:٦] وذكر تعالى من أُوتي كتابه بيمينه وكيف يكون حسابه وانقلابه إلى أهله مسروراً، وكيف حال من أوتي كتابه وراء ظهره وأنه الآن يدعو ثُبوراً ويَصْلَى سَعيراً وقد كان من قبل في أهله مَسروراً، وإذا ميّز التالي لهذه السورة بيّن هذين الأمرين اللذين أحدهما يدوم ولا يبيد والآخر ينقطع ويصير وبالاً رغبه ذلك في الطاعة وعمارة أمر الآخرة وقوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ** ﴾ [الانشقاق:٦] وقد دخل تحته المؤمن والكافر يدل على أن المراد بكل لقاء ذكره تعالى في كتابه لقاء ما وعد وتوعد لا كما يتعلق به من يقول إن الله يُرَى فيظن أن اللقاء إذا أُضيف الى الله تعالى دلّ على الرؤية .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً * وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً * وَيَصْلَى سَعِيراً** ﴾ [الانشقاق:٧-١٢] كيف يصح ذلك وقد ذكر تعالى في عدة مواضع اليمين والشمال وذلك مختلف ؟

وجوابنا : أنه لا يمتنع فيمن أُوتي كتابه بشماله أن يكون فيهم من أُوتِي كتابه بشماله فقط، وفيهم من يؤتى كتابه بشماله من وراء ظهره، فلا يعد ذلك مختلفاً، ويحتمل أن في كل من يؤتى كتابه بشماله أن يؤتى على هذا الوجه، فلا يتناقض ذلك أيضاً . وربما يقال في جواب : ﴿ **إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ** ﴾[الانشقاق:١] أنه في قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ** ﴾[الانشقاق:٦] فكأنه قال : إنك كادح ﴿**إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ**﴾[الانشقاق:١].

سورة البروج

[مسألة] وربما يقال : أين جواب القسم في قوله : ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ [البروج:١]؟

وجوابنا : أنه قوله : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ [البروج:١٢] وقد قيل : إنه محذوف ويحتمل أن يكون قوله : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ [البروج:١٢] وقد قيل : إنه محذوف ويحتمل أن يكون قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [البروج:١٠] جوابه، وقوله : ﴿ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴾ [البروج:١٥] لا يدل على قول المشبهة في أن العرش مكانه ؛ لأن هذه الإضافة تصح في فعله كما تصح في المكان، وقوله : ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [البروج:١٦] إنما يدل على أن ما يريده يفعله ولا يدل على أن كل فعل يقع هو مراده .

سورة الطارق

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ * فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلاَ نَاصِرٍ ﴾ [الطارق:٩-١٠] كيف يصح أن لا تكون له قوة وإن كان يصح أن لا تكون له نُصرة ؟

وجوابنا : أن المراد : لا قوة له على دفاع ما ينزل به كما لا ناصر له، وذلك من الله تعالى زجر وتخويف، وفيه دلالة على ما نقوله، وذلك لأنه لو كان لا قدرة له في الدنيا على الإيمان لم يكن ليصح أن يُهَدَّد بذلك ويُبَكَّت، ويدل على أنه لا شفاعة لأهل العقاب لأنه لو كان لهم شفيع لكان لهم أقوى ناصر، وقوله : ﴿ وَأَكِيدُ كَيْداً ﴾ [الطارق:١٦] المراد به إنزال العقاب بهم من حيث لا يشعرون في الآخرة، ويحتمل أن يريد إنزاله الخذلان بهم في الدنيا من حيث لا يشعرون، وذلك تشبيه لا تحقيق .

سورة الأعلى

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى** ﴾ [الأعلى:١] كيف يصح والتسبيح هو التنزيه أن ينزه الاسم، وإنما يصح تنزيه المسمى الذي هو الله تعالى؛ وهلا دلّ ذلك على أن الاسم عين المسمى ؟

وجوابنا أن الاسم غير المسمى لأنه حروف مؤلفة تُسْمَع وتُكْتَب وليس كذلك المسمى، لكن المراد تنزيهه تعالى فذكر الاسم وأريد المسمَّى تعظيماً وتفخيماً، وربما يقول القائل في نبينا ﷺ صلوات الله على ذكره ويريده نفسه، فيكون ذلك أدخل في الإجلال، ولذلك قال تعالى بعده : ﴿ **الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى** ﴾ [الأعلى:٢] وذلك من صفاته لا من صفات الاسم .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنسَى * إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ** ﴾ [الأعلى:٦-٧] كيف يصح ذلك والنسيان من فعل الله تعالى لا من فعل العبد ؟

وجوابنا : أن المراد : سنقرئك فلا تترك تعهد ما أنزلنا عليك ولا تدع التمسك بالعمل به، ويكون معنى قوله تعالى : ﴿ **فَلاَ تَنسَى * إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ** ﴾ [الأعلى: ٦-٧] بطريقة النسخ، فإنه إذا نسخ تلاوة شيء كان متروكاً، ولا يجب أيضاً العمل به إذا نسخ معناه وحكمه .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى** ﴾ [الأعلى:٩] كيف يصح أن يأمره بأن يذكر من تنفعه الذكرى وقد علمنا أنه يلزمه أن يذكر من هذا حاله ومن لم تنفعه الذكرى بأن لا يقبل ويتمرد ؟

وجوابنا : أن المراد تجديد الذكرى على من هذا حاله وإن كان البيان من جهته قد حصل بكل، ومن المعلوم أن من حاله أن تنفعه الذكرى يكون في جملة ألطافه تكرير الذكرى عليه، ويحتمل أن يُريد الكل سواء قبلوا أم لم يقبلوا لأنهم إن لا يقبلوا لا يخرجوا من أن تكون الذكرى قد نفعتهم كما ينتفع الجائع بتقديم الطعام إليه وإن لم يختر الأكل .

[مسألة] وربما قيل : ما معنى قوله تعالى : ﴿ **وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى * الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الكُبْرَى * ثُمَّ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَى** ﴾ [الأعلى:١١-١٣] كيف يصح أن يكون في النار لا حيّاً ولا ميّتاً ؟

وجوابنا : أن المراد أنه لا يموت فيستريح من ذلك العقاب ولا يحيا حياة ينتفع بها .

سورة الغاشية

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى: ﴿ **وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ** ﴾ [الغاشية:٢] كيف يصح ذلك في الوجوه وذلك من صفات الحي الذي الوجه بعضه ؟

وجوابنا: أن المراد جملة المرء دون العضو، وقد يذكر الوجه ويراد به نفس الشيء، كما يقال: هذا وجه الأمر، وعلى هذا الوجه تأول العلماء قوله: ﴿ **كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ** ﴾ [القصص:٨٨] ولذلك قال تعالى بعده: ﴿ **تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً * تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ * لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ** ﴾ [الغاشية:٤-٦] وذلك منه تعالى زجر عن المعاصي التي تؤدي إلى هذا الوصف، وقوله تعالى: ﴿ **عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ** ﴾ [الغاشية:٣] تدل على قدرتها على خلاف ذلك ؛ لأن من خلق فيه الشيء لا يوصف بهذا الوصف، ثم بيَّن تعالى الفصل بينهم وبين أهل الجنة فقال تعالى: ﴿ **وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ * لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ** ﴾ [الغاشية:٨-١٠] فرغب بذلك في الطاعة، ثم عطف على الجميع فقال تعالى: ﴿ **أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ** ﴾ [الغاشية:١٧] بعث بذلك على النظر في أدلَّة الله تعالى ونعمه، ثم قال: ﴿ **فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ** ﴾ [الغاشية:٢١-٢٢] فبيَّن أن الذي إليه هذا القدر قبلوا أو لم يقبلوا، ودل بذلك على أنهم ممكنون لأن الأمر من الله تعالى لرسوله بأن يذكر لا يصح والمرء قد خلق فيه ما يمنعه من الكفر وقدرة الكفر .

سورة الفجر

[مسألة] ربما تعلقت المشبهة بقوله تعالى :﴿ **وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفاً صَفاً** ﴾ [الفجر:٢٢]

وجوابنا : أن المراد : أمر ربك، فلو جاز المجيء عليه لجاز عليه المشي والانتقال، ومَنْ هذا حالُه لو جاز أن يكون قديماً لم نثق بأنَّ العلم محدث، وهذا كقوله تعالى : ﴿ **وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ** ﴾ [يوسف:٨٢] فإذا لم يكن توجه السؤال إليها حملناه على من يصح أن يسأل، وكذلك قوله تعالى : ﴿ **وَجَاءَ رَبُّكَ** ﴾[الفجر:٢٢] وقوله تعالى : ﴿ **يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى * يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي** ﴾[الفجر:٢٣-٢٤] دليلنا على أن العبد في الدنيا قادر على الإيمان وإن كان كافراً وإلا ما كان يصح أن يتمنى ما لا يقدر عليه ولا كان يصح أن يوصف بأنه يتذكر وأنى له الذكرى لأنه على قولهم في الدنيا أيضاً كان لا تمكنه الذكرى .

سورة البلد

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى: ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ** ﴾ [البلد:٤] ما معنى ذلك وإنما خلق الإنسان في بطن أمه ؟

وجوابنا : أن المراد أحد الأمرين: إما ما ذكر عن الحسن أنه خلق يكابد السّرّاء والضّرّاء وشدائد الدنيا، أو يكون المراد مكابدته في الوضع فإنه تلحقه الشدة في ذلك وقوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ** ﴾[البلد:٨-١٠] يدل على أنه قد هدى الكل من كافر ومؤمن .

سورة الشمس

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [الشمس:٨] بعد قوله تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ [الشمس:٧] أليس يدل ذلك على أن الفجور والتقوى من خلق الله تعالى ؟

وجوابنا : أن المراد بقوله تعالى ﴿ فَأَلْهَمَهَا ﴾ [الشمس:٨] أعلمها وبيّن لها الفجور لتجتنب ذلك والتقوى لتقدم عليها، فلا يصح ما قالوه وقوله تعالى من بعد : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ [الشمس:٩] لا يدل على أنه تعالى يخلق في العبد ما به يتزكى لأن المراد : قد أفلح من زكّى نفسه بأن يفعل ما به يصير زكيّا أو يكون المراد : من وصف نفسه بالإيمان والطاعة لا على وجه التفاخر لكنه على وجه دفع التهمة عن نفسه، فلا يدل على ما قالوه .

سورة الليل

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى** ﴾ [الليل:٥-٧] أليس قد خص مَن هذه صفته بأنه يسّره للإيمان فيجب أن يكون مخلوقاً من قبله فيهم وكذلك قوله تعالى : ﴿ **وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى** ﴾ [الليل:٨-١٠] ؟

وجوابنا : أن المراد باليُسرى الثواب العاجل والآجل، وبالعسرى العقاب العاجل والآجل، فلا يصح ما قالوه ويحتمل أن يكون المراد فيمن صدّق بالحسنى تيسيره للألطاف التي لأجلها يثبت على الإيمان، وفيمن كذّب بالحسنى تيسيره لأمور لأجلها يفضل الثبات على ما هو عليه، فيكون كقوله تعالى : ﴿ **فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ** ﴾ [الأنعام:١٢٥] وقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى** ﴾ [الليل:١٢] يدل على أن الهدى هو البيان فإنه تعالى بالتكليف قد أوجبه على نفسه .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى * لاَ يَصْلاهَا إِلاَّ الأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى** ﴾ [الليل:١٤-١٦] أليس يدل ذلك على أن من لم يكذب ويتولى لا يصلى النار وهذا يدل على أن فساق أهل الصلاة آمنون من النار ؟

وجوابنا : أن المراد به نار مخصوصة لا يصلاها إلا هؤلاء الكفار لأن هناك نيراناً ولها مراتب، فلا يدل على ما قالوه، وبيَّن ذلك أن في الكفار من لا يوصف بأنه يكذب ويتولى، فلو سُئلوا عنهم لم يكن جوابهم إلاَّ هذا الذي ذكرنا، فلا يمتنع في الفساق أن يكونوا في غير هذه النار وبين في الفساق ذلك بقوله تعالى : ﴿ **وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى * الَّذِي** ﴾ [الليل:١٧-١٨] فمعلوم أن غير الأتقى يجنبها أيضاً كمن ليس بمكلف من المجانين والأطفال .

سورة الضحى

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى** ﴾ [الضحى:٧] أليس ذلك يدل على جواز الضلال على نبينا ﷺ وعلى سائر الأنبياء ؟

وجوابنا : أن المراد بذلك : ضالاًّ عن النبوّة والرسالة وسائر ما خص الله تعالى به نبينا ﷺ من التعظيم وغيره فهداك الله إليها ؛ لأنه في اللغة قد يقال : ضلّ عن كيت وكيت إذا كان ذلك طريق منافعه، ولم يقل الله تعالى ووجدك ضالا عن الدين حتى يصح تعلقهم، وقوله تعالى : ﴿ **وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ** ﴾ [الضحى:١١] يدل على وجوب الشكر لله تعالى على نعمة ظاهرة لا خَفِيَّة، ويدل قوله تعالى : ﴿ **وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ** ﴾ [الضحى:١٠] على وجوب الإحسان إلى السائل إما بالعطية وإما بالبشْر والطلاقة كما روي عنه ﷺ : « **اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ** » .

سورة الشرح

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ** ﴾ [الشرح:١] أن ذلك يدل على ان إيمانه من الله تعالى لأن شرح صدره إنما يقع بالإيمان .

وجوابنا : أن شرح الصدر ليس من الإيمان بسبيل وإن كان قد يتقدم الإيمان ويتبعه، والمراد بذلك تكرير الأدلة والمعجزات عليه على ما بيَّنه الله تعالى في كتابه في غير موضع، وأما قوله تعالى : ﴿ **وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ** ﴾ [الشرح:٢] فلا يدل على جواز الكبائر عليه، **وقد يقال** : إنه تعالى امتن عليه بأمر كان يجوز أن يفعله، ولو كان ذلك من الصغائر لم يصح ذلك فيه ؟

وجوابنا أن الكبائر لا تجوز على الأنبياء، والمراد بذلك ما يتفق على وجه السهو من الصغائر؛ والصغائر يضعها الله تعالى ويرفعها، وقد يكون ذلك مما لا يجوز في الحكمة أن لا يفعله، وقوله تعالى من بعد :﴿ **الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ** ﴾[الشرح:٣] في وصف ما وضعه من الوزر لا يدل على أنه من الكبائر ؛ إذ المراد أنه أنزل به الشدائد من حيث يلزمه من التوبة والندامة ما فيه كلفة، فأما قوله تعالى : ﴿ **وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ** ﴾ [الشرح:٤] فمن جملة ما امتن به من النعم ؛ لأن ذلك مما يقتضي سروراً عظيما، وقد ذكر في الخبر : «**أني لا أذكر إلا ذكرت معي**» كما في الآذان وغيره .

سورة التين

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ** ﴾ [التين:٤] كيف يصح ذلك ونحن نعلم أن في الصورة المقدور عليها ما هو أحسن من خلق الإنسان ؟

وجوابنا : أن المراد بذلك البنية التي خصّ الله تعالى بها الإنسان، فهي أحسن من سائر البنى التي خلق عليها سائر الحيوانات وإن كانت صورة الإنسان تتفاوت وتتفاضل .

[مسألة] وربما قيل : ما معنى قوله تعالى : ﴿ **ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ** ﴾ [التين:٥] أما يدل ذلك على أنه رده من الإيمان إلى الكفر ؟

وجوابنا : أن المراد : رَدَدْنَاه إلى العقاب الذي هو على الوصف إذا تمرد وعصى زجر بذلك العبد عن المعاصي، ولذلك قال بعده : ﴿ **إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ** ﴾ [التين:٦] وهذا الاستثناء لا يليق إلا بما قُلْنَا .

سورة العلق

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى** ﴾ [العلق:٦-٧] أليس ذلك يدل على أنه أغناه وإن أدى ذلك إلى الطغيان، وهذا هو المفسدة التي تنزهون الله تعالى عن فعلها ؟

وجوابنا : أنه ليس في الظاهر أنه تعالى فعل ذلك حتى يصح ذلك السؤال، وقد يجوز أن يقول : ﴿ **كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى** ﴾ [العلق:٦-٧] ويغنيه مع ذلك ويجوز أن يقول ولا يغنيه لأجل ذلك، ومع ذلك فليس فيه دلالة على أنه لو لم يستغن كان لا يطغى، بل يجوز أن يطغى على كل حال عند ذلك وعند عدمه، فلا يدل على ما قالوه، ويجوز أن يكون المراد : يطغى بما يتمكن منه عند الاستغناء،

ولولا ذلك كان لا يتمكن كالإنفاق في وجوه المعاصي فيكون ذلك تمكيناً لا مفسدة، وهذه الآية تدل على أن العبد يتمكن من الطاعة إذا عصى لأنه لا يجوز في الاستغناء أن يدعوه إلى المعصية إلاّ وهو متمكن من الأمرين، ولو كان ما فيه من الكفر خلقاً لله كان لا يصح ذلك، وقوله تعالى من قبل : ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ** ﴾ [العلق:١] أحد ما استدل به العلماء على أن القرآن مخلوق ؛ لأنه تعالى ذكر اسم ربه ثم وصفه بأنه خلق، فيترجح أن يكون هذا الوصف راجعاً إليه وإن جاز أن يرجع إلى غيره .

سورة القدر

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ** ﴾ [القدر:١] كيف يصح أن يراد به القرآن ولم يتقدم له ذكر ؟

وجوابنا : أنه قد تقدم ذكره في قوله تعالى : ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ** ﴾ [الدخان:٣] وغير ذلك، وإذا صار الأمر معروفاً جاز أن يحذف ذكره لعلم التالي به .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى :﴿ **لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ** ﴾[القدر:٣] كيف يصح ذلك ؟ وهل المراد به خير من ألف شهر ليس فيها ليلة القدر ؟ ونفس الليلة كيف يصح أن تكون خيراً ؟

وجوابنا : أن المراد : العمل فيها خير من العمل في ألف شهر تخلو عن ليلة القدر، وليس في الآية تفصيل ذلك، وأن هذا الخير في كل المكلفين أو بعضهم، في كل الأعمال أو في بعضها، فيحتمل أن يريد أنها خير على الجملة للعباد، ويحتمل لكل مكلف، ويحتمل أن تكون خيراً من ألف شهر لما يفيضه الله فيها من الأرزاق والنعم فلا يصح ما سألوا عنه، ولذلك أتبعه تعالى بقوله : ﴿ **تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم** ﴾ [القدر:٤] فنبه على ما ذكرناه .

سورة البينة

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا ﴾ [البينة:٥] ما الفائدة في قوله تعالى : ﴿ حُنَفَاءَ ﴾ [البينة:٥] وإذا عبدوا الله وأخلصوا كفى ذلك ؟

وجوابنا : أن المراد : مستقيمي الطريقة ؛ لأنهم أُمروا بأن يعبدوا الله مُخلصين له الدين على هذا الوجه، وقد قيل في الإخلاص : إن المراد به تخليص الطاعات من الكبائر، فيشهد لما ذكرناه، ويجوز أن يُراد به : وما أُمروا إلا بذلك على هذا الوجه السهل كما قال ﷺ : « بُعِثْتُ بالحنيفيَّة السَّمْحَاء » .

وهذه الآية دالة على أن كل عبادة من الدين وعلى أن ما يعبد الله به يجب أن يفعل على هذا الوجه، وفعله على هذا الوجه دون غيره لا يتم إلا والعبد متمكّن من فعله على غير هذا الوجه، وقوله تعالى : ﴿ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ [البينة:٥] يدل أيضاً على ما ذكرنا .

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ [البينة:٦] أليس يدل ذلك على أن في الكفار من ليس بمشرك، وكذلك قوله تعالى في أول السورة يدل على ذلك ؟

وجوابنا : أنه في أصل اللغة المشرك هو الكافر المخصوص الذي يتخذ مع الله شريكاً، لكن من جهة عرف الشرع أطلق ذلك على كل كافر كما عقل من قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [النساء:٤٨] ومن قوله : ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ [التوبة:٥] فلا يمتنع أن يفصل[1] بينهما في بعض المواضع، وهذا كما يقال مثله في المسكين والفقير، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴾[البينة:٧] إلى قوله : ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ [البينة:٨] يدل على أن العلماء خير البرية لقوله : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر:٢٨] وأنت إذا جمعت بين الآيتين تثبت ما ذكرناه .

---

(١) في الأصل المطبوع وفي النسخة المخطوطة : (يفضل) والصواب ما أثبته . ا هـ . مصححه .

سورة الزلزلة

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ** ﴾ [الزلزلة:٧-٨] أليس ذلك يوجب أن الكافر والفاسق إذا فعلا طاعات يريان ثوابها وذلك خلاف قولكم ؟

وجوابنا : أن الخير المستحق على الطاعة هو الثواب، وإنما يستحقه فاعل الخير إذا لم يكن معه معصية أعظم من الطاعة، فأما إذا كانت معاصيه من باب الكفر والفسق فلن يرى ذلك ؛ لأن الوعد والوعيد مشروط بما ذكرنا في الثواب والعقاب، وبعد، فإن من يفعل الخير إذا كانت أحواله سليمة يرى ثوابه، وإذا كانت غير سليمة بإقدامه على المعصية يرى أيضاً التحقيق بذلك من عقابه، فيستقيم الكلام على هذا الوجه .

سورة العاديات

[مسألة] وربما قيل : كيف يصح أن يقول تعالى :﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ [العاديات:٦] وليست هذه حال كل إنسان ؟

وجوابنا : أنه تعالى أتى بوصف لهذا الإنسان يدل على أن المراد به الخصوص وهو قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُ لِحُبِّ الخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ [العاديات:٧-٨] ويحتمل أن يراد أن الجميع كذلك لكن بعضهم يصرف نفسه عمّا حِيل عليه من الهوى والشهوة، وبعضهم على خلاف ذلك، فيكون الكل داخلين فيه، ويكون المراد : هذه طريقة من انصرف عن هذا الأمر أو أقدم عليه، وذلك زجرٌ من الله تعالى عن المعاصي، ولذلك قال بعده : ﴿ أَفَلاَ يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي القُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ * إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾ [العاديات:٩-١١] وإذا تصور المرءُ في كل ما يأتي ويذر أنه تعالى عالم خبير كان ذلك زاجراً له عن المعاصي .

سورة القارعة

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ** ﴾ [القارعة:٦-٩] أليس ذلك يدل على موازين لكل أحد ؟ وما معنى قوله : ﴿ **فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ** ﴾ [القارعة:٩] ؟ وكيف تكون جهنم أُمًّا للبشر ؟

وجوابنا : أنه ليس هناك ثقل في الحقيقة لأن أعمال المكلف قد تقضّت، وهي مع ذلك عرض لا ثقل فيه، وإنما أراد بذلك رجحان طاعته على معاصيه، فشبه بما يوزن من الأشياء الثقيلة، ولا ينكر مع ذلك أن يكون هناك موازين يوزن بها صحائف أعمال العباد فيبين حال من رجح في باب الطاعة، وإنما قال تعالى : ﴿ **وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ** ﴾ [القارعة:٨-٩] تنبيهاً بذلك على لزوم العقاب له كلزوم الأم للشيء، وذلك ممّا إذا تبيّنه التالي عرف كثرة وجوه الفائدة في هذا الكلام القليل وعرف به مَزِيَّة القرآن في الفصاحة .

سورة التكاثر

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [التكاثر:٣-٤] كيف يحسن هذا التكرار ؟

وجوابنا : أن المراد بهما مختلف، فالمراد بالأول : ﴿ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [التكاثر:٣] ما ينزل بكم في الدنيا في حال الحياة والممات، والمراد بالثاني : ﴿ ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [التكاثر:٤] ما يكون لكم في الآخرة من ثواب وعقاب، وهذا بعث من الله تعالى على التمسك بطاعته، وقوله تعالى من بعد : ﴿ كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ ﴾ [التكاثر:٥] المراد به التنبيه على تقصيرهم في المعرفة، وذلك خاص ببعضهم، وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ [التكاثر:٨] يدل على أن الواجب الشكر لله تعالى على نعمه وأن من لم يفعل يُسأل عن ذلك، وهذا يدل على قدرته على القيام بحق الشكر وإلا لم يكن يسأل عنه، بل كان يجب إن كان يخلق فيه كفر النعمة أن يكون سائلاً نفسه ومحاسباً لنفسه - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

سورة العصر

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ** ﴾ [العصر:٢] كيف يصح ذلك والله تعالى خلقه لينتفع ؟

وجوابنا : أن المراد المكلف دون غيره، فبين أنه لفي خسر إلا الذين آمنوا، ثم بيَّن صفتهم فقال تعالى : ﴿ **إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾ [العصر:٣] ولم يقتصر على ذلك حتى وصفهم بالنظر في أمر غيرهم، لأن المكلف كما يلزمه ما يخصه من إيمان وعبادة كذلك يلزمه ما يتعلق بغيره من أمر بمعروف ونهي عن منكر وتعليم للدين وصرف عن الباطل، فلذلك قال تعالى : ﴿ **وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ** ﴾ [العصر:٣] وهاتان الكلمتان قد دخل فيهما كل أمر يلزم المرء في غيره، وإن فسرناه طال القول فيه[1].

---

(١) حاشية وجدت بخط اليشكري من أصحاب أبي رشيد قاضي القضاة : الأمر الذي يلزم المرء في غيره ما هو ؟ قال : هو كثير، من جملته ما يدخل في قوله تعالى : ﴿ **وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ** ﴾ [العصر:٣] والدعاء إلى الدين والتوحيد والعدل والإنصاف في المعاملات والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإصلاح ذات البين، ويدخل في قوله : ﴿ **وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ** ﴾ [العصر:٣] وهو الصبر على الطاعات والصبر عن المعاصي والصبر على ما يلحق المرء من المحن والشدائد والمصائب من جهة الله تعالى ومن جهة عباده الظلمة بأن لا يجزع ولا يهلع ولا ينتصف من ظالمه بأكثر من حقه ولا يريده بأكثر مما حده الله فيه ولا يحمله الغضب والجزع على أن يتعدى فيه إلى حد ذم فإن من الناس من إذا لحقته محنة من ظالم يريد أن يلحق سائر الناس مثل ما لحقه، ولو تمكن منه ومن التشفي به لفعل، وربما سعى به إلى السلطان وكل هذا مما نهى الله عنه، والواجب على المؤمنين أن يوصى بعضهم بعضاً بذلك كما ندب الله إليه . وفقنا الله للعمل بما يرضيه ويزلفنا إليه والسلام اهـ .

سورة الهمزة

[مسألة] وربما قيل : هل يدخل في قوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ [الهمزة:١] غير الكافر أو لا يدخل فيه إلا الكفار ؟

وجوابنا : أن ذلك محتمل لأجل قوله تعالى : ﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾ [الهمزة:٣] وذلك مما لا يليق إلا بالكفار الذين لا يعتقدون في أموالهم أنها من قِبَل الله تعالى فلذلك رجحنا قول من صرف ذلك إلى الكفار .

سورة الفيل

[مسألة] وربما قيل فيه : كيف يصح في الطير الصغير أن يرسل الحجر فيؤثر في الناس التأثير الذي ذكره الله تعالى في هذه السورة ؟

وجوابنا : أن ذلك يصح من أحد وجهين، : إما بأن يزيد الله تعالى في قوة الطُيور فلزيادة قوتهم يؤثر ذلك الحجر التأثير العظيم، فقد روي أن ذلك الحجر كان ينفذ في الراكب وفي فرسه حتى يخرقهما جميعاً، والثاني : أن يكون الله تعالى عند رمي الطير يفعل فيه من الانحدار الشديد ما يؤثر هذا التأثير .

فإن قيل : كيف يصح ذلك ولم يكن في الزمان نبي وهذا من المعجزات العظام؟

وجوابنا أنه لا بد من نبي في الزمان يكون هذا الأمر معجزة له، وقد كان قبل نبينا أنبياءُ بُعِثوا إلى قوم مخصوصين، فلا يمتنع أن يكون هذا الأمر ظهر على بعضهم كما روى أنه ﷺ قال في خالد بن سنان : « **ذلك نبي ضيعه قومه** » وكما قال في قس بن ساعدة أنه « **يبعث يوم القيامة أمة واحدة** » لقلة من قبل عنه، فهذه طريقة الكلام في هذا الباب .

سورة قريش

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ** ﴾ [قريش:٣-٤] كيف يصح ذلك ومعلوم أن فيهم من لم يطعمه الله من جوع، كالذين يقطعون الطريق ويُفسدون في الأرض، وفيهم من لم يُؤَمِنه من خوف كالذين يخافون الفتن وغيرها في تلك البقعة وغيرها ؟

وجوابنا : أن قوله تعالى : ﴿ **فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ** ﴾ [قريش:٣] مخصوص لأنه راجعٌ إلى قوله تعالى : ﴿ **لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ** ﴾ [قريش:١-٢] فإنما ورد في هؤلاء التجار، وهؤلاء لا يمتنع أن يكون ما ذكره الله تعالى واقعاً فيهم فأطعمهم الله جميعهم من جوعٍ وآمنهم من خوف .

فإن قيل : فإن كان الله تعالى أطعمهم فيجب أن يكون هو الخالق للأكل فيهم كما يقوله أهل الإجبار ؟

فجوابنا : أنه من جهة العادة يقال : إن فلاناً أطعم القوم، إذا مكنهم من الأكل وأباح ذلك لهم، فلما كان تعالى أباح لهم التصرف في التجارات وغيرها ورزقهم من أرباحها ما يكون طعاماً لهم جاز أن يصف نفسه بأنه أطعمهم من الجوع وآمنهم من الخوف، ومعلوم أنه قد خص الله تعالى هذه البقعة من الأمن بما باينت به غيرها من البقاع، ولم يقل تعالى : وآمنهم من كل خوف، فورود بعض أسباب الخوف عليهم لا يخرجهم من أن يكونوا قد أمنوا من بعض آخر .

سورة الماعون

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ** ﴾ [الماعون:٤-٥] كيف يصح مع السهو؛ والسهو من قبل الله تعالى، والساهي معذور فيما سها عنه فكيف يكون له الويل ؟

وجوابنا : أن المراد بقوله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ** ﴾ [الماعون:٥] ليس هو السهو الذي يفعله تعالى فيهم، بل هو ما ينالهم من الغفلة لقلة توفرهم على الصلاة وقد أوجب الله تعالى على المكلف أن يتوفر بقلبه وبدنه ولسانه على الصلاة فإذا قصر في ذلك مع التمكن جاز أن يوصف بأنه سها عن صلاته، فهذا هو المراد ولذلك قال تعالى بعده : ﴿ **الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ** ﴾ [الماعون:٦-٧] والمرائي بما يفعله لا يجوز أن يكون ساهياً على الوجه الذي يكون معذوراً معه في تلك العبادة .

سورة الكوثر

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ** ﴾ [الكوثر:٢] ما وجه تعلق النحر بالصلاة حتى يعطف عليها ؟ وما وجه تعلق هذا الأمر بإنعام الله تعالى عليه بالكوثر ؟

وجوابنا : أنه قد رُوِيَ عن أمير المؤمنين أن المراد به وضع إحدى اليدين على الأخرى عند الصدر، ولذلك تعلق بالصلاة ؛ لأنه أحد ما سن فيها على ما رُوى عنه ﷺ أنه قال : « **ثلاث من سنن المرسلين** » أحدها : « **وضع اليمني على اليسرى في الصلاة** » وقد قيل : إن المراد بهذا النحر ما له تعلق بالصلاة يوم الأضحى وفي المناسك .

وقيل : إنه تعالى ذكر في العبادات ما هو الأشق من الصلاة وأتبعه بما هو الأشق في نفار الطبع .

سورة الكافرون

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ * لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ** ﴾ [الكافرون:١-٢] كيف يحسن ذلك في الحكمة مع التكرار الذي فيه ؟

وجوابنا : أنه لا تكرار في ذلك ؛ لأن قوله تعالى : ﴿ **لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ** ﴾ [الكافرون:٢] المراد به : في المستقبل، وقوله تعالى : ﴿ **وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ** ﴾ [الكافرون:٣] المراد به في الحال ﴿ **وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ** ﴾ [الكافرون:٤] المراد به في المستقبل وفي الحال، أي لا أعبد ما تقدمت عبادتكم له، ومن يعد ذلك تكراراً فمن قلة معرفته وتدبره ؛ لأنه ينظر إلى اللفظ ويعدل عن تأمل المعنى .

سورة النصر

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى:﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً ﴾ [النصر:١-٣] ما وجه تعلق الأمر بأن سبح بما تقدم ذكره، ومعلوم أنه مأمور بذلك في كل حال ؟

وجوابنا : أن المراد ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ [النصر:٣] لأجل هذه النعمة العظيمة وهي النصر والفتح وتوفر الناس على الدخول في الدين ؛ لأن كل ذلك من النعم الزائدة على محمد ﷺ ، وعند كل نعمة متجددة يجب الشكر المتجدد، فأمر الله تعالى بذلك وبالتوبة والإنابة لأنه ما من حال يجب فيها شكره وتنزيهه إلا ويجب معها التوبة، وقد قيل : إن السورة نزلت آخراً وقد نعى إلى رسول الله ﷺ نفسه، فنبه بهذا الكلام على ما ينبغي أن يتشدد فيه عند مفارقة الدنيا .

سورة المسد

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ** ﴾ [المسد:١] كيف يصح أن يعرّفه الله تعالى بأنه سيصلى النار وأنه لا يؤمن ومثل ذلك إذا عرفه المرء صار كالصَّارف عن الإيمان والإغراء بالكفر ؟

وجوابنا : أن في العلماء من قال : إن هذا الخبر مشروط كما شرط الله تعالى في الوعد الثبات على الطاعة واجتناب الكبائر، وشروط الله تعالى في الوعيد أن لا يتوب ولا يأتي بطاعة أعظم من معاصيه، وإذا كان مشروطاً فيجوز أن يؤمن فيخرج عن أن يكون خاسراً وأن يكون ممن يَصْلَى النار قطعاً، ومن العلماء من قال : يجوز أن يكون مقطوعاً به، وإعلامه بذلك لعلم الله تعالى فيه أنه لا يؤمن، ولا يمنع ذلك من حسن التكليف لأنه في أن لا يؤمن إنما يُؤْتَى من قبل نفسه، وعلى هذا اختلفوا أيضاً في تعريف الله له هل هو بأنه لا يؤمن أو بأنه يبقى إلى حين .

سورة الإخلاص

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **اللَّهُ الصَّمَدُ** ﴾ [الإخلاص:٢] أليس في الرواية أنه المصمت الذي لا جوف له وذلك يدل على ما تقوله المشبهة ؟

وجوابنا : أن المروى عن ابن عباس أن الصمد : السيد، والمروى عن الحسن وغيره أنه الذي يُصْمَد إليه في الحوائج ويفزع إليه في الطلبات، وكلاهما من أوصاف الله تعالى التي تمنع من أن يكون جسمًا، لأن السيد الذي لا يتقدمه غيره في السؤدد وغيره لا يجوز أن يكون جسماً، ولأن من يفزع في الأمور على كل حال لا يجوز أن يكون جسماً . وفي الخبر أن بعض أهل الكتاب قالوا للنبي ﷺ : انعت لنا ربك أمِن ذَهَبٍ أم فضة ؟ فأنزل الله تعالى هذه السورة، وبين لهم فيها فساد ما اعتقدوه ؛ لأن قوله تعالى : ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ** ﴾ [الإخلاص:١] يتضمن أنه الذي تَحِقُّ له العبادة، وذلك لا يصح إلا للقدرة على خلق من يستحق أن يعبده والإنعام عليه بالعقل وغيره، ثم قال في وصفه إنه أحد، ولا يكون واحداً لا عديل له إلا وهو قديم لا يشبه الأجسام ولا مثل له ولا نظير في الإلهية والقدم .

ثم قال تعالى : ﴿ **اللَّهُ الصَّمَدُ** ﴾ [الإخلاص:٢] فأعاد ذكر الإلهية عند وصفه بالفزع إليه في الأمور، ثم قال تعالى : ﴿ **لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ** ﴾ [الإخلاص:٣] فبيّن أن ذلك مستحيل عليه ولو كان جسماً لم يستحل عليه ذلك، ثم قال تعالى : ﴿ **وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ** ﴾ [الإخلاص:٤] ليعلم أنه لا نظير له ينازعه في الملك، وهذا إذا تأمله المرء عرف دخول كل أوصاف الله تعالى من الوحدة والعدل في جملته، لأن الإلهية تقتضي القدرة على الأجسام والفعل والحياة وغيرها، وتقتضي العلم بأن المكلف كيف يعبد وكيف يصل إلى الثواب، ويقتضي ذلك أنه حَيّ ؛ لأن القادر العالم يجب أن يكون حيًا؛ والحي إذا انتفت عنه الآفات يجب أن يكون سميعاً بصيراً مدركاً للمدركات، ولا بد من أن يكون موجوداً ليصح أن يكون قديماً موصوفاً بهذه الأوصاف، والإلهية تفيد الحكمة، والحكمة تقتضي أن لا يفعل القبيح، فليس لأحد أن يقول : كيف يصح في هذه السورة أن تكون جواباً لقولهم الذي قالوا ؟

سورة الفلق

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾[الفلق: ٢] إن ذلك يدل على أن الشر من قبله كما أن الخير من قبله ؟

وجوابنا : أنه لو كان كما قالوا لوجب أن يكون شِرِّيراً لكثرة الشر الذي يقع منه وأن يوصف بأنه من الأشرار، فالمراد : من شر خلقه، فالشر يضاف إلى خلقه لا إليه ـ تعالى الله عن ذلك .

وفي جملة ما خلق ما يكون الشر منه كالحيّات والعقارب وغيرهما، وعلى هذا الوجه أمر الله تعالى بأن يتعوذ من شرّ حاسد إذا حسد، ومعلوم أنه ليس يقع منه عند الحسد إلا ما يجري مجرى الحيل، ونبه تعالى بذلك على أن الواجب التحذر مما يضر في الدنيا بالقول كما ينبغي أن يتحرز بالفعل، وجعل ذلك كالسبب في التحرز من المعاصي، لأنه اذا شدّد في التحرز من هذه الأمور التي تقل مضارها كان التحرز من عقاب الآخرة أقرب .

سورة الناس

[مسألة] وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَٰهِ النَّاسِ * مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ** ﴾ [الناس:١-٤] أليس ذلك يدل على أن الشيطان يؤثر في الإنسان حتى أمرنا بأن نتعوذ من شرّه وأنتم تقولون : إنه لا على شيء من ذلك ؟

وجوابنا : أنه تعالى بيَّن أن هذا الوسواس من الجِنَّةِ والناس، ومعلوم أن من يوسوس من الناس لا يخبط ولا يحدث فيمن يوسوس له تغيير عقل وجسم، فكذلك حال الشيطان، ومع ذلك فلا بد في وسوستهم من أن يكون ضرر يصح أن يتعوذ بالله تعالى منه، وهذا يدل إذا تأمله المرء على قولنا بأن العبد مختار لفعله، وذلك لأنه تعالى لو كان يخلق كل هذه الأمور فيه لم يكن لهذا التعوذ معنى، لأنه إن أراد خلق ما يضره فيه وخلق المعاصي فيه فهذا التعوذ وجوده كعدمه، وإنما ينفع ذلك متى كان العبد مختاراً . فإذا أتى بهذا التعوذ كان أقرب إلى أن لا يناله من قبل الجنة والناس ما كان يناله لولا ذلك .

وقد ذكرنا في أول هذا الكتاب أن التالي للقرآن يجب أن يتأمل أسماءَ الله تعالى وأوصافه ويعرف معانيها على الجملة لينتفع بالدعاء والثناء، ونحن الآن نذكرها على اختصار، فإنا إن بسطنا القول فيها كان كتاباً مجرداً .

فاعلم أن في أم الكتاب خمسة أسماء منها قوله : الله ومعناه أن العبادة لا تحق إلاَّ لهُ من حيث أنعم علينا بما لا يصح إلا منه من الخلق والقدرة والآلة والعقل حتى صرنا ممن يصح أن يعبدوه ويقوم بشكره . ومنها الرب، ومعناه المالك لوجوه التصرف فيما هو ربه .

ومنها الرحمن، ومعناه المتناهي في الإنعام إلى الحد الذي لا يصح إلا منه .

ومنها الرحيم، ومعناه المكثر من عمل النعم .

ومنها، الملك والمالك، ومعناه القادر على التصرف في الأجساد إذا كانت معدومة وبالتقليب من حال إلى حال إذا كانت موجودة .

وعلى هذا الوجه قال تعالى : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [الفاتحة:٤] ويوم الدين هو يوم القيامة، وهو معدوم الآن .

فأما في سورة البقرة فأسماء كثيرة :

منها المحيط، وهذا الاسم حقيقة إنما يصح في الأجسام التي تحتوي على الشيء كاحتواء الظرف على ما فيه، ويقال ذلك في الله من حيث يعلم أحوال العباد من كل وجه، فيجب أن يريد الداعي بهذه اللفظة ما ذكرنا، وإنما قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة:١٩] ليكون رَدْعاً لهم عن الإقدام على المعاصي .

ومنها القدير، وذلك حقيقة في الله يفيد المبالغة في القدرة .

ومنها العليم، وهو للمبالغة في كونه عالماً، ومنها الحكيم، ويقال ذلك على وجهين، أحدهما بمعنى عالم، والآخر بمعنى أنه فاعل الحكمة وكل ذلك صحيح .

ومنها التوّاب، ومعناه المبالغة في قبول التوبة من العباد، وذلك كالمجاز الذي قد صار بالعرف كالحقيقة .

ومنها البصير، ومعناه أنه يدرك المبصرات إذا وُجِدَت .

ومنها الواسع، وذلك مجاز في الأصل ؛ لأنه يستعمل في نقيض الضيق، فهو حقيقة في الأجسام، فيراد به كثرة رحمته وَجُوده[1] وإنعامه وأفضاله .

ومنها البديع، والمراد بذلك المبالغة في اختراع الأمور من الأجسام وغيرها .

ومنها السميع، والمراد بذلك أنه يدرك المسموعات إذا وجدت .

ومنها الكافي، والمراد بذلك : أنه متفضل على العباد بمقادير كفايتهم إما بسبب أو بغير سبب .

---

(١) في الأصل المطبوع والنسخة المخطوطة وجودة، والصواب : وَجُوده . ا هـ . مصححه .

ومنها الرؤوف، وفائدته الإكثار من فعل الرأفة .

ومنها الشاكر، وذلك في الله مجاز وإن كثر فيه التعارف ؛ لأن الشاكر في الأصل هو المنعم عليه إذا اعترف بالنعمة، وذلك محال في الله تعالى، فالمراد به أنه مقابل على الشكر بالثواب كما يفعله الشاكر في مقابلة النعم أو يكون المراد أنه المجازى على الشكر، وقد يجري اسم الشيء على ما هو جزاء عليه .

ومنها الواحد، والمراد بذلك أنه لا ثاني له في قِدَمِه وأوصافه .

ومنها الغفور، والمراد بذلك أنه لا يفعل بالعصاة إذا تابوا وكانت معاصيهم صغيرة ما يظهر به حالهم، فهو مأخوذ من الستر كما يقال ذلك في المغفرة وغيرها وذلك وإن كان مجازاً في الأصل فقد صار في التعارف كالحقيقة .

ومنها الحليم، وفائدته أنه لا يتعجَّل العقوبة خشية الفوت كما يفعله أحدنا .

ومنها القائم، والمراد بذلك الدائم الذي لا يجوز عليه الفناء، وهو مخالف لقولنا قائم بمعنى مضاد قاعد .

ومنها الباسط، والمراد بذلك بسطه النعم والأرزاق لخلقه، وذلك أيضاً من حيث التعارف كالحقيقة .

ومنها الحي، والمراد بذلك أنه مباين لما لا يصح أن يكون قادراً عالماً .

ومنها القيّوم، وهو مبالغة في دوام الوجود .

ومنها العلّي، والمراد بذلك الرفيع في قدرته وسلطانه .

ومنها العظيم، والمراد بذلك عظم شأنه في قدرته وعلمه .

ومنها الوالي، والمراد بذلك : توليه لمن يطيعه .

ومنها الغنيّ، والمراد بذلك : نفي وجوه الحاجات عنه مع كونه حيّاً .

ومنها الحميد، وهو مبالغة فيما يلزم من الشكر والحمد له ومبالغة في إكرامه لمن أطاعه من عباده .

وفي آل عمران : أسماء منها : القائم، وقد مضى معناه .

ومنها الوهاب، وفائدته المبالغة في الإنعام الذي هو تفضل من الله .

ومنها السَّريع، وذلك كالمجاز في الأصل، والمراد به نفي التأخير عن تفضّله بالأرزاق وغيرها .

ومنها المجير .

وفي النساء أسماء : منها المقيت، ومعناه القيّم بالأمور .

ومنها الوكيل ولا يقال ذلك في الله مطلقاً، بل يقال : هو وكيل علينا .

ومنها الحسيب، وهو المبالغة في معرفة أحوال الخلق .

ومنها الشهيد، وهو مبالغة في العلم بأحوال المكلفين .

ومنها العفو، ومعناه معنى الغفور .

ومنها الرقيب، ومعناه المعرفة بأحوال الخلق .

وفي الأنعام أسماء : منها الفاطر، ومعناه المخترع للأشياء .

ومنها الظاهر، والمراد به القاهر الذي لا يجوز المنع عليه .

ومنها القادر، والمراد به صحّة الأفعال .

ومنها اللطيف، والمراد بذلك المبالغة في اللطف والإحسان الواقِعَيْن منه .

ومنها الخبير، ومعناه أنه عالم بالأمور لا يخفى عليه منها خافية .

وفي سورة الأعراف : المُحْيي، ومعناه : فاعل الحياة فينا .

ومنها المُميت، ومعناه : فاعل الإماتة، وكِلاهمُا نعمة ؛ لأن الموت وإن قطع عن نعمة الدنيا فله حظّ عظيم في التوصّل به ومعه إلى نعمة الآخرة .

وفي الأنفال : المولى والنصير، ومعنى الأول : الناصر لنا في أمر الدين والدنيا إذا لم يكن ذلك من باب الفساد، والنصير يفيد المبالغة في النصرة .

وفي سورة هود : الحفيظ، وهو مبالغة في الآفات عنا، وعلى هذا الوجه نسأل الله أن يحفظنا في السفر والحضر .

والقريب، والمراد به العالم بأحوال العباد، وهو في الأصل تشبيه لمن يقرب فيعرف بقربه حال غيره ثم صار كالمتعارف .

والمجيب، وفائدته أنه يجيب أدعية عباده وينيلهم ما يطلبون من قبله بشرط الصّلاح .

والقويّ، والمراد به : أنه قادر .

والمجيد، والمراد به : أنه كريم عزيز، وعلى هذا الوجه وصف تعالى القرآن بأنه مجيد .

والودود، والمراد به : المبالغة في محبة من أطاعه وإرادة الإحسان اليهم .

والفعَّال، وهو مبالغة في الإكثار من الفعل لكنه يقل دخوله في الأسماء التي تجري مجرى الثناء إلا أنه يقبل.

وفي سورة الرعد : الكبير المتعال، والمراد بالأول : أنه عظيم الشأن في قدرته وعلمه، والمراد بالثاني : أنه منزَّه عما لا يليق به .

وفي الحجر : الخلاق، والمراد به : المبالغة في الإكثار من الخلق .

وفي مريم : الصادق، والمراد به : إثبات إخباره صِدقاً .

والوارث، والمراد بذلك عود النعم التي ملكها العباد إلى أن تكون ملكاً لله .

وفي الحج : الباعث، والمراد به بعثته للرسل وإلى الرسل، وبعثته بعد الإماتة ليوم الحشر .

وفي سورة المؤمنون : الكريم، والمراد به أنه عزيز، أو المراد به الإكثار من فعل الكرم .

وفي سورة النور : الحق، وهو في الأصل مجاز ؛ لأنه حقيقة فيما يضاد الباطل من الاعتقادات والمذاهب وغيرها فإنما يوصف تعالى بذلك على وجه المجاز ويراد به أن الحق من قبله وأنه لا باطل في أفعاله، أو يراد به أنه مما لا يجوز أن يفنى فيجب أن يبقى .

وفي هذه السورة : المبين، والمراد به الفاعل لما به يتبين الخلق أحوال الأشياء وأحكامها .

ومنها النور، وذلك مجاز، ولا يجوز أن يستعمل في الله تعالى على حقيقته لقوله : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ ﴾ [النور:٣٥] فإن معناه : منوّرها بما خلقه من شمس وقمر أو يكون المراد به أنه بالادلة قد صيّر ما دل عليه منكشفاً كما ينكشف الشيء بالنور .

وفي الفرقان : الهادي، والمراد بذلك أنه فعل هداية الخلق ليفصلوا بين الحق والباطل .

وفي سبأ : الفتَّاح، والمراد به أنه يفتح لخلقه طريق الخير والمعرفة ويفتح عليهم بالنّصرة ما طلبوا منه .

وفي المؤمن : الغفار، ومعناه ما تقدم في غفور .

وفيه القابل، ومعناه قبوله للطاعات والتوبة ومجازاته عليهما .

وفيه الشديد، وذلك مجاز لأن أصله الصلابة في الأجسام، فقيل في الله تعالى لشدّة عقابه على وجه الردع .

وفي الذاريات : الرزّاق، وفائدته المبالغة في فعل الرزق .

وفيه ذو القوة، ومعنى ذلك أنه قادر قوي .

وفيه المتين، وذلك مجاز لأن المتانة إنما تصحّ في الأجسام الشّديدة فلا يجوز إطلاق ذلك على حقيقته .

وفي الطور : البرّ، والمراد بذلك : الإكثار من فعل البر والإنعام على خلقه .

وفي اقتربت : المليك، ومعناه مَلِك ومالك على ما قدمناه .

وفيه المقتدر ومعناه المبالغة في قدرته على الأشياء .

وفي سورة الرحمن : الباقي، والمراد : أنه لا يجوز عليه تجدد الوجود والحدوث أبداً لم يزل ولا يزال .

وفيها : ذو الجلال، ومعناه معنى قولنا : عظيم وكبير وجليل .

وفيها : ذُو الإكرام، ومعناه أنه فاعل لذلك وأنه يليق به ما تأتيه من المدح والثناء عليه .

وفي الحديد : الأول، والمراد به الموجود قبل كل موجود .

والآخر، والمراد به الموجود بعد الموجودات كلها .

والباطن، والمراد له أنه عالم بالسرّ والظاهر، وقد مضى معناه في سورة الأنعام .

وفي الحشر : القدوس، وفائدته المبالغة في تنزيهه عما لا يليق به .

والسّلام، والمراد به : أن السَّلامة من قبله، وهو مجاز في الأصل .

والمؤمن، والمراد به : أنه أمَّن غيره من الخوف وغيره .

وفيه : المهيمن، ويقرب معناه مما ذكرنا .

وفيه العزيز، والمراد به أنه لا يُضام ولا يُمنع من مراده .

وفيه : الجبار، والمراد به أنه يقهر غيره ولا يصح أن يقهره .

وفيه : المتكبر والمراد به المبالغة في صفات المدح وذلك كالذم فينا لأنا إذا تكبرّنا صوّرنا أنفسنا بحالة أرفع مما نحن عليه ولا حال يليق بالله تعالى ولا حال أرفع منه .

وفيه : الخالق، والمراد به : إيجاده للمخلوقات .

وفيه : البارئ، ومعناه ابتداعه لما خلق .

وفيه : المصور، والمراد به : فعله لهذه الصور العجيبة .

وفي البروج : المبدئ المعيد . والمراد بالأول : أنه تعالى المبتدئ بالخلق . والمراد بالثاني : أنه بعد الفناء يعيدهم .

وفي الإخلاص : الأحد، ومعناه ما قد ذكرنا .

والصَّمد، وقد ذكرنا معناه، قال : وهذه الأسماء وغيرها مما يذكر في الدّعاء وفي مقدمات ما يطلب من قبل الله تعالى ليكون الدعاء أقرب إلى الإجابة .

ولو قال قائل : يا ألله يا رحمن اغفر ذنوبنا لحسن ذلك، ولو قال : يا موجود يا شيء لقبح ذلك . وإنما يحسن أيضاً من المرء أن يطلب من الله ما يحسن أن يفعله دون ما يكون فساداً، فالداعي يجب أن ينوي ذلك ويقصده أو يظهر ذلك بكلام، فلو قال الدّاعي : اللهَّمَّ ارزقني أولاداً وفي المعلوم أنه إن رُزق يرهقونه طغياناً وكفراً لم يحسن ذلك، فيجب أن ينوي إن لم يكن فساداً في دينه، وكذلك نقول في سائر ما نطلبه من الله تعالى، وعلى هذا الوجه لا يحسن منا أن نقول : اللهم اغفر للكفّار والفُسَّاق، ويحسن ذلك في المؤمنين، وعلى هذا الوجه قال تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّه تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ [التوبة:١١٤] في قوله : ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيه إِلاَّ عَن مَّوْعِدَة وَعَدَهَا إِيَّاهُ ﴾ [التوبة:١١٤] وعلى هذا الوجه أيضاً قال تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ [التوبة:٨٠] وكذلك القول فيما يتصرف فيه ؛ لأن التاجر يجب أن يطلب الربح في

تجارته بشرط أن لا يكون فساداً، وكذلك الحرّاث والمحترف، فالفعل في ذلك إذا كان يطلب بدعاء شرط أن لا يكون المطلوب فيه فسادًا في الدين، وينبغي للمؤمن أن يتفكر في ذات الخالق تعالى لئلا يؤدي به إلى الكفر .

قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً ﴾ [آل عمران:١٩١] مدحهم تعالى على تفكّرهم فبيَّن أنه ينبغي أن ينظروا ليعلموا أنه تعالى ما خلق ذلك باطلاً ليصحّ منهم هذا القول وليصح منهم أن يقولوا : ﴿ سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [آل عمران:١٩١] لأن ذلك تنزيه به عمّا لا يليق به، فيجب أن تتقدم المعرفة في ذلك . وإنما عُظِّمَ شأن القرآن لا لأنه يُتلى ويُحفظ، فربَّ صبيٍّ لم يبلغ حَدّ كمال العقل يُسابق الكبار من العقلاءِ في حفظه وإنما عظّم ذلك من حيث إذا تدّبره المرء وتمسك بآدابه وأحكامه عظم نفعه ديناً ودنيا .

وقد ذكرنا هذا في الكتاب ـ والحمد لله على نعمه ـ ما يُنَبِّه مَنْ نظر فيه على عظم شأن القرآن من أدلة على معرفته وعلى معرفة عدله، ومن ضروب من التنبيه على ما أودعه من وعظ وتذكير وإنذار وتبشير ووعد ووعيد . وذكرنا أيضاً على وجه الاختصار ما يعرف به عظيم الغلط ممن طعن في القرآن بذكر الشبه دون قصد الاستعلام على ما ظن أنه بخلاف الحكم الشرعي .

أما ذكر الشبه للاستعلام أو لبيان أجوبتها فلا يُعَدُّ من الطعن في القرآن؛ قال تعالى : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل:٤٣] .

والحمد لله الذي أعانني على إتمام هذا الكتاب وخدمة القرآن الكريم .

فهرس